
محمد حسين هيكل
الصديق
أبو بكر
دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية



لو كنتُ متخذًا من العباد خليلًا
لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا .

حديث

محمد حسين هيكل

الطبعة الثامنة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

سجل المراجع

المراجع العربية

الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .
جامع البيان في تفسير القرآن : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
تاريخ الرسل والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
تاريخ اليعقوبي : لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي .
سيرة سيدنا محمد رسول الله : لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام .
الطبقات الكبير : لمحمد بن سعد كاتب الواقدي .
تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .
الكامل في التاريخ : لعز الدين أبي الحسين علي محمد بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير .
وفيات الأعيان : لابن خلكان ، شمس الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن علي بن أبي بكر الشافعي .
فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري .
فتوح الشام : لمحمد بن عمر الواقدي .
فتوح الشام : لأبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري .
الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية : للسيد أحمد بن السيد زيني دحلان .
الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني : علي بن الحسين القرشي الأموي .
الإمامة والسياسة
عيون الأخبار } لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .
المعارف
الإعلام بأعلام بيت الله الحرام : لقطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي المعروف بالنهرواني .
مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي .
الإتقان في علوم القرآن : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .
كتاب المصاحف : لأبي داود الحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني .
تاريخ القرآن : لأبي عبد الله الزنجاني .
أشهر مشاهير الإسلام : للسيد رفيق العظم .
بيت الصديق : للسيد محمد توفيق البكري .
فجر الإسلام : للأستاذ أحمد أمين .
خلفاء محمد : للأستاذ عمر أبي النصر .
عمرو بن العاص : للأستاذ حسن إبراهيم حسن .
دائرة المعارف الإسلامية
دائرة معارف القرن العشرين : للأستاذ محمد فريد وجدي .

المراجع الأجنبية

Annals of the Early Caliphate	*By Sir William Muir*
Successors of Mahomet	*By Washington Irving*
The Early Caliphate	*By Maulana Mohammed Ali*
Mohammedanism	*By C. Snouk Hurgronje*
History of the Arabians	*By Abbé de Marigny*
The Arab Conquest of Egypt	*By Alfred J. Butler*
The Early Development of Mohammedanism	*By D.S. 'Margoliouth*
Essai sur l'Histoire des Arabes	*Par Caussin de Perceval*
Le Monde Musluman et Bysantin	*Par Gaudfroy-Demombynes*
Historians History of the World.	
Encyclopedia Britannica.	
Dictionnaire Larousse.	

تقديم

يؤرخ العالم الإسلامي كله بهجرة النبي العربي من مكة إلى المدينة . والسر فى اختيار هذا الحادث العظيم مبدأ للتاريخ الإسلامي أنه مبدأ نصر الله رسوله على الذين حاربوا دعوته فى البلد الحرام ثم مكروا به ليقتلوه . وكان الصدّيق أبو بكر هو وحده صاحب رسول الله فى هذه الهجرة . ولما مرض رسول الله مرضه الأخير ، فلم يقو على الصلاة بالمسلمين ، أمر أبا بكر أن يقوم فى الصلاة بهم مقامه ، ولم يرض أن يقوم عمر بن الخطاب هذا المقام .

اختيار النبي الصديق فى الهجرة والصلاة بالمسلمين

وإنما اختار النبي أبا بكر ليصحبه فى الهجرة ، وليصلي بالمسلمين مكانه ، لأن أبا بكر كان أول المسلمين إيمانًا بالله ورسوله ، وأكثرهم فى سبيل إيمانه تضحية ، ولأنه حرص منذ أسلم على معاونة النبي فى الدعوة لدين الله وفى الدفاع عن المسلمين ، ولأنه كان يؤثر النبي على نفسه ، ويقف إلى جانبه فى كل موقف ؛ ثم إنه كان ، إلى قوة إيمانه ، من أدنى الناس إلى كمال الخلق ، ومن أحب الناس إلى الناس وأكثرهم إلفًا لهم ومودّة .

لا عجب ، وذلك بعض شأنه ، أن يبايعه المسلمون خليفة لرسول الله . ولا عجب ، وتلك مواقفه ، أن ينصر الإسلام وينشر ظل الله فى الأرض ، فيكون التأريخ له مبدأ التأريخ للإمبراطورية الإسلامية التى امتدت من بعد فى الشرق وفى الغرب ، إلى الهند والصين فى آسيا ، وإلى مراكش والأندلس فى أفريقية وأوربا ، والتى وجّهت الحضارة الإنسانية وجهة لا يزال العالم متأثرًا بها إلى اليوم .

ما أغرانى بالتفكير فى دراسة الإمبراطورية

ولقد جال بخاطرى ، مذ فرغت من كتابىّ « حياة محمد » و « فى منزل الوحى » ، أن أقوم بدراسات فى تاريخ هذه الإمبراطورية الإسلامية ، وفى أسباب عظمتها وانحلالها . وإنما أغرانى بالتفكير فى هذا الأمر أن الإمبراطورية الإسلامية كانت أثرًا لتعاليم النبي العربي وسنته . أما وقد درست حياته صلى الله

عليه وسلم ، ورأيت نتائج هذه الدراسة جديرة بأن تهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة التى تنشدها ، فإن فى دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها ما يزيدنا قدراً للتأسى بالرسول وتعاليمه ، وما ييسر لنا حظاً جديداً من العلم بهذه الحياة الباهرة الجلال يزيد العلماء اقتناعاً بما دعوت إليه من إمعان البحث فيما تنطوى عليه من حقائق نفسية ، وأخرى روحية ، ما يزال العلم يقف بوسائله حائراً دونها ، لا يستطيع أن يثبتها بأدلته ، ولا يستطيع مع ذلك أن ينفيها ، وهى من بعد قِوامَ سعادة الإنسان فى الحياة ومقوِّم سلوكه فيها .

وأغرانى بهذا التفكير كذلك ما أعتقده من أن معرفة الماضى هى وحدها التى تطوّع لنا تصوير المستقبل وتوجيه جهودنا أثناءه إلى الغاية الجديرة بالإنسانية . فالماضى والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها . ومعرفة الماضى هى وسيلتنا لتشخيص الحاضر ، ولتنظيم المستقبل ؛ كما أن معرفة الطبيب ماضىَ مريضه خير وسائل التشخيص والعلاج .

والحاضر الذى تمخضت عنه الإمبراطورية الإسلامية يتناول بنوع خاص كل الشعوب التى تتكلم العربية ، وتؤمن لذلك بأنها تمُتّ لأهل شبه الجزيرة بصلة ونسب . ومصر مركز الدائرة من هذه الشعوب : تمتد حولها فلسطين وسوريا والعراق إلى الشرق ، وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش إلى الغرب . ويتناول هذا الحاضر بنوع عام جميع الشعوب التى تدين بالإسلام فى آسيا وأفريقيا وأوربا . لا جرم وماضى الإمبراطورية الإسلامية يربط على الزمان هذه الأمم والشعوب كافة أن تكون دراسته موضع عنايتها جميعاً ، وأن يرى كل منها صورته إلى أربعمائة وألف سنة خلت ماثلة فى هذه الدراسة ، وأن يتعرف من طريقها الأسباب التى أدت إلى ما أصاب هذه الصورة من شَوْه أو فساد ، وأن يلتمس الوسيلة من طريق هذا التعرف لرد الصورة إلى جلالها الأول وبهائها المضىء .

وإنى لأفكر فى هذه الأمور وفيما يتصل بها إذ رغب إلىّ جماعة ممن أبدوا الرضا عن « حياة محمد » أن أتناول حياة خلفائه الأولين بالبحث ، وأن أفرد لطائفة من أبطال المسلمين فى العهد الأول تراجم مستفيضة ، أسجل فى كل

واحدة منها سيرة واحد من هؤلاء الأبطال . ولئن أرضى مطلب هؤلاء الأصحاب نفسى وتملق رضاى عنها لقد أشفقت عليها مما طلبوا ؛ فهو أمر يقصر دون إتمامه الجهد ، وتنوء بإحسانه جماعة متضافرة .

ما جعلنى أبدأ بسيرة الصديق

وكانت الترجمة لعمر بن الخطاب ، مما أكثر الحديث فيه قوم رأوا سيرة الفاروق غرة فى جبين التاريخ الإسلامى. قلت عند ذلك فى نفسى : ومالى لا أبدأ بسيرة الصدّيق فأدرُسها وأعرضها على النحو الذى عرضت به « حياة محمد » ! لقد كان أبو بكر صفىّ محمد وخليله ، وكان أكثر أصحابه اتصالاً به ، وكان لذلك أكثرهم تتبعاً لتعاليمه وامتثالاً إياها . وهو بعدُ رجل رقيق الخُلق ، رضىّ النفس ، وإليه ينتسب عشرات الألوف ومئاتها من المسلمين المنتشرين فى أنحاء الأرض . ثم إنه ، إلى رفقه ورقته ، هو الخليفة الأول ، وهو الذى أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب أن يقوّضوا ركنه أو يثلموا متنه ، كما أنه هو الذى مهّد للفتح وللإمبراطورية . فلعلّى ، إذا وفقت لتدوين سيرته على النحو الذى أرجو ، أكون قد عبّدت الطريق لكتابة تاريخ هذه الإمبراطورية كله أو بعضه ، فأبلغ بذلك ما يريد الله أن أبلغه من هذا الغرض العظيم ، وأمهد السبيل لمن شاء أن يتمه أو يأخذ فيه من جديد على نحو أدنى إلى الكمال .

عظمته

ولو أنى قرّ بى الجهد عند سيرة أبى بكر لكفانى ذلك ولاغتبطت به . وحسبك أن تتلو ما حدث فى عهد الخليفة الأول لتسكن إليه وتستقر عنده . إن فيما رواه المؤرخون من وقائع هذا العهد لما ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ، بل الإعجاب ، بل الإكبار والإجلال ، وأخشى أن أقول إنها تدعو إلى التقديس . أنت لا ترى هذه المعانى مصوَّرة فى أىٍّ من الكتب الأولى ؛ لكن روايتها للحوادث تبرْزها وإن لم تنطق بها ، وتجلوها بينة واضحة وإن لم تذكرها ولم تحدّث عنها .

— فهذا الرجل الوديع السمح الأسيف السريع إلى التأثر وإلى مشاركة البائس فى بؤسه ، والضعيف فى ضعفه ؛ تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الإحجام ، وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال ، وفى إبراز ملكاتهم

ومواهبهم . وفى دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة .

أين كانت هذه العبقرية التى انطوت عليها نفس أبى بكر أثناء حياة الرسول ؟

عدت بالداكرة إلى سيرة أبى بكر قبل خلافته ، واستحضرت مواقفه من رسول الله ، فبدت لى فى ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة من عظمة تواضعت إلى جانب عظمة الرسول وجلاله ؛ لكنها برزت أمامى بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها إلى سائر أصحاب رسول الله ومن اتبعه من المسلمين. فأين مواقفهم ، على جلالها وعظمتها ، من مواقفه أول الرسالة ، وحين كانت قريش تنال رسول الله بالإساءة والأذى ، وحين كان حديث الإسراء . وأول الهجرة ، وفى مكافحة دسائس اليهود بيثرب ؟ ! ! إن كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بأن يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه فى كتاب الخلود . وعظمة أبى بكر مع ذلك هى العظمة الصامتة التى تأبى أن تتحدث عن نفسها ؛ لأنها عظمة الروح وعظمة الإيمان الحق بالله وبما أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

حسن رأيه وبعد نظره

ثم ماذا ! ! ثم إن رواية الحوادث فى عهد أبى بكر تشهد له بحسن الرأى وبعد النظر . فهو حين يفكر فى غزو الفرس وفى غزو الروم لأول ما اطمأن إلى موقف المسلمين من حروب الردة فى بلاد العرب ، قد رأى فى مبدأ المساواة الذى جاء الإسلام به قوة جديدة لا تستطيع فارس ولا تستطيع بزنطية أن تواجهها . فهذا المبدأ جدير بأن تهوى إليه نفوس الناس جميعاً فى هاتين الإمبراطوريتين اللتين قامتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس . ليكن لكل من الإمبراطوريتين ما تشاء من عدد وعُدة ؛ فإن فكرة المساواة والعدل أقوى من كل قوة . والحكم القائم على أساس هذه الفكرة جدير بأن يكسب الناس إليه ما كان الإنصاف أساسه . لذلك لم يصد أبا بكر عن غزو العراق وغزو الشام ما كان من اختلاف طائفة من كبار الصحابة معه فى الرأى ، بل أمر بهذا الغزو مطمئناً إلى أن الله معينه وناصره . ولذلك نصح

إلى من بعثهم على رأس هذا الغزو أن يتمسكوا بالمساواة وبالإنصاف والعدل لا يحيلون عنها قيد أنملة .

تتجلى هذه المعانى واضحة كل الوضوح من خلال الحوادث التى رواها المؤرخون الأولون عن هذا العهد القصير العظيم الذى تولى الصدّيق فيه أمر المسلمين ، ويزيد ما كتبه المستشرقون بعض هذه المعانى وضوحاً بما أوردته كتبهم من ملاحظات ، وما حاولت أن تفسر به بعض الحوادث .

وهذه المعانى هى التى تجعل هذا العهد القصير خليقاً أن يفرد له سفر مستقل يصور ذاتيته الخاصة وتكوينه التام .

ما يتميز به عهده

وأنا أقصد ما أقول حين أذكر أن عهد الصدّيق له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام فهو ، على اتصاله بعهد الرسول قبله وبعهد عمر بعده ، يمتاز بطابع يشخّصه . فعهد الرسول كان عهد وحى من عند الله ، أكمل الله به للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضى لهم الإسلام ديناً . وعهد عمر كان عهد تنظيم للحكم الذى استقرت قواعده ، وللإمبراطورية التى تفتحت أبوابها . أما عهد أبى بكر فكان فترة الانتقال العصيبة الدقيقة التى تربط بين هذين العهدين ، وتتميز مع ذلك عن كل منهما ، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس فى تاريخ الحكم واستقراره ، وفى تاريخ الأديان وانتشارها .

تغلبه على ما صادفه من صعاب

فى هذه الفترة الدقيقة صادفت أبا بكر صعابٌ بلغت من الشدة أن أثارت مخاوف المسلمين جميعاً فى أول عهده . فلما تغلب بفضل إيمانه عليها ، وأمده الله بالتوفيق والنصر فيما تلاها ، تولى عمر بن الخطاب سياسة المسلمين ، فدبر أمورهم ، وأقام بينهم عدلا وطّد قواعد ملكهم ، وجعل دول العالم تدين طائعة لسلطانهم .

أثارت الصعاب التى صادفت أبا بكر مخاوف المسلمين . ذلك لأن الوحدة العربية التى تمّت فى عهد الرسول لم تلبث أن اضطربت حين وفاته . بل لقد بدأت نُذر هذا الاضطراب قبل أن يختار الله رسوله إليه . تنبأ مسيلمة بن حبيب باليمامة وبعث رسله إلى النبى بالمدينة يقولون له إن مسيلمة نبى مثله ، « وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » .

وتنبأ الأسود العنسي باليمن وادعى السحر ، وجعل يدعو الناس إليه خفية ، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرد عمال محمد ، وتقدم إلى نجران ونشر فى تلك الأصقاع سلطانه ؛ وبعث محمد إلى عماله باليمن كى يحيطوا بالأسود أو يقتلوه . هذا إلى أن العرب الذين آمنوا بالتوحيد ونبذوا عبادة الأوثان لم يدر بخاطر أحدهم أن تعقب وحدتهم الدينية وحدة سياسية ؛ بل إن كثيراً منهم راجعهم الحنين إلى عقائدهم الأولى ، فلم يلبثوا حين علموا بوفاة رسول الله أن ارتدوا عن دين الله ، وأن أعلن أكثر القبائل عدم الإذعان لسلطان المدينة ، وعدّوا الزكاة إتاوة مفروضة فامتنعوا من أدائها .

الثورة فى بلاد العرب وحروب الردة

استطارت هذه الثورة عقب وفاة الرسول فى بلاد العرب جميعاً بسرعة مروّعة كما تستطير النار فى الهشيم . وبلغت أنباؤها أهل المدينة ممن حول أبى بكر بعد أن بايعوه ، فتولاهم الدهش واختلفوا ما يصنعون . وكان رأى قوم ، بينهم عمر بن الخطاب ، ألا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ما داموا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ولعلهم أرادوا بذلك ألا يزيدوا عدد عدوهم فيتغلب عليهم ، ولم يعدهم الله ما وعد رسوله من النصر ، وليس ينزل الوحى على أحد منهم بعد أن اختار الله إليه خاتم الأنبياء والمرسلين . لكن أبا بكر أصر على قتال من منعوا الزكاة كما أصر على قتال من ارتدوا ، فكانت حروب الرّدة التى استطالت عاماً وبعض عام .

ولم تكن حروب الردة غزوات اشتبك فيها بضع مئين من جيش الخليفة وبضع مئين من خصومه ، بل كانت بعضها طاحنة اشترك فيها عشرات الألوف من كل جانب ، وقتل فيها المئات بل الألوف من هؤلاء ومن أولئك ، ثم كان لها فى تاريخ الإسلام أثر حاسم . ولو أن أبا بكر نزل على رأى من لم يريدوا هذه الحروب لساد الاضطراب بلاد العرب ، ولما قامت الإمبراطورية الإسلامية . ولو أن جيوش أبى بكر لم تنتصر فى هذه الحروب لكانت العاقبة أدهى وأمرّ ، ولتغير فى الحالين مجرى التاريخ فى العالم كله . لذلك لا يكون غالياً من يقول إن أبا بكر ، بموقفه من ردّة العرب ، وبانتصاره فيها ، قد وجه تاريخ العالم ، وكان يدَ الله فى بعث الحضارة الإنسانية خلقاً جديداً .

آثار انتصاره فى حروب الردة

فلولا انتصار أبى بكر فى حروب الردة لما بدأ غزو العراق وغزو الشام ، ولما سارت جيوش المسلمين مظفَّرة تفتح الإمبراطوريتين الرومية والفارسية لتقيم الإمبراطورية الإسلامية على أنقاضهما ، ولتُحِلَّ الحضارة الإسلامية محل حضارتيهما . ولولا حروب الردة ، واستشهاد من استشهد من الصحابة لإحراز النصر فيها ، لخيف ألا يسارع عمر فيشير على أبى بكر بجمع القرآن . وهذا الجمع هو الذى أدى إلى توحيد القراءة بلغة مُضَر فى عهد عثمان ، فظل كتاب الله الكريم أساساً ثابتاً لكلمة الحق ، ودعامة متينة للحضارة الإسلامية . ولولا نصر الله المسلمين فى حروب الرِّدة لخيف ألا يقر أبو بكر نظام الحكم فى المدينة ليقيمه عمر من بعده على أساس من الشورى ، سَداه العدل والرحمة ، ولُحمته البر والتقوى .

هذه أحداث جليلة تمت فى فترة قصيرة لم تعدُ سبعة وعشرين شهراً . ولعل قصر هذه الفترة هو الذى دعا بعضهم إلى أن يتخطاها إلى عهد عمر ، ظناً منهم أن أشهراً معدودات لا تتسع لعظائم تغير وجه العالم. ولو أن هؤلاء ذكروا أن الثورات التى نقلت الإنسانية أطواراً تمَّت كلها فى مثل هذه الفترة ، وأن العالم جعل يمتثل مبادئ هذه الثورات بعد ذلك شيئاً فشيئاً ويفيد منها لرقىّ الإنسانية فى توجهها إلى الكمال ، لما سارعوا إلى الانتقال من عهد الثورة الروحية التى أعلنها رسول الله فى العالم كله إلى الإمبراطورية المترامية الأطراف التى دانت لهذه الثورة ، دون أن يقفوا ملياً عند هذه الفترة التى حاول العرب فيها أن يقوموا برد الفعل فى وجه ما جاء محمد به ، شأنهم فى ذلك شأن الناس فى كل زمان ومكان ، إذ يحاربون المبادئ الجديدة ، يحاولون إطفاء نورها . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

اتصال عظمته فى الخلافة بعظمته فى الصحبة

كيف استطاع أبو بكر أن يواجه الصعاب التى استفتحت عهده ، وأن يثبت لها ويتغلب عليها ، وأن يبدأ التمهيد للفتح وللإمبراطورية وهذه الصعاب قائمة ؟ لقد كان لصفاته الذاتية أثر كبير فى ذلك لا ريب . لكن هذه الصفات وحدها ما كانت لتبلغ به ما بلغ لولا صحبته الرسول عشرين سنة كاملة . ولذا يُجمع المؤرخون على أن عظمة الصدّيق فى خلافته تتصل بعظمته فى صحبة

الرسول أوثق اتصال . فهو قد أُشرب أثناء هذه الصحبة روح الدين الذى جاء به محمد ، وأدرك مقاصده وأغراضه كاملة إدراك إلهام لا يتطرق إليه الخطأ ولا الريب. ومما أشربه وأدركه بإلهامه أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده . هذه حقيقة روحية أدركها كثيرون فى عصور شتى ، لكنهم أدركوها بعقولهم . أما أبو بكر فأدركها بقلبه ، ورآها بعينه ماثلة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عمله .

أثر التأسى فيه وما استلهمه

وهذا الإيمان الصادق بالحق هو الذى دفعه ليخالف أصحابه فى أمر المرتدّين ، ويُصرّ على قتالهم وإن خرج إليهم وحده . وما له لا يفعل وقد رأى النبي يقف وحيداً يدعو إلى الله بمكة فيخالفه أهل مكة جميعاً ، ثم يغرونه بالمال والملك وعظمة الجاه ، ثم يحاربونه يبتغون بذلك أن يصدوه عن الحق الذى يدعو إليه . فلا يفتُر عن أن يقول : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ! » .

وماله لا يفعل وقد رأى النبي فى أعقاب أُحُد ، وبعد أن انتصرت قريش على جيوش المسلمين فيها ، يرتدّ لغده فيمن بقى من المسلمين ممن شهد أُحداً ، ويتعقب قريشاً ، وينزل حمراء الأسد ويقيم بها ثلاثة أيام ، يوقد النار طول ليله ، حتى تزعزعت همة قريش وانصرفت إلى مكة ، وقد استرد المسلمون من مكانتهم ما زعزعته أُحد !

ثم ماله لا يفعل وقد رأى النبي يقف صبح حُنين فى عدد قليل من أصحابه ينادى فى جيش المسلمين إذ يولون الأدبار : « أين أيها الناس ، أين ! » ، وهذه الألوف المؤلفة تفر تولاّها الفزع . فلما عرف الناس موقف النبي وسمعوا نداء العباس : « يا معشر الأنصار الذين آوَوْا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حىٌّ فهلموا » . تصايحوا من كل جانب : « لبيك ، لبيك » ، وارتدوا إلى المعركة مستبسلين !

أىّ تأسٍّ كهذا التأسّى يُلهم المرء أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده ! ! وأى رجل له من الإيمان ما لأبى بكر لا يضاعف تأسّيه بالرسول قوة نفسه فيجعله من عناصر الوجود الحاسمة القاهرة . هذه هى القوة الروحية التى لا سلطان لشىء فى الحياة عليها ،

والتى لا تعرف الضعف ولا التردد ، ولا يغلبها لذلك غالب !

القوة الروحية للإيمان

وهذه الأسوة الروحية التى التمسها أبو بكر فى رسول الله ، والتى جعلت للمسلمين الغَلَب على المرتدين من سائر العرب . قد دفعت إلى نفوس المسلمين جميعاً حمية سمت بهم إلى الإيمان بأنهم لا غالب لهم من دون الله . وحببت إليهم الاستشهاد فى سبيل الحق ، وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دونه كل نصر . وأنت ستقرأ فى هذا الكتاب من آيات ذلك ما قلّ فى التاريخ نظيره . لقد كان المسلمون فى عهد رسول الله مطمئنين إلى النصر ؛ لأن الله وعد به رسوله . فكان يمده بالملائكة ، وكان يوحى إليه ما يحقق وعده جل ثناؤه . أما فى عهد أبى بكر ، وقد انتهى الوحى باختيار الله إليه رسوله ، فقد أصبح الإيمان وحده ؛ وأصبح التأسى برسول الله وبخليفته فى السمو بهذا الإيمان إلى ما فوق كل اعتبار فى هذه الحياة الدنيا ، وأصبح الاستشهاد فى سبيل هذا الإيمان . سرّ القوة ، وسر النصر ، وسر الرقى بما تنطوى عليه نفوسنا من معان إنسانية رفيعة إلى غاية الكمال الإنسانى .

هذه حقيقة روحية استلهمها الصديق من تأسيه بالنبى ، فجلتها لنا أعمال المسلمين فى خلافته وبتوجيهه على نحو من الوضوح يجعلنا نلمسها وكأنها أمر مادى تقع عليه الحواس بمقدار ما تمثله الروح ونحن نلمس هذه الحقيقة الروحية فى حروب الرّدة كما نلمسها فى فتح العراق وفى فتح الشام . فلولا هذا الإيمان ما استطاع المسلمون ، على قلتهم ، أن يُتموا فى عهد الخليفة الأول ما تم من جلائل الأعمال ، وما مهّد للإمبراطورية الإسلامية العظيمة .

الحقيقة الاجتماعية بعد الحقيقة الروحية

وقد استلهم أبو بكر من تأسيه بالرسول ، إلى جانب هذه الحقيقة الروحية ، حقيقة اجتماعية بعيدة الأثر فى حياة الأمم . فكل أمة تعتزّ بنفسها ، وتطمئن إلى قوتها ، وتشعر بأن عليها رسالة واجبة الأداء للعالم ، وبأن العالم يجب أن يسمع لهذه الرسالة – مثل هذه الأمة لا يقف فى سبيلها سلطان وإن عظم ، ولا تصدها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

وتضافر هاتين الحقيقتين ، الروحية والاجتماعية ، قد كان فى كل العصور

والأمم أساساً لفوز الشعوب التى تندفع متأثره بسلطانهما ولنجاح الرسالة التى تدعو هذه الشعوب لها .

والأمر كذلك بخاصة إذا قامت هذه الرسالة على أساس من الدعوة إلى نبذ الظلم ، والحرص على عدل قوامه المساواة الصحيحة بين الناس . ولطالما قامت إمبراطوريات على هذا الأساس فى مختلف حِقب التاريخ ، ولطالما تداعت إمبراطوريات بعد قيامها لأنها حادت عن هذه الطريق ، فاتخذ خصومها انحرافها عنها وسيلة لمناوأتها ومقاومتها .

أدرك وآمن ان الإسلام دين المساواة

والمساواة سَدَى الإسلام ، وهو لذلك إمبراطورى اللُّحمة . هذه حقيقة ندركها اليوم بعقولنا كما أدركها كثير ممن سبقونا بعقولهم ، ثم لم يستطيعوا ولم نستطع أن نحتفظ بالإمبراطورية الإسلامية فى العالم لظروف خاصة بنا أو خارجة عن إرادتنا . أما أبو بكر فأدركها بإلهامه وآمن بها عن يقين ، فدفع المسلمين لتنفيذها ، فأقروها فى العالم فاستقرت أجيالاً وقروناً .

أدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام فى صفاء جوهره دين مساواة بين الناس جميعاً . فالدعوة به لم توجه إلى قوم بعينهم ، وإنما وجهت إلى الناس كافة . وقد اصطفى رسول الله فى حياته موالى رفعهم إلى أعز مكانة وأسماها ، كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسى كان من خاصّته المقربين . وزيد بن حارثة ، مولاه الذى اشترته خديجة ثم وهبته له فأعتقه وتبناه ، كان القائد فى غزوة مؤتة كما كان على رأس أعمال كثيرة قبلها . وأسامة ابنه هو الذى عقد له الرسول قبيل مرضه الأخير لواء جيش يضم جِلة المهاجرين والأنصار ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ؛ وقد أقر صلى الله عليه وسلم بازان الفارسى على حكم اليمن . ولم يكن الناس يتفاوتون عند رسول الله لعروبتهم ولا لمكانة قبائلهم ، وإنما كانوا يتفاوتون بأعمالهم . وكان من أصحاب مشورة رسول الله ومن أولى الرأى بين المسلمين شبانٌ أبرزهم إلى الصف الأول حسن إيمانهم وجميل بلائهم فى سبيل الله . وكانت سيرة رسول الله هذه بعض ما أمر الله به فى كتابه ، إذ فاضل بين الناس بالتقوى ، وإذ جعل جزاءهم رهناً بعملهم ، وإذ رفع بعضهم فوق بعض درجات بهذا العمل وهذه التقوى . لا جَرَمَ ، وتلك سنة

رسول الله، أن يخفف العرب من غُلَواء نُعرتهم الجنسية، وإن أقاموا على اعتزازهم بها ، وإن جعلوا اصطفاء الله نبيه من بينهم حجتهم على سمو مكانتها . ولا جَرَمَ أن يتخذ أبو بكر من هذه المساواة الإسلامية بين الناس وبين الأجناس سنَّته ، فتكون القوة التي تنهزم أمامها جيوش الفرس وجيوش الروم .

وأن الإسلام إمبراطورى فى جوهره

وأدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام إمبراطورى فى جوهره ؛ فالدعوة إليه لم تنحصر فى العرب ، بل هى دعوة إلى الحق موجهة إلى الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها . أما وذلك مداها ، وقد وجه النبي رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى دين الله ، فحق على كل من آمن بهذا الدين أن يدعو إليه ، وأن ينشر كلمته هدى للناس ورحمة . ولكل مسلم فى رسول الله أسوة حسنة . لقد أذاع رسول الله الدعوة فى الناس على اختلاف أجناسهم . فلينشر خلفاؤه هذه الدعوة فى أنحاء الأرض جميعاً ، وليجاهدوا فى سبيل حريتها ، لا يستكرهون أحداً ولا يقبلون من أحد أن يصدهم عن الحق الذى اهتدوا إليه . وليجعلوا العالم كله ميدان دعوتهم إلى هذا الحق وإن أصابهم فى سبيل الله ما أصابهم ؛ فإن استُشهدوا فلهم عند الله جزاء الشهداء .

هذه المبادئ الجوهرية التى قامت دعوة النبي العربى على أساسها ، والتى أدركها أبو بكر أدقّ الإدراك بإلهامه لِما كان من صحبته رسول الله وتشبعه بتعاليمه ، هى التى طوّعت للصدّيق أن يذلل ما استفتح عهده من صعاب وأن يتغلب عليها ، وهى التى أسرعت بالإمبراطورية الإسلامية إلى أنحاء العالم وأظلت أممًا كثيرة منه بلوائها . ولقد ظلت هذه الأمم أجيالاً متعاقبة ناهضة بعبء الحضارة فى العالم ، ثم أدركها الهَرَم الذى يدرك الأمم والإمبراطوريات ؛ ثم تولتها السِّنَة الطويلة التى تقابل موت الأفراد .

إلام يرجع ما أصاب الإمبراطورية الإسلامية من انحلال ؟

أفيرجع هذا الهرم ثم هذه السنة الطويلة إلى أن المبادئ الجوهرية تبين فسادها ، أم يرجعان إلى أن الأمم التى انحلّت عن الإمبراطورية الإسلامية جحدت هذه المبادئ وأخذت بنقيضها فأصابها الهرم والاضمحلال بصنيعها ؟! ذلك كل تاريخ الإمبراطورية الإسلامية فى قيامها وعظمتها وتدهورها . وهو

تاريخ جديد بأن يلوّن على طريقة من البحث العلمى الوثيق الذى لا يعرف التعصب ولا يرضاه ، والذى يهدى إلى تحليل الحوادث وردها إلى أسبابها تحليلا يقره العقل ويتفق لذلك وما ركب فى الطبيعة الإنسانية من نزوع روحى إلى الكمال ، ومن تشبث مع ذلك بأهداب هذه الحياة الدنيا تدعونا إليه أهواؤنا وشهواتنا . فتحول بيننا وبين إدراك الغاية التى نبغى من هذا الكمال .

لا أرانى فى حاجة إلى أن أقول إن هذا الهرم وهذه السنّة يرجعان إلى جحود الأمم التى انحلّت عن الإمبراطورية الإسلامية للمبادئ الجوهرية التى قامت هذه الإمبراطورية على أساسها ، مبادئ الإسلام فى صفاء جوهره . ذلك أمر يلمسه المحقق المنصف لتاريخ هذه الإمبراطورية ويراه فى أطواره المتصلة منذ بدأ الخلاف بين المسلمين من أهل شبه الجزيرة إلى أن جسّمت الفُرْقة بين العرب والعجم شقة هذا الخلاف وفتحت به الأبواب واسعة للتدهور والانحلال .

غبطتى بتأريخى الصديق

ليس يتسع هذا التقديم لتفصيل هذا الأمر ولا لإجماله . فحسبى هذه الإشارة إليه . ولأقف هنا فى حدود العهد القصير العظيم ، عهد الصدّيق أبى بكر ، ولأسجل ما كنت أشعر به من فيض المسرّة حين تأريخى له . وأكبر رجائى أن أكون فيما كتبت عنه قد أرضيت فى نفسى حب الحق ، وبلغت بعض ما أردت من رسم الصورة التى حاولتها دقيقة ، فيها من الحياة ما يبعث الماضى مجلواً على صفحة الحاضر . وأقول بعض ما أردت ، لأننى كنت أحس دائماً أن هذه الصورة ينقصها شىء غير قليل من الكمال لم يتسن لى أن أصل إليه لأسباب مختلفة .

وإننى لتُضاعَف غبطتى لو أن كتابى هذا نقل إلى نفس قارئه صورة واضحة من عهد الصدّيق خليل النبى العربى وصفيّه . قد يشوب مطمعى هذا بعض الغلوّ . فلعهد الصديق ، كما قدمت ، صورة خاصة تامة التكوين يستشفها الإنسان من خلال ما كتب عنه ويتصورها فى كمال بهائها . لكن البلوغ بصورة ما حدّ الكمال محتاج إلى جهد متصل يتعاقب على الأجيال ، ويتناوله التمحيص من نواحيه المختلفة . ولم يبذل من الجهد فى أمر الصدّيق وعهده ما يدنى من هذا الكمال ؛ فهو لا يزال مفتقراً إلى جهود جديدة يتضافر فيها

حاجة عهده إلى الجهود لاضطراب المراجع فيه

البحث والتمحيص مع الموازنة بالعصر الذى عاش الصدّيق فيه . وبحياة الأمم صاحبة الأثر فى هذا العصر . ولست فى ريب من أن هذه الجهود ستبذل عما قريب ، وستعاون على تمام الصورة التى تظهر هذا العهد واضحاً ، مجلوة بينة تفاصيله .

وعهد الصدّيق أحوج إلى هذا الجهد من غيره من العهود . فالمراجع العربية القديمة التى تتحدث عنه يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث المروية فيها عسيراً بعض الأحيان كل العسر . ثم إنها كثيراً ما تثبت روايات هى أدنى إلى الخرافة منها إلى التاريخ . وقد يجد الإنسان فى موازنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعينه على تمحيص الحوادث ، لكنها تتواتر روايتها أحياناً لحوادث يقف الإنسان منها موقف الحيرة . فلا يسعه إلا أن يثبتها مع الإشارة إلى ما يخالجه من الريبة فيها .

عذر المؤرخين عما فى رواياتهم من اضطراب

وإنى لأجد للمؤرخين الأولين أبلغ العذر عما شاب رواياتهم من اضطراب كان له أثره فى جهود من بعدهم إلى عصرنا الحاضر . فهذه الفترة التى تولى الصدّيق فيها أمر المسلمين كانت فترة جهاد أى جهاد ؛ حمل فيها كل من آمن بالله ورسوله عبئاً عظيماً لتأييد الدعوة إلى دين الله وما جاء به رسوله من عنده . اندفع هؤلاء جميعاً إلى ميادين النضال ، يجاهدون فى سبيل الله ، يَقتلون ويُقتَلون ، مستهينين بالحياة ونعمائها ، مؤثرين البأساء ، صابرين على الضراء ، واهبين أنفسهم لله ، لا يبتغون عن جهادهم أجراً إلا مثوبته جل شأنه . لم يكن يوم من أيامهم ينقضى فى طمأنينة أو أمن . ولم يكن أحد منهم يفكر فى أمسه لأن غده يطالبه بأكثر مما عمل فى ذلك الأمس . لذلك لم يفرغ أحد لتدوين ما حوته هذه الفترة من جسام الحوادث تدويناً منظماً ؛ وإنما تناقل الناس من بعدُ أنباءها يرويها بعضهم لبعض ، ويتناقلها بعضهم عن بعض ، ثم لا يروونها ويتناقلونها بمثل ما يروون به ما حدث فى عهد الرسول من تقديس وإجلال . وكيف يفعلون وقد كانوا فى شغل متصل بالفتح وتنظيم الإمبراطورية التى تزداد كل يوم فسحة وسعة !! لذلك كان لابد لمؤرخ هذا العهد من تقليب الروايات وموازنتها واقتناص الحقيقة من خلالها . وهذا جهد شاق

حاوله الأقدمون على طريقتهم . ومع تقديرنا لجهدهم وإكبارنا لشأنهم ، فإنهم لم يُبرزوا عهد الصدّيق وحكمه فى صورة يجلو وضوحها ما انطوى عليه من قوة تقف النظر وتبهر اللب وتثير فى النفس غاية الإعجاب .

من أمثلة الاضطراب فى المراجع

وحسبك أن ترجع إلى سجل المراجع التى أخذنا عنها هذا الكتاب ، وأن تتلو فصوله لتقدر مبلغ الدقة فيما نقوله عن المتقدم منها . فبعض هذه المراجع لا يتعرض ، إلا لماماً ، لأمور جليلة الخطر ترويها المراجع الأخرى مفصلة أدق التفصيل . فالطبرى وابن الأثير والبلاذرى لا يكادون يتعرضون لجمع القرآن ؛ وجمع القرآن من جلائل الأعمال التى ازدان بها عهد الصدّيق ، إن لم يكن أجلّها . وما يتعرض له هؤلاء المؤرخون من رواية الحوادث عن حروب الرّدة وعن فتح العراق ثم فتح الشام يقع عليه الخلاف بينهم ، بل ترد الروايات المختلفة فى أمره فى الكتاب الواحد من كتبهم ، حتى ليحار الإنسان أىّ الروايات يأخذ وأيها يدع . والخلاف على الزمن الذى حدثت فيه الوقائع لا يقل عن الخلاف فى تصوير الوقائع جسامة. وكثيراً ما يكون تحديد التاريخ لبعض هذه الوقائع مغامرة لا تستند إلى أساس يمكن الاعتماد عليه فى شىء من الدقة . ونسبة بعض الحوادث إلى بعض محير كذلك . فالطبرى يروى أن حروب الرّدة وقعت فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، وأن فتح العراق تم فى السنة الثانية عشرة ، وأن فتح الشام تم فى السنة الثالثة عشرة . وأنت تكاد تظن إذ تقرأ هذا التعاقب الزمنى أن فتح العراق لم يبدأ إلا بعد الفراغ من حروب الردة ، وأن فتح الشام لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر فى العراق . لكن شيئاً من التدقيق فى مراجعة الحوادث ووقوعها لا يلبث أن يحملك على الريبة فى هذا التعاقب . فإذا زدت فى التدقيق تبينت أن فتح العراق بدأ وحروب الردة لا تزال قائمة ، وأن فتح الشام بدأ فى أعقاب حروب الردة وجيوش خالد بن الوليد لا تزال تعالج إقرار السكينة فى العراق وتتوقع غزوات فيه جديدة .

تعذر تتبع الحوادث فى تسلسلها التاريخى

وفى تسلسلها الجغرافى

ولا يقف مثار الحيرة عند هذا ، فكثيراً ما يتعذر تتبع الحوادث فى تسلسلها الجغرافى . بل إن بعض الروايات ليتنافى مع هذا التسلسل . دع عنك تغير أسماء الأماكن وما فى تشابه بعضها من مثار جديد للحيرة . ولقد طبع بعض المستشرقين

خرائط الإدريسى القديمة كما رسمها ، وشفعوها بخرائط رسموها على النحو المألوف لنا ، فسهّل ذلك علينا معرفة الأماكن ومواقع بعضها من بعض . ولئن يسَّر ذلك لنا أن نحقق ما كان عسيراً تحقيقه فيما مضى ، لقد أثار الريب فى بعض الروايات حتى ليتعذر تصديقها . لذلك وقف بعض المؤرخين لعهد أبى بكر مترددين لا يكادون يصدّقون ما يقرءون . وكأنما صرف ذلك كله غير واحد ممن أرادوا التأريخ للإسلام عن التصدى لهذه الأمور ، فاكتفوا من عهد أبى بكر بإلمامات لا تصوره صورة كاملة تبرز كل ما لهذا العهد من جلال ، وما له فى تاريخ الإسلام وفى قيام الإمبراطورية الإسلامية من أثر حاسم .

قلة ما يرد فى المراجع عن الصديق مع أنه روح عصره

أضف إلى هذا الاضطراب فى المراجع أنها لا تتحدث عن الصدّيق أيام خلافته ما تتحدث عن خالد بن الوليد وعن القواد الذين دخلوا الشام وأقاموا به حتى جاءهم خالد من العراق ففتح وإياهم دمشق وهدم بعبقريته الحربية كل قوة معنوية للروم . وأنت إذ تقرأ هذه المراجع يكاد يخيل إليك أن أبا بكر قد أقام بالمدينة لا يشغله أمر عن العبادة . وهذا خطأ فاحش . فكل ما تم فى عهد الصدّيق كان الصدّيق روحه ومصدره . أشرنا إلى ما كان بينه وبين عمر وطائفة من المسلمين من خلاف على قتال المرتدين ومن منعوا الزكاة ، وإلى أنه تشبث بقتالهم ولو خرج إلى هذا القتال وحده . وسترى حين تتلو فصول هذا الكتاب أنه هو الذى دفع خالد بن الوليد ليسير إلى العراق يعزز قوات المُثَنَّى بن حارثة الشيبانى ، وأنه هو الذى دعا العرب فى أنحاء شبه الجزيرة إلى فتح الشام . فلما أبطأ أبو عبيدة ومن معه من القواد عن التقدم فيه أمدّهم هو بخالد بن الوليد . وفى أثناء ذلك كان هو الذى ينظم بيت المال ، ويقسم الفىء بين المسلمين ، ويولى العمال ويهيمن على أعمالهم . وقد بلغ به هذا التفرغ لشئون الدولة أن انقطع عن التفكير فى كل شىء سواها من أموره الخاصة ومن أمور أهله وعياله . وهذا التفرغ التام لشئون الدولة ، دقيقها وجليلها ، هو الذى طوّع له أن يتم فى فترة وجيزة ما لا يتمه غيره فى سنوات ، بل ما قل أن يتمه غيره .

ولعل سبباً آخر كان ذا أثر فيما قدمنا عن موقف الرواة والمؤرخين من أبى بكر وعهده ؛ فهم قد حسبوا أن صحبته الرسول عشرين سنة كاملة ،

واصطفاءه صلى الله عليه وسلم إياه حتى ليقول : « لو كنت متخذاً من العباد خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا » — حسبوا أن هذا وذاك أجلّ من كل ماتم فى خلافته . ولا مِرْية فى أن مكانة الصديق من رسول الله لها فى تقديرنا جميعًا أجلُّ أثر وأعظمُ مقام. لكن خلافة الصدّيق كانت حلْقة أتمت هذا الأثر الجليل وتوجته .

ليس عمله فى الخلافة بأقل من الصحبة

لم يكن عمل الصدّيق فى خلافته أقل جلالا من صحبته رسول الله . بل إنه كان فى عهد الرسول ثانى اثنين ، أولهما صفىّ الله لنبوّته ومن خصّه الله برسالته وأوحى إليه كتابه بينات من الهدى والفرقان . فالعبء الذى حمله أبو بكر أيام الرسالة كان عبء التابع المؤمن الذى لم تتلجلج قوة إيمانه بالله ورسوله . أما العبء الذى حمله بعد أن اختار الله رسوله إليه فحمله على أنه أول رجل فى المسلمين وخليفة رسول الله بينهم . لم يكن فيه تابعًا يدلى بالمشورة ، بل كان متبوعًا يشير أصحابه عليه كما كان يشير هو ومن معه على رسول الله . وقد حمل هذا العبء بإيمان وأمانة وصدق ، جزاه الله وجزى المسلمين عنه أحسن الجزاء . فإذا كان صدق أبى بكر فى صحبة رسول الله من أسمى مظاهر العظمة الإنسانية القائمة على دعامة متينة من الإيمان السليم ، فتجرُّد أبى بكر فى خلافته للدفاع عن دين الله وللدعوة إليه ولإقامة الإمبراطورية الإسلامية لا يقل فى جلال سموه عن صحبته الرسول وإيمانه الصادق به وبكل ما أوحاه الله إليه . وتاريخ خلافته جدير لذلك بأن يفصّل أدق التفصيل .

أثر اضطراب المراجع فى المؤرخين

هذا الاضطراب فى المراجع ، وهذا التأثر فى تصوير عهد الخليفة الأول بعوامل لا يقرّ النقد التاريخى الكثير منها ، قد كان له ما رأيت من أثر فى كتب المتقدمين ، ثم كان له أثره فيما تلا ذلك من جهود من أخذوا عنهم وحاولوا أن يستنبطوا صورة الحقيقة كاملة من كتبهم .

ولقد بلغ هذا التأثر ببعض المتأخرين أن جعلهم لا يقفون عند عهد أبى بكر إلا لِمامًا ثم يتخطونه إلى عهد عمر فيطيلون الوقوف عنده . بل لقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يوازن بين عهد أبى بكر وعهد عمر ليفاضل بينهما . وهذه مفاضلة لا موضع لها بين رجلين بلغ كل منهما من مراتب العظمة ما قلّ أن يبلغه سياسى

أو حاكم لأمّة فى تاريخ العالم كله . ولقد كان عهد عمر من أعظم عهود الإسلام لا ريب . فيه استقرت قواعد الإمبراطورية ، واستتب نظام الحكم ، ورفّ لواء الإسلام على مصر وغير مصر من البلاد التى اعتزّ بها الروم واعتزّ بها الفُرس . لكن هذا العهد الفاروقى العظيم مدين لعهد الصدّيق ومتمّ له كدّين خلافة الصدّيق لعهد الرسول وإتمامها له .

جهود المستشرقين ومؤرخى المسلمين

على أن الدراسات التى تمّت والكتب التى وضعت عن أبى بكر وعهده فى العصور الأخيرة كانت أدنى إلى الدقة والإنصاف . ومن الحق علىّ أن أشيد بما كان للمستشرقين من فضل السبق إلى هذه الدقة وإلى هذا الإنصاف ، على تحيز بعضهم تحيزاً دفعت إليه العاطفة الدينية . فقد صنف « الأب ماريني » كتابه عن « خلفاء محمد » فى القرن الثامن عشر ؛ وصنّف « كوسان برسفال » مؤلفه « رسالة فى تاريخ العرب » فى أوائل القرن التاسع عشر ؛ وكتاب « السير وليم ميور » عن « الخلافة الأولى » يرجع إلى سنة ١٨٨٣ . وفى أثناء ذلك ، وإلى وقتنا الحاضر ، لم يبرح المستشرقون فى ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وغيرها من الدول يمحصون العهود الإسلامية المختلفة تمحيصهم غيرها من عصور التاريخ فى مختلف أنحاء العالم .

أما وقد ذكرت جهود المستشرقين ، فمن الحق علىّ أيضا أن أذكر جهود المؤرخين المسلمين والعرب ، وما كان من إنصافهم عهد الصدّيق ومحاولتهم الدقة فى أمره .

أرّخ السيد رفيق العظم لهذا العهد منذ بضع عشرات من السنين فى الجزء الأول من كتابه « أشهر مشاهير الإسلام » ؛ وكان متأثراً بطريقة الأقدمين فى كثير من مواقفه . وتحدّث المرحوم الشيخ محمد الخضرى فقال فى ختام محاضرة له : « إنا نقول فى ذلك قولاً صريحًا : لولا أبو بكر وعزيمته القوية . بعد معونة الله وتأييده ، ما كان تاريخ المسلمين يسير سيره الذى عرف . حصل ذلك فى وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقواهم شكيمة وأشدهم قلباً » .

وأفرد الأستاذ عمر أبو النصر الجزء الأول من كتابه « خلفاء محمد »

للصدّيق وعهده . كذلك تحدّث المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار وغـــيره من المؤرخين عن هذا العهد حديثاً جديراً بالتقدير .

أمـــل

والآن ، وقد وفقنى الله لوضع هذا الكتاب ، فهل تتيح لى الأقدار أن أردفه بآخر عن عهد عمر ، وبثالث وبرابع حتّى أتم ما دار بخاطرى أن أقوم به من دراسات فى تاريخ الإمبرطورية الإسلامية ؟ ذلك أمر علمه عند ربى . لقد استقرَّ منى العزم أن أدوّن لعهد عمر . لكن بين العزم والتنفيذ مدًى أرجو الله أن ييسره لى ، مع صدق يقينى بقوله تعالى :

«وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَدًا » .

وأختم هذا التقديم بالضراعة إلى الله أن يوفق العلماء والباحثين لمتابعة البحث فى حياة الصدّيق وفى عهد خلافته ، حتّى تتم ببحوثهم الصورة التى حاولت أن أجلوها فى هذا الكتاب . وأحمد الله لما صادفنى من التوفيق فيما حاولت . من الله الهدى ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كلّه .

محمد حسين هيكل

الفصل الأول

أبو بكر فى حياة النبى

نشأته الأولى وقلة الأخبار

ليس فيما انحدر إلينا من الروايات عن نشأة أبى بكر الأولى ما يعاون على تعرُّف شخصيته فى هذا الطَّور من حياته . فما يروى عن طفولته وعن صباه لا غناء فيه . وما يروى عن أبيه وعن أمه لا يعدو ذكر اسميهما ، وذكر ما كان من أبيه بعد أن أصبح أبو بكر رجلا من كبار المسلمين له فى حياة أبيه أثر ، ولا أثر لأبيه فى حياته . وإنما يعنى المؤرخون من أمره بذكر قبيلته ومكانتها من قريش ، شأنهم فى ذلك كشأنهم فى غيره مما يتصل بتاريخ العرب ؛ إذ يرون فى نسبتهم إلى قبيلة من القبائل ما يفسّر بعض طباعهم وأخلاقهم . وقد يكون ذلك حسناً ، وقد يراه المؤمنون بمبدأ الوراثة صالحاً لتحقيق مذهبهم ، وإن رأى غيرهم من المبالغة فى تقديره ما يصرفهم عن الدقة فى تمحيصه .

قبيلته وتوليته الزعامة فيها

وأبو بكر من قبيلة تَيْم بن مُرّة بن كعب ؛ فهو يلتقى فى نسبه بالنبى ويرتفع إلى عدنان . وكان لكل من القبائل المقيمة بمكة اختصاص بأمر يتصل أو لا يتصل بمناصب الكعبة . فكان لبنى عبد مناف السِّقاية والرِّفادة ، ولبنى عبد الدار اللواء والحِجابة والنَّدوة ، وذلك قبل أن يولد هاشم جدُّ النبى . أما قيادة الجيوش فكانت لبنى مخزوم أجداد خالد بن الوليد، وكانت الديات والمغارم لتيم بن مرة . وقد آل أمر الديات فى الجاهلية إلى أبى بكر حين اشتد ساعده فتولى الزعامة فى قبيلته ؛ لذلك كان إذا احتمل شيئاً منها فسأل قريشاً صدّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه .

وقد رُوِيتْ فى الإشادة بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب روايات تقصها كتب المتأخرين . ذكروا أن المنذر بن ماء السماء طلب امرأ القيس بن حُجر الكندى فأجاره المُعَلَّى التيمى ؛ فقال امرؤ القيس فى ذلك :

أقرَّ حَشَا امرِئ القيس بن حُجْرٍ ... بنو تيمٍ ، مصابيحُ الظّلام

ولهذا البيت سمى بنو تيم « مصابيح الظلام » .

على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبنى تيم من الصفات لا يختلف عما ينسب لغيرها من القبائل، ولا يميزها لذلك بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيمن ينسب إليها . فهذه الروايات تنسب إلى تيم من صفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار وما إليها ما تشترك القبائل العربية التى تعيش تحت سماء الجزيرة فى التمدح به والانتساب إليه .

اسمه ولقبه وكنيته

لهذا لم يقف مؤرخو أبى بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ؛ وإنما بدءوا روايتهم بذكره وذكر أبويه، ثم تخطوا طفولته وصباه إلى شبابه وإلى ما كان يزاوله فيه من عمل . ذكروا أن اسمه عبد الله بن أبى قحافة ، وأن أبا قحافة أبوه واسمه عثمان بن عامر ، وأن أم الخير أمه واسمها سلمى بنت صخر بن عامر . وروى أنه كان يدعى قبل الإسلام عبد الكعبة ، فلما أسلم دعاه رسول الله عبد الله . وقيل إنه كان يسمى عتيقاً ؛ لأنه لم يكن يعيش لأمه ولد ، فنذرت أمه إن وُلِدَ لها ولدٌ أن تسميَهُ عبد الكعبة ، وتتصدق به عليها . فلما عاش أبو بكر وشبَّ سمى عتيقاً ، كأنه أعتق من الموت . على أن الرواة يذهبون إلى أن عتيقاً لم يكن اسمه وإنما كان لقباً غلب عليه لبياض لونه . وتذهب رواية أخرى إلى أن عائشة ابنته سئلت : لمَ سمّى أبو بكر عتيقاً ؟ فقالت : نظر إليه رسول الله فقال : هذا عتيق الله من النار . أو لأن أبا بكر أقبل يوماً ومعه طائفة من أصحابه فقال رسول الله : « من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا » . أما كُنية أبى بكر التى لزمته حياته فلم تذكر الروايات سببها ، وإن ذكر بعض المتأخرين استنباطاً أنه كُنِىَ بها لأنه بكر بالإسلام قبل غيره .

صباه وشبابه

وقد عاش أبو بكر فى طفولته وصباه عيش أمثاله بمكة . فلما تخطَّى الصِّبا إلى الشباب عمل فى التجارة بزازاً يبيع الثياب ، فوُفِّق كل التوفيق . وقد تزوج صدر شبابه من قُتَيْلة بنت عبد العُزَّى ، فولدت له عبد الله وأسماء . وأسماء هى التى لقبت من بعد ذات النطاقين . وتزوج بعد قُتَيْلة أم رومان بنت عامر بن عُوَيْمِر ، فاستولدها عبد الرحمن وعائشة . ثم تزوج بالمدينة من حبيبة بنت خارجة ، ثم من أسماء بنت عُمَيْس فولدت له محمداً . وكانت تجارته أثناء ذلك تزداد سعة وتزيده ربحاً وثراء .

خَلْقه وخُلقه

ولعل شخصه وخلُقه كانا من أسباب نجاحه فى هذه التجارة ، فقد كان أبيض اللون ، نحيفًا ، خفيف العارضين ، معروق الوجه ، غائر العينين ، ناتئ الجبهة ، عارى الأشاجع . كذلك وصفته ابنته عائشة أم المؤمنين . وكان رجلاً رضيَّ الخُلُق ، رقيق الطبع ، رزينا ، لا يغلبه الهوى ولا تملكه الشهوة . وكان لرزانته وحسن رأيه ورجاحة عقله ، لا يشارك قومه فى كثير من عقائدهم وعاداتهم . ذكرت عائشة أنه لم يشرب خمراً فى جاهلية ولا إسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكّة الخمر وإدمانهم لها . وكان نسّابة ، حسن الحديث ، لطيف المعاشرة . وصفه ابن هشام صاحب السيرة فقال : «كان أبو بكر رجلا مألفًا لقومه ، محببًا سهلاً . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته» .

حيّه بمكة واتصاله بمحمد

وكان يعيش بمكة فى الحى الذى تعيش فيه خديجة بنت خُويلد ، ويعيش فيه التجار النابهون الذين تذهب تجارتهم فى رحلتى الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن . ومُقامه بهذا الحى هو الذى ربط بينه وبين محمد بروابط الألفة بعد أن تزوج محمد من خديجة وانتقل إلى دارها . وكان أبو بكر يصغُر محمداً بسنتين وأشهُر . وأكبر الظن أن التقارب فى السن والاشتراك فى العمل والاتفاق فى سكينة النفس ورضا الخلق ، وفى الرغبة عما تُزاول قريش من عادات وعقائد — أكبر الظن أن هذا كُلّه كان ذا أثر فى مودة محمد وأبى بكر مودة يختلف الرواة إلى أى حد توثقت عراها قبل أن يبعث محمد رسولا . فقد ذكر بعضهم أنها كانت وثيقة العرى قبل البعث ، وأن توثّق عراها كان ذا أثر فى سبق أبى بكر إلى الإسلام . أما غير هؤلاء فيذكرون أن صلة الرجلين لم تتوثق إلا من بعد ، وأن مودّتهما الأولى كانت مودّة جوار وتوافق فى الميول ليس غير . ولعل أصحاب هذا الرأى يؤيدونه بما عُرف من حب محمد العزلة والانقطاع عن الناس سنوات طويلة قبل بعثه . فلما بعثه الله واختاره لرسالته ذكر أبا بكر ورجاحة عقله ، فتحدث إليه ودعاه إلى الواحد الأحَد ، ولم يتردد أبو بكر أن أجاب داعى الله . ومن يومئذ توثقت الصلة بين الرجلين ، ثم زادها صدق أبى بكر

فى الإيمان بمحمد ورسالته متانةً وقوة . كانت عائشة تقول : « ما عَقَلْتُ أبَوَىَّ إلا وهما يدينان الدِّين . وما مر علينا يوم قطُّ إلا ورسول الله يأتينا فيه بُكْرةً وعشيَّةً » .

ومنذ اليوم الأول شارك أبو بكر محمداً فى الدعوة لدين الله . وكان إلفُ قومه إياه وحبُّهم الجلوس إليه والاستماع لحديثه ، ذا أثر فى استجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة . فقد تابع أبا بكر على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عُبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير ابن العوام . كما أسلم من بعدهم ، بدعوة أبى بكر ، أبو عبيدة بن الجرّاح وكثيرون غيره من أهل مكة .

عدم تردده فى قبول الدعوة ، وسببه

وقد يعجب الإنسان كيف لا يتردد أبو بكر فى قبول الدعوة إلى الإسلام أول ما وجهها محمد إليه ، وكيف يبلغ من عدم تردده أن يقول عنه رسول الله من بعد : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكَم[1] حين ذكرته له وما تردد فيه » . وليس كل العجب أن محمداً ذكر له التوحيد ودعاه إليه فاستجاب له . بل أكبر العجب أن محمداً قص عليه حديث حراء والوحى الذى نزل عليه ، فلم يتردد فى تصديقه . وإنما يزيل عجبنا ، أو يخفف منه ، أن أبا بكر كان من حكماء مكة الذين يرون عبادة الأصنام حمقاً ومَيناً ، وأنه كان يعرف من أمر محمد وأمانته وصدقه ورُجحان عقله ما لم يدع فى نفسه موضعاً للريبة فيما قص عليه مما رأى وسمع ، وبخاصة لأنه رأى فى هذا الذى قصّه الرسول عليه ما يتفق وموجب الحكمة وما لا يتردد العقل فى تصديقه والأخذ به . على أن ما يزول من عجبنا لا يغير من تقديرنا جرأة أبى بكر فى إقدامه ومجاوزته المعروف للناس فى موقف دعا غيره ممن وجِّهت الدعوة إليهم للنظر والتردد والتماس الأناة والروية . وجرأة أبى بكر وإقدامه أجدر بالتقدير لأنه كان تاجراً تقتضيه تجارته الحساب لصلاته بالناس وعدم مواجهتهم بما يخالف مألوف آرائهم وعقائدهم خشية مايجره ذلك على معاملاته من سيئ الأثر . فما أكثر الذين لايؤمنون بالكثير من آراء الناس ويرونها ميناً باطلا وحديث خرافة ، ثم يكتمون

جرأته فى قبول الإسلام وفى الدعوة إليه

---

(١) ما عكم : ما تحبس وما انتظر ولا عدل .

ذلك أو يتظاهرون بنقيضه التماساً للعافية ، وجراً للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا النفاق فى سواد الناس وعامتهم ما تجده فى الخاصة والمثقفين منهم ، بل إنك لتجده فيمن نصبوا أنفسهم لزعامة الناس والإبانة لهم عن وجه الحق فى الحياة . لا جرم ، وقد كان موقف أبى بكر منذ اللحظة الأولى ما ذكره رسول الله ، أن يكون موضع التقدير غاية التقدير ، والإعجاب غاية الإعجاب .

وقيام أبى بكر بالدعوة إلى الإسلام أدعى إلى العجب . فلعل تاجراً مثله يقتنع بصدق محمد قد كان يقنع بتصديقه سراً ولا يظهر الناس على شىء من أمره حتى تظل تجارته متصلة . ولعل محمداً كان يقنع منه بذلك ويحمده له . فأما أن يظهر أبو بكر إسلامه ، وأن يدعو إلى الله ورسوله وأن يصل من دعوته إلى إقناع المسلمين الأولين بتصديق محمد ومتابعته على دينه ، فذلك ما لا عهد للناس به إلا فيمن سَمَت أنفسُهم إلى حيث تقدُر الحقّ لذاته ، وترتفع به فوق منافع الحياة ، وترى فى تأييده والدعوة إليه ما يُصغر من شأن الدنيا وعرَضها وإن عظُم . ولقد كان ذلك شأن أبى بكر فى صحبته محمداً منذ أسلم إلى أن اختار الله محمداً ، وإلى أن توفى أبو بكر من بعده .

الصديق أول من أيد الله به دينه

وإنى لأذكر ما كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب من أثر فى توطيد كلمة الإسلام ، وكيف أيّد الله بهما دين الحق ، لما عُرف عنهما من قوة بأس ، ومضاء عزم ، وصلابة تخيف من يناوئهما ، ثم أذكر الصديقَ وإسلامه فلا أتردد فى القول بأنه أول من أيّد الله به دينه . فهذا الرجل الرضىّ النفس ، الوديع الخلق ، الرقيق الطبع ، حتى لتسرع الدمعة إلى عينه لمرأى الألم يصيب غيره ، قد بلغت قوة إيمانه بالدين الجديد ، وبالرسول الذى جاء به من عند الله مبلغاً لا تدانيه قوة ولا يتغلب عليه سلطان . وهل كقوة الإيمان فى الحياة شىء ! وهل كسلطانه فى الحياة سلطان ! والذين يحسبون أن قوة البطش وسلطان البأس لهما فى الحياة الأثر البالغ يتورطون فى أفحش الخطأ . فالنفس الراضية المطمئنة إلى إيمانها بالحق ، الداعية إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، المتخذة من وداعة الخلق ، ورقة الطبع ، ومشاركة الضعيف والبائس فى ألم البؤس والضعف وسائل دعوتها ، هذه النفس أجدر أن تبلغ من غايتها ما تريد ،

لأنها تندمج فى غيرها من النفوس فتطبعها بطابعها وتصوغها على غرارها. ولقد كان ذلك أثره — رضى الله عنه — فى السنوات الأولى من الدعوة المحمدية، وبقى ذلك أثره إلى أن تولى الخلافة وإلى أن مات .

فهو لم يقف من تأييد الدعوة عند التحدث إلى أصحابه وإقناعهم بها . ولم يكفه أن يبذل للضعفاء والبائسين من رضا نفسه ووداعة خُلقه ما يعزيهم عما كان خصوم الدعوة يُرهقونهم به من أذى وتعذيب . بل كان ينفق من ماله، وكان يصطفى بهذه النفقة أولئك الضعفاء والبائسين ممن هداهم الله إلى الحق فأذاقهم أعداء الحق الضر وابتلوهم بألوان البأساء. وحسبك أن تعلم أنه كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته، وأنه أقام بعد إسلامه يتجر فيجنى وافر الربح، فلما هاجر إلى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كله غير خمسة آلاف درهم . أما سائر ما كان عنده وما ادخره من بعد، فقد ذهب فى سبيل الدعوة إلى الله والدعوة لدينه ولرسوله . وأيسر ذلك ما افتدى به الضعفاء والأرقاء الذين أسلموا، فعذّبهم سادتهم بإسلامهم، وأذاقوهم الهُون ألوانا .

إنفاقه من ماله لحماية الضعفاء

رأى أبو بكر يومـًا بلالاً الحبشى قد ألقاه سيده على الرمل فى لظى الشمس، ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لأنه أسلم . ولم يزد بلال وهو فى هذه الحال على أن يكرر : «أحدٌ أحدٌ». عند ذلك اشتراه أبو بكر وأعتقه. وعُذّب عامر بن فهيرة . فاصطفاه أبو بكر راعيـًا لأغنامه . واشترى كثيراً كذلك من الموالى الذين يعذّبون، رجالا ونساء وأعتقهم .

مواقفه فى مناصرة النبى

على أن أبا بكر لم يسلَم من أذى قريش، كما لم يسلم محمد من هذا الأذى على رغم مكانته من قومه ومنع بنى هاشم له . ولم ير أبو بكر قريشـًا تؤذى محمداً إلا وقف دونه وعرض حياته للذود عنه . روى ابن هشام أن شرّ ما نالت قريش من رسول الله قد كان بعد أن عاب دينهم وسب آلهتهم . فقد اجتمعوا فى الحِجر يومـًا، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم . وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول

كذا وكذا ؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذى أقول ذلك . فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ! ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط » .

وليس هذا الموقف شيئاً إلى جانب غيره من المواقف التى تجلَّى فيها إيمان أبى بكر بمحمد وبرسالته إيماناً لايلين ولايتزعزع . وهذا الإيمان هو الذى جعل غير واحد من المستشرقين يتراجع دون اتهام النبى بما يتَّهمه به غلاتهم . فما كان أبو بكر فى رزانته ورجاحة عقله ليصل إلى هذا الإيمان لو لم يتنزه كل عمل من أعمال الرسول عن كل شبهة ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى كان الرسول فيه موضع الاضطهاد من قومه . وهذا الإيمان الذى امتلأت به نفس أبى بكر هو الذى وقى الإسلام أن ينصرف الناس عنه عندما حدَّثهم رسول الله بحديث الإسراء .

موقفه من حديث الإسراء

فقد تحدث محمد إلى أهل مكة بأن الله أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأنه صلَّى هناك ، وسَخِر المشركون من هذا الحديث ، وساور الريب فيه طائفة ممن أسلموا ، وقال يومئذ غير واحد : هذا والله الأمر البيِّن ! والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! ! وارتدَّ كثير ممن أسلموا وتردد كثيرون وذهبوا إلى أبى بكر لما يعلمونه من إيمانه وصحبته محمداً ، فذكروا له ما يقوله عن الإسراء . قال أبو بكر وقد تولاه الدهش لما سمع : « إنكم تكذبون عليه » . قالوا : « بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدّث الناس » . قال أبو بكر : « والله لئن كان قد قاله لقد صدق ! إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » . وجاء أبو بكر إلى المسجد واستمع إلى النبى يصف بيت المقدس ، وكان أبو بكر قد جاءه ، فلما أتم النبى صفة المسجد الأقصى قال أبو بكر : « صدقت يا رسول الله » . ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصدّيق .

أفخطر ببالك يوماً أن تسأل : تُرى لو أن أبا بكر ارتاب كما ارتاب غيره في حديث الرسول عن الإسراء ، فما عسى أن يحدث من أثر هذه الريبة في حياة الدين الناشئ ؟ وهل قدّرت ماقد يؤدى ذلك إليه من تضاعف عدد المرتدين ، ومن بلبلة العقيدة في نفس غيرهم من المسلمين ؟ وهل ذكرت كيف ثبّتت إجابة أبي بكر عقائد الكثيرين ، وكيف حفظت للإسلام يومئذ مكانته ؟ إن كنت قد سألت وقدّرت وذكرت فلا ريب أنك لم تتردد من بعدُ في الحكم بأن الإيمان الصادق أقوى سلطاناً في الحياة من قوى البطش والبأس جميعاً ، وأن كلمة أبي بكر هذه كانت بعض عناية الله بدينه الحق ، وأنها نصرته وأيّدته أكثر مما أيدته قوة حمزة وعمر من قبل ، وهي لذلك حقيقة بأن تجعل لأبي بكر في تاريخ الإسلام المكان الذي جعله الرسول له حين قال : « لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبةٌ وإخاءٌ وإيمانٌ حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وكلمة أبي بكر في الإسراء تدلُّ على إدراك تام للوحي والرسالة لا يؤتاه كثيرون ، وتريك حكمة الله في أن يختاره الرسول صفيّه يوم اصطفى الله رسوله ليبلّغ الناس رسالته . وهي كذلك الحجة البالغة على أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، يخلّد أثرُها على الزمان بفضل الله ، فلا سلطان للزمان عليه ولا يأتي عليه النسيان .

ما كان يقوم به بعد الإسراء

أقام أبو بكر من بعد حديث الإسراء يرعى تجارته في حدود ما تحتاج إليه من جهد العارف بمداخلها ومخارجها ، وينفق جلّ وقته في صحبة الرسول ، وفي حماية الضعفاء الذين أسلموا ، وفي دفع أذى قريش عنهم ، وفي دعوة من تلين قلوبهم للإسلام . هذا وقريش تشتد في أذى النبي وفي أذى أبي بكر وسائر المسلمين . ولم يدر بخاطر الصدّيق أن يهاجر مع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم[1]، بل ظل مع محمد بمكة يجاهد معه في سبيل

---

(١) تجرى رواية بأنه خرج مع المهاجرين إلى الحبشة فلقيه ابن الدغنة فقال له : « ويلك لا تهاجر . إنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر » . وأجاره ، وأجازت قريش جواره . وأقام أبو بكر بمكة وأقام بفناء داره مسجداً يصلى فيه ويتلو القرآن . فخافت قريش أن يفتن نساءها وصبيانها فشكوه إلى ابن الدغنة فرد أبو بكر جواره وظل بمكة معرضاً للأذى .

الدعوة إلى دين الله ويتلقى عنه ما يوحى الله إليه ليذيعه فى الناس ، ويبذل من رضا نفسه ومن طيبة خلقه ومن حرّ ماله كل ما يستطيع بذله ، لخير من أسلم ، ولهداية من لم يسلم .

وما كان أحوج المسلمين بمكة يومئذ إلى هذا الجهد وإلى هذه الرعاية من أبى بكر ! فقد كان محمد يتلقى وحى ربه . وكان قد يئس من استجابة أهل مكة لدعوته ، فوجّه همّه إلى القبائل يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الله ، وقد ذهب إلى الطائف يستنصر أهلها فردّوه ردًّا غير جميل وكان فى اتصاله بربه دائم التفكير فى رسالته والدعوة إليها وفى الوسيلة لنجاح هذه الدعوة. هذا إلى أن قريشًا لم تسكت قط عنه ولم تنقطع عن مناوأته . إزاء ذلك كله أخذ أبو بكر نفسه بالتفكير فى أمر المسلمين المقيمين بمكة ، وفى تنظيم الوسائل للسهر على طمأنينتهم .

اتصاله بالمسلمين وبغير المسلمين لدفع أذى قريش

ولئن لم تذكر كتب السيرة ولم يذكر من أرّخوا لأبى بكر من عمله فى ذلك ما فيه غناء ، إننى مع هذا لترتسم فى نفسى صورة واضحة من عنايته ومن اتصاله الدائم بحمزة وبعمر وبعثمان وبكل ذى رأى فى المسلمين أو سلطان لدفع أذى قريش عن الضعفاء الذين أسلموا . بل إننى لأتصور ما كان من اتصاله بغير المسلمين ممن أقاموا على دينهم ثم كانوا لا يرون أنه من الحق لقريش أن تناوئ من لا يقرها على عقيدتها فى الأصنام وعبادتها . ولقد رأينا فى سيرة الرسول كثيرين من هؤلاء قاموا يدفعون عن المسلمين أذى قريش ؛ ورأينا الذين قاموا فى نقض الصحيفة إذ تعاهدت قريش على مقاطعة محمد وأصحابه وعلى محاصرتهم حتى احتموْا ثلاث سنوات تباعًا فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، لا يتصلون بالناس ولا يتحدثون إليهم إلا فى الأشهر الحرم. ويقينى أن أبا بكر قد كان له فى تحريك هؤلاء الذين لم يتابعوا محمداً على دينه ، والذين غضبوا مع ذلك لما يصيبه من أذى قريش ، أثر بالغ أدركه برفقه وحسن حديثه وجميل عشرته .

وما قام به أبو بكر من حماية المسلمين إبّان نشأة الدين هو الذى زاده من محمد قربًا ، وهو الذى ربط بين الرجلين برابطة إخاء فى الإيمان جعلت

محمداً يصطفيه خليلا . فلما أذن الله لدينه أن ينتصر بقوة أهل يثرب بعد بيعتى العقبة ، أذن محمد لأصحابه فى أن يهاجروا إليها ، كما أذن لهم من قبل فى أن يهاجروا إلى الحبشة . ولم تعرف قريش أيهاجر محمد مع أصحابه إلى يثرب ، أم يظل بمكة كما ظل بها حين هجرة المسلمين إلى الحبشة . أعرَف أبو بكر من مقصد محمد ما لم تعرف قريش ؟ كل ما يروى عن ذلك أن أبا بكر استأذن محمداً فى الهجرة فقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً » ولم يزد على ذلك .

إعداده للهجرة ثم الهجرة

ها هنا تبدأ صفحة أخرى من صحف الإيمان القوى الراسخ بالله ورسوله . فقد كان أبو بكر يعلم أن قريشاً قامت ، منذ عرفت بهجرة المسلمين إلى يثرب ، ترد كل من استطاعت رده منهم إلى مكة ، لتَفتنه عن دينه ، وتعذّبه وتنكّل به . ثم إنه علم أن المشركين اجتمعوا بدار الندوة يأتمرون بمحمد ليقتلوه . فإن هو صحب محمداً فى هجرته فأقدمت قريش على قتل الرسول قتلت أبا بكر لا محالة معه . مع ذلك لم يتردد حين استمهله محمد ، بل شاعت الغبطة فى أنحاء نفسه وأيقن أنه إن يهاجِر مع الرسول يجعل الله له بذلك من الفضل والفخر ما لا يعدِله فضل ولا فخر ، وإن يُقْتَل معه فإنما هو الاستشهاد الذى يُجزى صاحبه جنة الخلد .

ومن يومئذ أعدّ أبو بكر راحلتين وأقام ينتظر مصيره ومصير صاحبه . وإنه لفى بيته ذات مساء إذ أقبل محمد كدأبه كلّ مساء ، وأخبره أن الله أذن له فى الهجرة إلى يثرب . ورغب الصدّيق إلى رسول الله أن يكون رفيقه فى الهجرة ، فأجابه إلى ما طلب . وعاد محمد إلى بيته وفتيان قريش يحاصرونه مخافة أن يفرّ . وأسرّ محمد إلى علىّ بن أبى طالب أن يتسجّى بُردَه الحضرمى الأخضر وأن ينام فى فراشه ، ففعل ، فلما كان الثُلُث الأخير من الليل خرج فى غفلة من فتية قريش إلى دار أبى بكر ، فإذا هو يقظ ينتظره . وخرج الرجلان من خوخة فى ظهر الدار وانطلقا جنوباً إلى غار ثور فاختبئا فيه .

أطلقت قريش فتيانها فى كل واد وفى كل جبل ، يبحثون عن محمد ليقتلوه

فلما بلغوا ثوراً تسلقه أحدهم إلى الغار ، لعله أن يعثر به . وتصبَّب أبو بكر عرقاً حين سمع تناديهم ، وأمسك أنفاسه وبقى لا حراك به وسلم لله أمره . أما محمد فظل فيما كان فيه من ذكر الله والصلاة له ، واقترب أبو بكر من صاحبه وألصق به نفسه ، فهمس محمد فى أذنه : « لا تحزن ، إن الله معنا » .

وأدار الفتى القرشىُّ بصره فيما حول الغار فرأى العنكبوت نسجت على فُوَّهته ، فانصرف يقول لأصحابه الذين سألوه ماله لم يذهب إليه : « إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد » . وانصرف الفتية قافلين يعضون البنان ندماً . فلما بعدوا نادى محمد : « الحمد لله ، الله أكبر » وازداد أبو بكر بما رأى إيماناً وتثبيتاً .

إلام يرجع فزع الصديق حين كانا فى الغار ؟

أفكان فزع أبى بكر حتى ليتصبب منه العرق ويمسك أنفاسه ويلتصق برسول الله بعض ما دعا إليه حبُّ الحياة والحرص عليها ، فهو يخشى على نفسه أن يصيبه المكروه ؟ أم أنه لم يفكر فى نفسه ما فكر فى رسول الله ، وأنه كان يودّ لو يفتدى رسول الله بنفسه إن استطاع ؟ روى ابن هشام عن الحسن ابن أبى الحسن البصرى قال : « انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ؛ فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار لينظر فيه سبع أو حيَّة ، يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه » وذلك كان شأنه فى تلك اللحظة الدقيقة من حياته حين كان يسمع إلى فتيان قريش ، فيهمس فى أذن النبى : « لو بصر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » . لم يكن يفكر فيما قد يصيبه ؛ وإنما يفكر فى رسول الله وفى مصير الدين الذى يدعو إليه بأمر ربه لو أن هؤلاء الفتيان ظفروا به فقتلوه . بل لعله لم يفكر فى شىء بذاته تلك اللحظة ، وإنما كان شأنه شأن الأم تخشى الخطر على ابنها ، فهى ترتجف وتفزع ويتولاها الهلع ثم لايساعفها عقلها برأى أو تفكير ، فإذا دنا الخطر منها ألقت بنفسها فى وجهه تريد أن تصدَّه أو تموت دونه . أم أن أبا بكر كان أشد من هذه الأم هلعاً وأكثر منها استهانة بالخطر إذا أقبل ؛ لأن إيمانه بالله ورسوله كان أقوى من حب الحياة ومن فطرة الأمومة ومن كل

ما تحسه نفوسنا أو يدور بخواطرنا . وما بالك بإيمان تجسم أمامه فى رسول الله فتجسمت معه كل المعانى المقدسة فى أعظم صورها قدسية وأسماها روحانية ! أتصوّر الساعة أبا بكر فى مجلسه ورسول الله إلى جانبه ، وأصور الخطر محدقاً عليهما فلا يسعفنى خيالى بمثال يبرز كل ما فى هذه الصورة الفذة من حياة لا نظير لها فى كل صور الحياة .

أين اقتداء الملوك والزعماء من اقتداء رسول الله

قص التاريخ نبأ أشخاص وهبوا أنفسهم فداء زعيم من الزعماء أو ملك من الملوك . وفى عصرنا اليوم زعماء يقدسهم الناس ، فهم أحب إليهم من أنفسهم . لكن موقف أبى بكر بالغار يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة ، وأكثرهم فى التصوير براعة . فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصدّيق بالرسول الذى اصطفاه الله فأوحى إليه دينه الحق ! ! وأين لذلك اقتداء الناس ملوكهم وزعماءهم مما جال بخاطر الصدّيق فى هذه اللحظة التى خَشِى فيها الخطر على حياة الرسول ثم كان أشد خشية ألا يدفع الخطر دافع ؟ ! ! هذا مقام من السمو لا سبيل للرقىّ إلى تصويره ؛ ولذا أمسك كتّاب السيرة عن الحديث فيه أو كادوا .

وسكن الناس عن الرجلين وتولاهم اليأس من العثور عليهما ، فخرجا من مخبئهما وارتحلا ، يواجهان ما فى الطريق من أخطار لا تقل عما تعرّضا له بالغار . وحمل أبو بكر ما بقى له من ربح تجارته خمسة آلاف درهم . فلما بلغا المدينة وتلقى الناس رسول الله ببِشر دونه كل بِشر ، بدأ أبو بكر حياته فيها كأى رجل من المهاجرين ، وإن ظلّت له مكانته من رسول الله ، مكانة الخليل والصدّيق والوزير المشير .

أبو بكر بالمدينة

ونزل أبو بكر بالسُّنْح من ضواحى المدينة على خارجة بن زيد من بنى الحارث من الخَزْرَج . فلما آخى النبى بين المهاجرين والأنصار كان أبو بكر وخارجة أخوين . وأدرك أبا بكر أهلُه وأبناؤه الذين كانوا بمكة ، فاستعان بهم على الحياة . فقد عملت أسرته — كما عملت أسرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب — فى الزراعـــة فى أراضى الأنصار مزارعة مع مُلاكها . ولعل خارجة ابن زيد كان من هؤلاء الملاك ؛ فقد توثقت الصلة بينه وبين أبى بكر من بعد ، فتزوج ابنته حبيبة وجاءت منه بأم كلثوم ، وكانت حبيبة حاملا بها حين وفاته .

ولم تقم أسرة أبي بكر معه بدار خارجة بن زيد بالسُّنْح ، بل أقامت أم رومان وابنتها عائشة وسائر أبناء أبي بكر بالمدينة ، بدار تجاور دار أبي أيوب الأنصارى حيث نزل النبي . وكان هو يتردد عليهم ، جاعلا معظم إقامته بالسُّنْح مع زوجه الجديدة .

إصابته بالحمى

وبعد قليل من مقامه بالمدينة أصابته الحمَّى التى أصابت أكثر الذين هاجروا إليها من أهل مكة ، بسبب ما بين موطنهم ومَهْجَرهم من تفاوت فى الهواء ؛ فهواء مكة صحراوى جاف ، وهواء المدينة رطب لكثرة ما فيها من مياه وزروع . يروى عن عائشة أن أباها أصابه من هذه الحمى رَهَقٌ حتى لكان يهذى لشدة ما نزل به منها .

فلما اطمأن إلى موطنه الجديد ، وإلى كدح أهلِه كدحًا أغناهُ عن الأنصار وجَّه كل همه إلى معاونة الرسول فى تثبيت دعوته وتوطيد مركز المسلمين ، لا يألو فى ذلك جهداً ولا يضنّ بتضحية .

ولقد كان الغضب لا يعرف إلى هذا الرجل الوادع سبيلا إلا حين يرى خصوم الدعوة من اليهود والمنافقين يسخرون منها و يكيدون لها . كان رسول الله قد عقد بين اليهود والمسلمين عهداً أن يكون لكلّ حرّيةُ الدعوة إلى دينه ، وأن يباشر من شعائره ما يشاء . وكانت اليهود قد حسبت أول الأمر أنها قادرة على أن تكسب المسلمين من أهل مكة ليكونوا عونًا لهم على الأوس والخزرج . فلما سُقط فى أيديهم وعجزوا عن التفرقة بين المهاجرين والأنصار ، بدءوا يكيدون للمسلمين ويسخرون من دينهم . اجتمع رهط من يهود على رجل منهم يقال له فِنْحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ودخل عليهم أبو بكر فرآهم كذلك ، فقال لفِنْحاص : « ويحك يا فنحاص ! اتّقِ الله وأسلم ! فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل » . قال فنحاص وعلى شفتيه ابتسامة السخر والتهكم : « والله ، يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا . وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى . ولوكان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه

غضبة الصديق على فنحاص

ولو كان غنيًّا عنَّا ما أعطانا » . وإنما يشير فنحاص بعبارته هذه إلى قوله تعالى :

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .

فلما رأى أبو بكر أن الرجل يستهزئ بقول الله ووحيه إلى نبيه ، لم يملك نفسه أن ضرب وجه فنحاص ضربًا شديداً وقال : « والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله ! » .

أليس عجبًا أن تكون فى أبى بكر هذه الحدة وهو من هو لينَ طبع ورقة خُلُق ووداعة نفس ، وأن تكون فيه وقد جاوز الخمسين

وهذه الغضبة على فنحاص تذكرنا بغضبة مثلها ، كانت له قبلها بأكثر من عشر سنين . ذلك حين غلبت الفرس الروم ؛ والفرس مجوس ، والروم أهل كتاب . فقد حزن المسلمون لتهكم المشركين بهم وزعمهم أن الروم غُلبت لأنهم أهل كتاب مثلهم . وتحدث مشرك فى الأمر أمام أبى بكر وألح فى الحديث ، فاغتاظ أبو بكر وراهنه عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام . ذلك يدلك على أنه لم يكن شىء فى الحياة يثير ثائرة أبى بكر أو يهيج غضبه إلا ما اتصل بعقيدته وبإيمانه الصادق بالله ورسوله . كان هذا دأبه وهو فى الأربعين وظل هذا دأبه حين جاوز الخمسين ، وحين تولى الخلافة من بعد ودبر أمر المسلمين .

سلطان الإيمان على أبى بكر

وهذا الإيمان الصادق قد ملك على أبى بكر كل مشاعره فى كل أطوار حياته منذ اتَّبع الرسول . وأنت تستطيع أن تفسر كل أحواله النفسية وكل أعماله وتصرفاته إذا نظرت إليها من هذه الناحية المعنوية . أما ما خلاها فقد كان ضعيف الأثر عنده ؛ فلا تجارته ، ولا أسرته ، ولا أهواؤه ، ولا شىء مما يتأثر به الناس فى الحياة ومما كان يتأثر به كثير من المسلمين فى ذلك العهد ؛ قد كان ذا سلطان عليه . بل كان قلبه ، وكان عقله ، وكانت روحه ، خالصة كلها لله ورسوله ، وكانت كلها الإيمان الذى بلغ من مراتب الإيمان علياها ، مراتب الصدّيقين ، وحَسُن ذلك مُقاما !

موقف الرسول فى غزوة بدر

انظر إليه بعد ذلك فى غزوة بدر : عدّل المكيون صفوفهم ، وعدّل النبى صفوف المسلمين للقتال ، وبنى المسلمون عريشاً للنبىّ فى المؤخَّرة ، بإشارة

سعد بن معاذ ، حتى إذا لم يكن النصر فى جانبهم لحق رسول الله بالمدينة ، وأقام أبو بكر مع النبى فى العريش يرقب معه سير المعركة . فلما ابتدأت ، ورأى محمد كثرة عدوه وقلة رجاله ، استقبل القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه ، وجعل ينشده ما وعده ، ويهتف به أن يتم له النصر ويقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه ؛ ولم يطمئن حتى خفق خفقة من نعاس رأى خلالها نصر الله ، وانتبه من بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبًا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

موقف الصديق فى بدر

كان هذا موقف الرسول : لم يطمئن إلى انتصار رجاله القليلين على أعدائه الكثيرين ، حتى اتصلت روحه بسر من ربه أراه النصر ، وكشف أمامه حجب هذا اليوم الحاسم فى حياة الإسلام . أما أبو بكر فظل إلى جانب الرسول ممتلئًا إيمانًا بأن الله لا ريب ناصرٌ دينه، ممتلئًا مع إيمانه بالنصر إعجابًا بالرسول فى مناجاة ربه ، وإشفاقًا على الرسول لشدة خوفه من مصير ذلك اليوم . وهذا ما دعاه ، والرسول يهتف وينادى ويناشد ويستنجز ربه ما وعده ، ويكرر ذلك ويعيده حتى سقط رداؤه ، أن يهيب به وهو يرد الرداء على منكبيه : يا نبى الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك ! » .

حب الرحمة والحق مجتمعين فى قلبه

ألف الناس فى كثير من المؤمنين بعقيدة لا يمارون فيها ولا يداجون ، أن يبلغ منهم التعصب لعقيدتهم مبلغًا يجعلهم أشداء لا يهنون ، غلاظًا لا يلينون . بل إن منهم لكثيرين لا يطيقون النظر إلى وجوه من يخالفونهم فى هذه العقيدة . هؤلاء يرون أن الإيمان الحق يقتضيهم هذا التعصب وهذه الشدة والغلظة . أما الصديق فكان ، على جلال إيمانه وعظم تعصبه لهذا الإيمان وشدته فيه شدة لا تهن ولا تتردد ، بعيداً عن الغلظة ، قريبًا إلى اللين ، عفوًا عند القدرة ، محسنًا متى تم لإيمانه النصر ، بذلك جمع فى قلبه بين مبدأين من أسمى

المبادئ الإنسانية ؛ حب الحق ، والرحمة . فى سبيل الحق كان يستهين بكل شىء ، وبالحياة قبل كل شىء . فإذا علت كلمة الحق ، غلب فيه جانب الرحمة ، وانقلب مؤمناً بها إيمانه من قبلُ بالحق ، ضعيفاً لها حتى لتذرف عينه الدمع ترسله مدراراً .

موقفه من أسرى بدر

تم النصر للمسلمين فى بدر فرجعوا إلى المدينة ومعهم أسرى قريش . وكان هؤلاء يطمعون فى الحياة ، وفى العود إلى مكة ، وإن أغلوا الفداء . لكنهم كانوا يخشون شدة محمد وبطشه بهم بعد الذى أذاقوه وأصحابه سنوات مُقامه بينهم . قال بعضهم لبعض : « لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا ، وأكثرهم رحمة وعطفاً ، ولا نعلم أحداً آثرَ عند محمد منه » . وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : « يا أبا بكر إن فينا الآباء ، والإخوان ، والعمومة ، وبنى العمومة ؛ وأبعدنا قريب . كلم صاحبك يمنّ علينا أو يفادنا » . فوعدهم خيراً . وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم ، فتحدثوا إليه بمثل حديثهم لأبى بكر ، فنظر إليهم شزراً ولم يجب . وأقام أبو بكر نفسه شفيع هؤلاء القرشيين المشركين عند رسول الله، فجعل يستعطفه عليهم ويُلين قلبه لهم ، ويدفع حجج عمر فى الشدة بهم ، ويذكر ما بينهم وبين النبى من قرابة . وهو إنما صنع ما صنع من ذلك لما فطر عليه من طيبة القلب والإيمان بالرحمة كإيمانه بالحق والعدل . ولعله كان يرى بعين بصيرته أن لسلطان الرحمة الغلبَ آخر الأمر ، وأن الناس ينزلون على حكم صاحبها وعلى عقيدته ما رأوا رحمة إنسانية سامية ، مبرأة من الضعف ، منزهةً عن الهوى، لا تحركها فى النفس إلا القوة والقدرة، وإلا سلطان الإنسان على نفسه سلطاناً يكبح من بطش القوة ويُلين من عسف القدرة .

اتجاه حياته بعد بدر

كانت غزوة بدر مبدأ حياة جديدة للمسلمين ، وكانت كذلك مبدأ اتجاه جديد فى حياة أبى بكر . بدأ المسلمون ينظّمون سياستهم إزاء قريش وإزاء من ناوأهم من القبائل المحيطة بهم ، وبدأ أبو بكر يشتغل مع النبى بهذا التنظيم أضعاف شغله بحماية المسلمين أيام مُقامه بمكة . فقد كان المسلمون جميعاً يعلمون أن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأرها من بدر ؛ وكانوا يعلمون

أنهم فى حاجة إلى حماية دعوتهم الناشئة ، وإلى دفع كل معتد عليهم . فلا بد من التقدير لذلك كله ، وتدبير الأمر له . وما كان لأبى بكر ، وموقفه من رسول الله ما رأيت ، أن يشغل نفسه من بعد بغير هذا التقدير والتدبير ، حتى لا تكون فتنة داخلية فى المدينة بتحريض اليهود والمنافقين ، وحتى لا يغزو المدينة غاز من الخارج .

كان هو وعمر وزيرى الرسول

والحق أن نصر المسلمين ببدر قد أعز كلمتهم ، فحرك فى نفوس منافسيهم حقداً عليهم أى حقد . حرك فى نفوس اليهود حفائظ كانت ساكنة ، وحرك فى قلوب القبائل المجاورة للمدينة مخاوف كانت مطمئنة . ولم يكن بد ، لاتقاء ما ينجم عن هذا وذاك ، من سياسة حكيمة ، وتقدير دقيق ، ومشاورة متصلة بين النبى وأصحابه . وقد اتخذ النبى من أبى بكر وعمر وزيرين يمحص على ضوء ما بينهم من تباين فى الطبع مع صدق فى إخلاص المشورة ، ما ينظم به سياسته الناشئة . هذا مع مشاورته غيرهما من سائر المسلمين ، مشاورة كان لها أثرها الكبير فى جمع الكلمة ، وفى توزيع التَّبعة على الجميع ، توزيعاً يُشْعِر كلَّ واحد بأن عليه منها قسطاً ونصيباً .

وكان من أثر ما تحرك من حفائظ اليهود أن حاصر المسلمون منهم بنى قَيْنُقاع وأجلوهم عن المدينة . وكان من أثر ما تحرك من مخاوف القبائل أن جعل المحيطون بالمدينة منهم يجتمعون للاعتداء عليها ، فإذا سمعوا بخروج محمد إليهم ولَّوا فراراً وملئت قلوبهم رعباً .

موقفه فى غزوة أحد

وكانت هذه الأنباء تصل مكة ، فلا تصد قريشاً عن التفكير فى الثأر لبدر . ولقد ذهبت تلتمس هذا الثأر ، فالتقت بالمسلمين عند أُحُد ، فدارت الدائرة وجه النهار عليها ؛ لكن مصير اليوم تغير حين خالف رماة المسلمين أمر النبى ، وتركوا مواقفهم وانطلقوا يغنمون مع الغانمين . فقد اهتبل خالد بن الوليد الفرصة فأوقعت قريش بالمسلمين فاضطربوا ؛ وأصيب النبى بحجارة كان المشركون يقذفونها ، فوقع لشِقِّه وأصيب فى وجهه ، وتنادت قريش أنه مات . ولولا أن أحاط به من أبطال المسلمين من افتدَوْهُ بأنفسهم وأرواحهم ، لكان لله فى خلقه من يومئذ شأن غيرُ هذا الشأن . ومن يومئذ صار أبو بكر أكثر

ملازمةً للنبي فى غزواته وحين مقامه بالمدينة .

وأنت تذكر أن حياة المسلمين ، إلى أن استقر لهم الأمر بعد فتح مكة وإسلام ثقيف بالطائف ، قد كانت حياة غزو ، ودفعاً للغزو ، أو استعداداً لدفعه . دع عنك الغزوات الصغرى التى كانت أدنى إلى المناوشات . فقد كان اليهود ، وعلى رأسهم حُيَىٌّ بن أخطب ، لا يفتأون يؤلّبون على المسلمين . وكانت قريش تبذل جهد الطاقة لإضعافهم والقضاء على سلطانهم . فكانت غزوات بنى النَّضير والخندق وبنى قُرَيْظة وما تخللها من الغزوات ، أثر سياسة اليهود ، وحقد قريش .

صار أبو بكر أكثر ملازمة للنبى فى هذه المواقف والمواقع جميعاً ، وهو أشدّ ما يكون برسالته إيماناً وتصديقاً . فلما اطمأن رسول الله إلى منَعَة المدينة وآن له أن يوجّه خُطته توجيهاً جديداً يمهّد الله به لإكمال دينه ، كان لأبى بكر مواقف زادت المسلمين اقتناعاً بأنه الرجل الذى يلى رسول الله مكانة من نفوسهم ، وسموّاً فى تقديرهم .

موقفه فى الحديبية

بعد ست سنوات من هجرة المسلمين إلى المدينة أذّن محمد فى الناس بالحج إلى البيت العتيق . وبلغ قريشاً مسيرةُ القوم ، فأقسموا لا يدخل محمد مكة عليهم عنوة . وأقام محمد وأصحابه بالحُدَيْبِية بظاهر مكة ، وهو مستمسك بالسلام ، رافض كلّ دعوة إلى منازلة قريش ، معلن أنه جاء حاجّاً ولم يجئ غازياً . وتبادل مع قريش الرسل ، وانتهى الأمر بينه وبينهم إلى عهد رضى به أن يرجع عنهم عامَه ، وأن يعود إليهم العام الذى يليه .

غضب كثير من المسلمين ، بينهم عمر بن الخطاب ، لتراجعهم ورجوعهم ، ورأوا فى هذا العهد إعطاءً للدنيّة فى دينهم . أما أبو بكر فآمن وصدّق بحكمة رسول الله . فلما نزلت سورة الفتح آمن الناس جميعاً بأن عهد الحُديبية كان فتحاً مبيناً ، وبأن أبا بكر كان الصدّيق فى هذه ، كما كان فى غيرها من مواقفه .

ازدياد قوة المسلمين وإقبال الوفود

كانت الدعوة الإسلامية تزداد على الأيام كمالا ، وكان المسلمون بالمدينة يزدادون بذلك بأساً وقوة . وكان من مظاهر قوتهم أن حاصروا اليهود فى خَيْبَر وفدَك وتيماء ، وأخضعوهم لسلطانهم ، تمهيداً لإجلائهم عن بلاد

العرب ، ثم كان من مظاهر قوتهم وكمال الدعوة أن أرسل محمد إلى الملوك والأمراء بفارس ، وبُزنطية ، ومصر ، والحيرة ، واليمن ، وما جاور بلاد العرب أو دخل فيها من الإمارات ، يدعوهم إلى الإسلام . فأما المظهر الأسنى لهذا الكمال وهذه القوة ، فذلك فتح مكة ، وحصار الطائف . بهذا كله تألّق نور الدين الجديد فى شبه الجزيرة ، وجاوزها إلى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا قابضتين على ناصية العالم فى ذلك العصر : الروم ، وفارس ، وبذلك اطمأن الرسول والمسلمون إلى نصر الله ، وإن استمسكوا بخُطة الحذر ، حتى لا يدهمهم من أية ناحية من يحاول أن يُغشّى هذا النور أو أن يضعف سلطانه .

تألق نور الإسلام

وحين رأت العرب هذه القوة جاءت وفودهم تترى من أنحاء شبه الجزيرة ، تعلن إيمانها بالدين الجديد . أليس هذا الداعى إليه قد كان وحيداً فريداً ، وها هو ذا قد انتصر على اليهود ، وعلى النصارى ، وعلى المجوس ، وعلى المشركين !! وهل ينتصر إلا الحق ! وهل آية أدل على أن دعوته هى الحق الخالص من انتصاره على هؤلاء جميعاً ، وهو لا يبتغى عليهم سلطاناً ، ولا يطلب إليهم إلا أن يؤمنوا بالله ، وأن يعملوا الصالحات ! ! هذا منطق إنسانى أقرّه الناس فى كل زمن وآمنوا به أينما وجدوا . وهو منطق يقره العقل ما أثبتت السنون قوة حجته فلم يغلبه غالب .

حج أبى بكر بالناس

وأذِن الله أن يتم المسلمون فروض دينه . والحج تمام هذه الفروض . لكن تتابع الوفود لم يتح لرسول الله أن يغادر المدينة إلى بيت الله الحرام . لذلك أمر أبا بكر أن يحج بالناس ، فخرج فى ثلاثمائة من المسلمين ، حجّوا وطافوا وسعَوْا . وفى هذا الحج أعلن علىّ بن أبى طالب إلى الناس — أو أعلن أبو بكر فى رواية أخرى — أن لا يحج بعد ذلك العام مشرك . ثم أجّل الناس أربعة أشهر ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم . ومن يومئذ إلى اليوم ، وإلى ما يشاء الله ، لم يحج إلى البيت الحرام مشرك ، ولن يحج إليه مشرك .

حجة الوداع ثم بعث أسامة

وفى السنة العاشرة من الهجرة ، حج رسول الله حَجّة الوداع ، وحج أبو بكر معه . وسار صلى الله عليه وسلم ، وصحبه نساؤه جميعاً ، وتبعه من

العرب مائة ألف أو يزيدون . ولم يطل مَقام النبي بالمدينة بعد عوده من الحج ، حتى أمر بتجهيز جيش لَجِب إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ، ومنهم أبو بكر وعمر . وعسكر هذا الجيش بالجرف ، ثم ترامى إليه أن رسول الله مرض ، فلم يتحرك إلى غرضه ؛ لأن المرض اشتد بالنبي شدة أثارت مخاوف الناس عليه .

النبي يأمر أن يصلي أبو بكر بالناس

ولما ثقل عليه المرض أمر أن يصلي أبو بكر بالناس . روى عن عائشة أنها قالت : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس . قلت يا رسول الله : إن أبا بكر رجل أسيفٌ وإنه متى يقم مَقامك لا يَسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! قال : مروا أبا بكر يصلي بالناس. فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مَقامك لا يَسمع الناس، فلو أمرت عمر ! فقالت له حفصة ، فقال: إنكن لأنتن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ! فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً » .

وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي . وإنه لغائب يومًا إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلِّي بالناس . وكان عمر جهير الصوت ، فلما كبَّر في المسجد سمعه محمد من بيت عائشة ، فقال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . ولقد ظن بعضهم أن النبي استخلف أبا بكر من بعده بما أنه قد أمره بالصلاة مكانه ؛ فالصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

وفي أثناء هذا المرض خرج محمد إلى المسلمين يومًا بالمسجد ، وقال فيما قاله لهم : « إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ، ثم أمسك . وقد أدرك أبو بكر أن النبي إنما يعني نفسه ، فأجهش بالبكاء وقال : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » ، وأمر محمد أن تقفل أبواب المسجد إلا باب أبي بكر ، ثم قال مشيراً إلى الصدِّيق : « إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه . وإني لو كنت متخذاً من

خليل رسول الله

العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتّى يجمع الله بيننا عنده » .

وفى اليوم الذى قبض فيه النبى خرج ساعة الصبح إلى المسجد ، معتمداً على علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس، وكان أبو بكر يصلّى ساعتئذ بالناس . فلما رأى الناس النبى فرحوا وتفرّجوا ، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . وأحسّ أبو بكر أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فتأخر عن مكانه ، فأومأ إليه النبى : أن كما أنت ، وجلس رسول الله عن يسار أبى بكر فصلّى قاعداً .

وعاد النبى بعد هذه الصلاة إلى دار عائشة. لكنه ما لبث أن عاودته الحمى ، فدعا بإناء فيه ماء بارد جعل يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه . وبعد سويعة من ذلك اختار الرفيق الأعلى ، واختار ما عند الله .

وترك رسول الله هذه الحياة الدنيا ، وقد أكمل الله للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته . فماذا يصنع العرب من بعده ؟ إنه لم يستخلف خليفة ؛ ولم يضع للحكم نظاماً مفصّلا . فليجتهدوا ، ولكل مجتهد نصيب .

الفصل الثاني

بيعة أبي بكر

ذهول المسلمين بعد وفاة النبي

اختار الله رسوله إلى جواره فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ١١ للهجرة (الثالث من شهر يونيو سنة ٦٣٢ للميلاد). وكان صلى الله عليه وسلم صبح ذلك اليوم قد شعر بشيء من العافية من مرضه، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد، وتحدث إلى المسلمين، ودعا لأسامة بن زيد بالخير، وأمره أن يسير لغزو الروم. فلما تطاير إلى الناس أن رسول الله قد مات بعد سويعات من جلوسه بينهم وحديثه إليهم تولاهم الذهول، وقام عمر بن الخطاب فيهم خطيباً ينفى الخبر، ويذكر أن رسول الله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. وانطلق عمر يهدد القائلين بوفاة الرسول ويذكر أنه صلى الله عليه وسلم سيرجع إليهم فيقطع أيديهم وأرجلهم.

موقف أبي بكر من وفاة النبي

وكان أبو بكر قد ذهب إلى داره بالسُّنْح من ضواحى المدينة بعد أن عاد النبي عليه السلام من المسجد إلى دار عائشة. فلما نما فى الناس نبأ وفاته ذهب فى أثر الصديق من أبلغه إياه فكر راجعاً، فبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم، فلم يقف بل قصد إلى بيت عائشة حيث ألفى النبي صلى الله عليه وسلم مسجى فى ناحية من البيت، فكشف عن وجهه وجعل يقبله ويقول: «ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً!»، وخرج إلى الناس فقام فيهم فقال: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت». ثم تلا قوله تعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل. أَفَئِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ». فلما سمع عمر هذه الآية خرَّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه، وأيقن أن رسول الله قد مات. ووجم الناس لما سمعوا ولما رأوا، وأقاموا فى ذهولهم لا يدرون ما يصنعون.

تصوير ناحية من نفسيته

نقف هنيهة ها هنا لنصور ناحية من نفسية أبي بكر يدل عليها موقفه هذا أبلغ الدلالة . فلو أن رجلا من المسلمين جاز أن يبلغ منه الجزع لوفاة الرسول ما بلغ من عمر ، لكان ذلك الرجل أبا بكر ؛ فهو صفيُّ النبي وخليله ، ومن آثره فى كل موقف على نفسه . وهو الذى أجهش بالبكاء لقول رسول الله : « إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . وهو الذى قال حين سمع هذه الكلمة والعبرة تخنقه : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » . لكن جزعه لوفاة الرسول لم يُذهله ما أذهل عمر . وهو لم يلبث حين أيقن أن الله اختار رسوله إليه ، أن خرج إلى الناس وخطبهم بما قرأت .

قوته النفسية وبعد نظره إلى المستقبل

وهذه الكلمات التى ألقاها عليهم ، وهذه الآية التى تلاها من القرآن لإقناعهم ، تدل على قوة فى مواجهة الحقائق تنأى بصاحبها عن أن يذهله نبأ فاجع كموت رسول الله . وقد اقترنت هذه القوة النفسية بصفة أخرى زادتها جلالا ومهابة ، هى بُعْدُ النظر إلى المستقبل . وهاتان الصفتان تثيران العجب من رجل كله الرفق والرقة ، وكله التقديس لمحمد والمحبة له أكثر من حبه الحياة وما فيها .

وهذه القوة النفسية البالغة التى كانت سند أبى بكر فى هذه الساعة العصيبة الرهيبة ، ساعة فجيعة المسلمين لفقد نبى الله ورسوله ، هى التى كانت سنده فى الساعات الكثيرة العصيبة التى مرَّت من بعدُ به وبالمسلمين ، وهى التى وَقَتِ المسلمين ووقت الإسلام فتنة لولاها لتعرَّضوا لمحن لا يعلم إلا الله ما كان يصيبهم ويصيب النشأة الجديدة من جرائها .

لمن عسى أن ينتقل الأمر من بعد الرسول

لم يكن عمر والمسلمون الذين أحاطوا به واستراحوا إلى قوله إن النبي لم يمت ، إلا الذين أذهلهم النبأ عن التفكير فيما وراءه . أما الذين أيقنوا بحقيقة هذا النبأ أول ما عرفوا به ، فلم يَثْنِهم الحزن عن هذا التفكير . فقد آل أمر المدينة إلى الرسول بعد أن استقر بها ، وبعد أن تم لدينه السلطان فيها . فلمن عسى أن ينتقل هذا الأمر من بعده ، وقد امتد سلطان الرسول على سائر العرب بعد أن دانوا بالإسلام ، وبعد أن ارتضى الكتابيون الذين أقاموا على دينهم أن يدفعوا الجزية ؟ ترى أيظل للمدينة هذا السلطان ؟ وإن ظل لها فلمن من أهلها يؤول ؟ .

موجدة الأنصار على المهاجرين

لقد كان الأنصار من أهل المدينة يجدون على المهاجرين أنهم آووهم ونصروهم أول ما جاءوا إليهم ضيوفاً مع الرسول ، فلما اطمأنوا أرادوا أن يستأثروا بالأمر دونهم . كانت هذه روحهم فى عهد النبى ، فكان من الطبيعى أن تظهر واضحة حين وفاته ؛ بل لقد ظهرت فى حياة الرسول بعد فتح مكة وغزاة حنين والطائف . فقد أجزل محمد العطاء من فىء هذه الغزاة إلى المؤلَّفة قلوبُهم من أهل مكة . فلما رأى الأنصار ذلك تحدَّث فيه بعضهم إلى بعض وقال قائل منهم : لَقِى والله رسول الله قومه . فلما بلغت هذه المقالة النبى طلب إلى سعد بن عُبادة سيد الخزرج أن يجمعهم إليه ، فلما اجتمعوا قال لهم : « يا معشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتنى عنكم ، وجِدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم ! ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم ؟ » . وأطرق الأنصار لما سمعوا ، وكان كل جوابهم : « بلى ! الله ورسوله أمنُّ وأفضل » . وسألهم النبى : « ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ! » . فظلوا مطرقين ولم يزيدوا على أن قالوا : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل » .

الأنصار وعطاء المؤلفة قلوبهم

هنالك تولى محمد الجواب عنهم فقال : « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدَقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك » قال هذه العبارة والتأثر بادٍ عليه ، ثم أردف : « أوجدتم ، يا معشر الأنصار فى لُعاعَة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليُسلموا ووُكلتكم إلى إسلامكم ! ! ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ! ! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . ولقد بلغ من تأثر الأنصار بهذه العبارة التى صدرت من أعماق قلب النبى ، فقالها وكله العطف والمحبة لأولئك الذين بايعوه ونصروه وأعزّوه أن بكوا وقالوا : « رضينا برسول الله قِسْماً وحظّاً » .

الأنصار حين فتح مكة

ولم يكن فىء حُنَيْن وعطاء المؤلفة قلوبهم أول ما أثار المخاوف فى نفوس الأنصار ، بل ثارت مخاوفهم قبل ذلك وعلى أثر فتح مكة ، حين رأوا النبى

يقوم على الصفا ويدعو ، وحين رأوه يحطم الأصنام ويتم فى يوم واحد ما دعا إليه منذ عشرين سنة. فقد خيل إليهم أنه تارك المدينة فعائد إلى وطنه الأول. وقال بعضهم لبعض : «أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده ملقيم بها ؟» . فلما اتصل بمحمد نبأ مخافتهم قال : «معاذ الله. المحيا محياكم، والممات مماتكم».

طبيعي وذلك كان شعور الأنصار أن يسرعوا إلى التفكير فى أمر مدينتهم أول ما عرفوا أن النبي مات . ترى أيظل أمر هذه المدينة وأمر العرب إلى المهاجرين الذين أقاموا ضعافاً بمكة لا مأوى لهم ولا نصير حتى أعزتهم المدينة، أم يكون الأمر لأهل هذه المدينة الذين قال فيهم الرسول إنه أتاهم مكذباً فصدقوه ، ومخذولاً فنصروه ، وطريداً فآووه ، وعائلا فآسوه ؟ تحدث بعض الأنصار إلى بعض فى هذا، وتداعوا إلى سقيفة بنى ساعدة . وكان سعد بن عبادة مريضاً فى داره فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأى فيهم . وأصغى سعد إلى حديثهم ، ثم قال لابنه أو لبعض بنى عمه : «إنى لا أقدر لشكواى أن أسمع القوم كلهم كلامى ، ولكن تلق منى قولى فأسمعهموه» ، ثم جعل يتكلم فينقل الرجل إلى الحاضرين كلامه . قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «يا معشر الأنصار ، إن لكم لسابقة فى الدين ، وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ؛ وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به . فلما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ، وحتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قرير عين ؛ فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس» .

الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة

خطبة سعد بن عبادة فى الأنصار

سمع الحاضرون مقالة سعد ثم أجابوه بأجمعهم : «وفقت فى الرأى ، وأصبت فى القول، ولن نعدو ما رأيت . نوليك هذا الأمر ؛ فإنك فينا مقنع ، ولصالح المؤمنين رضا» .

أفكان هذا الإجماع صريحًا قويًّا صادراً عن عزيمة لا تهن ولا تكبو ؟ لو أنه كان كذلك لأسرع القوم إلى بيعة سعد بن عبادة ، ولدعوا الناس إلى متابعتهم على بيعته . ولكن القوم ما لبثوا أن ترادُّوا الكلام بينهم قبل أن يُقبل أحد على بيعة سعد : قال قائل منهم : « فإن أبتْ مُهاجِرةُ قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تُنازِعوننا هذا الأمر بعده ؟ » . وأنصت الحاضرون إلى هذا القول ، ورأوا فيه من الحق ما حسبه بعضهم لا يدفع . هنالك قالت طائفة منهم : « فإنا نقول إذن منا أميرٌ ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً » .

هذا أول الوهن

ولم يخف على ابن عبادة ما تنطوى عليه هذه المقالة من تردد يقعد بصاحبه دون غايته ؛ لذلك قال حين سمعها : « هذا أول الوهن » . ولعله إنما رآها أول الوهن أن رأى الذين يقولونها من بنى الأوْس . فما كان بنو الخَزْرَج ليقولوا مثلها وهو رئيسهم الذى يرشحونه لولاية الأمر من بعد الرسول . والأوس والخزرج كانوا دائمًا على خلاف بينهم ، منذ نزل أجدادهم الأولون المدينة قادمين من اليمن حين هجرة الأزْد إلى الشمال . فقد ألفى هؤلاء الأجداد اليهود بالمدينة فخضعوا لسلطانهم زمنًا ، ثم ثاروا بهم وأنزلوهم عن مكان السلطان منهم . ومن يومئذ نشبت بين القبيلتين خصومة طالما ردَّت السلطان لليهود . ورأى الفريقان ما يجره ذلك عليهم من ضعف ، فهموا أن يولوا عليهم أحدهم عبد الله بن محمد من الخزرج ، بعد أن أفنت وقعة بُعاث الكثيرين منهم ، وأعادت كلمة إسرائيل بينهم . وإنهم لكذلك إذ قدم منهم جماعة مكة حاجّين ، فتعرَّض لهم النبي يدعوهم إلى الله ، وقال بعضهم لبعض : « والله إنه للنبي الذى تواعدكم به يهود ، فلا يَسْبِقُنَّكم إليه » . ثم أجابوا دعوته ، وأسلموا وقالوا له : « إنا تركنا قومنا — أى الأوس والخزرج — ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعك الله بهم ؛ وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك » وعاد هؤلاء إلى المدينة ، فأنبئوا قومهم بما رأوا ، فكان ذلك مقدمة بيعة العقبة الكبرى ، ومقدمة هجرة الرسول إلى المدينة ، وبدء انتشار الإسلام فيها .

جمع الدين الجديد كلمة المؤمنين به ، ثم زادهم التفافهم حول النبي إخاء

ومودة . بذلك ضعف سلطان اليهود ضعفاً مهّد لجلائهم من بعد عن المدينة وعن بلاد العرب جميعاً . على أنه بقيت مع ذلك فى نفوس الأوس والخزرج آثار من خصومتهم الأولى ، كانت تبدو كلما حركها من اليهود أو المنافقين من ادّعى الإسلام باطلا ليفرّق بين أهله . وذلك ما يدعو إلى الظن بأن سعد بن عُبادة لم يقل حين نظر إلى القوم فى السقيفة يستمعون إلى من يقول : منا أمير ومن قريش أمير : « هذا أول الوهن » إلا لأن أصحاب هذه المقالة كانوا من بنى الأوس .

بينما كان الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتداولون أمرهم بينهم يريدون أن ينفردوا بالسلطان على العرب ، كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وطائفة من كبار المسلمين ومن سوادهم يتحدثون بالمسجد عن وفاة الرسول ، وكان أبو بكر وعلىّ بن أبى طالب وأهل بيت النبى يحيطون بجثمانه ويعدّون العدة لتجهيزه ودفنه . وبدأ ابن الخطاب مذ أيقن بوفاة النبى يفكر فيما عسى أن يكون الأمر من بعده . ولم يدُرْ بخَلَده أن الأنصار سبقوه إلى هذا التفكير ، أو أنهم يريدون أن يستبدوا بالأمر دون الناس . قال ابن سعد فى الطبقات:

حديث عمر ابن الخطاب وأبى عبيدة ابن الجراح عن الخلافة

« أتى عمرُ أبا عبيدة بن الجراح ، فقال : ابسط يدك فلأبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فَهَّةً[1] قبلها منذ أسلمت . أتبايعنى وفيكم الصدّيق وثانى اثنين » وإنهم لفى هذا الحديث إذ جاءهم نبأ الأنصار واجتماعهم فى سقيفة بنى ساعدة . فأرسل عمر إلى أبى بكر فى بيت عائشة أن اخرج إلينا ، فأجاب أبو بكر الرسول : « إنى مشتغل» . فرد عمر رسوله يقول لأبى بكر : « إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره » .

وخرج أبو بكر إلى عمر وقد تولاه العجب ، أىّ أمر يمكن أن يدعى إليه فيصرفه عن جهاز رسول الله ! قال عمر : « أمَا علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير ! ! » ولم يتردد أبو بكر حين سمع ذلك

أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يذهبون إلى سقيفة بنى ساعدة

(١) الفهة : السقطة والجهلة .

أن مضى مع عمر مسرعينَ إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح . وكيف يتردد والأمر أمر المسلمين ومصيرهم ، بل أمر هذا الدين الذى أوحى إلى محمد ومصيره ! إن حول جثمان الرسول أهله يقومون بما يجب لجهازه ودفنه ، فلينطلق مع صاحبيه إلى السقيفة ، فذلك واجب عليه لله ورسوله لا يستطيع غيره أن ينهض به . وهو لم يتخل يوماً عن أداء الواجب والنهوض بأجسم التّبِعات وإن اقتضاه ذلك بذل ماله ونفسه .

مضى ثلاثة الرجال لم يثنهم أن لقيهم عاصم بن عدى وعويم بن ساعدة فقالا لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون . فلما قالا : « يا معشر المهاجرين ، لا تأتوهم واقضوا أمركم » قال عمر : « والله لنأتينَّهم » .

اجتماع السقيفة وعظيم خطره

وبلغ الثلاثة السقيفة والأنصار لا يزالون فى حوارهم لم يبايعوا سعداً ولم يقطعوا فى ولاية الأمر برأى . ودهش الأنصار حين رأوهم فأمسكوا عن القول ، وكأنما سُقط فى أيديهم . وسأل عمر بن الخطاب عن رجل مزمَّل بين ظهرانَيهم من هو ، فأجابوا : هذا سعد بن عبادة به وجع . وجلس أبو بكر وصاحباه بين القوم وكل تتمشى فى نفسه هواجس يسأل نفسه عمَّ يسفر هذا الاجتماع ؟

والحق أنه كان اجتماعاً جليل الخطر فى حياة الإسلام الناشئ . ولولا ما أبدى أبو بكر فى هذا الاجتماع من قوة الحزم وصلابة الإرادة لأوشك هذا الدين الجديد أن يثور الخلاف عليه فى موطنه كما ثار فى مواطن أخرى من بلاد العرب ، وأن يثور وجثمان صاحب الرسالة ما يزال فى بيته لم يثو فى قبره .

أرأيت لو أن الأنصار أصروا على أن يستبدوا بالأمر دون الناس استجابة لدعاء سعد بن عبادة ولم ترض قريش أن يكون لغيرها الأمر ، فأى مسرح للثورة كانت تصبح مدينة الرسول ! ولأية ثورة جائحة مسلحة وجيش أسامة فى أحشائها فيه المهاجرون وفيه الأنصار وكلهم مدجَّج بسلاحه قد لبس درعه واتخذ للقتال عدته ! ! ولو أن المهاجرين الذين ذهبوا إلى السقيفة كانوا غير أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ممن ليس لهم فى نفوس المسلمين جميعاً ما لوزيرى

رسول الله ولأمين الأمة من مكانة ، لشجر الخلاف بينهم وبين الأنصار ، ولخيف على جماعة المسلمين من الاختلاف وما يجر إليه ، ولكان لذلك أثره الذى لا يفكر اليوم فيه مؤرخ ، ولمـّا وقف الأكثرون من اجتماع السقيفة عند رواية الحوادث وذكر الخطب التى تبودلت وما تم على أثرها من بيعة أبى بكر . أما الذين يقدرون الحوادث قدرها ، فيرون لهذا الاجتماع التاريخى من الأثر فى حياة الإسلام ما كان لبيعة العقبة الكبرى ، وما كان لهجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، ويرون فيما كان من أبى بكر وحسن تصرفه فى الموقف عمل الرجل السياسى ، بل رجل الدولة البعيد مرى النظر ، والذى يقدر النتائج ويرتب للاحتمالات ، ويوجه كل جهده إلى الغرض الذى يريد أن يحقق به أعظم الخير ويتقى به كل ضرّ أو أذى .

أبو بكر يبدأ الهجوم السلمى

ألِفنا فى حياتنا الحاضرة عبارات يصوّر بها الساسة أحوالا أو أعمالا يحسبونها بدْعاً لم يسبقهم إليه فى التاريخ أحد . ومن مألوف ما نسمع فى هذا الزمن عبارة « الهجوم السلمى » . وهذا الهجوم السلمى لم يكن مجهولا فى العصور الماضية . بل هذا الهجوم هو ما لجأ إليه أبو بكر وأتمه صاحباه فى ذلك الاجتماع التاريخى الجليل الخطر .

لمـّا اطمأن بالمهاجرين الثلاثة المجلس خرج الأنصار من صمتهم وزايلتهم دهشتهم ، ولم يُخْفِ أشدهم حماسة حرصهم على أن يكون الأمر من بعد الرسول لهم . قال عمر : « وكنت قد زوّيت[1] كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق ، فقال لى أبو بكر : رويداً حتى أتكلم ثم انطِقْ بعدُ بما أحببت » . إنما خشى أبو بكر شدة عمر فى القول وليس الموقف موقف شدة أو عنف بل موقف سياسة وحسن مدخل . نهض أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله وما جاء به من رسالة التوحيد ثم قال :

خطبته الأولى فى الأنصار

« . . . عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة

---

(١) زويت : جمعت . ويروى « زورت » .

أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم، وكلّ الناس مخالف لهم زارٍ عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشَنَف[1] الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم . فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

« وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا يُنكر فضلُهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تُقْضَى دونكم الأمور » .

نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . ما أقرب هذا القول من رأى الأنصار الذين قالوا : منا أمير ومن المهاجرين أمير . وهذا القول أدخل فى باب النظام وأدنى إلى أن تسير الأمور سيرة صلاح وإصلاح . هذا حق . ولعل أبا بكر قصد إليه فكان قصده حسن السياسة وبعد النظر . ولعل الأوس الذين كانوا ينفسون على الخزرج قد استراحوا إليه . ولعل كثيرين من بنى الخزرج أنفسهم لم ينفروا منه . فهذا أبو بكر لم يرد للمهاجرين أن يستبدوا بالأمر دون الناس كما فعل سعد بن عبادة . بل جعل الأنصار وزراء فأشركهم فى الأمر ولم يشرك غيرهم ، وإن كان من غيرهم فى بعض أنحاء شبه الجزيرة من هم أكثر قوة وأعزّ نفراً . وهو إنما أشركهم على الأساس الذى جعل به الإمارة للمهاجرين : مقامهم فى السبق إلى نصر الرسول وتأييده .

لا جرم إذن أن يستريح الجميع إلى هذا القول ، فهو عدل كل العدل ، وأساسه الحق كل الحق .

رد الأنصار على أبي بكر

ورأى الذين أخذت منهم الحماسة للأنصار مأخذها ما ترك كلام أبي بكر فى نفوس أهل السقيفة ، وخشوا أن ينفضّ إجماعهم الأول وأن يغصبهم المهاجرون الأمر ويستأثروا بالسلطان دونهم ، هنالك قام أحدهم فقال : « أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يا معشر المهاجرين رهط

---

(١) الشنف : البغض .

منا وقد دَفَّت دافَّة من قومكم وإذا هم يريدون أن يختزلونا[١] من أصلنا ويغصبونا الأمر » ولم يرض أبو بكر أن يذر مقامه بعد هذا الذى سمع ، فتوجَّه كرة أخرى للأنصار فقال : « أيها الناس ؟ نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله. أسلمنا قبلكم ، وقدّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ. وَالأَنْصَار والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) ، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو. أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً ؛ فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء » .

لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش

كرر أبو بكر هذه الكلمة الأخيرة التى تركت من الأثر فى النفوس أول ما قيلت ما توجّس غلاة الأنصار معه خيفة، فقام الحباب بن المنذر ابن الجموح فقال :

تحرج الموقف بين المهاجرين والأنصار

« يا معشر الأنصار ! املكوا عليكم أمركم، فإن الناس فى فيئكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون . فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وينتقض عليكم أمركم . أبى هؤلاء إلا ما سمعتم . فمنا أمير ومنكم أمير » .

لم يكد الحباب يفرغ من حديثه حتى نهض عمر بن الخطاب ، وكان قد أمسك قبل ذلك عن الكلام طوعاً لأبى بكر ، فقال : « هيهات لا يجتمع اثنان فى قَرَن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تُولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولىُّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مُدْلٍ بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورّط فى هلكة ! » .

---

(١) أن يختزلونا : أن يقتطعونا وينحبوا بنا منفردين .

وأجاب الحباب عمر : « يا معشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر . فإن أبَوْا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولَّوا عليهم هذه الأمور. فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جُذَيلُهَا المحكاك وعُذَيقها المُرجَّب ! أما والله إن شئتم لنعيدنها جَذَعة ! » .

قال عمر وقد سمع لهذا النذير : « إذن يقتلك الله » وأجاب الحباب : « بل إياك يقتل » .

هاتان العبارتان الأخيرتان نذير شر . ولو أن الحباب كانت فى جانبه كثْرة الأنصار لكان أيسر ما ينشأ عنها أن يضجوا وأن يسرعوا إلى نصرته بالإقبال على مبايعة سعد بن عبادة ، وليفعل المهاجرون بعد ذلك ما يشاءون . ولعل طائفة منهم قد تغامزت بذلك أو بشىء يشبهه يكون جواباً لهذا الحوار العنيف بين عمر والحباب . بل لقد ذكر الطبرى أن الحباب انتضى سيفه وهو يتكلم ، فضرب عمر يده فسقط السيف ، فأخذه عمر ثم وثب على سعد بن عبادة . على أن أبا عبيدة بن الجراح تدخَّل فى الأمر وكان قد لزم الصمت إلى تلك اللحظة ، فقال موجهاً حديثه إلى أهل المدينة : « يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغيَّر » .

تدخل أبى عبيدة لتسكين الحدة

وانتهز بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير من زعماء الخزرج هذه الكلمة الحكيمة من أبى عبيدة فقام بين قومه وقال :

مقالة بشير بن النعمان الخزرجى

« إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا . فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى من الدنيا عَرَضاً ؛ فإن الله ولىّ النعمة علينا بذلك . ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى . وايمُ الله لا يرانى الله أنازعهم فى هذا الأمر أبداً . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

وأجال أبو بكر بصره فى الأنصار ليرى ما تركت مقالة بشير من الأثر

فيهم ، فألفى الأوس وكأنما يهمس بعضهم فى أذن بعض وألفى بنى الخزرج يبدو على الكثير منهم أن قول بشير أقنعهم ، فأيقن أن الأمر قد استوى وأن اللحظة لحظة الفصل فلا ينبغى أن تترك . وإذ كان جالساً بين عمر وأبى عبيدة فقد أخذ بيد كل منهما ، وقال يدعو الأنصار إلى الجماعة ويحذرهم الفرقة ثم أردف : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا » .

هنالك كثر اللغط وخيف الاختلاف . أيبايعون عمر وهو على ما هو عليه من شدة ، وهو مع ذلك وزير النبي وأبو حفصة أم المؤمنين ! أم يبايعون أبا عبيدة ولم يكن له إلى يومئذ فى المسلمين ما كان لعمر من كلمة ومقام ! لكن عمر لم يدع لهذا الخلاف أن تنبت شجرته ؛ فقد نادى بصوته الجهورى : « ابسط يدك يا أبا بكر » . وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ! فأنت خليفة الله . فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » .

عمر وأبو عبيدة يبايعان أبا بكر

وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذهما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! » وإن عمر وأبا عبيدة يبايعان أبا بكر إذ أسرع بشير بن سعد فبايعه .

بشير بن سعد يبايع أبا بكر

عند ذلك ناداه الحُباب بن المنذر : يا بشير بن سعد ، عققت . ما أحوجك إلى ما صنعت ! أنفِست الإمارة على ابن عمك ! (يقصد ابن عبادة) .

قال بشير : لا والله ! ولكنى كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم .

والتفت أسَيْد بن حُضَيْر زعيم الأوس إلى قومه وهم ينظرون إلى ما صنع بشير بن سعد وقال لهم : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً . قوموا فبايعوا أبا بكر » . وقام الأوس فبايعوا أبا بكر . ثم قام من الخزرج من اطمأنوا إلى كلام بشير يبايعون مسرعين ، حتى ضاق بهم المكان من السقيفة . وكاد الناس فى تكاثرهم على البيعة يطئون سعد بن عبادة . فقال ناس من أصحابه :

الأوس والخزرج يبايعون بيعة السقيفة

اتقوا سعداً لا تطئوه . قال عمر : اقتلوه قتله الله ! ووجه إلى سعد كلاماً عنيفاً .
فقال له أبو بكر : « مهلا يا عمر ! الرفق ها هنا أبلغ » . وحمل سعداً أصحابه فأدخلوه داره حيث بقى أياماً ثم قيل له : « أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك » . وأبى سعد أن يبايع وقال : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبْل ، وأخضب سنان رمحى ، وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى ، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى، فلاأفعل» . فلما اتصل هذا الحديث بأبى بكر قال له عمر: « لا تدعه حتى يبايع » . وخالف بشير رأى عمر فقال : « إنه قد لجَّ وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه ؛ فليس تركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد » .

سعد بن عبادة يأبى أن يبايع

وسمع أبو بكر إلى رأى بشير وأجازه، وتركوا سعداً؛ فكان لا يصلِّى بصلاتهم، ويحج ولا يفيض بإفاضتهم . وأقام على ذلك حتى مات أبو بكر .

تمت بيعة أبى بكر بالسقيفة وجثمان النبى لا يزال فى بيته من حوله أهله : على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب ومن اشترك معهم فى جهازه ، وعلى مقربة منهم فى المسجد طائفة من المهاجرين . وتمت هذه البيعة كما رأيت فى أحوال جعلت بعض الرواة ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال : إنها كانت فلتة . فأما غير هؤلاء الرواة فيرى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة ذهبوا على اتفاق بينهم أن يكون الأمر لأبى بكر . وأيما هاتين الروايتين فالذى لا مرية فيه أن ما تم فى السقيفة قد وقى الإسلام الناشئ فتنة ليس يعلم إلا الله ما كان يحدث فيها ، وقد مهّد للقضاء على كل خلاف بين المسلمين ، كما مهّد للسياسة التى رسمها الرسول أن تنجح النجاح الذى مهّد للإمبراطورية الإسلامية من بعد ، والذى أذاع دين الله بفضل منه جل شأنه فى مشارق الأرض ومغاربها .

أثر بيعة السقيفة

ومن يوم السقيفة لم يبق للأنصار فى ولاية أمر المسلمين مطمع أو مأرب. فقد كانت بيعة عمر بن الخطاب ، ثم بيعة عثمان بن عفان ، ثم كان الخلاف بين علىّ ومعاوية ، ولم يكن للأنصار من ذلك كله إلا نصيب سائر العرب.

وكأنما آمنوا بما قال أبو بكر من أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش . بل كفاهم من بعد ذلك أن عاشوا فى كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية رسول الله فى مرضه الأخير حين قال : « يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لاتزيد، وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » .

* * *

لم يلبث أبو بكر وسائر من كانوا بالسقيفة حين تمت البيعة أن عادوا إلى المسجد والوقت مساء والمسلمون مع ذلك يتلقفون الأنباء من بيت عائشة عن جهاز الرسول . وفى الغد من بعد ذلك اليوم جلس أبو بكر فى المسجد ، فقام عمر يعتذر عما تحدّث به إلى المسلمين بالأمس من أن النبى لم يمت فقال : « إنى قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدت فى كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهده إلىّ رسول الله ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسوله . فإن اعتصمتم به هداكم الله كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوا » . فبايع الناس جميعاً بيعة العامة بعد بيعة الخاصة بالسقيفة .

بيعة العامة

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة وألقى فى الناس خطاباً كان أول حديث له فى خلافته ، ثم كان آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب . قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، أيها الناس ! فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوىّ عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . والقوىّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

أول خطاب الخليفة الأول

هل تخلف عن بيعة أبي بكر أحد من المهاجرين؟

أفكانت بيعة العامة هذه بيعة إجماع من المسلمين لم يتخلّف عنها أحد ما تخلّف سعد بن عبادة عن بيعة الخاصة بالسقيفة ؟ المشهور أن طائفة من كبار المهاجرين تخلّفوا عنها ، وأن عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب من بني هاشم كانا من المتخلفين . ذكر اليعقوبي أنه قد « تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع عليّ بن أبي طالب ، منهم العباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، والزبير بن العوام بن العاص ، وخالد بن سعيد ، والمقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذرّ الغفاري ، وعمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبيّ بن كعب » وأن أبا بكر شاور عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة في أمرهم ، فأشاروا عليه أن يأتي العباس بن عبد المطلب وأن يجعل له في الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده ، فيقع الخلاف بذلك بينه وبين ابن أخيه عليّ بن أبي طالب ، فيكون ذلك حجة لأبي بكر وأصحابه على عليّ . وقد فعل أبو بكر ما أشاروا به ، وقال للعباس في حديث طويل : « ولقد جئناك ونحن نريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك إذ كنت عم رسول الله » . ورد العباس هذا العرض بعد حديث أورده اليعقوبي كذلك : « إن كان هذا الأمر لنا فلا نرضى ببعضه دون بعض » .

المتخلفون في رواية اليعقوبي

رواية الحوار بين أبي بكر والعباس ابن عبد المطلب

وفي رواية ذكرها اليعقوبي ، وذكرها غيره من المؤرخين ، ولا يزال لها الشهرة ، أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع عليّ بن أبي طالب في دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته ، وبينهم خالد بن سعيد يقول : « فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك » . وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار فاطمة ، فأتيا في جماعة حتّى هجموا الدار . وخرج عليّ ومعه السيف ، فلقيه عمر فصارعه فصرعه وكسر سيفه ودخلوا الدار . فخرجت فاطمة وقالت : « والله لتخرجُنّ أو لأكشفَنّ شعري ولأعجّنّ إلى الله » ، فخرجوا وخرج من كان في الدار ، وأقام القوم أياماً ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع ، ولم يبايع عليّ إلا بعد وفاة فاطمة ، أي بعد ستة أشهر ، وقيل في رواية إنه بايع بعد أربعين يوماً . ويروى أن عمر بن الخطاب جمع الحطب حول دار فاطمة وأراد

رواية الاجتماع في دار فاطمة بنت الرسول

أن يُحرِّقها أو يبايع علىٌّ أبا بكر .

وأشهر الروايات فى تخلف علىّ وبنى هاشم وأكثرها ذيوعًا ما أورده ابن قتيبة فى «الإمامة والسياسة» وما شاكله من روايات من عاصره أو تأخر عنه ، وهى تجرى بأن عمر بن الخطاب ذهب فى عصابة إلى بنى هاشم بعد أن تمَّت البيعة لأبى بكر ، وطلب إليهم أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس ، وكان بنو هاشم فى بيت علىّ . وقد أبوا وأبى من كان معهم أن يجيبوا دعوة عمر ، بل خرج الزبير بن العوَّام إلى عمر وأصحابه بالسيف . فقال عمر لأصحابه : عليكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا السيف من يده ، فانطلق فبايع . وقيل لعلىّ بن أبى طالب : بايع أبا بكر ، فقال : « لا أبايعكم وأنا أحق بهذا الأمر منكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليه بالقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصبًا . ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لـمَّا كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسلَّموا إليكم الإمارة ! فإذن أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار . نحن أولى برسول الله حيًّا وميتًا ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون » .

أشهر الروايات فى تخلف على وبنى هاشم فى البيعة

قال عمر : « إنك لست متروكًا حتى تبايع ! »

وأجاب علىّ فى حرارة وقوة : « احلُبْ حلبًا لك شطرُه ، وشُدّ له اليوم يردده عليك غداً . والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه » .

وخشى أبو بكر أن يبلغ الحوار بهما إلى العنف ، فتدخَّل بين الرجلين وقال : « فإن لم تبايع فلا أُكرهك » .

وتوجه أبو عبيدة بن الجراح إلى علىّ متلطفاً فقال : « يا ابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشْيخةُ قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور . ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا واستطلاعًا ، فسلِّم لأبى بكر هذا الأمر ؛ فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك » .

هنا ثار ثائر عليّ وقال : « الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تُخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه . فوالله ، يا معشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت . ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسويّة . والله إنه لفينا ، فلا تتّبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا » .

وكان بشير بن سعد حاضراً هذا القول فيما يروى رُواته ، فلما سمعه قال : « لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا عليّ قبل بيعتها لأبى بكر ما اختلفت عليك » .

خرج عليّ مُحْنَقًا غاضبًا ، فذهب إلى فاطمة فخرج بها من دارها فحملها على دابة ليلا فأخذ يطوف بها مجالس الأنصار تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : « يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل . ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به » .

ويجيبهم عليّ وقد زاده هذا الجواب غضبًا :

« أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه ! » . وتردف فاطمة : « ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغى له . ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه وطالبهم » .

إنكار هذه الرواية والقول بأن أبا بكر بويع بإجماع

هذا هو المشهور عن موقف عليّ بن أبى طالب وأصحابه من بيعة أبى بكر . وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بنىَ هاشم أو غيرهم من المهاجرين إنكاراً صريحًا ! ويذكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بإجماع لم يتوقّعه أحد . روى الطبرى حديثًا بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهِدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل : فتى بويع أبو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة . قيل . أخالف عليه أحد ؟ قال : لا ، إلا مرتدّ أومن قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل تنقذهم من الأنصار . قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين ؟ قال : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم .

وفى رواية أن علىّ بن أبى طالب كان فى بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر قد جلس للبيعة ، فخرج فى قميص له ما عليه إزار ولا رداء عَجِلاً كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه .

رواية وسط بين الروايتين

وتجرى بعض الروايات فى أمر علىّ وبيعته مجرى وسطاً بين ما قدّمنا . من ذلك ما قيل من أن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، أردت أن تشق عصا المسلمين ! فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه . ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير علياً ، فدعا به فجاء فقال له: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه .

ما يقال عن موقف بنى أمية

وتذهب طائفة من الروايات إلى أن بنى أمية هم الذين أرادوا أن يثيروا الثائرة بين بنى هاشم وأبى بكر . قيل لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم . يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ؟ ! أين المستضعفان ! أين الأذلاّن علىّ والعباس ! وأنشد يتمثل :

ولا يقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلاّن عَيْرُ الحىّ والوتِدُ
هذا على الخَسْف محبوس برُمَّته   وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أحد

على أن الروايات التى ذكرت هذا الحديث لأبى سفيان تكاد تُجمع على أن علياً أبى أن يتابعه ، وأنه قال له : « إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة . وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرّاً » ، أو قال له : « يا أبا سفيان ، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضرّه بذاك شيئاً . إنى وجدت أبا بكر لها أهلا » .

* * *

مطالبة العباس وفاطمة بميراثهما من النبى

والذين ينفون تخلف علىّ عن البيعة يذهبون إلى أن روايات تخلّفه قد وضعت من بعد ، ويرجّحون أنها وضعت فى عهد العباسيين لغايات سياسية ، ويقولون إنها استندت إلى واقعة متفق على صحتها ، ولكنها لا تتصل بالبيعة فى

قليل ولا كثير . هذه الواقعة أن فاطمة ابنة النبي والعباس عمّه أتيا أبا بكر بعد استخلافه يطلبان ميراثهما من رسول الله فى أرض فَدَك وفى سهمه من خَيْبَر . فقال لهما أبو بكر : « أما إنى سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . إنما يأكل أهل محمد فى هذا المال . وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . فغضبت فاطمة لذلك وهجرت أبا بكر فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت ، فدفنها علىّ ليلا ولم يُؤذِن بها أبا بكر . وقد مكثت فاطمة ستة أشهر بعد وفاة أبيها . وكان علىّ يغاضب أبا بكر غضباً لها . فلما ماتت مال إلى مصالحته وصالحه .

هذا حديث فاطمة وعلىّ ومقاطعتهما أبا بكر بعد بيعته . أما ما يضاف إلى هذا الحديث من أن علياً امتنع من البيعة إلى أن ماتت فاطمة ، وأن أبا بكر ذهب بعد ذلك إليه فى منزله فألفاه فى بيت بنى هاشم ، وأن علياً قام حينذاك وقال : إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إلا أنا كنا نرى لنا فى هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا ، وأن أبا بكر ذكر فى جوابه : « والله ما ألوت فى هذه الأموال التى كانت بينى وبينكم غير الخير » — أما ما يضاف من ذلك كله فيردّه من ينفون تخلّف علىّ عن البيعة بأن الحديث لم يتخط هذه الأموال ، وأن فاطمة والعباس ما كانا ليطالبا أبا بكر بها قبل أن يبايعه المسلمون جميعاً بالخلافة ، لأنه لم يكن له قبل ذلك فى أمرها رأى .

يرجح أكثر الذين ينفون التخلف عن البيعة أن روايات هذا التخلف وضعت فى عهد العباسيين لغايات سياسية ؛ أما سائرهم فيرجحون أنها وضعت قبل ذلك ، ومنذ اختلف بنو هاشم وبنو أمية على الأمر إبّان حروب علىّ ومعاوية .

وهؤلاء يقولون إن امتداد الفتح إلى العراق وفارس أدّى بجماعة من الفرس لابتداع هذه الأقاويل . وقد استجمّت هذه الجماعة من الفرس بعد انتصار الأمويين وأقامت فى استجمامها تتحين الفرص حتى تهيأت لأبى مسلم الخراسانى ، فكان من أمره وأمر العباسيين ما كان .

فأما الذين يقولون بتخلف علىّ وبنى هاشم عن البيعة أربعين يوماً أو ستة

حجة القائلين بتخلف علي ومن معه عن البيعة

أشهر ، وقولهم هو المشهور كما قدّمنا ، فيستندون إلى ما سبق من الروايات ، وإلى أن علياً والذين تخلفوا معه لم يشتركوا فى جيش أسامة، مع ما كان لعلىّ من شجاعة وبأس فى القتال اشتهر بهما فى غزوات النبى واشتهر بهما من بعد فى جميع أدوار حياته . وهم يردّون قول الذين ينفون التخلف عن البيعة بأن حجة المهاجرين على الأنصار فى ولاية الأمر كانت أنهم أدنى صلة بالنبى ، وأن العرب لا تعرف إلا قريشاً لأنهم سدنة الكعبة والذين شخص إليهم أبصار الناس جميعاً من أهل شبه الجزيرة . وهذه الحجة هى بذاتها سند بنى هاشم فى التقدم على غيرهم لخلافة رسول الله ، فلا غرو أن يستمسكوا بها وأن يؤدى ذلك إلى تخلفهم عن بيعة أبى بكر . وذلك ما فعل علىّ ، وتلك كانت حجته وحجّة أصحابه . فإذا هم رضوا البيعة من بعد فإنما فعلوا حتّى لا تكون فتنة تفسد إجماع المسلمين ، وبخاصة بعد أن ظهرت فى العرب الردة ، وبعد أن انتقض العرب على سلطان المدينة انتقاضاً أوشك أن يهدد انتشار الدين الذى جاء به محمد من عند الله .

لم يثر أحد بخلافة أبى بكر

على رغم هذا الخلاف بين الرواة فى أمر البيعة واشتراك بنى هاشم وسائر المهاجرين فيها أو تخلف جماعة منهم عنها ، فالاتفاق تام على أن أبا بكر ولى الأمر بعد الرسول غير منازع منذ اليوم الأول . ولم يذكر أحد من القائلين بالتخلف عن بيعته أن واحداً من بنى هاشم أو غيرهم حاول أن يثير ثائرة مسلّحة ، أو همّ بمناهضة الخليفة الأول . . . أفكان ذلك لمكانة أبى بكر من رسول الله ، حتّى قال : لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، أم كان لصحبته رسول الله فى الهجرة ولما تحلّى به من فضائل وما كان له فى نصر الرسول من مواقف، أم كان لأن رسول الله أنابه عنه فى الصلاة أثناء مرضه الأخير ؟

أيّاً كان السبب الذى دعا المسلمين لبيعة أبى بكر بالخلافة يوم وفاة النبى ، فالثابت أنه لم يناهضه أحد ولم ينضم إلى من تخلف عن بيعته أحد . وذلك ينهض دليلا على أن المسلمين الأولين تصوروا الخلافة بغير ما تصورها خلفهم من بعد منذ الدولة الأموية ، وأنهم كانوا أدنى فى تصورها إلى معانى الحياة العربية البحتة القريبة منهم ، والتى كانت معروفة فى أنحاء شبه الجزيرة قبل مبعث

النبي عليه السلام . فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامى واختلط العرب بغيرهم من أهل الأمم التى فتحوا ، تغيَّر تصور المسلمين لفكرة الخلافة تبعاً لهذا الاختلاط ولهذه السعة فى المملكة الإسلامية .

الخلافة فى العصور العربى

تصوَّر المسلمون الخلافة تصوراً عربياً بحتاً . فالمتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُوص بالخلافة لأحد . وما حدث يوم الوفاة من تنازع الأنصار والمهاجرين فى سقيفة بنى ساعدة ، وما لعله حدث من خلاف بين بنى هاشم وسائر المهاجرين بعد بيعة العامة ، لا يذر محلا للشبهة فى أن أهل المدينة اجتهدوا فى أمر الخلافة عند اختيار الخليفة الأول ، وأنه لم يكن لذلك سند فى كتاب ولا سُنَّة ، فاختار المقيمون بالمدينة من رأوه أصلح المسلمين لتولى أمورهم . ولو أن الأمر امتد إلى ما وراء المدينة من قبائل العرب لكان الشأن غير ما كان ، ولما كانت بيعة أبى بكر فلتة موفَّقة ، على حد تعبير عمر بن الخطاب .

ولم تكن السُّنة التى اتبعت فى اختيار أبى بكر هى التى اتبعت فى اختيار الخليفتين من بعده : عمر وعثمان . فقد أوصى أبو بكر قبل وفاته باختيار عمر ابن الخطاب ، ثم جعل عمر الخلافة من بعده فى ستة ذكرهم بأسمائهم وترك لهم أمر اختيار أحدهم . فلما كان مقتل عثمان وما حدث على أثره من خلاف بين علىّ ومعاوية ، استتب الأمر للأمويين يتوارثه الأبناء عن الآباء . أما وتلك رواية الحوادث فلا محل للقول بأن لولاية الأمر فى الإسلام نظاماً مقرراً ، وإنما هو اجتهاد أملته الأحداث فى أحوال الجماعة الإسلامية المتغيرة وأملته على صور مختلفة تلائم تغير هذه الأحوال .

نظام الحكم فى الإسلام

وكان النظام الذى سار عليه أبو بكر عربياً بحتاً كذلك . وكان لاتصاله الزمنى الوثيق بعهد النبي ، ولاتصال الصدّيق نفسه بالرسول وتأثره به على النحو الذى سبق تصويره ، أثرٌ فيه لم يلبث أن تغيَّر من بعدُ بحكم الأحوال وبحكم امتداد الفتح الإسلامى . وقد ظل هذا التغيُّر فى نظام الحكم يجارى البيئة التى يقوم فيها ، حتى لم يكن ثمة وجه للشبه بين العهد العباسى فى أوج مجده ، وعهد الخليفة الأول أبى بكر ولا بينه وبين عهود عمر وعثمان وعلىّ .

وعهد أبى بكر يكاد يكون فريداً فى نوعه ؛ فهو الاتصال الطبيعى لعهد

الرسول فى السياسة الدينية ، وفى السياسة الزمنية . صحيح أن الدين كان قد كمل ، ولم يبق لأحد أن يغير فيه أو ينسخ منه . لكن العرب ما لبثت حين مات النبي أن فكّرت فى الردة ، وأن ارتد الكثير من قبائلها ؛ فلم يكن لأبى بكر بدٌّ من أن يضع لتلافى هذا الأمر الخطير خطّةً ينفذها . وكان النبي قد بدأ مع الدول التى تجاوره سياسة تتصل بدعوته ؛ فلم يكن لأبى بكر مفرٌّ من متابعتها .

كيف فعل فى هذه وفى تلك ؟ ذلك ما سنفصله من بعدُ .

الفصل الثالث

العرب حين وفاة النبي

بينما يختلف أهل المدينة ثم يتفقون على بيعة أبي بكر إذا النعاة يسرعون إلى القبائل يحملون إليها النبأ بوفاة النبي . والواقع أنه لم يَسِرْ نبأ فى بلاد العرب بسرعة البرق ما سار النبأ بوفاة رسول الله . ولم يلبث العرب حين ذاع النبأ فيهم أن اشرأبَّت أعناقهم من كل صوب يريدون أن يلقوا عن عواتقهم سلطان المدينة ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مبعث محمد إليهم وانتشار أمره فيهم . لذلك ارتد العرب فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، وكثر أعداء المسلمين ؛ فأصبح هؤلاء لفقد نبيهم كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية .

خلاف المهاجرين والأنصار بالمدينة

لقد رأيت ما نجم بالمدينة بين المهاجرين والأنصار من نزاع على خلافة الرسول . ولولا حكمة أبي بكر وعمر وما أراده الله لدينه من النصر لما انحسم النزاع كما انحسم ، ولما انتهى إلى النتيجة الموفقة التى انتهى إليها .

أهل مكة يهمون بالردة

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشيء المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها ؛ فقدهمَّ أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عَتَّاب بن أسيد عامل رسول الله على أمّ القرى فتوارى منهم . ولولا أن قام فيهم سُهَيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر وفاة النبي : « إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه » لترددوا فى موقفهم . على أن سهيلا أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره . أضاف : « والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً فى نفوسهم من التهديد ، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردّتهم . فقد رأوا الأمر بالمدينة آل إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله ، واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

وهَمَّت ثَقيفٌ بالطائف أن ترتد ، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي

موقف ثقيف بالطائف

عليهم فقال : « يا أبناء ثقيف . كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد » . وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حُنَيْن ، وذكرت ما بينها وبين مكة من أواصر النسب والقربى ، فاستمسكت بالإسلام . ولعل قيام أبي بكر بالخلافة ونهوض أهل مكة إلى جانبه فى أمرها . قد كان له من الأثر فى ثقيف مثل ما كان له فى أمّ القرى .

موقف سائر العرب

كذلك ثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها . ثبتت عليه مُزَيْنَةُ وغِفَار وجُهَيَنة وبَلَىّ وأشجع وأسلم وخُزاعة . أما سائر العرب فاضطرب أمرهم ، فارتد منهم من كان عهدهم بالإسلام قريبًا ، ومن لم تكن نفوسهم قد أُشْرِبتْ تعاليمه ، وتبلبلت عقائد سائرهم ، ثم كان خيرهم من بقى على الإسلام ولم يرض مع ذلك عن بقاء السلطان لأهل المدينة مهاجريهم والأنصار . وهؤلاء رأوا فى أداء الزكاة جزيةً تفرضها المدينة عليهم ، وتأباها نفوسهم التى ألفت الاستقلال عن كل سلطان . وهم إنما أدَّوها منذ أسلموا إلى الرسول الذى يوحى إليه ، والذى اصطفاه الله من بين عباده نبيًّا . أمَّا وقد اختار النبي جوار ربه ، فأهل المدينة جميعًا لا يفضلونهم فى شيء ، وليس لهم ما كان للنبي من حق فى المطالبة بها .

كانت القبائل التى أبت إيتاء الزكاة هى القبائل القريبة من المدينة من عَبْس وذبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة ومن غَطَفان وفَزارة . أما الذين قَصَتْ ديارهم عن المدينة فكانوا أكثر إلحاحًا فى ردّتهم ، وكان أكثرهم يتابعون رجالا منهم ادّعَوُا النبوة ، كطُلَيْحة فى بنى أسد ، وسَجاح فى بنى تميم ، ومُسَيْلمة فى اليمامة ، وذى التاج لقيط بن مالك فى عُمَان . هذا إلى ما كان من اتباع طائفة كبيرة من أهل اليمن للأسود العَنْسىّ ، ومتابعتهم إياه إلى حين مقتله ، ثم إمعانهم بعد ذلك فى الفتنة والانتقاض إلى آخر حروب الردّة .

العوامل التى أدت إلى الانتقاض والردة

وليست ترجع هذه الصورة فى انتقاض الحواضر والبوادى على سلطان قريش وفى ردّتها عن الإسلام إلى موقعها الجغرافى من المدينة وكفى ، بل ترجع كذلك

إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية ، بدت آثارها وبرزت فى الفترة الأخيرة من حياة الرسول .

فالإسلام لم ينتشر ولم يستقر فى الأصقاع النائية عن مكة والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغزاة حنين وحصار الطائف . أما إلى ذلك العهد فقد ظل نشاط رسول الله محصوراً فى المنطقة المحيطة بالمدينتين المقدستين . لم يخرج الإسلام عن حدود مكة إلا قبيل الهجرة إلى يثرب . ومن بعد الهجرة ظلت جهود النبى سنوات متعاقبة موجهة إلى كفالة الحرية للدعوة الإسلامية فى موطنها الجديد . فلما قضى المسلمون على سلطان اليهود بيثرب ، ثم لما فتحوا مكة ، بدأ العرب يدينون بدين الحق ، وأقبلت الوفود تترى من أنحاء شبه الجزيرة تعلن إسلامها ، وجعل النبى يبعث إليهم عمَّاله يفقهونهم فى الدين ويجبون منهم الصدقات .

العوامل العربية

طبيعىٌّ ألاّ يتأصل الدين فى نفوس هذه القبائل ما تأصل فى نفوس أهل مكة والمدينة ، وفى نفوس العرب القريبين منهما . لقد اقتضى استقرار الإسلام فى منبته عشرين سنة كاملة ، جاهده خصومه أثناءها أشد الجهاد ، وناصبوه عداوة اتصلت على السنين ، ثم كان من أثرها أن انتصر على خصومه ، وأن ثبتت تعاليمه فى نفوس العرب الذين اتصلوا برسول الله وبأصحابه من أهل مكة والطائف والمدينة وما جاورها من البلاد والقبائل . أمَّا من نأى عن هذه البقعة التى شهدت نشاط محمد سنوات تباعاً ، داعياً إلى الله وإلى دين الله ، فلم يتأثر بتعاليم هذا الدين الجديد ما تأثرت ؛ ولذلك انتقض على الدين وعلى أهله ، وحاول الرجوع إلى استقلاله السياسى وإلى استقلاله الدينى .

العوامل الأجنبية

ولم تكن العوامل الأجنبية أقل أثراً فى هذا الانتقاض من العامل الجغرافى . لقد كانت مكة والمدينة وما جاورهما من القبائل بعيدة عن الإذعان لنير الفرس والروم المتحكمين يومئذ فى شئون العالم . أمَّا شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام ، وجنوب شبه الجزيرة المتصل بالفرس والقريب من الحبشة ، فكانا متأثرين بسلطان هاتين الإمبراطوريتين ، بل كانت فيهما مناطق نفوذ لهما ، وإماراتٌ تابعة لحكمهما . فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ وهذا

الحكم مناوأة الدين الجديد بشتَّى الأساليب : بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتى ، وبالدعاية الدينية للمسيحية تارة ، ولليهودية ثانية ، وللوثنية العربية تارة ثالثة .

كان نشاط هذه العوامل كلها واضح الأثر لأول ما انتشر الخبر بوفاة النبى ؛ وكان هذا النشاط باديًا فى شىء من الحذر قبل وفاته . وسترى من أثر ذلك فى غضون هذا الكتاب ما لا يدع لديك مجالا للشك فيه . وقد أقامت هذه العوامل الجغرافية والأجنبية لنفسها منطقًا يغرى بالتصديق بها والانضواء تحت لوائها ، وهذا المنطق الذى أذاعه الدعاة بين مختلف القبائل هو الذى دعاهم للانتقاض والفتنة .

منطق المرتدين والذين أبوا أداء الزكاة

قال الذين أبوا أداء الزكاة فيما بينهم : إذا كان المهاجرون والأنصار قد اختلفوا فى ولاية الأمر ، وكان رسول الله قد قبض ولم يوص بمن يخلفه ، فخليق بنا أن نحتفظ باستقلالنا احتفاظاً بالإسلام ديننا ، وأن يكون لنا ما جعله المهاجرون والأنصار لأنفسهم من حق فى اختيار من يقوم مقام رسول الله فينا . أمَّا أن نذعن لأبى بكر أو لغير أبى بكر فليس ذلك من الدين ولا من كتاب الله فى شىء ، وإنما تجب الطاعة علينا لمن نُوليه نحن أمورنا .

ولعل الذين حدثتهم أنفسهم بمثل ذلك أن يكون لهم من العذر عنه أن رسول الله أقر لمدن العرب ولقبائلها حظًّا من الاستقلال الذاتى طوّع لأهلها أن يفكروا فى استرداد هذا الاستقلال كاملا بعد وفاته . فهو قد أبقى بَـذْهان عامل الفرس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بذهان إسلامه وألقى نير المجوس . وهو قد ترك لسائر الأمراء ، فى البحرين وفى حضرموت وفى غيرهما ، ما كان لهم من سلطان بعد أن آمنوا بالله ورسوله . وكان أمره أن توزَّع الزكاة التى تجبى من بعض هذه الأنحاء على الفقراء من أهلها . ولم يفرض الإسلام الجزية إلا على أهل الكتاب . والعرب مسلمون كأهل المدينة ، فما لهم يؤدّون الزكاة لصاحب السلطان فى المدينة !! وما لهم لا تبقى صلتهم بالمدينة صلة وحدة فى الدين لا شأن لها بسياسة الحكم ! ! وإذا كان لأهل المدينة من السابقة فى الإسلام ما يجعلهم أدرى بفروضه وتعاليمه ، فحسبهم أن يبعثوا إلى سائر

البلاد والقبائل من يفقههم فى الدين على ما كان يصنع رسول الله، وأن يكونوا وإياهم أشبه شيء بعصبة أمم إسلامية. لا تبغى إحداها على الأخرى، ولا تلتمس الوسيلة للاعتداء على استقلالها .

دار هذا التفكير بخواطر بعض القبائل القريبة من المدينة ومكة والطائف . أما أهل اليمن وما حاذاها من جنوب شبه الجزيرة ، وأما سائر الأصقاع البعيدة عن منزل الإسلام ، فإنما أسلم الكثير من أهلها إكباراً لسلطان محمد الذى امتد فى سنوات قليلة حتى جاور الروم والفرس فى ملكيهما ، فكان امتداده السريع معجزة بهرت الأنظار ، وأخذت بالألباب ، وجعلت الوفود من كل القبائل تقبل إلى المدينة تترى معلنةً إلى النبى إسلامها وإسلام القبائل التى تنتمى إليها . أمّا وقد ذاع فيها النبأ بوفاة النبى فلا عجب أن يتزلزل إيمانها وأن ترتد عن دين طرأ عليها ، بل لا عجب أن تثور بهذا الدين وأن تتابع الذين يذكون فيها نار الفتنة باسم العصبية والنّعرة العربية .

قيام مدعى النبوة

وقد خُدِع هؤلاء أوّل ما قام فيهم من يدعى النبوة منهم ويزعم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد . خُدِعوا عن الإسلام بعد قليل من إقبالهم عليه ؛ بل خُدع بعضهم عنه والنبى ما يزال بين أظهر العرب لم يختر جوار ربه . سمع كثير من بنى أسد لطُلَيْحة حين ادّعى النبوة ، وأيّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم . وسمع كثير من بنى حنيفة لمسيلمة حين بعث اثنين من رجاله إلى محمد يبلّغانه أن مسيلمة نبىٌّ مثله ، وأن له نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم لا يعدلون . وسمع أهل اليمن للأسود العنسىّ ذى الحمار حين تولّى أمر اليمن وطرد منها عمّال النبىّ . على أن رسول الله لم يُعِرْ هؤلاء المدعين كثيراً من عنايته ، ثقة منه بأن قوة الحق فى دين الله كفيلة بإظهار كذبهم ، وبأن إيمان المؤمنين بالله كفيل بالقضاء عليهم .

الأسود العنسى وتنبؤه

وكان هؤلاء المدّعون للنبوّة يشعرون بموقفهم ذاك من رسول الله ، فلم يثر به أحد منهم ثورة الأسود العنسىّ ذى الحمار . فقد قيل إنه تنبأ وظهر أمره وقتل فى عهد الرسول . على أن جماعة من المؤرّخين يذكرون أنه سلك مسلك زميليه فصبر حتى قُبض النبى ، ثم قام بالثورة على الإسلام . يقول اليعقوبىّ

فى تاريخه : « أما الأسود بن عنزة العنسىّ فقد كان تنبأ على عهد رسول الله . فلما بويع أبو بكر ظهر أمره واتّبعه على ذلك قوم ، فقتله قيس بن مكشوح المُرادىّ وفيروز الديلمىُّ ، دخلا عليه منزله وهو سكران فقتلاه » . ويقول الطبرى فى إحدى الروايات : « فأوّل حرب كانت فى الردّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كانت حرب العنسىّ . وكانت حرب العنسى باليمن » .

لم تكن شبه الجزيرة إذاً هادئة مطمئنة فى العهد الأخير من حياة الرسول ، ولم تكن كلها قد سكنت واستقرت تحت لواء واحد ودين واحد . بل كانت أسباب الفتنة تضطرم تحت ثراها ، ونُذُرُ الثورة تتبدّى فى جوها ؛ وكانت بوادر الانتقاض فى الشمال الشرقى وفى الجنوب كله تتأجج ناراً لا يسكّن من انتشارها إلا القوة الروحية التى أمدّ الله بها رسوله ، وإلا النصر الذى كان يلازم أعلامه . بل إن هذا النصر لم يُسكت مسيلمة ولا أسكت الأسود العنسىّ عن القيام فى قومهما يزعمان النبوة ، ليكون لبنى حنيفة ولليمن ولغيرهم من العرب أن يدّعوا لأنفسهم ما تدّعيه قريش لنفسها . ولولا حكمة رسول الله وحسن رأيه وبعد نظره وفضل الله عليه وعلى الإسلام لخيف أن تتلظّى الفتنة وأن يصلَى العرب جميعاً نارها فى حياته .

حال اليمن قبيل فتنة العنسى

وأغلب الظن أن فتنة العنسىّ قامت فى آخر عهد الرسول ، وسواء أصح ذلك أم صح أنها قامت فى عهد أبى بكر ، فإن لقصة هذه الثورة على ما يرويها المؤرخون طرافة تستوقف النظر وتكشف عن جوانب من النفس الإنسانية تدعو إلى التفكير . فقد بعث رسول الله بين رسله إلى الملوك رسولا إلى كِسْرَى عاهل الفرس يدعوه إلى الإسلام ، فلما تُرْجِمَ له كتاب النبىّ استشاط غيظاً وأرسل إلى بازان[1] عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز . وكانت الروم فى ذلك الوقت قد غلبتْ كسرى ووهّنت من أمره . فلما تناول بازان رسالة سيّده بعث بها إلى محمد . فردّ محمد عليه ينبئه بأن شيرويه خلَف أباه كسرى ، ويدعوه إلى الإسلام وأن يَبْقَى عاملا له على اليمن. وكانت أنباء الفتنة فى فارس واعتلاء شيرويه عرشها وانتصار الروم عليها قد

(١) بازان أو بذان على اختلاف فى رواية الاسم .

اتصلت ببازان ؛ لذلك أسرع إلى تلبية دعوة محمد ، وأقام هذا الفارسيّ عاملا للنبي العربي على أهل اليمن ، بعد أن كان عامل الفرس عليها .

ومات بازان ، فقسّم رسول الله سلطانه بين أشخاص عدّة ، منهم شَهْر ابن بازان الذى تولّى أمر صَنْعاء وما جاورها ، ومنهم أشخاص من أهل اليمن ، وآخرون من رجاله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . وأن هؤلاء الولاة لينظّم كل منهم أمر ولايته إذ جاءتهم كتب من الأسود العنسيّ يُنذرهم فيها أن يردّوا ما بأيديهم فهو أولى به . وكانت تلك أولَ ظاهرة لفتنته .

بدء فتنة العنسى

وكان الأسود كاهنًا يقيم بجنوب اليمن ، وكان مشعبذاً يصطنع فنونًا من الحيل ويستهوى الجماهير بعباراته . ولقد تنبأ ولقّب نفسه رَحْمانَ اليمن ، أى الذى ينطق باسم الرحمان ، كما لقّب مسيلمة نفسه رَحْمانَ اليمامة[1]. وكان يزعم أن له شيطانًا يظهره على كل شيء ، ويظهره على خُطَط أعدائه . وكان يقيم بكهف خبّان من بلاد مَذْحِج . وقد هوت إليه جماعة كبيرة من العوام سُحِرتْ بحديثه ، وفُتِنت بما يزعم من حديث شيطانه .

نهض الأسود على رأس هذه الجماعة بعد أن أعلن الفتنة ، وسار إلى نَجْران فأجلى عنها خالد بن سعيد وعمرو بن حزم أميرى المسلمين عليها . وانضم من أهل نجران إلى الأسود مَنْ بهرهم انتصاره ، وساروا معه إلى صنعاء حيث لقى شهر بن بازان فقتله وهزم جنده . عند ذلك فرّ المسلمون المقيمون بصنعاء وفى مقدمتهم مُعاذ بن جبل ؛ ولحق خالد بن سعيد وعمرو بن حزم بالمدينة . وتمّ للأسود الغلب ، وصار إليه ملك اليمن ، وأسلم الناس لأمره ورأيه ، ودانت له البوادى والحواضر ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن .

---

(١) فى لسان العرب أن الرحمن على فعلان لأن معناه الكثرة . وهو اسم الله لا يكون صفة لغيره كالرحيم . وفى اللسان أيضاً أن الرحمن عبرانى والرحيم عربى . ويذكر بعض المستشرقين أن الرحمن اسم الإله فى الجنوب من شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وجد فى نصوصهم ، وأنه لم يكن معروفاً عند أهل الحجاز .

ولقد تعجب إذ تعلم أن الأسود لقي شَهر بن بازان بصنعاء وليس معه إلا سبعمائة فارس ، منهم من خرج معه من مَذْحِج ومنهم من انضم إليه من نجران . وبهذا العدد القليل انتصر هذا الكاهن المشعبذ على أهل هذه الأصقاع واستطار أمره بينهم كالحريق ، ولم تجد قوة منهم إلى مقاومته سبيلا . ولعلك إن تلتمس لذلك تأويلا تجده في أن هذه البلاد كانت خاضعة لفارس ، ثم خضعت من بعدهم للمسلمين من أهل الحجاز . وأنت تعرف ما كان بين اليمن والحجاز من خصومة ترجع إلى أقدم الحقب .فلما قام هذا العنسيّ يستّرد اليمن لأهل اليمن لم يجد من يقاومه ، ولم يجد الفرس أنصار شهر وأبيه ، ولا وجد المسلمون أبناء الحجاز نصيراً من أهل البلاد يدفع عنهم كيد الأسود وشعبذته . ولعلك واجد هذا التأويل كذلك في أن هذه البلاد كانت مسرحاً لأديان مختلفة ؛ كانت فيها اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ؛ وكانت هذه الأديان تجاور فيها أصنام العرب وعبادتها ، ثم كان الإسلام الحديث بين هؤلاء اليمنيين لما تَقوَ في نفوسهم أصوله . فلما قام ذلك المتنبئ فيهم يدعوهم إليه ويهيب بقوميتهم ويزعم أنه يطرد الأجانب من بلادهم ، أسرعوا إليه ملبين دعوته ؛ فلم يكن أمام المسلمين إلا الفرار ، ولم يكن أمام البقية الباقية من الفرس إلا الإذعان أو الموت .

العوامل التي أدت إلى فتنة العنسي

مواقف رسول الله من فتنة العنسي

بلغت هذه الأنباء محمداً بالمدينة وهو يَعِدُ العُدَّة لغزو الروم ، وللانتقام من مُؤْتة ، تعزيزاً لهذا الجانب المحفوف بالخطر من جوانب شبه جزيرة العرب ؛ وكان لذلك يجهِّز جيش أسامة . أفيصرف هذا الجيش إلى اليمن يسكِّن ثائرتها ، ويردّ على المسلمين هيبتهم ؟ ! أم يستعين على هذا الأسود بمن كان باليمن من المسلمين ، فإن قدَروا عليه فذاك ، وإلا كان انتصار جيوش المسلمين على الروم ، والروم قد غلبوا الفرس من زمن غير بعيد ، جديراً بأن يعيد الأمر في شبه الجزيرة إلى نصابه ؛ فإن لم يَعُدْ وجَّه محمد جيشه ليقمَع الأسود وغير الأسود من الخارجين عليه ؟ ! هذا الرأي الأخير هو ما اطمأن محمد إليه . لذلك بعث رسوله وَبْر بن يُحَنَّس بكتاب إلى زعماء المسلمين في اليمن يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض في الحرب ، والقضاء على الأسود إمَّا غيلةً وإما مصادمة ، وأن

يستعينوا على ذلك بمن يرون عنده نجدة ودينا . واكتفى محمد من أمر اليمن بهذا وجعل كل همه لتنظيم جيش أسامة والتغلب على الروم .

ومرض رسول الله من بعد ذلك مرضاً وقف بسببه جيش أسامة عن المسير . أما الأسود العنسى فأخذ يستمتع بنصره وينظّم ملكه ، يقيم القوّاد على الجيوش والعمال على الإمارات ؛ بذلك ثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل اليمن إلى عدن ، كما دانت له الجبال والبوادى من صنعاء إلى الطائف .

وزيرا الأسود وزوجه وقائد جنده

واستعمل الأسود على جنده قيس بن عبد يغوث ، وجعل وزيريه فيروز وداذويه الفارسيين . ثم إنه تزوّج آزاد امرأة شهر بن بازان ، وكانت ابنة عم فيروز . بهذا وبذلك انضم العرب والفرس إلى لوائه . فلما رأى من تعاظم شأنه ما رأى خيِّل إليه أنه دانت له الأرض ، فلم يبق له إلا أن يأمر فيطاع .

بدء الانتقاض على الأسود

على أن العوامل التى أدّت إلى انتصاره قد تضافرت من بعدُ على الائتمار به . وذلك أنه لما استغلظ أمره وأثخن فى الأرض استخف بقيس وبفيروز وداذويه ، وجعل يرى فى الأخيرين وفى سائر الفرس من تنطوى أضالعهم على المكر به .

وعرفت امرأته الفارسية ذلك منه ، فثار فى عروقها دم قومها ، وتحركت فى نفسها عوامل الحقد على الكاهن القبيح ، قاتلِ زوجها الشاب الفارسى الذى كانت تحبه من أعماق قلبها . ولقد استطاعت بسجيّتها النسوية أن تخفى ذلك عنه ، وأن تسخو فى البذل له من أنوثتها سخاءً جعله يركن إليها ويطمع فى وفائها له . لكنه شعر بأن الرجال الذين حوله ، وزيريه وقائد جيشه ، لا يُضمرون له من الولاء ما يراه حقّاً عليهم لولىّ نعمتهم . وإذ كان الجيش أشد ما يُحْذَرُ ويخاف فقد دعا إليه قيس بن عبد يغوث وأنبأه أن شيطانه أوحى إليه يقول : « عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار فى العز مثلك ، مال ميل عدوك ، وحاول ملكك ، وأضمر على الغدر » . وأجاب قيس : « كذب وذى الخمار ، لأنت أعظم فى نفسى وأجلّ عندى من أن أحدّث بك نفسى » . وأجال الأسود فى قيس نظره من مفرق رأسه إلى أخمصه ، وقال له :

« ما أجفاك! أتكذّب الملك! قد صدّق الملك وعرفت الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك » .

وخرج قيس من عنده وكله الريبة فيما يُضمر له ، ولقي فيروز وداذويه فذكر لهما ما جرى بينه وبين الأسود وسألهما رأيهما فقالا : نحن فى حذر . وإنهم لفى ذلك إذ أرسل الأسود إليهما يحذرهما مما يأتمران مع أصحابهما به . وخرجا من عنده ولقيا قيساً وهم جميعاً فى ارتياب وعلى خطر عظيم .

المؤامرة للقضاء على العنسى

واتصل نبأ ما يجرى ببلاط ذى الخمار بمن بقى من المسلمين باليمن أو على مقربة منها ، وذكروا رسالة النبىّ لهم ، فأرسلوا إلى قيس وأصحابه أنهم وإيّاهم على رأى واحد فى أمر الأسود . وعرف المسلمون الذين أقاموا بنجران وبغيرها من تلك الأنحاء سرّاً من هذه الأنباء ، فكتبوا إلى زملائهم القريبين من الأسود أنهم ورجالهم طوع أمرهم فى قتاله . واستمهلهم زملاؤهم وطلبوا إليهم أن يلزموا أماكنهم ، وألا يقوموا بأمر يدعو لريبة فيهم أو ينبّه أصحاب الأسود لهم .

اشتراك زوجه فى المؤامرة

وإنما كان ذلك رأى المقيمين على مقربة من الأسود لأنهم رأوا أخذه غيلةً أدنى إلى النجاح من محاربته . فقد دخلت آزاد زوجه فى مؤامرتهم وإن تظاهرت له بالحب أعظم الحب. وطوّع لها اتصالها بفيروز وداذويه وقيس أن تدبّر وإياهم أمر اغتياله . دلّتهم على حجرة نومه ، وأظهرتهم على أن القصر الذى تقيم به معه حوله الحرس من كل ناحية إلا من خلف هذه الحجرة ؛ فلينقبوها إذا كان الليل ، وليدخلوا من النقب ؛ وليقتلوا غريمهم ؛ فإن يفعلوا فقد تخلّصوا وخلّصوها منه .

مقتل الأسود العنسى

وقد فعلوا . فلما كان الفجر تنادوا بشعارهم الذى اتّفقوا مع أصحابهم عليه ، ثم نادوا بأذان الإسلام وقالوا : نشهد أن محمداً رسول الله . وأن عبهلة — وهو اسم الأسود العنسى — كذّاب ؛ وألقوا إليهم رأسه . وأحاط بهم حرس القصر ، وتنادى الناس فى المدينة فخرجوا فى عماية الصبح ، واضطرب الأمر ، ثم استقر على أن يتولاّه قيس وفيروز وداذويه . وكان لآزاد فى استقراره كما كان لها فى اضطرابه من قبل أكبر الأثر .

أفقتل العنسيّ قبل موت الرسول أم بعده ؟ ذلك ما اختلف فيه . وقد ذكرنا رواية اليعقوبي من قبل . أما الطبرى وابن الأثير فيذكران أنه مات قبل أن اختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وأنه صلى الله عليه وسلم أوحى ذلك إليه ليلة حدوثه فقال : « قُتل العنسيّ ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين » . قيل من قتله ؟ قال : « قتله فيروز » .

والرواية الأخرى تذهب إلى أن موت العنسى لم يصل النبأ به إلى المدينة إلا بعد أن قُبض رسول الله ، وأنه كان أول بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة .

وتجرى الرواية بأن فيروز قال : « لمَّا قتلنا الأسود عاد أمرنا كما كان ، إلى معاذ بن جبل فصلَّى بنا ونحن راجون مؤملون لم يبق شيء نكرهه إلا تلك الخيول من أصحاب الأسود . ثم جاء موت النبي فانتقضت الأمور واضطربت الأرض » .

كيف اضطربت ، ولماذا اضطربت ؟ تفصيل ذلك لا يدخل فى نطاق هذا الفصل ، وحسبنا ما أجملنا عنه فى أوله . وسنتناول حوادثه فى موضعها من جهاد أبى بكر أهل الرِّدّة .

وإنما أفضنا فى حديث عبهلة وثورته بالمسلمين فى اليمن لتواتر الروايات بأنه قام بهذه الثورة فى عهد الرسول . فأما ما كان من أمر اليمن على عهد أبى بكر فيتخطى العنسى وثورته ومقتله ، ويتناول ما تم بعد ذلك من أحداث نفصِّلها فى موضعها .

تلظى الجنوب كله بنذر الثورة

كانت ثورة اليمن هذه أعنف مظاهر الانتقاض على الدين الجديد فى بلاد العرب حين وفاة النبي . لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسى من القبائل قد كان يتلظى بنُذُر الثورة فى هذا العهد كذلك ، فكان المسلمون فيه على حذر يلْجَئون إلى المصانعة حيناً وإلى البطش حيناً آخر، ليظل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسموعة . ولا عجب أن يكون ذلك أمر حواضر وبواد تبعد عن منزل الوحى بمكة والمدينة ، وتتصل بالفرس وتبادلهم التجارة وتقرّ لهم بتفوق الحضارة . بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية فى تحريك هذه الحواضر والبوادى لتنتقض على الدين الجديد والسلطان الناشئ .

تنبؤ مسيلمة ابن حبيب باليمامة

أشرنا إلى بعث مسيلمة بن حبيب من بنى حنيفة رسولين إلى محمد بالمدينة يحملان رسالة جاء فيها : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليكم ، أما بعد فإنى قد أُشركت فى الأمر معك ، وإن لنا لنصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » . وسأل النبي الرسولين حين سمع الكتاب : فما تقولان ؟ قالا : نقول كما قال . فنظر إليهما مغضباً وقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب إلى مسيلمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين » .

لم يَغْفُل رسول الله عما تنطوى عليه رسالة مسيلمة من نذير . لذلك بعث من المسلمين نهاراً الرحَّال ، وكان قد فقـه الدين ، ليشغب على مسيلمة ، وليفقه المسلمين من أهل اليمامة فى الإسلام . وسنرى من بعدُ كيف انضم نهار إلى مسيلمة ، وكيف شهد بأنه شريك محمد فى الرسالة . بذلك ازداد مسيلمة نفوذاً وازداد ادعاؤه انتشاراً . وتجاوبت باليمامة أصداء انتصار العنسى باليمن فقوَّى تجاوبها ساعد مسيلمة وفَتّ فى أعضاد المسلمين . لكن رسول الله لم يتَّجه بسياسته إلى قمع هذه الفتنة قبل استفحالها ، موقناً أن الله ناصره على الروم فى الشمال ، وأن انتصاره عليهم سيكون له الأثر الحاسم فى القضاء على أسباب الانتقاض والثورة الداخلية فى أنحاء بلاد العرب .

سياسة رسول الله إزاء الفتنة

فقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم متجهة إلى حماية التخوم العربية فى الشمال من عدوان هـِرَقْل ورجاله عليها . فهرقل هو الذى دحر الإمبراطورية الفارسية ، وهو الذى رد الصليب الأعظم إلى بيت المقدس ، وهو لذلك الذى تخشى صولته . وقد ارتد جيش المسلمين فى مُؤْتة فلم يقوَ على قتال الروم وإن لم ينهزم أمامهم . وكانت تبوك غزوة موفقة ، لكنها لم تُبعد المخاوف من انحدار الروم إلى بلاد العرب . فإذا استطاعت قوات المسلمين أن تظهر على الروم فى غزاة حاسمة قوّى ذلك من عزم المنتشرين منهم فى قبائل العرب ، فلا يلبث كل منتقض عليهم أن يرجع عن انتقاضه ، وأن يسلم المقادة إليهم طائعاً أو كارهاً . وكيف لا يفعل وقد تغلغل المسلمون فى أنحاء شبه الجزيرة من

الشمال إلى الجنوب ، وصاروا قوة يحسب حسابها ؛ فلم يقوَّ مسيلمة فى اليمامة ، ولا لقيط فى عُمان ، ولا طُلَيحة فى بنى أسد ، أن يناصبوها العداوة فى جهر وإعلان .

تربص المتنبئين بالمسلمين

لكن لقيطاً وطُليحة كانا كمسيلمة يتربَّصان لإعلان عصيانهما أن تدور الدوائر على المسلمين . وأقام هؤلاء الثلاثة كلٌّ فى ناحيته ينشر دعوته فى غير ضجة أو جلبة ، ودون أن يطعن على النبي الهاشمى أو ينتقص من رسالته . وإنما كانت دعواهم أنه نبي ، وأنهم أنبياء مثله ، بعث فى قومه وبعث كلٌّ منهم فى قومه ، وأنهم يريدون لأقوامهم الهدى كما يريد هو لقومه الهدى . وبوسائل تنقصها جرأة الأسود العنسى وإن لم ينقصها دهاؤه هيَّئوا حول المسلمين المقيمين بين أظهرهم جوّ قلق وتربُّص ، تتلظى نيران الفتنة تحت رماده ريثما تتقد فيه .

ولم يكد النبأ بوفاة الرسول ينتشر فى بلاد العرب حتى بدأت نُذُر هذه الفتنة تتحرك فى كل أنحاء شبه الجزيرة . وقد تحركت فى صور مختلفة وألوان متباينة تباين العوامل التى أثارتها . وسنفصل ذلك من بعد فى وضوح وجلاء . لكنا نقف من حديث هؤلاء المتنبئين وتربصهم بالإسلام عند أمور لها بالعرب حين وفاة النبي أوثق اتصال .

العرب وفتنة المتنبئين

أوّل هذه الأمور أن رسول الله قُبض وبوادر الفتنة تجرى نُذُرها فى جو شبه الجزيرة ، بل يوشك قسم كبير منها أن يضطرب أشد اضطراب . فقد رأيت كيف استغلظ أمر الأسود وامتد ملكه من أقصى الجنوب عند حضرموت إلى مكة والطائف ، ثم رأيت كيف تربص مسيلمة وطُليحة بالمسلمين . وهذه الربوع التى أعلنت العصيان على دين محمد وسلطانه كانت أكثر بلاد شبه الجزيرة حضارة وأضخمها ثروة ، كما كانت أكثرها ببلاد الفرس اتصالا .

فلا عجب وذلك شأنها أن يلفت انتقاضها نظر الخليفة الأول ، وأن يطيل تفكيره فى تدبير سياستها ، ليعيدها إلى حظيرة الإسلام ، وليقر فيها الأمن والسلام .

تحريك الاضطراب باسم الدين ، وسببه

والأمر الثانى الذى تدل عليه فتنة الأسود وتربص مسيلمة وطليحة أن الاضطراب الدينى بلغ بين القوم فى ذلك العصر أن سهَّل تحريك النفوس باسمه ، ولم يكن ذلك يرجع إلى تعصب الناس لدين من الأديان ، بل كان يرجع على العكس إلى عدم استقرار العقيدة فى النفوس استقرار طمأنينة وسكينة . فالنصرانية واليهودية والمجوسية والأصنام كانت كلها تتجاور ، وكان لكل منها أنصار ظاهرون أو مستترون ؛ لكنها كانت جميعاً موضع الجدل : أيها الحق ، وأيها أدنى إلى تحقيق الخير والسعادة للناس ، وهذا هو ما سهَّل على الذين ادّعوا النبوة أن يطالعوا الناس بمزاعمهم ، وأن يخدعوهم بألوان من المظاهر يتخذونها آيات صدقهم . وبهذه الوسيلة استطاع المتنبئون أن يجمعوا حولهم من الأتباع ما جمعوا ، وأن يُحرزوا أوَّل أمرهم من النجاح ما أحرزوا .

العامل الوطنى من أسباب الاضطراب

ولم يكن ادّعاء النبوة وتصديق الناس هذا الادعاء هو العنصر الجوهرى فى نجاح هؤلاء المدّعين . فقد رأيت أن الأسود اعتمد على عوامل أخرى ، فى مقدمتها بَرَمُ أهل اليمن بالفرس كَبَرَمِهِم بأهل الحجاز . وسترى من ذلك فى أمر مسيلمة وطليحة ما يؤيد قولنا كل التأييد . ولو أن الإسلام كان قد استقر فى النفوس وبلغ منها مبلغ العقيدة والإيمان لما قامت لواحد من هؤلاء المدّعين قائمة . فللعقيدة المتأصلة سلطان على النفوس قلّ أن يغلبه سلطان . لكن أهل هذه الأصقاع لم يكونوا قد آمنوا وإن كانوا قد أسلموا ، فلما أتيح لهم أن يخلعوا إسلامهم باسم القومية أو باسم غيرها لم يصدّهم عن ذلك إيمانٌ حق ، فاندفعوا وراء الأسود وغير الأسود من المتنبئين .

ويزيد رأينا هذا تأييداً ما كان من بقاء مكة والطائف على الإسلام . صحيح أن أهل اليمن بدأ فيهم الإسلام واطمأن إلى السلطان الحاكم منذ دان باذان بدين الحق ، وكان ذلك قبل أن يطمئن الإسلام إلى سلطان الحاكم بمكة والطائف . لكن قيام رسول الله بمكة سنوات الدعوة الأولى ، وهى تزيد على عشر ، واتصاله بالطائف وأهلها أثناء ذلك ، ترك من الأثر الدينى فى نفوس المكيين والثقفيين ما لم يتركه إسلام باذان والفرس المحيطين به فى اليمن . وتعاليم

رسول الله كانت أبقى أثراً فى مكة والطائف ، حتى مع ثورتهما عليه ، من تعاليم مُعاذ بن جبل باليمن وإن تمتع من حماية بازان بما تمتع به .

أثر فتنة العنسى فى البلاد المحيطة باليمن

الأمر الثالث الذى نستخلصه ، أن فتنة اليمن شجَّعت اليمامة وشجَّعت بنى أسد على القيام بفتنتهم إثر وفاة النبى ؛ فقد كان طُليحة ومسيلمة يخشيان قوة المسلمين ويريان أن لا قِبَل لهما بمقاومتها ، ولذلك لم يثورا بها ولم يخرجا عليها . فلما اجترأ الأسود على رفع لواء العصيان ولقى من النجاح ما لقى وأثار مخاوف المسلمين ، امتدت عدوى الجرأة منه إلى طُليحة وإلى مسيلمة ، ثم زادهما جرأة أن اختار النبى الرفيق الأعلى . ولو أن الأسود لم يقم قومته ولم يُعلن فتنته لبقى الآخران على استحياء فى إعلان فتنتهما ، ولما جرؤ واحدٌ منهما على مواجهة سلطان المسلمين .

ولم يقض موت الأسود على أسباب الفتنة التى كانت تتلظَّى يومئذ فى أنحاء شبه الجزيرة ، بل بقيت أسباب هذه الفتنة تضطرم ويزداد اضطرامها حتى اندلعت بوفاة الرسول .

رأى المستشرقين فى الفتنة، وسببها

ويعلل بعض المستشرقين هذه الظاهرة فى بـ د العرب لذلك العهد بما كان بين أهلها من تباين فى نوع الحياة قلَّ أن يجد الإنسان له فى غير هذه البلاد نظيراً ، وبما أدى هذا التباين إليه على حِقَب التاريخ من خصومات لم تهدأ . فحياة الحضر وحياة البدو تتجاوران فى هذا المحيط تجاوراً عجيباً . وبين البداوة والحضارة من التباين ما يجعل الوحدة القومية لبلادٍ ذلك شأنها أمراً غير ميسور . ثم إن حياة البداوة تجعل الإذعان لحاكم على النحو الذى يفهمه أهل الحضر مستحيلا أو يشبه المستحيل . فالبدوى لا يعدل باستقلاله الفردى شيئاً ، والقبيلة البادية ترى فى استقلالها حياتها ، وترى كل تحيف من هذا الاستقلال عدواناً عليها لا بد من دفعه . وقد كان هذا وما يتصل به سبب الخصومة التى تأصلت على الزمان بين اليمن وأهل الشمال .

والمستشرقون الذين يبدون هذا الرأى يذهبون إلى أن هذا التباين فى طباع أهل البادية وأهل الحضر ، وما جرَّ إليه من خصومة بين الشمال والجنوب . كان له أثر بالغ فى اضطراب العرب قبيل وفاة النبى وفى السنة الأولى من خلافة أبى بكر .

فالإسلام دين توحيد فى العقيدة ، وبذلك قضى على عبادة الأصنام ، فامتد الإيمان بالله الواحد الأحد إلى أنحاء بلاد العرب جميعاً . أو لا يخشى العرب أن يمتد الأمر من وحدة الإيمان بالله إلى وحدة سياسية تجنى على استقلال أهل البادية وتثير الخصومات القديمة ؟! ذلك ما دار بخواطرهم فيما يرى هؤلاء المستشرقون ، وذلك ما أدى إلى انتقاض اليمن وغير اليمن فى ذلك العهد .

أثر العامل الأجنبى فى إيقاظ الفتنة

وسواء أصح هذا التعليل أم لم يصح ، فلسنا نستطيع أن نتجاهل العامل الأجنبى فى تحريك البواعث التى أدت إلى انتقاض العرب وردّتهم . لقد رأى عاهل الفرس وإمبراطور الروم فى رسالة محمد إليهما وإلى غيرهما من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما جعلهما يعملان على إيقاظ نار الفتنة فى بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد يجمع كلمتها ويضاعف قوتها . ولا شىء كالفتنة يضعضع العزائم ويفتّ فى أعضاد الأمم .

انتقاض العرب على النبى

وأيًّا كانت الأسباب التى أدت إلى فتنة العَنْسى ، ثم إلى فتنة طُليحة وفتنة مسيلمة ، وإلى انتقاض العرب على سلطان المسلمين حتى فيما جاور المدينة ، فإن الأمر الثابت أن وفاة النبى بعثت كل أسباب الفتنة من مرقدها .

كيف دبّر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة والقضاء عليها ؟ وكيف استطاع أن يتغلّب على عوامل الفتنة وأن يجمع كلمة العرب ؟ وكيف مهّد للإمبراطورية الإسلامية كى يقيمها خلفاؤه على أقوى دعامة وأمتن أساس ؟

ذلك كل عهده ، وفى هذا الكتاب حديثه

الفصل الرابع

بعث أسامة

لم تكن نذر الانتقاض فى بلاد العرب لتخفى على أبى بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة . وكيف تخفى عليهم وقد كان ما شجر بينهم فى سقيفة بنى ساعدة جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ؟! أفيُلقى خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله فى شأنها ؟ أم تراه يجرى على خُطة الرسول فى تأمين التخوم بين العرب والروم ، تاركًا أمر هذه الفتنة الداخلية إلى تطور الحوادث ؟ .

أول أمر أصدره الخليفة الأول

لقد كان أول أمر أصدره بعد أن تمَّتْ له البيعة بالخلافة أن قال : « لِيُتَمّ بَعْثُ أسامة » .

وأسامة هو قائد الجيش الذى أمر النبي بتجهيزه من جِلّة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين فى مُؤْتة وفى تَبُوك . ذلك أنه ، عليه السلام ، كان يخشى دائمًا أن يدهم الروم المسلمين ، متأثرين بما بين الدين الناشئ ودينهم المسيحى من خلاف ، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين بعد أن أجلاهم النبي عن المدينة ، وعن تيماء ، وفدك ، وعن أكثر المواطن التى كانوا يقيمون بها . ولعل ما حدث بمؤتة وتبوك جعله يضاعف العناية بحماية التخوم العربية الرومية . فقد سار جيش المسلمين إلى مؤتة فاستشهد من قوّاده زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم داور خالد بن الوليد بالجيش حتى عاد به إلى المدينة سليمًا وإن لم ينتصر . وقد سار عليه السلام على رأس المسلمين إلى تبوك ، فكانت مسيرته نذيراً حمل خصومه على التراجع إلى ما وراء حدودهم دون قتال . لا عجب وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم أن يجهز النبي جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز

هذا الجيش بعض سياسته فى تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ذوى البأس فى ذلك العهد .

وصية رسول الله إلى أسامة بن زيد

وكان أسامة حدثاً لما يبلغ العشرين . وإنما ولاه رسول الله على الجيش ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه بمؤتة ، وما يعوّد الشباب الاضطلاع بجسام التبعات . ولقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك دراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانماً مظفراً .

حب النبى لأسامة ابن زيد

تذمر كثيرون منذ اليوم الأول من تعيين حدث كأسامة على رأس جيش يضم جلة المهاجرين والأنصار وتحدثوا فى ذلك . صحيح أن أسامة كان موضع عطف النبى منذ طفولته، وأنه لُقّب لذلك « حِبّ النبى وابن حِبّه » . ولقد بلغ من إعزاز النبى إياه أن أردفه وراءه عند ذهابه إلى مكة فى العام الثامن للهجرة وأدخله معه الكعبة . وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته ، حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين فى طريقهم إلى أحد ، وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه . ثم إنه أبلى من بعد فى حُنَيْن أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد . لكن المتذمرين كانوا يرون ذلك شيئاً ، وتولّى إمارة جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين شيئاً آخر . ولقد بلغ تذمرهم النبى وهو فى مرضه الأخير وجيش أسامة مقيم بالجُرْف يتأهّب للمسير ، فأمر نساءه فأراقوا عليه سبع قِرَب من ماء حتى تنزل عنه الحمّى ، ثم خرج إلى المسجد وقال بعد أن حمد الله وصلّى على أصحاب أحد: « أيها الناس ، أنفِذوا بعثَ أسامة . فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

تذمر كثيرين لتوليته إمارة الجيش

ولما اشتد المرض بالرسول لم يتحرك جيش أسامة من الجُرْف . روى عن أسامة أنه قال : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أُصمِتَ فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ ، فأعرف أنه يدعو لى » . وفى

ساعة الصحو الذى سبق وفاة الرسول صبح يوم الوفاة استأذنه أسامة فى السير بالجيش فأذن له . لكن حدوث الوفاة بعد سويعات ردّ أسامة والجيش إلى المدينة كرّة أخرى ، ثم كان أسامة مع أهل البيت الذين تولوا جهاز الدفن ، فكان هو وشُقْران مولى النبى يصبان الماء على جثمانه وعلىٌّ يغسله وعليه قميصه .

تصميم أبى بكر على بعث أسامة

فلما أمر أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة بعد أن تمَّت بيعته عاد المسلمون إلى تذمُّرهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة للخلاص من موقف لم يرضوا عنه ، ورأى بعضهم ما كان من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وما ترامى إلى المدينة من أنباء العرب واليهود والنصارى وتحفُّزهم بعد موت النبى للوثبة بالمسلمين وبدينهم ، فقالوا يوجهون الكلام إلى أبى بكر : « إن هؤلاء جُلّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . قال أبو بكر : « والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تَخْطَفُنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القُرَى غيرى لأنفذته » .

وقيل إن أسامة لمَّا رأى ما عليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبى بكر فيستأذنه فى أن يعود بالجيش ليكون عونه على المشركين فلا يتخطَّفون المسلمين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبى إلا أن نمضى ، فأبلغه عنَّا واطلب إليه أن يولّى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة » . وأبلغ ابن الخطاب أبا بكر رسالة أسامة ، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائره وقال : « لو خطِفتْنى الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أمَّا رسالة الأنصار أن يولى عليهم رجلا أقدم سنًّا من أسامة فقد وثب لها أبو بكر وكان جالسًا فأخذ بلحية عمر وقال مغضبًا : « ثكِلتْك أمك وعدمتك يابن الخطَّاب ! . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! » . ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال : « امضوا ، ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله » .

هذا الحديث فى رواياته المختلفة يصوّر لنا سياسة أبى بكر أول ما تولى

« لا أدع أمراً يصنعه رسول الله إلا صنعته »

الخلافة. وهذه السياسة تتلخص فى قوله لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبته بميراثها عن أبيها : « إنى والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . وهو قد أعلنها إلى الناس ساعة قال لهم : « لِيُتَمَّ بَعْثُ أسامة . ألاَ لا يَبْقَيَنَّ بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرْف » . فقد وقف بينهم خطيباً بعد أن ردّ المعترضين منهم وقال : « يأيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلّفونى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات . وإنما أنا مُتَّبِعٌ ولستُ بمبتدع . فإن استقمتُ فتابعونى ، وإن زُغتُ فقوّمونى . وإن رسول الله قُبِض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمَظْلَمَةِ ضربةِ سوط فما دونها . ألاَ وإنّ لى شيطاناً يعترينى ، فإذا أتانى فاجتنبونى . . . » ثم حثهم على العمل الصالح قبل أن يجىء أجلهم، وأن يعتبروا بالآباء والإخوان، وألاّ يغبطوا الأحياء إلا بما يغبطون به الأموات .

إنما أنا مُتَّبِعٌ ولست بمبتدع ، ولن أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ؛ هذه سياسة الخليفة الأول . ولأبى بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته . فهو قد صحب رسول الله على ما رأيت منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيماناً لا يكبو ولا يتزعزع ، وكان لاتصاله القلبى والروحى برسول الله يعرف من أمره مالا يعرفه غيره . وهو وحده الذى قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » . وأنت قد رأيت من صحبته وإخائه وإيمانه فى حياة النبى ما لم يبلغه عمر ولا علىّ ولا أحد غيرهما من أمسّ المسلمين به صلى الله عليه وسلم صلةً وقربى . فلا جرم كان اتّباعه النبى اتباعاً صحيحاً صادراً عن إيمان وبينة ؛ إيمان يجعله مطمئناً إلى أنه لن يُخطئ ما اتبع الرسول ، وبينة تجعله يسلك الطريق التى يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها .

أبو بكر يشيع جيش أسامة

سمع الناس مقالة عمر بعد عوده إليهم بالجُرْف يبلّغهم رسالة أبى بكر ،

فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة طوعاً أو كرهاً . وخرج أبو بكر بعد ذلك حتى جاء العسكر ، فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماش وأسامة راكب ليزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليماً . وكأنما غلب أسامة الحياء أن يرى هذا الشيخ الوقور صاحب رسول الله وخليفته على المسلمين يسير إلى جانبه ، ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف ، فقال : « يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن » ، قال أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب وما علىّ أن أغبّر قدمىّ فى سبيل الله ساعة ! » . فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبى بكر .

لعمرك ما عسى أن يقول المتذمّرون بعد هذا الصنيع وقد بايعوا أبا بكر بالأمس ليلىَ أمر المسلمين جليله ودقيقه ! . والذين أذعنوا من قبل كرهاً لم يسعهم بعد هذا التصرف الحكيم إلا أن يرضوا أو يتعرضوا للقالة ويتّهموا بالأثَرة . وكثيراً ما كان للخوف من رأى الغير فينا وحكمه علينا سلطانٌ على تصرفاتنا وأعمالنا يعدل سلطان اقتناعنا الذاتى ، وإن اختلفت البواعث وتباينت النيّات .

وصية الصديق لجيش أسامة

وآن لأبى بكر أن يودع الجيش ، فوقف فى رجاله خطيباً وقال : « أيها الناس ، قفوا أوصِكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغُلّوا ، ولا تغدِروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقِروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . وسوف تَقْدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقَون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفِقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله ، أفناكم الله بالطعن والطاعون » .

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش : « اصنع ما أمرك به نبى الله صلى الله عليه وسلم . ابدأ ببلاد قُضاعةَ ، ثم ائت آبِل ، ولا تقصّرن فى شىء

من أمر رسول الله ، ولا تعجلَنّ لِما خـلَّفتَ عن عهده » .

مسيرة الجيش إلى البلقاء

وسار الجيش وعاد أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى المدينة . سار هذا الجيش وقائده الشاب على رأسه يقطع البيد ويتخطى المفاوز فى هذه الأيام الشديدة القيظ من شهر يونية . وبعد عشرين يوماً من مسيرته بلغ البلقاء حيث تقع مُؤتة ، وحيث استشهد زيد بن حارثة وصاحباه جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة . هناك نزل أسامة بعسكره فأغار على آبل ، وبث خيوله فى قبائل قضاعة ، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء الله وأعداء رسوله قضاءً لا يعرف هوادة ولا رحمة . وكان شعار المسلمين وصيحتهم فى الحرب ذلك اليوم : « يا منصور أمِتْ » .

قضاء أسامة على أعداء الله ورسوله

قتل المسلمون أثناء هذه الغزاة ، وأسروا ، وأحرقوا القرى التى قاومتهم ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا . بذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين فى مؤتة ، وبذلك نفَّذ أمر رسول الله أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وقد أتم ذلك دِراكًا فلم تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فلما أتمَّه عاد بالجيش مظفَّراً إلى المدينة ممتطياً الجواد الذى مات أبوه عليه .

عود أسامة ظافراً إلى المدينة

عاد بالجيش الظافر إلى المدينة ، لم يُغْرِه النصر باقتفاء أثر أعدائه أو باقتحام تخوم الروم والتوغل فى ديارهم . وعاد وقد زادت حداثة سنه فى جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تذمروا من قبل لإمارته يحدثون مفاخرين بحسن بلائه وعظيم إقدامه ، ويرددون مؤمنين قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

ولم يَدُرْ بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه . ذلك أن السياسة التى جرى عليها رسول الله والتى كانت ماثلة فى نفوس المسلمين جميعاً ، كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم ، فلا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود أو غير اليهود ممن كانوا يأتمرون بالمسلمين .

وكان ذلك طبيعياً ، إذ كان الروم لا يزال اسمهم يزلزل الشعوب بسعة

إمبراطوريتهم ونفوذ سلطانهم ؛ لم يغير من ذلك ما كان بينهم وبين العرب من نزاع كانوا فيه أصحاب الكلمة العليا إلى السنوات الأخيرة من حياة النبي . ألم يذهب دحية الكلبي بكتاب رسول الله إلى هرقل ، وهرقل فى أوج نصره ، فى السنة السابعة من الهجرة ، أى قبل وفاة النبي بسنوات ثلاث ، فرأى من قوة الروم وبأسهم ما رأى ! أو لم يذهب اليهود فى هذه السنة السابعة إلى فلسطين بعد هزيمتهم فى خيبر وفى فدك وتيماء ، وقلوبهم كلها الحفيظة على محمد وعلى من اتبعه ، يأتمرون لتأليب الروم عليهم كيما يقاتلوهم ويظفروا بهم كما قاتلوا الفرس وظفروا بها . لا جرم إذن أن يقف المسلمون من سياستهم عند حماية تخومهم من اعتداء الروم ، وأن يكرّ أسامة ، بعد أن تم له النصر على أعدائه ، راجعاً إلى المدينة ليقف إلى جانب أبي بكر والمسلمون معه ، دون أن يدور غزو الروم بخاطره أو خواطرهم ، ودون أن يتوقع أحد منهم أن هذا الغزو سيبدأ بعد سنتين اثنتين ، يَبْدَؤُهُ أبو بكر بحكم الحوادث ثم يُتمِّه خلفاؤه ، فيكون فيه القضاء على هذه الإمبراطورية الرومية التى ظلت قروناً مرهوبة الجانب تعنو لكلمتها الجباه وتتصدع من هول بأسها العروش .

أبو بكر يتلقى أسامة بظاهر المدينة

عاد أسامة إذن بالجيش الظافر ، وبلغ ظاهر المدينة ، فتلقّاه أبو بكر ، وكان قد خرج فى جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقائه وكلهم فرح وتهلل ؛ وتلقاه أهل المدينة الذين خفوا فى أثر أبي بكر وأصحابه بصيحات السرور والإعجاب والتقدير لبسالته وبسالة جيشه . ودخل أسامة المدينة تحيط به هالة من فخار النصر ، فقصد من فوره إلى المسجد حيث صلى شكراً لله على ما أنعم عليه وعلى المسلمين . وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين ، وقيل سبعين ، يوماً من مغادرته إياها .

يحاول بعض المستشرقين أن يهوّنوا من أمر هذه الغزوة وأن يصغّروا من شأنها ، مع ما كان من اغتباط المسلمين بها وإكبارهم للذين تم لهم النصر فيها . يقول المستشرق « فكَّا » محرر فصل أسامة فى دائرة المعارف الإسلامية : « وقد بعث انتصار أسامة البِشْرَ فى نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الرِّدّة ، وأصبح لانتصاره من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقة ، بل عُدّ

فيما بعد فاتحة للحملة التي وجِّهت لغزو الشام » . وصحيح أن هذه الغزوة ليست جسيمة بالقياس إلى ما نعرف من غزوات اليوم ، وليست جسيمة بالقياس إلى بعض الغزوات التي تمَّتْ في ذلك الحين . فقد اكتفى أسامة منها بأن دهم القبائل التي فجأها وأن غنِم منها دون أن يلقَى جيش الروم . لكن الأمر الذى لا ريب فيه أنها كانت بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ، وفى حياة العرب الذين فكروا فى الثورة بهم ، وفى حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم . قال أعداؤهم من العرب الذين تسامعوا بهذه الغزوة «لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تُغير على مَنْ بَعُد عنهم من القبائل القوية » . وانزعج هِرَقْل حين بلغته أنباء هذه الغزوة فبعث جيشاً قوياً عسكر بالبلقاء . وتلك الحجة البالغة على أن الروم والعرب جميعاً حسبوا حساب المسلمين بعد هذه الغزاة التى جعلت عرب الشمال ، فيما خلا دُومة الجنْدل ، لا يلحون فى التحرش بالمدينة والانتقاض عليها .

أثر هذا الغزو فى العرب وفى الروم

على أن الأمر لم يكن كذلك فيما سوى الشمال من أنحاء شبه الجزيرة . رأيت من قبل أن قبائل فى سائر أنحائها نزعت إلى العصيان فى السنوات الأخيرة من حياة النبى ، ورأيت أن جماعة من أهل هذه القبائل ادّعَوْا النبوّة . ولولا الفزع الذى كان يتولى هذه القبائل ويتولى المتنبئين فيها بسبب ما كان النبى يأخذهم به من حزم وما كان المسلمون يبدونه من بأس وقوة إيمان، إذن لسرت روح الانتقاض فى أنحاء كثيرة . فلما اختار محمد جوار ربه ارتدّت العرب إمَّا عامةً ، وإما خاصةً فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، واضطرب المسلمون لفقد نبيهم ولقلتهم وكثْرة عدوهم . فلم يكن بدٌّ من سياسة حكيمة حازمة تردّ الأمر إلى نصابه ، وتنصر دين الله فى إبَّان نشأته .

ردة العرب إما عامة وإما خاصة

وهذا ما صنع أبو بكر حين جرّد أبطال المسلمين لحروب الردّة ، وللقضاء على الثائرين بدين الله وبخليفة رسوله .

الفصل الخامس

قتال من منعوا الزكاة

بينما كان أسامة فى طريقه إلى تخوم الروم ، كان النبأ بوفاة النبي يدفع العرب إلى الثورة بسلطان المدينة. زادت ثورة اليمن ضـرامـًا على الرغم من قتل العنسيّ ، وبدأ مسيلمة فى بنى حَنيفَةَ وطُلَيْحَةُ فى بنى أسد يدعوان الناس إلى التصديق بنبوتهما ويلْقَيان من النجاح ما جعل عُيَيْنَةَ بن حِصْن يقول عن طُلَيْحَةَ : « نبيٌّ من الحليفين — يعنى أسداً وغطفان — أحبّ إلينا من نبيٍّ من قريش . وقد مات محمد وطُليحة حيّ » .

بوادر أنباء الردة

جاءت الرسل بهذه الأنباء وبما هو شر منها لأبى بكر أول ما استُخْلِف. فلما بسطوا أمامه الأمر قال لهم : « لاتبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمرّ من انتقاض الأمور » . ولم يلبثوا أن قَدِمتْ كتب أمراء النبي فى الأنحاء المختلفة من شبه الجزيرة بانتقاض عام أو بانتقاض خاص . ولم تُخْفِ هذه الكتب ما كان من اعتداء المنتقضين على مَنْ بقى على إسلامه بين أظهرهم . وكذلك تضرمت الأرض حول أبى بكر ناراً ؛ فكان لا بد من معالجة هذه الحال التى لم ير المسلمون مثلها منذ فُتِحتْ مكة وأسلمت ثقيفٌ .

وكان هذا الاضطراب الذى أصاب العرب قد انتهى بقوم إلى أن يرتدوا عن الإسلام، فى حين بقى آخرون على إسلامهم ثم أبوا أداء الزكاة لأبى بكر . وسواء أكان إباؤهم أداءها راجعـًا إلى حرص الناس على المال وتحايلهم على التحلل من بذله كتحايلهم على اقتناصه وإمساكه ، وذهابهم فى هذا وفى ذاك إلى حد التضحية بالحياة فى سبيله ، أم كان راجعـًا إلى عدم إيمانهم إياها إتاوة لم يبق بعد وفاة رسول الله ما يسوّغ دفعها لمن اختاره أهل المدينة أميراً عليهم ، فإنهم أضربوا عن أدائها وأعلنوا أنهم لن ينزلوا على حكم أبى بكر فى أمرها .

القبائل التى أبت أداء الزكاة

كان ذلك شأن القريبين من المدينة من قبائل عبس وذُبيان بنوع خاص .

فماذا عسى أن يصنع المسلمون معهم ؟ ليس من اليسير مقاتلتهم بعد أن أنفذ أبو بكر بعث أسامة فلم يبق بالمدينة جيش يدفع عنها . أيرضون منهم أن يمنعوا الزكاة ، وبذلك يستميلونهم إليهم لعلهم يجدون منهم عوناً على الذين نكثوا أيمانهم وارتدوا عن إسلامهم ؟ أم يحاربونهم فيزيدون بذلك عدد عدوهم ، وقد لا يكون لهم فى غيبة الجيش بحربهم قِبَلٌ ؟ .

عمر بن الخطاب وطائفة معه يشيرون بعدم قتالهم

جمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوا الزكاة . وكان رأى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم . ولعل أصحاب هذا الرأى كانوا كثرة الحاضرين فى حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة . وأغلب الظن أن المجادلة بين القوم فى هذا الأمر البالغ الخطر طالت واحتدمت أيما احتدام . فقد اضطُرّ أبو بكر أن يتدخل بنفسه فيها يؤيد القلة ؛ ولقد اشتد فى تأييد رأيه فى ذلك المقام ، يدل على ذلك قوله : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . ولم يَثْنِ هذا المقال عمر عن أن يرى ما فى القتال من تعريض المسلمين لخطر تخشى مغبته ، فقال فى شيء من الحدة : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

لم يتريث أبو بكر ولم يتردد فى إجابة عمر فقال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : « إلا بحقها » . ويتم الرواة هذا الحديث بأن عمر قال من بعد : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

يذكرنا هذا الحديث بما دار بين رسول الله ووفد ثقيف حين أقبلوا من الطائف يعلنون استعدادهم للإسلام ويطلبون إليه أن يعفيهم من الصلاة ؛ فقد أبى محمد يومئذ أن يجيبهم إلى ما طلبوا من ذلك وقال : « إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه » . ولعل أبا بكر قصد إلى مثل ذلك حين قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

جموع من منعوا الزكاة ووفدهم إلى المدينة

بعثت عَبْس وذُبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة ومن غَطَفانَ وفَزارةَ جموعاً منهم أقامت على مقربة من المدينة . ثم إن هذه الجموع انشطرت فرقتين : أقامت إحداهما بالأبرَق من الرَّبَذَة ، وسارت الأخرى إلى ذى القَصَّة أقرب مَحلَّة من المدينة على طريق نجد . وأرسل رؤساء هذه الجموع وفوداً منهم إلى المدينة نزلوا على وجوه الناس وتحملوا بهم على أبى بكر على أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فكان جواب أبى بكر ما رأيت : « والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه » .

أوامر أبى بكر لأهل المدينة

ورجعت هذه الوفود إلى من بعثوهم بعد ما اطَّلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ليس بها من يدفع عنها . وأدرك أبو بكر منهم ذلك ، فجمع الناس وقال لهم : « إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تُؤْتَوْن أو نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأمُلون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم . فاستعدوا وأعدوا » ثم إنه دعا إليه علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وجعلهم على مداخل المدينة ، وأمر سائر الناس أن يكونوا بالمسجد فى عُدَّة القتال .

أول معركة فى عهد أبى بكر

ولم يخطئ أبا بكر حَدْسُهُ ؛ فلم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثاً ، حتى زحف عليهم مانعو الزكاة يريدون أن يضعضعوا من عزمتهم للقتال ، فيتجاوز الخليفة عن هذا الفرض من فروض الإسلام . وأحسَّ العَسَس المقيمون على مداخل المدينة مأتى القوم ، فنبَّهوا علياً والزبير وطلحة وابن مسعود ومن معهم من الرجال . وأرسل هؤلاء إلى أبى بكر بالخبر ، فأجابهم أن الزَموا أماكنكم ، وخرج فى أهل المسجد على الإبل حتى بلغهم ، ثم خرجوا جميعاً يواجهون هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم . ولم يكن يدور بخواطر أهل هذه القبائل أن سيقاومهم أحد بعد الذى عرفوا من أمر المدينة وأهلها . فلما فاجأهم أبو بكر ومن معه أخِذُوا فولَّوا الأدبار ، فاتَّبعهم المسلمون حتى ذى حسًا ؛ وكانت القبائل قد تركت فى هذه المحلَّة مدداً من الرجال لعلهم يحتاجون إليهم . وشعر هذا المدد بمجىء القوم منهزمين وباتباع المسلمين إياهم ، فوقف دون هؤلاء وأولئك ، ودار بين الفريقين فى غسق الليل قتال لم يتكشف لأحد

منهم أثره . وكان الذين أقاموا بذى حُسًا من أهل القبائل قد جاءوا بأنحاء[1] نفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم فى وجوه الإبل التى امتطاها رجال المدينة . ولم تكن هذه الإبل إبل حرب ألفتْ مكايد القتال ؛ ولذلك نفرت براكبيها مرتدة حتى دخلت بهم المدينة .

تراجع المسلمين إلى المدينة

فرحت عبس وذبيان ومن ناصرهم بفرار المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وبعثوا إلى من بذى القصّة ينبئونهم بما حدث. وأقبل أهل ذى القصة عليهم وتبادلوا وإياهم الرأى ألا يذروا المدينة حتّى يوادعهم أبو بكر على ما أرادوا . أما أبو بكر والمسلمون معه فلم يغمض لهم تلك الليلة جفن ، بل بات يتهيأ ويعبّئهم . فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج يمشى على رأسهم ، وقد جعل لهم ميمنة وميسرة وساقة . وأغذّوا جميعًا السير ، فما طلع الفجر حتّى كانوا مع العدو فى صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم همسًا ولا حسًا . وكيف يسمع وقد اطمأن إلى انتصاره وبات ناعم الجفن بنوم هانئ . ووضع المسلمون السيوف فى القوم ،

انتصارهم الحاسم صبح اليوم نفسه

فهبّوا فزعين يقاتلون. ولكن هيهات! لقد أمعن رجال أبى بكر فيهم قتلا وهم فى عماية الصبح يضطرب حابلهم بنابلهم . وذرّ قرن الشمس وهم يولون الأدبار منهزمين لا يلوون على شىء . واتّبعهم أبو بكر حتّى نزل بذى القصّة وهم يفرون أمامه فرار النعام . عند ذلك تركهم ونزل بعسكره فى منازلهم من هذه المحلّة ، ثم جعل بها النعمان بن مُقرِّن صاحب ميمنته وجعل معه عددًا يدفع به الذين أرادوا على الصدّيق نصرًا فخُذِلوا ، وعِزًّا فذلّوا .

هنا يقف الإنسان خاشعًا ملَكه الإعجاب بأبى بكر وبإيمانه وثباته وحزمه . فذلك موقف يذكرنا بمواقف الرسول عليه السلام . وإن لهذه الغزوة الأولى من غزوات أبى بكر لجلالا ما أشبهه بجلال غزوة بدر . ووقف المسلمون يوم بدر ومحمد على رأسهم وعددهم لا يزيد على ثلاثمائة يقاتلون المشركين من أهل مكة وعددهم يزيد على ألف . وهنا وقف أهل المدينة ، ومنهم المقاتل ومنهم غير المقاتل ، وأبو بكر على رأسهم ، وهم قلة أمام هذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغَطَفان وغيرهم من القبائل . ويومئذ تحصن محمد بإيمانه وإيمان

(١) الأنحاء : جمع نحى : وهى أوعية من جلود .

أصحابه وينصر الله إياهم على المشركين . وهنا تحصن أبو بكر بإيمانه وإيمان أصحابه فانتصر كما انتصر الرسول ، ثم كان لنصره الأثر البالغ فى حياة المسلمين .

على أن ما يملك الإنسان من الإعجاب بأبى بكر فى هذا الموقف لا يشوبه من العجب شىء . فقد آلى الصديق على نفسه منذ اللحظة الأولى ألا يدع شيئاً كان يصنعه رسول الله إلا صنعه . أماً وذلك عزمه الذى لا يحيد عنه ، فلا عجب أن يأبى المساومة فى أمر يتصل بما فرض الله فى كتابه ، وأن يذكر كلما طلب إليه أحد أن ينزل عن شىء لم يكن رسول الله ليرضى أن ينزل عنه ، هذه الكلمة الخالدة على الزمن من كلمات رسول الله : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . هذا ما صنع أبو بكر حين تحدث إليه أصحابه فى العدول عن بعث أسامة . وهذا كان موقفه حين تحدثوا إليه فيما يطالب العرب من منع الزكاة . وذلك هو الإيمان الصادق الذى لا يغلبه فى الحياة غالب ؛ لأنه يستهين بالموت ويسمو لذلك على كل ما فى الحياة .

وهذا الإيمان الصادق الذى لا يغلبه الموت ولا يغلبه زخرف هذه الحياة الدنيا هو الذى حفظ الإسلام فى صفائه وكماله فى ذلك الوقت الدقيق الذى كان يومئذ يتخطاه .

وإنك لفى حل أن تسأل نفسك : ترى ما كان عسى أن يؤول إليه أمر المسلمين لو أن أبا بكر قبل مشورة عمر وأصحابه فى شأن الذين طلبوا منع الزكاة ووادع هؤلاء الطالبين على ذلك ؟ ولا إخالنى فى حاجة إلى أن أدلك على الجواب فأنت تعرفه كما أعرفه . كانت قبائل كثيرة من العرب إلى ذلك الوقت ما تزال قريبة عهد بالجاهلية وبالوثنية . فلو أن أبا بكر رضى النزول عن فرض من فروض الدين لاتصلت المساومات ، ولوجد طليحة ومسيلمة وغيرهما من المتنبئين الوسيلة للتشكيك فيما جاء محمد به من عند ربه ، ثم لوجدوا من هذه القبائل القريبة العهد بالجاهلية مصدقاً لهم ومطيعاً ، بل مؤمناً بهم يموت فى سبيلهم وينصرهم على دين الحق .

أثر هذا النصر فى المسلمين من مختلف القبائل

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبي بكر ثم لانتصاره بذى القَصّة من أثر حين تعلم أن المشركين من بنى ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة . هذه الظاهرة التى دفع إليها الغضب والشعور بالذلة والانتقام الوضيع قد زادت انتصار المسلمين جلالا وزادت المسلمين ثباتاً على دينهم فى كل قبيلة ، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله . لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه ، فى حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم فأيقنوا أن الغلب لدين الحق والإيمان به ، وأن الانتقام الوضيع الذى لجأت القبائل إليه لن يمحو عنها عار هزيمتها ، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غالياً .

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن فى كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة . وهو لا محالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم .

أهل القبائل يؤدون الزكاة لأبى بكر

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله على أثر انتصاره بذى القَصّة . وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صَفْوان والزِّبْرِقان من رؤساء بنى تميم ، وعَدِىّ بن حاتم الطائى عن قومه من طيئ . واستقبل الناس هؤلاء السفراء عن عشائرهم فى بِشْر أىّ بشر . وكان الناس يقول بعضهم لبعض إذا طلع أحدهم : هذا نذير ، فيقول أبو بكر : « بل هو بشير ، وهو حامٍ ليس بوانٍ » . ويجيب الناس أبا بكر يقولون : « طالما بشّرت بالخير » ! ! .

لم يكن أبو بكر غالياً إذ دعا هؤلاء حُماة ومبشّرين بالخير . فقد كان المسلمون بالمدينة وفيما جاورها فى حاجة يومئذ إلى سند يشد أزرهم بعد الذى رأوا من خطر يوشك أن يهدّ كيانهم . روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبى بكر . أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مَخَاض وابنة لَبُون ، وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم . فوالله ما رضى منهم إلا بالخُطّة المخزية أو الحرب المجلية . فأما الخطّة المخزية فأن يُقِرّوا بأن

من قُتل منهم فى النار ومَنْ قُتل منا فى الجنة ، وأن يَدُوا قتلانا ، وأن نغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا . وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم » .

عود أسامة من أرض الروم

وإن الناس لفى طمأنينتهم بالمدينة إلى نصر الله أبا بكر ، وقد جاء إليهم المسلمون من مختلف القبائل بالزكاة ، إذ أقبل أسامة عائداً من أرض الروم غانماً مظفراً يسوق أمامه غنائمه ويلحق به جيشه ، ويستقبلهم أبو بكر وكبار الصحابة بالجُرُف ، ويحفّ الناس بهم فى أثر الصدّيق وأصحابه ينشدون من حولهم أغانى العزة والنصر . وذهب أسامة من فوره إلى المسجد ، فركز اللواء الذى عقده له رسول الله ، وصلّى شكراً لله على ما نصره وأعزّ بجيش المسلمين كلمةَ الحق ودين الهدى .

ما هذا كله ؟ ! أليست هى المعجزة أراد الله أن يتم بها النصر لدينه ! وهل تتضافر الأقدار بمحض المصادفة هذا التضافر الذى دوّى فى أنحاء شبه الجزيرة ، فشد من عزائم المسلمين فى كل قبيلة ، ورفع من رءوسهم فى وجه عدوهم فما يدرى مرتدّ ما يقول لهم ! . .

أبو بكر يخرج كرة أخرى لقتال من منعوا الزكاة

ورأى أبو بكر فى حصافته ودقة تقديره الأمور ألا يُريح أعداءه وأن يضاعف ذلّتهم ، فقال لأسامة وجنده : استريحوا وأريحوا ظهوركم . ثم استخلف أسامة على المدينة ، ونادى فى رجاله الأوّلين بالخروج معه إلى ذى القصة . وناشده المسلمون قائلين : « ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرّض نفسك ، فإنك إن تُصَبْ لم يكن للناس نظام ، ومُقامك أشد على العدو ، فابعث رجلا ، فإن أصيب أمّرت آخر » . لكن أبا بكر كان إذا اعتزم أمراً لم يرجع عنه ؛ لذلك قال لهم : « لا ! والله لا أفعل ، ولأواسينّكم بنفسى » . وخرج ومن حوله الميمنة والميسرة والساقة ، كما خرج من قبل ، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فيما وراء ذى القصة . هنالك قاتل عبساً وبنى ذبيان وبنى بكر فغلبهم وأجلاهم عن مواقعهم . وكانت الأبرق فى ملك بنى ذبيان . فلما جلَوْا عنها أعلن أبو بكر أنها أصبحت فى ملكه وملك أصحابه . وقال : « حرام على بنى ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد وقد غنّمناها الله » .

وبقيت هذه الأماكن من بعدُ يحتلها المسلمون ، فلم يرض أبو بكر أن يردها إلى بنى ثَعْلبةَ حين جاءوا إليه بعد أن استقرت الأمور يريدون العود فيها إلى منازلهم .

تمت هزيمة الثائرين الذين أرادوا أن يمنعوا الزكاة . وتمت هذه المرةَ والمدينة فى منَعَة أى منعة بجيش أسامة ، وفى رخاء بما جاء به من الغنائم ، وبما حُمِل إليها من زكاة المسلمين الذين آتوا الزكاة منذ انتصر خليفة رسول الله .

أفما آن لبنى ذبيان وعبس وغطفان وبنى بكر وغيرهم من القبائل القريبة من المدينة أن ترجع عن انتقاضها ، وأن تذعن لأبى بكر وتعلن الإسلام لأمر الله ولخليفة رسول الله ؟ لقد تحطمت الثورة التى قام بها العنسىّ فى اليمن . ولقد انتصر المسلمون على تخوم الروم . ولقد بدا أبو بكر فى ثوب من قوة الإيمان لا غالب له. وهذه القبائل كانت إلى أن اختار الله إليه رسوله مُسلمةً صادقة فى دينها ، فخير لها أن تعود إلى حظيرة الإسلام وأن تمد يدها إلى الصدّيق بالطاعة . وأن تكون معه على عدوّ الله وعدوه . ذلك ما يوجبه العقل وما يقضى به منطق الحوادث . فأولئك المسلمون من المهاجرين والأنصار هم الذين تغلّبوا على أهل شبه الجزيرة جميعًا بقوة إيمانهم ؛ وهم اليوم فى قوة لم تكن لهم أيام بَدْر والغزوات الأولى فى عهد الرسول . فمكة معهم ، والطائف معهم ، وسلطانهم معترف به فى مختلف البقاع . ثم إن من أهل هذه القبائل الثائرة بأبى بكر مسلمين إن استطاعت القبائل أن تفتن بعضهم فلا سلطان لها على الأعِزة منهم ، مخافة الثارات والفتن التى تنجم عن تعصب البطون والأفخاذ لذوى المكانة فيها . أفأذعنت لحكم العقل وسمعت لحجة المنطق ؟ .

انحياز المنهزمين إلى طليحة فى بنى أسد

كلا ! بل أخذتها العزة بالإثم ، وغرها بالله الغرور ، وصدق عليها المثل : العناد يورث الكفر . لذلك جلت عن مواطنها وانحازت إلى طُلَيْحة بن خُوَيْلد المتنبىّ فى بنى أسد وكفرت بنعمة الله عليها بالإسلام. ولم يستطع المؤمنون الذين أقاموا على دين الله بينها أن يقاوموا عنادها وكفرها ، فنزح منهم من نزح معها كارهاً برماً لا يملك من أمر نفسه شيئًا . وقَوّى انحيازُها طُليحة ومُسيلمة

وقوى روح التمرد فى اليمن . لذلك بقى أبو بكر فى موقفه الأول من العزم على مقاتلتهم حتى يتم أمر ربك. ولو أن هذه القبائل أذعنت لحكم العقل وأصاخت لإملاء المنطق لضعضع أمرها من عزم طليحة وأشباهه، ولأسرعت شبه الجزيرة إلى حمى الإسلام والسلام .

موقف القبائل من أبى بكر وموقفه منها

ولست تجد تعليلا لهذا العناد ولهذا الانقلاب عن الإسلام إلا ما قدّمنا من تعصب القبائل وحرصها البدوى على سلطانها، ومن المغالاة فى ذلك إلى حد لا يكبح من جماحه غير البأس . فإذا كانت قد رُدَّتْ على أعقابها حين حاولت مهاجمة المدينة، أو كانت قد أجليت عن بعض منازلها من بعد ، فطبيعتها البدوية تدعوها إلى الثأر لنفسها. ولتثأر لنفسها انضمت إلى بنى أسد وإلى طُليحة ، لعلها تجد فى عونها ما يرفع عنها عار الذلة، وما يرد إليها شيئاً من الكرامة .

فأما أبو بكر فكان قد سما فوق الاعتبارات القَبَلية وما يتصل بها، وتوجه بكل قلبه ورأيه وعزيمته إلى تنفيذ الخُطَّة التى رسمها رسول الله . تلك سياسته التى أعلنها يوم بويع ، والتى سار عليها إلى أن لقى ربه .

الفصل السادس

التهيؤ لحروب الردة

هزم أبو بكر عبساً وذبيان وبنى بكر ومن انضم إليهم وأجلاهم عن مواقعهم بالأبرق ، فانحازوا إلى طُلَيحة بن خُوَيْلد الأسَدىّ ببُزاخة . وقد أعلن أبو بكر أن الله غنّمه هذه البلاد فلن يردها إلى أصحابها، وأنه جعل الأبرق لخيول المسلمين ، وأرعى سائر بلاد الرّبذة الناس وجعلها صدقات للذين آمنوا . ورجع الصدّيق إلى المدينة وهو يفكر فى الوسيلة التى يقضى بها على الذين ارتدوا عن الإسلام القضاء المبرم . فما كان ليذرهم فى شتّى الأنحاء من شبه الجزيرة يثورون به وبدين الله، وما كان ليصالحهم أو يوادعهم قبل أن يثوبوا إلى الله وأن يرجعوا مسلمين .

توزيع الجند ألوية لقتال المرتدين

وأقام بالمدينة ، حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة جَمّ خرج به إلى ذى القَصّة فوزع الجند أحد عشر لواء جعل على كل لواء منها أميراً ، ثم أصدر إلى كل منهم أمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولى القوة وأن يسير لقتال المرتدين * .

---

* وزع أبو بكر هذه الألوية توزيعاً يجعلها تتناسب فى عددها وفى إمارتها مع قوة القبائل التى وجهها إليها ، ومبلغ إلحاح هذه القبائل فى الردة . لذلك وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة بن خويلد فى بنى أسد ، فإذا فرغ منه صار إلى مالك بن نويرة زعيم بنى تميم بالبطاح . وبنو أسد وبنو تميم كانوا أقرب القبائل المرتدة إلى المدينة ، فكان طبيعياً أن يبدأ المسلمون بهم لتفت هزيمتهم فى أعضاد غيرهم . وخالد أجدر القواد بأن يعقد النصر له لواءه .

وجعل أبو بكر عكرمة بن أبى جهل على اللواء الثانى ووجهه لقتال مسيلمة فى بنى حنيفة باليمامة . ثم جعل شرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث وأمره بمعاونة عكرمة على مسيلمة . فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة مدداً لعمرو بن العاص . وقد استعصت اليمامة على عكرمة وعلى شرحبيل ثم كان خالد بن الوليد هو الذى قضى على الردة فيها بعد أن قتل مسيلمة فى غزوة عقرباء .

وعقد أبو بكر للمهاجر بن أبى أمية المخزومى إمارة اللواء الرابع لقتال جنود العنسى باليمن ولقتال عمرو بن معدى كرب الزبيدى وقيس بن مكشوح المرادى ورجالها ، فإذا فرغ منهم =

احتفظ أبو بكر للمدينة بقوة تحميها كانت دون الألوية عدداً . ذلك أن المدينة كانت يومذاك بمأمن من غارة المغير ، وكانت فى رخاء زاد أهلها اطمئنانا للحياة . وكيف لقبيلة أن تُغير عليها والغارات توجَّه منها إلى كل صوب ، وقد تداول سمع الناس من أنباء جندها المظفر وماله من الأيد والبسالة ما جعل دفع هذا الجند غاية ما يطمع فيه الثائرون بها ! .

أبو بكر بالمدينة مركز القيادة العامة

ومن يومئذ أقام أبو بكر بالمدينة لم يبرحها . ولم يكن ذلك رغبة منه عن مشاركة المسلمين فى مواقعهم ، بل لأن المدينة أصبحت مكان القيادة العامة للجند كله ، والمرجع الذى تصدر منه الأوامر بالتحرك من مكان إلى آخر. فقد كان مما أمر به أبو بكر قوّاده ألا ينتقل أحدهم من حرب جماعة تغلَّب عليها إلى مواجهة أخرى لمقاتلتها حتّى يستأذنه ؛ وذلك إيماناً منه بأن وحدة القيادة فى الحرب بعض ما تقضى به السياسة الحكيمة، وما يكفل الغلبَ والفوز .

اختياره أمراء الألوية من المهاجرين

وقد لاحظ جماعة من الأنصار أن أبا بكر جعل الألوية للمهاجرين ولم يجعل لهم منها نصيباً . وهو إنما فعل هذا ليبقى أهل المدينة على قوات الدفاع عنها ؛ فهم أعلم بأمرها، وأحرص من غيرهم على الذود عن حياضها . أما ماظنه بعضهم من أنه استبقاهم حذراً منهم بعد الذى أبدَوه فى سقيفة بنى ساعدة فلا مسوّغ له . فهذه الألوية إنما عقدت لقتال المرتدين . ولم يكن الأنصار دون المهاجرين إيماناً بالله ورسوله، فالحذر من ناحيتهم فى هذا القتال

= قصد إلى كندة وحضرموت يقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه . أما اللواء الخامس فوجهه إلى تهامة اليمن وجعل عليه سويد بن مقرن الأوسى .

وعقد إمارة اللواء السادس للعلاء بن الحضرمى لقتال الحطم بن ضبيعة أخى بنى قيس بن ثعلبة والمرتدين معه بالبحرين . ووجه حذيفة بن محصن الغلفانى من حمير على رأس اللواء السابع لقتال ذى التاج لقيط بن مالك الأزدى المتنبىء فى عمان . وكانت وجهة اللواء الثامن وعليه عرفجة بن هرثمة إلى مهرة .

كان طبيعياً أن توجه هذه الألوية إلى الجنوب لبأس أهله وإلحاحهم فى الردة . أما الشمال من شبه الجزيرة فتوجهت إليه ألوية ثلاثة ، على أحدها عمرو بن العاص لقتال قضاعة ، وعلى الثانى معن ابن حاجز السلمى لقتال بنى سليم ومن معهم من هوازن ، وعلى الثالث خالد بن سعيد بن العاص لاستبراء مشارف الشام . .

لا مسوّغ له . ولو أن مثل هذا التأويل ساغ فى شأن الأنصار لساغ كذلك فى شأن كبار المهاجرين أمثال علىّ ، وطلحة ، والزبير ، ممن أقاموا كما أقام عمر بن الخطاب بالمدينة ليشيروا على أبى بكر ، فيكون مركز القيادة العامة قوياً بهم وبما يضعون من خُطَط ويدبّرون من أمور .

أبو بكر فوق الشبهات

ومِمّ كان أبو بكر يحذَر أو يخشى ؟ إنه لم يتول الخلافة رغبة منه فيها ، بل لأن أولى الرأى بالمدينة رأوه أصلحهم لها . ولقد أبدى منذ تولاها من التقدير لأعبائها ما يشهد بأنه قبلها مضحياً فى سبيل الله . كان مما قاله وهو يخطب الناس بعد قليل من تمام بيعته : «أما بعد، فإنى وَلِيتُ هذا الأمر وأنا له كاره . ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه ! » . وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك» . فرفع الناس رءوسهم دهشاً فقال : « مالكم أيها الناس ! إنكم لطعّانون عَجِلون . إن من الملوك من إذا ملك زهّده الله فيما بيده ، ورغّبه فيما بيد غيره . . . فهو كالسراب الخادع ، جَذِل الظاهر ، حزين الباطن » وكان منزل أبى بكر بالسُّنْح عند زوجته حبيبة بنت خارجة منزلا بدوياً صغيراً لم يغيّر منه ولا غيّر من منزله بالمدينة بعد ما بويع ، بل أقام به ستة أشهر يغدو على رجليه من السُّنْح إلى المدينة ، وربما ركب فرساً له . وكان يتّجر فى الثياب فلما رأى أعباء الدولة أشق من أن تتفق والتجارة قال : « لا والله ما يصلح أمر الناس والتجارة ! وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر فى شأنهم . ولا بد لعيالِى ما يصلحهم » . وترك التجارة ووظّف له من بيت مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله . فلما حضرته الوفاة قال : « رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً ، وإنّ أرضى بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم» . قال عمر بن الخطاب وهو يستولى على هذه الأرض بعد ما استخلف : « لقد أتعب أبو بكر مَنْ بعده » .

رجل ذلك شأنه مِمّ يحذَر ! وما كان عسى أن يحذر يوم عقد الألوية الأحد عشر وكانت مكانته قد توطدت بين المسلمين ، بل بين العرب جميعاً ، بما أبدى من حزم وحسن رأى وصدق إيمان وحرص على التضحية كانت كلها بعض صفاته فى جميع أدوار حياته ، ثم بلغت أوج قوتها وصفائها فى هذه

الآونة التى جلّل الشيب فيها رأسه بعد أن تخطى الستين وتولى خلافة رسول الله . لذلك لم يخامر أحداً الريب فى مقاصده ، ولم يتردد أحد فى تنفيذ ما أمر به .

لواء خالد بن الوليد

ولقد كان اللواء الذى عقده لخالد بن الوليد أمنع الألوية الأحد عشر وأقواها ، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار . ولعل خالداً هو الذى اختارهم . وسترى من بعد أنهم أبلَوْا فى حروب الردّة خير بلاء ، ثم كان لهم فى حروب العراق والشام بلاء لا تُبليه الأيام ، ولا يجنى عليه النسيان .

خالد بن الوليد عبقرى الحرب وسيف الله

ولا عجب أن يكون ذلك شأن لواء على رأسه خالد بن الوليد . فقد كان خالدٌ عبقرياً فى الحرب لا يغلب . آتاه الله موهبتها ، كما آتى هذه الموهبة الإسكندر الأكبر ، وجنكيزخان ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، ونابليون . كان بطلا مقداماً وفارساً مغامراً ، ثم كان له من سلامة الحكم وسرعته ما يجنّبه كل خطر للمغامرة أو الإقدام . وكان مداوراً فى الحرب ألهم سرها ، وتجلّى له ما جل ودق من أمرها وكان الناس جميعاً يشهدون له بهذا ، وقد سمّاه رسول الله « سيف الله » حين تولى أمر الجيش « بمؤتة » بعد مقتل زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، فداور به فى وجه الروم ثم ارتد به سالماً لم ينتصر ولم يلحقه عار الهزيمة . وبقى خالد سيف الله فى كل وقائعه إلى أن مات .

وكان خالد قبل إسلامه بطل قريش المغوارَ وفارسها المُعْلَم . لذلك كان فى وقائع بدر وأحُد والخندق على جيش المشركين . وكان له من صفات الجندى خشونة فى الطبع ، وميل إلى الشدة والبطش ، وتسرع لولا سلامة حكمه لأضرّ به . من ثمّ كان لا يهاب الأقران ولا يخشى أحداً . لما ذهب رسول الله إلى مكة فى عمرة القضاء بعد عهد الحُدَيْبيَة ثم عاد إلى المدينة ، وقف خالد ابن الوليد فى جمع من قريش يقول : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين . فحق على كل ذى لبّ أن يتبعه » . ودار لذلك بينه وبين عِكْرِمة بن أبى جهل حوارٌ لم يبلغ العنف

فيه مبلغاً تخشى مغبّته . ولم يكن أبو سفيان حاضراً هذا الاجتماع . فلما بلغه إسلام خالد بعث فى طلبه وسأله : أحق ما بلغه عنه ؟ أجابه خالد أنه حق ، وأنه أسلم ، وشهد برسالة محمد ؛ فغضب أبو سفيان وقال : « واللاّت والعُزّى لو أعلم أن الذى تقول حقٌ لبدأت بك قبل محمد» . وكان جواب خالد فى حدّة المعتز بنفسه : « فوالله إنه لحقٌ على رَغْم من رَغِم » .

ولَحِق خالد بالمدينة ، فلم يلبث أن سمت مكانته بين المسلمين بوصفه محارباً . فلما كانت مُؤْتة كان سيف الله فيها ، ثم كان سيفَ الله من بعد ؛ فتح الله به العراق والشام، وأذل به فارس والروم الإمبراطوريتين العظيمتين صاحبتى الأمر والنهى فى شئون العالم يومئذ . فلاعجب أن يختاره أبو بكر أميراً على لوائه الأمنع . ولا عجب أن يكون لخالد فى حروب الردة وما تلاهما سنقص عليك نبأه من بعد .

الهجوم السلمى الذى سبق حروب الردة

هل سيَّر أبو بكر هذه الألوية الأحد عشر للقتال أول ما تم تجهيزها ؟ وهل سيرها كلها دفعة واحدة ؟ ذلك ما يذكره بعض الرواة وإن دلّت الوقائع على خلافه . لكنه على كل حال لم يسيِّر أولها حتى بدأ بهجوم سلمى مهَّد به لها خير تمهيد . فقد أذاع فى الناس من أهل شبه الجزيرة جميعاً كتاباً تحدث فيه إلى من بلغه هذا الكتاب من عامة أو خاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه . وقد بدأ هذا الكتاب بحمد الله والثناء عليه ، وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيراً ، ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلّغ ما أمره الله أن يُبلغه للناس ، وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . وقال : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَئِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ » . وقال للمؤمنين : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِين » .

وإنما أراد الصدّيق بذكر هذه الآيات أن يدفع بها ما ثار من الفتنة بقول

الذين قالوا : لو أن محمداً كان رسولا حقًّا ما مات . وبعد أن فرغ من ذلك ومن الإيصاء بتقوى الله والاعتصام بدينه قال : «وقد بلغنى رجوعُ مَنْ رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله عز وجل، وجهالة لأمره، وإجابة للشيطان . . وإنى قد أنفذت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله . فمن استجاب وأقرّ وكفّ وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى، أن يقاتله على ذلك ، ولا يُبقِى على أحد منهم قَدَر عليه، وأن يُحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعْجِزَ اللهَ . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم . والداعية الأذان » . لذلك كان المسلمون إذا أذّنوا فأذّن الناس كفّوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا سألوهم ما هم عليه ، فإن أبوا عاجلوهم .

كتاب الصديق إلى المرتدين

أذاع أبو بكر هذه الرسالة فى مختلف الأنحاء من شبه الجزيرة . وإنما ابتغى بها أن يدع للمترددين فرصة للتفكير ؛ فإنه قد انساق كثيرون وراء الدعاة مخافة ما يصيبهم إذا أقاموا على إسلامهم. فإذا رأوا أنفسهم بين قوّتين مالت نفوسهم إلى إسلامها ، أو أمسكوا على الأقل عن نصرة زعماء الردة. بذلك تُحقَن دماء ، وبه يتضعضع عزم كثيرين فلا يقاومون . وسترى أن هذا الأثر الذى قصد إليه أبو بكر من هجومه السامىّ قد تحقق منه حظٌّ عظيم .

جد الصديق فى هجومه السلمى

على أن أبا بكر لم يقصد من هجومه ذاك مداورة يقف عندها ، فإن أنتجت أثرها فذاك، وإن لم تنتجه التمس وسيلة غيرها لهجوم سلمىّ آخر . كلا ! بل لقد كان جادًّا كل الجد فى كل كلمة من كلمات كتابه ، وفى كل صورة من صور التهديد التى ذكرها فيه . فهو لم يلبث حين أتم هذا الكتاب يُعذِر فيه للمرتدين ويُنذرهم أن كتب إلى أمراء الألوية عهداً لقتال مَنْ رجع عن الإسلام أن يجاهدوهم بعد أن يُعذِروا إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام . فإن أجابوا الأمير على جند المسلمين أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم

حتى يقرّوا له ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم مالهم ، ولا يُنْظِرهم . ومن يجب الدعوة لم يكن لأحد عليه سبيل ، وكان الله حسيبَه بعدُ فيما استسرّ به . أما من لم يجب داعى الله فليُقتَلْ وليُقَاتَلْ حيث كان ، ولا يقبل منه إلا الإسلام ، وليقتل بالسلاح والنيران .

سياسته، وتأويل حزم أبى بكر فى تنفيذها

بهذين الكتابين وبالألوية التى عقدها أبو بكر تمّ التجهيز لحروب الردّة . وأنت ترى فى هذا كله صورة صحيحة للسياسة الحازمة التى اتبعها أبو بكر فى خلافته . وقد يحسبها البعض عجباً من أبى بكر مع ما عرف عنه من لين الطبع ودماثة الخلق والحرص على تألّف القلوب بالحسنى . لكنها ليست عجيبة ألبتة وإيمان الصدّيق بالله ورسوله لم يعرف التردد يوماً إليه سبيلا . والطبائع الرقيقة تأبى العنف ولا تميل إلى الشدة فى مألوف ما بين الناس من تجارة الحياة . فأما إن اتصل الأمر بشىء يؤمن أصحاب هذه الطبائع به ، فلن تقاس بشدّتهم شدة ولا بقوتهم قوة . وكأنما رُكِّب فى الفطرة الإنسانية مقدارٌ من الشدة واللين يتقارب قدره فى كل فرد من الناس جميعاً ، ثم يتفاوتون فى تقدير الأوقات والمناسبات التى تجب فيها الشدة أو يجب فيها اللين . فمنهم من تغلب الشدة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يلين أبداً . ومنهم من تغلب الرقة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يشتد أبداً . والواقع أنك ترى من تغلب الشدة طبعه يلين أحياناً، فإذا به يبلغ فى رقته وفى لينه حداً لا يجده الإنسان فيمن ألف منهم لين الجانب ورقة الطبع . والذين تغلبهم الرقة معظم الوقت وتبلغ حدّ التألم للغير والبكاء لشقائه ، يصلون من البأس والبطش أحياناً إلى حد لا يجده الإنسان فيمن كانت الشدة بعض طبعهم .

أفكان يظن أحدٌ أن يقف أبو بكر من بعث أسامة ذلك الموقف الحاسم مخالفاً كبار المسلمين ، مهاجريهم والأنصار ؛ أو أن يشتد فى أمر الذين منعوا الزكاة لا يصده عن قتالهم غياب جيش المسلمين عن المدينة ؟! وسترى له من بعد مواقف كهذه تثير عجبك وإعجابك لبأس رجل كله الرقة والرفق ولين الجانب .

وقد بيّنا تأويل ذلك من قبل حين تحدثنا عن إيمان الصدّيق بالله ورسوله .

كان هذا الإيمان عنده هو الحق لا حق غيره ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكان حقًّا كله ، فصَّله الله فى كتابه الذى أوحاه إلى محمد عبده ورسوله . فإذا جاز أن يساوم الناس بعضهم بعضًا على أمر فى الحياة ، فلن تتناول المساومة هذا الحق المتصل بالله جل شأنه ، والذى لا يملك أحد من أمره إلا التسليم به والإذعان له . فمن حدثته نفسه بالخروج عليه فلا شأن لأبى بكر معه إلا أن يقاتله حتى يرده إلى الحق أو يقتله . وهو يقاتله ولو كان الصدّيق وحده ، ولو لم يبق فى القرى غيره . كذلك كان فى أمر من منعوا الزكاة . فأحْرِ به أن يكونه فى أمر من تمَّتْ ردتهم أو حدثتهم أنفسهم أن يؤمنوا برسول غير محمد رسول الله .

حروب الردة حاسمة فى حياة الإسلام

آن لأبى بكر بعد أن تم التهيؤ لقتال المرتدين أن يبدأ هذه الحرب الحاسمة فى حياة الإسلام . فقد كانت حربًا حاسمة لا ريب . ولئن لم ينتصر المسلمون فيها ليكونن ذلك النذير بعود العرب إلى جاهليتهم الأولى . لكن الله جل ثناؤه قدَّر أن يُظهر دينه على الدين كله ، وجعل أبا بكر آية له تطالع الناس بما أراد وقدَّر . لذلك لم يعرف تاريخ الإسلام ولن يعرف حروب ردة كالتى واجهها أبو بكر فتغلَّب بإيمانه عليها ، ثم كانت طليعة انتشار الإسلام فى الخافقين .

الفصل السابع

طليحة وغزوة البزاخة

باءت عبس وذبيان وبنو بكر ومن آزرهم فى مهاجمة المدينة بعار الهزيمة ، فانحازت إلى طُلَيْحة بن خُوَيلد الأسدىّ . وانضم إلى هؤلاء قبائل طيئ وغطَفان وسُلَيْم وما جاورها من أهل البادية الواقعة شرقى المدينة وإلى شمالها الشرقى . وكانوا جميعًا يقولون ما يقوله عُيَيْنة بن حِصْن ومن معه من بنى فَزارة : « نبى من الحليفين — يعنون أسداً وغطفان — أحب إلينا من نبىٍّ من قريش . وقد مات محمد وطليحة حىّ » .

ولم يكن هؤلاء فى ريب من أن أبا بكر سيتجهّز لهم ويحاربهم . لكنهم أصروا على مناهضته ، وعلى متابعة طُليحة ، تمرداً على سلطان المدينة ، وحرصاً على استقلالهم ، واستكباراً أن يُؤْتوا الزكاة ، إذ هم يرونها إتاوة يؤديها التابع للمتبوع . وكان طُلَيحة يقيم بَسميراء ، ثم انتقل منها إلى بُزَاخةَ يحسبها أمنع موقعًا وخيراً فى الحرب مكانًا .

تنبؤ طليحة بن خويلد الأسدى

وطُلَيحة لم يتنبأ بعد موت رسول الله ، بل تنبأ فى العهد الأخير من حياته ، شأنه فى ذلك شأن الأسود العنسى ومُسيلمة . وهو لم يدعُ العرب إلى العودة لعبادة الأصنام ، كما لم يدعُهم غيره من المتنبئين إلى العودة لعبادتها . لقد قضى محمد على هذه الوثنية فى بلاد العرب قضاءً مبرمًا ، فامتدت دعوة التوحيد إلى أنحاء شبه الجزيرة جميعًا ، واستقرت فى النفوس استقراراً جعل التفكير فى الأصنام ضربًا من الهذيان يستحيى منه كل إنسان . وإنما زعم أولئك المتنبئون أنهم يوحى إليهم كما يوحى إلى محمد ، وأن الملك يأتيهم من السماء كما يأتى محمداً . وقد حاول بعضهم محاكاة القرآن فيما أوهم أنه يوحَى إليه ، وحفظت الروايات لنا صوراً لما زعموا من ذلك يصعب القطع بصحة نسبتها . فهى من السُّخف بحيث يتعذر على أى إنسان أن يتصور كيف يرضى متنبئ إذاعتها باسمه فى الناس ، وكيف يُقبل الناس عليه أو يتَّبعونه حين يرونه ينسب هذا الهذر إلى

الوحي ويدعي أنه من كلام رب العالمين . وحَسْبُكَ أن تتلو ما قيل أن طُليحة زعم أنه أوحي إليه لترتاب فى أن يدّعيه رجل تجتمع العرب حوله ، ثم يكون له من بعدُ فى الإسلام مواقف لا يزال يحفظها التاريخ عن وقائع الفتح فى إبان عهد عمر بن الخطاب . ومما تذكر الروايات عما زعم طُليحة أنه أوحي إليه قوله : « والحمام واليمام ، والصُّرَد الصوّام، قد صُمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام » .

ما يزعم طليحة أنه يوحى إليه

لقد طالما قرأنا عن سجع الكُهّان فى الجاهلية . وكلنا نذكر أن قريشاً حاربت محمداً بأنه كاهن ، وبأن ما يوحى إليه هو بعض هذا السجع . ولقد استبان لمن عاصروا النبي أن هذه الدعاية هُراء حين تَوَجّه إلى القرآن ، ثم استبان للعرب وللناس جميعاً أن القرآن معجزة محمد ، لن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد كان طُليحة كاهناً ، كما كان العنسيّ كاهناً . أفهذا السجع الذى ادّعَوْه وحياً كان من سجع الكهان ؟ ! لئن صح ذلك لقد كان هؤلاء الكهان طرازاً من المشعبذين أعجب طراز ، ولقد كان ما ينسب إليهم من الحكمة مما يزرى بالحكمة .

وسواء أصحت نسبة هذه الأقوال إلى طليحة أم لم تصح فإنه قام يدعو إلى آراء لم يحفظ لنا التاريخ منها شيئاً يذكر . وكل ما يحدثنا به أنه أنكر الركوع والسجود فى الصلاة ، وقال إن الله لم يأمر أن تمرّغوا وجوهكم فى التراب، أو أن تقوّسوا ظهوركم فى الصلاة . فإن يكن ما نسب إليه من ذلك صحيحاً فلعله نقله عن الصلاة عند المسيحيين . وإنما ترجع قلّة ما بقى لنا من آثار طُلَيحة ومُسَيلمة وأضرابهما إلى مثل السبب الذى ترجع إليه قلة ما لدينا عن الأصنام ؛ فقد عفّى المسلمون الأولون على ذلك كله ، ولم يفكر أحد منهم فى تدوينه أو روايته ، ولم يدوّن من بعدُ إلا ما عُدّ تدوينه تأييداً للدين القيم . وأنت تعرف أن المسلمين لم يدونوا فى الصدر الأول شيئاً إلا ما كان من جمع أبى بكر كتاب الله . فأمّا جمعُ السنة والحديث فقد حدث بعد القرن الأول ، وقد اقتضى العاملين عليه من المشقّة ما لم يهوّنه إلا عظيم الرجاء فى مثوبة الله عنه . فلا عجب وذلك هو الشأن أن تخامرنا الريبة فى كثير من الروايات عن طُليحة

موقف المسلمين من آثار المتنبئين

وغيره من المتنبئين ، وبخاصة إذا لم تتفق هذه الروايات والمعروف من حياة العرب في حضرهم وبدوهم ، ولم تتسق مع ما يتصل بها من الأحداث والشئون .

محمد يأمر بقتال المرتدين فى بنى أسد

تنبأ طُليحة فى بنى أسَد ، كما تنبأ الأسود فى اليمن ومسيلمة فى اليمامة ، فى حياة النبي . هناك وجّه محمدٌ ضِرار بن الأزور إلى عُمّاله على بنى أسد يأمرهم بالقيام على كل من ارتد . ونزل المسلمون وَارِدات ، ونزل طليحة ومن معه سَميراء . وكان عدد المسلمين يزداد، وعدد المرتدين ينقص ، لتواتر الأنباء عن نصر المسلمين فى شتّى الميادين ، حتى همّ ضرار بالسير إلى طليحة لمقاتلته . ولقد سبقه أحد المسلمين يريد أن يُريح من هذا المتنبئ فضربه بالسلاح فنبا عنه ولم يُصبه .وأسرع المحيطون بطليحة فأذاعوا هذا الأمر فى الناس وجعلوا يقولون إن السلاح لا يجوز فى نبيّهم .وأن المسلمين ليتجهّزون لمواجهة هذا الموقف إذ جاءهم النبأ بوفاة رسول الله ،فاضطربوا وتناقص عددهم ، وهرع الكثيرون منهم إلى طليحة يتابعونه ويؤيّدونه . فلمّا انحازت إليه عَبْسٌ وذبيان بعد أن هزمهم أبو بكر بذى القَصَّة استغلظ أمره وظَنّ أن لن يغلب .

اجتمع إلى عبس وذبيان من القبائل ما زاد طُليحة قوة. ذلك أن أسداً وغطفان وطيئاً كان بينها حِلْفٌ فى الجاهلية من قبل أن يُبعث رسول الله، ثم إن أسَداً وغَطَفان اجتمعتا على طيئ فأجلوها عن ديارها ، وانقطع بذلك مابينها وبينهما . فلما مات رسول الله قام عُيَيَنة بن حِصْن الفَزَارىّ فى غطفان فقال : « ماأعرف حدود غطفان منذ انقطع مابيننا وبين بنى أسد . وأنى لمجدِّد الحِلْفَ الذى كان بيننا فى القديم ومتابعٌ طليحة. والله لأن نتّبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش .وقد مات محمد وبقى طُليحة » . وتابع عيينةَ قومُه على رأيه ، فاشتدت بهم شوكة المرتدين حتى فرّ من كان بينهم من المسلمين إلى المدينة .

عيينة بن حصن الفزارى يؤيد طليحة

اجتمعت هذه القبائل فى بزاخة معلنة ردتها وخروجها على سلطان المدينة. وتهيأ أبو بكر فعقد الألوية لقتالهم، وبعث إليهم، كما بعث إلى غيرهم من أهل شبه الجزيرة،بكتابه يهددهم فيه بالقتال والقتل إن لم يعودوا إلى حظيرة الإسلام.

وكان خالد بن الوليد هو الموكل بطُلَيحة وبمالك بن نويرة من بعدُ . فهل أسرع بالسير إليه ليناجزه وليناجز معه كل هذه القبائل ؟ كلا ! بل أذاع أبو بكر أنه خارج بنفسه على رأس جيش إلى خَيْبَر حتى يلاقى خالداً فيُعينه على جموع المرتدين.

سياسة أبى بكر التفريق بين طيء وحلفائها

ثم إنه طلب إلى عَدِىّ بن حاتم، وكان قد جاء بالزكاة إلى المدينة كما أسلفنا ، أن يذهب إلى قومه طيئ يخوّفهم عاقبة أمرهم إذا أصروا على ردتهم . ولم يقصد خالد إلى البزاخة من فوره ، بل جنح إلى أجأ وأظهر أنه خارج إلى خيبر لينضم إلى جيش الخليفة ثم ينصبّ الجيشان على البزاخة . وبلغ عدىٌّ قومه وقد ذاعت هذه الأنباء فى الناس .

وتحدّث عدىٌّ إلى بنى طيئ يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام ، وليكونوا مع أبى بكر صفاً قالوا : « لا نتابع أبا الفصيل أبداً » . وأبا الفصيل كنية أراد خصوم الصديق أن يسخروا بها من كنيته أبى بكر. هنالك قال عدىّ : « لقد أتاكم قوم لَيُبِيحنّ حريمكم ، ولَتكْنُنّه بالفحل الأكبر ، فشأنكم به». وذكر لهم من عِدّة المسلمين وعُدَدهم ما روّعهم وأفزعهم وأراهم الفصيل فحلا حقاً . وأنى لهم أن يرتابوا فى حديث عدىّ وقد هزم أبو بكر عبساً وذبيان ومن ناصرهما حين كانت جيوشه بعيدة عنه على تخوم الروم ! وفيم يقاتلون أبا بكر وعدىّ لا يطلب إليهم إلا أن يقيموا على ما كانوا عليه فى عهد الرسول !! وهل تراهم يعرّضون أنفسهم وأبناءهم ونساءهم لما عُرف عن خالد من شدة وقسوة لغير شيء إلا أن يستبدلوا طليحة بأبى بكر ! ! .

تحدث بعضهم إلى بعض فى هذا، فرأوا أنّ عدياً على الحق ، وأنه يخلص لهم الرأى ويصدُقهم النصيحة. عند ذلك توجّهوا إليه بالقول : « إذن فاستقبِل الجيش فَنَهْنِهْهُ عنا حتى نستخرج مَنْ لِحق بالبزاخة منّا ؛ فإنا إن خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم وارتهنهم » . وفرح عدىّ بما بلغ من إقناعهم ، وكرّ راجعاً إلى السُّنْح فاستقبل خالداً وقال له : «يا خالد ! أمْسِك عنّى ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل لتضرب بهم عدوك ، وذلك خير لك من أن تَعَجِّلَهم إلى النار وتَشاغل بهم » . ولم يكن خالدٌ ليخفَى عليه ، وهو الخبير النابغة فى الحرب، أن انسلاخ طيئ عن طليحة يُضعفه ويفُتّ

طيء تنسلخ عن طليحة وتعود إلى الإسلام وتقاتل مع خالد بن الوليد

فى عضده . لذلك أمسك ثلاثة أيام عن السير ، فى حين عاد عدىٌّ إلى قومه فألفاهم أرسلوا إلى إخوانهم بالبزاخة أن يأتوهم مدداً يعاونهم على جند المسلمين قبل أن يهاجموا طُلَيحة . وراقت هذه الحجّة طليحة ، فتركهم ينصرفون إلى طيئ . فلما تحدثوا إلى قومهم وتحدث إليهم قومهم برأى عدىّ اقتنعوا وعاد عدىٌّ بإسلامهم إلى خالد .

وارتحل خالد نحو الأَنْسُر يريد جَدِيلَة . وتعرض له عدىٌّ كرةً أخرى فقال له : « إن طيئاً كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحى طيئ ، فأجّلنى أياماً لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث » . ولم يتردد خالد فى إجابته إلى ما طلب ، فذهب إلى جديلة ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاء خالداً بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب . يقول المؤرخون : فكان عدىٌّ خير مولود ولد فى أرض طيئ وأعظمه عليهم بركة .

طليحة يصر مع ذلك على مقاومة المسلمين

بلغت أنباء طيئ وجَدِيلَة طليحة وهو فيمن بقى معه بالبزاخة . ولست فى حاجة إلى أن أذكر ما وهّنت هذه الأنباء من عزمه وأضعفت من قوته . لكنه أصرّ مع ذلك على موقف المقاومة إذا هوجم . وما كان له أن يفعل غير ذلك ، وإلى جانبه عُيينة بن حِصْن على رأس سبعمائة من فَزارة ، وهو أشد الناس حنقاً على أبى بكر وحرصاً على توهين سلطان المسلمين . فعُيينة هو الذى كان على رأس فَزارة فى غزوة الأحزاب ، وكان صاحب كتيبة من الكتائب الثلاث التى حاولت مهاجمة المدينة بعد اتفاق الأحزاب مع بنى قُرَيْظَة . ثم إنه هو الذى أراد الإغارة على المدينة بعد قليل من هزيمة الأحزاب ، فصده رسول الله ، وحمله على الفرار فى غزاة ذى قَرَد . فإن يكن قد أسلم بعد مواقفه تلك ، فإنما أسلم مُذعناً للقوة التى لا تُغلَب . أما وقد قبض الله رسوله إليه فلن يرضى عن سلطان أبى بكر . لن يستطيع طليحة إذن أن يرجع عن نبوته بعد أن غادرته طيئ وجديلة وهو يعلم أن رجوعه يقلب عليه عُيينة ويثير عليه كل مَنْ حوله . ويعرض حياته للخطر . فليُقِمْ حيث هو : ولينتظر خالد بن الوليد ومن معه . ثم ليكن الأمر بعد ذلك ما يكون .

وآن لخالد أن يتحرك لمقاتلة المرتدين ، فأرسل طليعةً له عُكّاشة بن

طليحة خالد بن الوليد لقتال طليحة تقتل أخاه حبالا

مِحْصَن، وثابت بن أقْرم الأنصاريّ ، وكانا من سادات العرب وأبطالها ذوى الشوكة . ولَقِى عكّاشة وثابتٌ حِبَالاً أخا طُلَيحة[1] فقتلاه . فلما بلغ مقتله طليحةَ خرج مع أخيه الآخر سلمة ينظران و يسألان . ولم يُمهل سلمةُ ثابتاً حين رآه أن قتله . وثبت عكّاشة لطليحة، فاستعان بأخيه سَلمة وقتلا عكّاشة ، ثم رجعا أدراجهما .

وأقبل خالد بن الوليد بالناس ، فلما رأوا صاحبيهم قتيلين جزعوا وقالوا: سيّدَان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم! ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع فآثر ألا يواجه بهم عدوهم حتى تطمئن نفوسهم .لذلك انحرف بهم إلى طيئ ، واستنفر بمعونة عدىّ كل من استطاع أن يستنفره من رجالها. ورأى المسلمون عددهم يزداد وقوتهم تتضاعف بهذا العدد ، فطابت بالحرب نفوسهم ، فسار بهم خالد إلى بزاخة ليقضى على طُلَيحة غير وانٍ ولا متردد .

الطائيون يقاتلون قيساً

وكانت قيس وبنو أسد متجهزين حول طُلَيحة للقتال. قال قوم من الطائيين الذين انضموا إلى جنود خالد : سألنا خالداً أن نكفيه قيساً فإن بنى أسد حلفاؤنا . فقال : والله ما قيسٌ بأوهن الشوكتين ،اصمدوا إلى أىّ القبيلتين أحببتم. فقال عدىّ: لو ترك هذا الدينَ أسرتى الأدنى فالأدنى من قومى لجاهدتهم عليه ، أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسَد لحِلْفهم !لا لعمر الله لا أفعل! فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد. لا تخالف رأى أصحابك ، امض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط . وكذلك قاتلت طيئ قيساً ، وقاتل سائر المسلمين بنى أسد .

عيينة بن حصن يقود المرتدين وطليحة يتنبأ لهم

وكان عُيينة بن حِصن هو الذى يقود المعركة فى جانب طليحة فى حين كان طليحة يقيم فى بيت من الشَّعر ملتفاً فى كساء له يتنبأ للناس .فلما حمى وطيس الحرب ورأى عيينة قوة خالد والمسلمين كرّ على طليحة يسأله : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فرجع عيينة فقاتل ، حتى إذا ازداد وطيس الحرب ضراماً كرّ راجعاً إلى طُليحة يقول : لا أبالك ! أجاءك جبريل بعدُ ؟ قال :

---

(١) هكذا فى كتاب الكامل لابن الأثير ، ولكن الذى فى الطبرى والقاموس وغيرهما أن حبالا هو ابن سلمة بن خويلد ، فهو ابن أخى طليحة لا أخوه .

لا والله . قال عيينة : حتى متى ! والله لقد بُلغ منا. ثم إنه رجع إلى الوطيس فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه، فرجع إلى طُليحة فَزِعًا يكرر : هل جاءك جبريل بعدُ ؟ قال : نعم . قال : فماذا قال لك؟ قال طليحة : إنه قال لى : « إن لك رحًا كرحاه ، وحديثًا لا تنساه ». ولم يتمالك عُيينة حين سمع الهذر أن صاح : قد علم الله أنْ سيكون حديث لا تنساه . ثم نادى فى قومه : انصرفوا يا بنى فزارة فإنه كذّاب ! .

هزيمة طليحة وجيشه

وانصرف الناس يُولُّون الأدبار. ومرّ قوم بطليحة ينادونه :ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعد فرسه عنده وهيأ بعيراً لامرأته النَّوار .فلما بَصُرَ بالناس يغشَوْنه وينادونه قام فوثب على فرسه ثم حمل امرأته ونجا بها ، وهو يقول : « من استطاع أن يفعل منكم مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » .

طليحة يفر إلى الشام ويعود إلى الإسلام

كانت هذه خاتمة المقاومة التى حاول هذا المتنبئ أن يثبت بها لأبى بكر ، بل كانت هذه خاتمة نبوته ؛ فقد لحق بالشام وكذبه من قالوا من قبل بنبوته . واستقر المقام بطُليحة فى كَلْب فنزل بها ، وعاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائل التى تابعته قد عادت إلى الدين القيم . وخرج بعد ذلك إلى مكة معتمراً فى خلافة أبى بكر ، فمرّ بجنبات المدينة ، فذكر بعضهم لأبى بكر مكانه ؛ فقال : « ما أصنع به ! خلُّوا عنه فقد هداه الله للإسلام » .

ولما استخلف عمر بن الخطاب أتى طليحةُ يبايعه ؛ فقال له عمر : أنت قاتل عكّاشة وثابت ! والله لا أحبك أبداً ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدى ولم يُهِنِّى بأيديهما ؛ فرضى عمر بَيْعته ، ثم قال له : يا خُدَع ما بقى من كهانتك ؟ قال : نفخة أو نفختان . ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم ، حتى خرج إلى العراق فأبلى بها مع المسلمين أحسن بلاء .

انصرف عُيَينة بن حصن فى قومه من بنى فَزارة وأعلن على ملأ من الناس أن طليحة كذاب . وفرّ طليحة على فرسه واصطحب امرأته النَّوار ونصح للناس أن يفرّوا . أفكان ذلك آخر النضال بين خالد بن الوليد والقبائل التى وقفت فى صف طليحة ، وبينه وبين القبائل المرتدة فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة ؟ قد يتبادر ذلك إلى الذهن ، وبخاصة إذا عرفت أن بنى أسد قومَ طليحةَ عادوا إلى الإسلام ولم يكن قد أصيب فى القتال منهم أحد . لكن الواقع أن خالداً

خالد يبقى بالبزاخة يقاتل فلول القبائل المرتدة

بقى فى عسكره بالبزاخة شهراً كاملا ، وأنه قاتل من فلول القبائل مَنْ بقى على رِدّته : ومن اجتمع حول أم زِمْل يمالئها على عصيان أبى بكر وعلى الردة ؛ كما قتل من اعتدى على المسلمين بالقتل ، وبعث إلى المدينة بمن خرجوا على خليفة الرسول أمثال قُرّة بن هُبَيرة، والفجاءة السُّلمى ، وأبو شَجَرة بن عبد العُزّى السُّلمى . فدخلوها أسرى حتى أنفذ أبو بكر فيهم أمره .

السبب فى إصرار هذه الفلول على ردتها

يجمل بنا قبل أن نقص نبأ أم زِمْل وسائر المرتدين من فلول جيش طُليحة ، أن نقف هنيهة وأن نسأل : ما بال هؤلاء القوم لم يرجعوا إلى الإسلام كما رجع بنو أسد قوم طليحة وأعرف الناس به ؟ ! أفلا يقتضيهم العقل بعد ما تبيّنوا كذبه أن يكونوا مع المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ؟ لقد أسلفنا جواباً على مثل هذا السؤال . فأكثر هؤلاء العرب إنما أذعنوا لنبوة محمد ولم يؤمنوا بها . وكثير منهم من رأى عبادة الأصنام هزؤاً فعدل عنها إلى عبادة الواحد الأحد . لكنهم رأوا فيما فرضه عليهم محمد من التكاليف بحكم هذه العبادة ما لا تطمئن إليه طبائعهم ، فرأوا أن من الحق لهم أن يتحللوا منه . وقد صارحوا أبا بكر بهذا فى أمر الزكاة ؛ لأن حب الناس المال أقوى فى نفوسهم من كل شىء غيره . لكنهم كانوا يودون لو تحللوا من الصلاة ومن سائر التكاليف التى فرضها الإسلام عليهم. وهم إنما اتبعوا طُليحة ، واتبعوا مسيلمة ، واتبعوا غير هذين ، ليحطّوا عن عواتقهم ما فرضه الإسلام عليهم. فإذا ثبتوا بعد فرار طليحة وأرادوا مواجهة خالد فذلك لأنهم يأملون فى نصر يجعل أبا بكر يصالحهم على النزول عن بعض هذه التكاليف ويحقق لهم ما كانوا يرجونه من مصانعة طُليحة .

وثَمّ سبب آخر يتصل بنفسية البدو والأعراب ومن إليهم جعلهم لا ينفضّون بفرار طليحة . فقد كانت بينهم وبين المهاجرين والأنصار ثارات قديمة من عهد الرسول تناسوها حين تغلّب الرسول عليهم فأذعنوا لسلطانه وأظهروا الرضا بأمره . وإنما كان شأنهم فى ذلك شأن المغلوب يرضى كارهاً ، فإذا أتيحت له فرصة للثأر اقتنصها ولم يفتها . وهذه فرصة تهيأت تُعيد للأذهان يوم الأحزاب وغزوة الخندق . ولقد كانت المدينة مُوشكةً أن تفتح أبوابها للأحزاب لولا الريح الصرصر العاتية التى جعلتهم يولون منها فراراً ويمتلئون رعباً . فليهتبلوا

هذه الفرصة التى أتاحتها المقادير لمواجهة خالد وليثبتوا له ، لعلهم يكونون أحسن حظًّا مما كانوا على عهد محمد ، ولعلهم يستعيدون لقبائل البادية ذلك الاستقلال العزيز عليهم بعد أن تقلّص ظلّه أو كاد .

ولو أن القبائل كلها حرّكتها هذه العواطف البدوية لدقّ موقف خالد والذين معه . لكنك قد رأيت طيّئًا تنحاز مع من انحاز إلى طُليحة ؛ ثم لا تلبث حين يخاطبها عدىٌّ بن حاتم أن تعود إلى الإسلام ، وأن تنضم إلى خالد ، وأن تحارب فى صفه ، وأن تُدخل على طليحة من الفزع ما كان بَين الأثر فى هزيمته، ولقد حدث مثل ذلك بعد أن فرّ طليحة وانخذل عُيَينة فى بنى فَزارة . وكانت بنو عامر تُقدّم للرّدّة رِجْلاً وتؤخر أخرى تنتظر ما يصير إليه أمر قيس وبنى أسد . فلما هزمهم خالد ودارت عليهم دائرة السوء ، أقبلت بنو عامر يقولون : ندخل فيما خرجنا منه . وبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسَد وغَطَفان وطيئ قبلهم . فكان لعودهم إلى الإسلام أثره فيمن سواهم من القبائل ، كما كان لعود طيئ إلى الإسلام أثره فى طليحة ومن انحازوا إليه .

بطش خالد بالذين قتلوا المسلمين

ثم إن خالداً أخذ الذين قتلوا المسلمين من مختلف القبائل بشدة أورثت القلوب الرعب . فهو لم يقبَل من غطَفان وهوازن وسُلَيم وطيئ حين وادعهم إلا أن يجيئوه بالذين قتلوا وحرّقوا ومثّلوا وعدَوْا على المسلمين الذين كانوا بينهم حين ردّتهم . فلما جىء بهم صفح عن الأذناب ، وأخذ الزعماء منهم ، وبينهم قُرّة بن هُبَيرة ، فأوثقهم ؛ ومثّل بالذين عَدَوْا على المسلمين ، فأحرقهم بالنيران ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم فى الآبار ، ورضَخهم بالحجارة ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر . أما قُرّة بن هُبيرة وعُيَينة بن حصن فبعث بهما مع طائفة من الأسرَى إلى أبى بكر ، وكتب إليه يقول : « إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت فى الإسلام بعد تربُّص . وإنى لم أقبل من أحد قاتلنى أو سالمنى شيئًا حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين . وقد قتلت المعتدين كل قتلة ، وبعثت إليك بقُرّة وأصحابه » .

لم تأخذ أبا بكر فى الذين قتلهم خالد شفقة أو رحمة ، بل رأى فيهم

أبو بكر يقر سياسة خالد

أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه الحق ، فكتب إلى خالد يقول : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً . واتق الله فى أمرك ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جِدّ فى أمر الله ولا تَنِيَنَّ . ولا تظفرنّ بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكّلت به جهرةً ، ومن أصبت ممن حادّ الله أو صادّه ممن ترى فى قتله صلاحاً فاقتله » . ذلك ما كتبه أبو بكر رقيق القلب لين الطبع إلا فيما يغضب الله ورسوله . فلما بلغ كتابه خالداً أمعن فى سياسة الإرهاب التى بدأها . وطال مُقامه على البزاخة شهراً يصعد عنها ويصوب إليها فى طلب المعتدين على الإسلام والمسلمين ، فمنهم من أحْرَقَ ، ومنهم مَنْ رمى به من رءوس الجبال ، ومنهم مَنْ رجَم بالحجارة .

لكنه يحقن دم الأسرى الذين جىء بهم إلى المدينة

على أن أبا بكر اتخذ فى معاملة الأسرَى الذين جاءوا إلى المدينة سياسة ليست كسياسة خالد بأساً وشدة . فقد رأيت ما كان من عُيَيْنة بن حصن ومحالفته طليحة وقتاله المسلمين . وقد جاء مع قُرّة إلى المدينة فى الأسرى ويداه مجموعتان بحبل إلى عنقه . وكان غلمان المدينة ينخسونه بالجريد ويقولون له : أىْ عدوّ الله ، أكَفَرت بعد إيمانك ! فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط . ومع ذلك تجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه ، فاتّقى بذلك شره وشر بنى فَزارة معه .

قصة قرة بن هبيرة

أما قُرّة بن هُبيرة فكان فى بنى عامر . وقد مر به عمرو بن العاص عائداً من عمان إلى المدينة فنزل عليه ، فرآه وقومه يقدّمون للرِّدّة رِجْلاً ويؤخرون أخرى . فلما أراد عمرو الرحلة خلا به قرة فقال : « يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة . فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم » . وأجابه عمرو : « أكفرتَ يا قرّة ؟ ! أتُواعِدنا بالعرب وتخوّفنا بها ! » . فلما أرسل خالد قرّة أسيراً إلى المدينة وجىء به إلى أبى بكر ، قال : « يا خليفة رسول الله ، إنى قد كنت امرأ مسلماً ، ولى من ذلك على إسلامى عند عمرو بن العاص شهادة . قد مرّ بى فأكرمته وقَرَيْته ومنعته » . فدعا أبو بكر عمراً وسأله عن قرّة وأمرِه ، فقصّ عليه الخبر ، حتى إذا انتهى إلى أمر الصدقة وما قال عنها اعترضه قرّة قائلاً : حَسْبُكَ

يرحمك الله ! . قال عمرو : لا والله ، حتى أبلّغ له كل ما قلت . فلما أتم عمرو كلامه ابتسم أبو بكر وتجاوز عن قـرّة وحقن دمه .

لم تكن سياسة الصفح سياسةَ هوادة أو تردد من أبي بكر ، بل كان المقصود منها تسكين الثارات ما كان في تسكينها للإسلام والمسلمين خير . أما فيما خلا ذلك فلم يكن اللين يعرف إلى قلب أبي بكر سبيلا ما اتصل الأمر برسالة محمد . كان علقمة بن عُلاثَةَ من بني كلب قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول ولَحِق بالشام . فلما تُوفّي محمد أقبل مسرعًا حتى عسكر في بني كلب. وبلغ ذلك أبا بكر ، فبعث إليه القعقاعَ بن عمرو وأمره أن يسير حتى يُغير عليه لعله أن يأخذه أو يقتله ، وقال له : « واعلم أن شفاء النفس الحوض فاصنعْ ما عندك » . وخرج القعقاع في رجاله ، فلم يثبُت له علقمة وفرّ راكضًا ، وأسلمت امرأته وبناته ومن أقام من الرجال ، وجحدوا أن يكونوا مالئوه . ورجع علقمة إلى أبي بكر تائبًا ، فقبل منه وحقن دمه ؛ لأنه لم يقاتل المسلمين ولم يقتل منهم .

قصة علقمة ابن علاثة

مقتل الفجاءة السلمى

لكنه لم يقبل من الفجاءة إياس بن عبد يا ليل ولم يحقن دمه . فقد قدم الفجاءة هذا على أبي بكر فقال له : أعنّي بسلاح ومُرني بمن شئت من أهل الردّة . فأعطاه سلاحًا وأمره بما شاء أن يأمره به . لكن الفجاءة شنّها غارة في سُلَيْم وعامر وهوازن على المسلمين والمرتدين على سواء ، وقتل من المسلمين مَنْ قتل . عند ذلك أرسل أبو بكر طُرَيْفَةَ بن حاجز في رجال قاتلوا الفجاءة ومن معه وجاءوا به أسيراً . فأمر أبو بكر فأوقدت له نار في مُصَلّى البقيع على حطب كثير ، ثم رُمِي به فيها فمات حرقًا . ولو لم يقتل الفجاءة من المسلمين مَنْ قتل لـما أصابته هذه الميتة القاسية التي أسف أبو بكر لقسوتها من بعدُ وتمنّى لو لم تكن كذلك .

قصة أبي شجرة ابن عبد العزى

قبل أن نختم هذا الفصل بحديث أم زِمْل نُورد قصة أبي شَجْرة بن عبد العزّى ؛ فهو بحديث عُيينة وقُرّة وعلقمة أشبه . كان أبو شجرة هذا ابن الخنساء الشاعرة صاحبة المراثي الفياضة في أخيها صخر ، وكان هو شاعراً مثلها وقد لحق بأهل الردّة وجعل يقول الشعر في تحريضهم على المسلمين وقتالهم .

وكان مما قاله فى ذلك قصيدة جاء فيها :

فَرَوَّيْتُ رمحى من كتيبةِ خالدِ ... وإنى لأرجو بعدها أن أُعمَّرا

فلما رأى تحريضه على خالد لم يُثمر ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه ، وقد قبل منه أبو بكر وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فلما كانت خلافة عمر جاءه أبو شجرة وهو يعطى المساكين من الصدقة يقسمها بين الفقراء ، فقال : يا أمير المؤمنين أعطنى فإنى ذو حاجة . قال عمر : مَنْ أنت ؟ فلما عرفه قال : أىْ عدوَّ الله ! ألست الذى يقول :

فَرَوَّيت رمحى من كتيبة خالد ... وإنى لأرجو بعدها أن أُعمَّرا

ثم جعل يعلوه بالدِّرَّة فى رأسه حتى طار عَدْواً إلى ناقته فارتحلها عائداً إلى قومه من بنى سُلَيْم .

الفلول التى جتمعت إلى أم زمل

تداول الناس أنباء أبى بكر وعفوه عمن رجع إلى الإسلام بعد ردته ، فسكنت حدة القبائل التى ناصرت طليحة ثم عادت إلى الإسلام حين هزمه خالد بن الوليد . لكن فلولاً من غَطَفان وطيئ وسُلَيم وهوازن وغيرها تجمعت واجتمعت إلى أم زِمْل سلمى بنت مالك وعاهدتها أن تقف وإياها فى وجهه حتى الموت . ولا شك أنْ قد كان لهذه الفلول ثارات عند المسلمين ، لم تسكّن منها الهزيمة ولا سكّن منها عفو أبى بكر ، هى التى حفزتها إلى التجمع والتعاهد على قتال المستيئس . وما بقاؤها بعد فرار طليحة وانكشاف كذبه لولا هذه الثارات وتحركها فى نفوسها ! وكان لأم زِمل عند المسلمين ثأر لم يندمل جرحه رغم مرّ السنين ، فكان من الطبيعىّ أن تجتمع هذه الفلول حولها وأن تتخذ من ثأرها علماً ولواء لثاراتهم جميعاً .

من هى أم زمل بنت أم قرفة

وأم زِمْل هذه هى بنت أم قِرْفة التى قُتلتْ أيام النبى أشنع قِتْلة . فقد خرج زيد بن حارثة يوم ذاك إلى بنى فَزارة فلقيهم بوادى القرى فأصابوا رجاله ، وأصيب هو بجرح مميت حُمل على أثره إلى المدينة فلما برئ رده رسول الله إلى بنى فَزارة فى جيش فقتلهم وأصاب فيهم وأسر منهم . وكانت أم قرفة فاطمة بنت بدر بين الأسرى . وكانت هى التى تحرض قومها فى الموقعة الأولى

التى أصيب فيها زيد؛ فلما ظفر بها أمر بقتلها فقُتلت قتلا عنيفاً. قيل إن كل ساق من ساقيها شُدَّ إلى بعير ثم دفع كل بعير إلى ناحية فتمزقت. وسُبيت ابنتها أم زمل، فوقعت لعائشة أم المؤمنين فأعتقتها، فأقامت عندها زمناً ثم رجعت إلى قومها. وقد بقى مقتل أمها أمام عينيها يُقضُّ مضجعها ألاَّ تجد إلى الثأر له الوسيلة. فلما كانت الردة ارتدت ووجدت من فلول هذه القبائل عونها على أن تأخذ بثأرها لتهدأ ثائرتها وتسكن حفيظتها.

وكانت أمها أم قرفة فى عزّة ومكانة من قومها. كانت عمة عُيينة بن حصن، وكانت زوج مالك بن حُذيفة، وكان لها منه أبناء تعتز بهم فى بنى فزارة. وكان لها جمل تخرج عليه فى طليعة قومها إذا خرجوا ليغنَموا من قبيلة أخرى. فلما ماتت بقى هذا الجمل لابنتها أم زمل. وكانت ابنتها فى مثل عزها، وكان لها من المكانة فى قومها ما كان لأمها. فلما اجتمعت حولها فلول القبائل التى قاتلت أبا بكر وخالداً ركبت جملها وسارت بينهم وجعلت تدعوهم لحرب خالد وتشجِّعهم؛ واجتمع مع هذه الفلول كل شريد وكل مضيَّق عليه، حتى استغلظ أمرها وعظم شأنها. فلما بلغ ذلك خالداً وهو فيما هو فيه من تتبّع الثائرين وأخذ الزكاة ودعوة الناس وتسكينهم، سار إليها يقاتلها.

خالد يقاتل أم زمل ويقتلها

والتقى الجمعان وحَمِى وطيس القتال واشتدت الحروب، وأم زِمْل على جملها تحرض رجالها وتدفعهم إلى المعركة، فيندفعون مستبسلين لا يبالون، حتى لقد أبيدت منهم بيوت بأسرها. ورأى خالد بأس هذه المرأة وشدتها واستماتتها فى محاربته فجعل مائة من الإبل لمَن ينخس جملها. واندفع فوارس المسلمين نحوها، فإذا من حولها الرجال الأشدّاء يدافعون عنها ويموتون دونها. ولقد مات حول جملها مائة رجل قبل أن يستطيع فرسان المسلمين الوصول إليه. فلما وصلوا إليه عقروه وقتلوها وقضوا بذلك على فتنتها. فقد فتنت الرجال حقًّا بقوتها وعزها وشجاعتها وشدة تحريضها لهم. ولم تلبث هذه الفلول حين رأوا جملها يُعقَر ورأوها تُقتَل أن فَتَرتْ عزيمتهم وتشتّت جمعهم، ففروا مولِّين الأدبار لا يُعقِّبون. بذلك خبت نار الفتنة وقضى على الردة فى الشمال

الشرقى من شبه الجزيرة . وما عسى أن يبقى منها وقد فرّ رءوسها أو طاحت رءوسهم فلم تبق منهم باقية ! .

موقف المرتدين بعد هزيمة طليحة وأنصاره

أو لم يكن هذا المثل الذى ضرب به أبو بكر يكفى العرب كى يرجعوا فى سائر الأنحاء من شبه الجزيرة إلى الإسلام ! . لقد رأوا جنوده تسير إليهم من كل صوب ، يقصد كل لواء منها إلى حيث أمره خليفة رسول الله . وقد ترامت إليهم أنباء خالد بن الوليد وعرفوا مصير طُليحة ؛ لكنهم أبوا مع ذلك أن يُذعنوا . إنهم رأوا نبيّ قريش ينشر فى العرب لواءه ويمد عليهم سلطانه ، فلم لا يكون لكل قبيلة نبيّ يرد عنها قريشاً إن لم ينشر فى مختلف القبائل لواءها ! ونسيت القبائل ونسى الذين ادّعَوْا النبوة فيها أن محمداً قام فى قريش يدعوها إلى الله لا يريد فيها سلطاناً ولا يبتغى منها جزاءً ولا شكوراً ، وأنه قام بأمر ربه ، فقضى عشر سنوات فى جهاد ، أى جهاد ، يؤذيه أهله وتُناصبه مكة كلها العداوة ، وتتعرض حياته وحياة من اتّبعوه للخطر ، ويأتمر به خصومه ليقتلوه ، ويخرجه قومه من دياره مهاجراً إلى المدينة ، حتى أذن الله لدينه الحق أن ينتشر بين العرب ، وجاءت الوفود من كل صوب تعلن إلى النبى إسلامها . نسى الذين ادعوا النبوة هذا كله ، وخيِّل إليهم أن بلوغ الغاية التى بلغها محمد أمر يسير ، كما نسوا أن محمداً إنما بلغها بالدعوة إلى الحق ، وأنهم يدّعون النبوة زوراً وبهتاناً . لذلك لم يكفهم أن طهّر أبو بكر شمال شبه الجزيرة من رجس الردة ليثوبوا إلى رشادهم ، بل أخذت أهل الجنوب العزة بالإثم ، وادّكروا ما كان بينهم وبين الحجاز من قديم الخصومة ، وما كان لآبائهم فيه من غزوات توّجتها أكاليل النصر . أما وقد أصروا على العناد فى ردتهم ، فلم يكن بدٌّ من أن يُرَدُّوا عنها إلى الإسلام أو يبوءوا بخزيها ويؤدوا حياتهم ثمناً لها .

فلينتقل خالد إذن من البزاخة إلى البُطَاح ، ثم لينتقل بعد البطاح إلى اليمامة ، فقد خط القدر فى لوحه أن يرد سيفُه المرتدين إلى الحق . وما خُطّ فى لوح القدر لا محالة نافذ .

الفصل الثامن

سجاح ومالك بن نويرة

بنو تميم ومنازلهم

تقع منازل بنى تميم على مقربة من بنى عامر إلى الجنوب ؛ وهى تحاذى المدينة من الشرق ممتدة نحو الخليج الفارسى ، وتتصل من ناحية الشمال الشرقى بمصب الفرات . وكان لبنى تميم بين قبائل العرب فى الجاهلية وفى عهد الرسول مقام ، لما ظهر فيها من خصال الشجاعة والكرم ، ولما نبغ بين رجالها من الأبطال والشعراء . ولا يزال التاريخ يذكر لفروعها بنى حنظلة ودارم وبنى مالك وبنى يربوع مواقف ترويها كتب الأدب وكتب التراجم كما يرويها كبار المؤرخين .

ولقد أدّى اتصال هذه القبائل بمصب الفرات وبالخليج الفارسى إلى تنقل أبنائها بين شبه الجزيرة وأرض العراق ، كما أدّى إلى اتصالهم بفارس . وكان من أثر ذلك أن دان كثيرون منهم بالنصرانية وإن بقى أكثرهم يعبدون الأصنام . فلما انتشر الإسلام بينهم احتفظوا باستقلالهم ، ولم ينزلوا عنه راضية نفوسهم .

إباؤهم أداء الزكاة فى عهد النبى

لذلك كانوا فى مقدمة القبائل التى أبتْ أداء الزكاة حين بعث رسول الله جُباته يقتضونها من الناس . ولقد أسرع بنو العنبر من تميم إلى نبالهم وسيوفهم حين جاء العاشر يطالب إليهم أداءها . فلما ذهب عُيَينة بن حصْن بأمر الرسول فقتَل وسبَى منهم ، ذهب وفد من أشرافهم إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبىّ من وراء حجراته أن يردّ إليهم أسراهم ، وذكروه بمواقفهم معه فى حُنَيْن ، وبما لقومهم من مكانة بين العرب . وخرج إليهم حين الصلاة ، فذكروا له أنهم جاءوا يفاخرونه . فلما رأوا خطيبه أبلغ من خطيبهم ، وشاعره أشعر من شاعرهم ، وصوته أعلى من أصواتهم ، أسلموا ؛ فأعتق النبى أسراهم وردهم إلى قومهم راضية نفوسهم .

وقُبض رسول الله وله فى تميم عُمَّال ، بينهم مالك بن نُوَيْرة على رأس بنى يربوع . وقد اختلف العُمَّال حين بلغتهم وفاة النبىّ ما يصنعون : أيؤدون

الزكاة لأبى بكر أم يقسمونها بين الناس . وكان لما بينهم من تنافس أثر بيّن فى اختلافهم ذاك . بل لقد أدى هذا التنافس إلى أن يقاتل بعضهم بعضاً ، وأن يقيم فريق منهم على الولاء لسلطان المدينة ، وأن يتنكر الآخرون لهذا السلطان .

وكان مالك بن نويرة فيمن ردوا الزكاة لأصحابها ولم يروا لأبى بكر حقاً فى اقتضائها . بذلك أصبح عدواً للمسلمين مُعرَّضاً لإغارتهم عليه .

مجىء سجاح بنت الحارث إلى تميم

وبينما القوم فى اختلافهم فجأتهم سَجاح بنتُ الحارث مقبلةً من أرض الجزيرة بالعراق يحيط بها رهطها من تَغْلب ، وتقود معها جنداً من ربيعة والنمر وإياد وشيبان . وكانت سجاح تميميةً من بنى يربوع وكان أخوالها من تغلب بالعراق . وقد تزوجت فيهم ، وأقامت بينهم ، وتنصّرت فيمن تنصّر منهم . وكانت تنقم من محمد ومن اتّبعه ماينقمه منهم اليهود والنصارى ، وما ينقمه منهم الفرس والروم . وكانت امرأةً ذكية ، تدعى الكهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال . فلما ترامى إليها أن محمداً أدركته الوفاة ، جاءت فى رهطها وفى القبائل المحيطة بها تريد أن تغزو المدينة وأن تقاتل أبا بكر .

السبب فى مجىء سجاح من شمال العراق

يرى بعض المؤرخين ، وقد يكونون على حق فيما يرون ، أن سجاح لم تنحدر من شمال العراق إلى شبه جزيرة العرب يتبعها رهطها والقبائل المحيطة بها لكهانتها ومطامعها الذاتية ، وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعُمَّالهم فى العراق كى يزيدوا الثورة فى بلاد العرب ضراماً ، ليستعيدوا ما كان لهم فى كثير من أرجائها من سلطان بدأ يأفل منذ أقام محمد بـَدْهان عاملا له على اليمن ، بعد أن كان بدهان عامل كسرى عليها .

وقد يرجح رواية هؤلاء المؤرخين أن سجاح كانت الأنثى الوحيدة التى ادّعت النبوة ، وأن مثيلاتها اتخذن فى كل العصور أداة للتجسس والدعاية ، وأنها لم تلبث فى بلاد العرب إلا ريثما بثّت دعوة الانتقاض ، ثم عادت إلى العراق فسكنت إلى حياتها به .

وليس عجباً أن يتخذها الفرس أداة لإذكاء الثورة فى بلاد العرب وقد كانوا يرون هذه البلاد أهون من أن يجرّد لها جيش فارسى يقاتلها ، وإن كانت

مع ذلك جديرة بأن تَرُدَّ إلى عزلتها الأولى قبل قيام محمد بها وانتشار الإسلام فيها . ولا شيء أدنى إلى تحقيق هذه الغاية من القضاء على الدين الجديد الذى جعل أبناءها يعتدون بأنفسهم ، وإن لم يعتدّ الفرس بهم .

موقف بنى تميم من الإسلام حين جاءت سجاح إليهم

جاءت سجاح إلى شبه الجزيرة متأثرة بهذه العوامل . وكان طبيعيًّا أن تجعل وجهتها أول نزولها بلاد العرب إلى قومها بنى تميم . وقد فجأتهم وهم مختلفون فيما بينهم : يقول قوم بإيتاء الزكاة واتباع خليفة رسول الله ، وينكر آخرون هذا وذاك ، ويتردد أقوام فهم فى حيرة ؛ ثم ينشأ عن هذا الاختلاف قتال بينهم يشتد حينًا ويهدأ حينًا . ورأت هذه البطون من بنى تميم مَقْدم سجاحِ وعرفوا عزمها على قتال أبى بكر ، فازدادوا بين الإسلام والردة اضطرابًا . وشهد من بقى على إسلامه منهم ما هو أدهى وأمرّ مما هم فيه ؛ فها هى ذى فى جيشها اللَّجب بالقياس إلى جموعهم المتنافرة تأخذهم على حين غفلة منهم وتعلن فيهم نبوّتها وتدعوهم إلى الإيمان بها . أفيقولون عنها ما قال عُيَينةُ بن حصن عن طُلَيحة : « نبية من بنى يربوع خير من نبى من قريش ، وقد مات محمد وسجاحِ حية » ، وعلى ذلك يتبعونها ويقومون معها فى وجه أبى بكر والمسلمين ، أم ينصرفون عنها ويدعونها تسير فى طريقها تواجه أبا بكر ، فإما قضى عليها فانقضت فتنتها ، وإما تم لها الغلب فكان لهم ، وهم قومها الأدنون ، فخار نصرها وفخار نبوتها .

سجاح ومالك ابن نويرة

وقفت سجاحِ فى جندها على حدود بنى يربوع ، وأرسلت إلى زعيمهم مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة ، وأنبأته بعزمها على غزو المدينة . وأجابها مالك إلى الموادعة ، لكنه صرفها عن عزمها على لقاء أبى بكر وحرضها على قتال من اختلف معه من أحياء بنى تميم . واقتنعت سجاح برأيه وقالت : « نعم ! فشأنك بمن رأيت . فإنما أنا امرأة من بنى يربوع ، وإن كان ملك فهو ملككم » .

صفة مالك ابن نورة

كيف أسرعت سجاح إلى الرجوع عن عزمها وموافقة مالك على رأيه ؟ ليس فيما تذكره الروايات التى انتهت إلينا ما يبين عن السرّ فى هذا الانقلاب . لكن الروايات تذكر أن مالكًا كان شريفًا فارسًا شاعرًا ، وكانت فيه خيلاء

كقومه ، وكان ذا لـمـَّة كبيرة ، وكان حلو الحديث حسن المحاضرة . قصَّ أخوه مُتَـمم بن نويرة، وكان أسمى من مالك مكانة فى الشعر ، لكنه كان أعور قبيح الصورة ، أن حيـًّا من العرب أسروه فشدوا وثاقه وألقوه بفنائهم . وبلغ مالكـًا خبره ، فأقبل على راحلته حتّى انتهى إلى القوم وسلم عليهم وحادثهم وضاحكهم وأنشدهم ، فوالله إن زال كذلك حتّى ملأهم سروراً ؛ وبلغ من ارتياح القوم إليه أن أطلقوا متممـًا بغير فداء . وأسرت بنو تغلب متممـًا فى الجاهلية، فجاء مالك ليفديه ، فلما رآه القوم أعجبهم جماله ، وحدثهم فأعجبهم حديثه فلم يقبلوا منه فداء ، وأطلقوا له الأسير فعاد به إلى قومه .

هل اقتنعت سجاح بحديث مالك وجماله ، واقتنع بهما أخوالها بنو تغلب وسائر أنصارها ؟ إنما نذكر ذلك لعله يفسر ما كان بين سجاح ومسيلمة من بعد . وسواء أصح ذلك أم لم يصح فقد دعت سجاحِ أمراء بنى تميم لموادعتها فلم يوادعها منهم مع مالك إلا وكيع . وأغارت سجاحِ فى جندها وجند مالك ووكيع على السَّريـَّات فاقتتلوا ومات من الجانبين خلق كثير وأسر بعضهم من بعض ، ثم إنهم تصالحوا وترادّوا الأسرى ، وعاد السلام إلى بنى تميم .

هزيمة سجاح فى النباج

وخرجت سجاح فى جنود الجزيرة وقد راجعها العزم أن تلقى أبا بكر . أما مالك ووكيع فقد صالحا قومهما بعد أن رأيا سخطهم على اتباعهما هذه المتنبئة . وبلغت سجاح قرية النِّبـَاج ، فلقيها أوس بن خُزَيمة فهزمها ، ثم ترادا الأسرى وصالحها على ألا تجتاز دياره إلى المدينة . هنالك اجتمع رؤساء أهل الجزيرة وقالوا لها : ما تأمريننا ، فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا أن نجوز أرضهم ، وقد عاهدنا هؤلاء القوم ؟ قالت : اليمامة . فقالوا : إن شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مسيلمة . وهنا تجرى الرواية بأنها قالت : « عليكم باليمامة، ودفُّوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ندامة » . ولم يبق لهم بعد هذا السجع الذى زعموه وحيـًا إلا أن يمتثلوا أمرها .

مسيرها مع قومها إلى اليمامة

فيم كان انقلابها إلى اليمامة وقد خانها الحظ بين قومها بنى تميم ، وخانها فى مسيرتها إلى أبى بكر ؟ أو لم يكن حولها من رجالها من يشيرون عليها ؟ .

أم أنهم تم إيمانهم بنبوّتها وبهذا السخف الذى تزعم أنه يوحى إليها فلم يترددوا فى اتباعها ؟ الحق أن قصة سجاح كلها عجب ، وما روى عنها إلى فن القصص أقرب . فقد ذكروا أنها لما بلغت اليمامة فى رجالها هابها مسيلمة وخاف إن هو شُغل بها أن يغلبه جند المسلمين أو تغلبه القبائل التى حوله ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يجيء إليها . ونزلت فى جندها على الماء وأذنت له ، فجاء فى أربعين من بنى حنيفة ، ثم خلا إليها يحدّثها ويذكر لها أنه كان يرى أن لقريش نصف الأرض فظلموا ، فليكن نصف الأرض لها . وسجع لها سجعاً أعجبها ، فردّت عليه بمثل سجعه . ثم إنهما تناظرا وتحادثا وطال بهما الحديث . وأعجبت سجاح بمسيلمة وبحلو حديثه وما شرع لقومه ، وانتهت إلى الإيمان بتفوقه . فلما عرض عليها أن تجمع نبوّته إلى نبوّتها وأن يتزوجا كان قلبها قد لان له فلم ترفض طلبه . وانتقلت إلى خيامه وأقامت معه ثلاثة أيام رجعت بعدها إلى قومها ، وذكرت لهم أنها وجدته على الحق فتزوجته .

سجاح ومسيلمة يتناظران وتنتهى مناظرتهما إلى أن يتزوجا

وعرف قومها أنه لم يجعل لها صداقاً فقالوا لها : « ارجعى إليه ؛ فقبيح بمثلك أن تتزوج بغير صداق » . فلما رجعت إليه أغلق حصنه دونها وبعث يسألها ما طلبها ، ثم نزل للناس عن صلاتين : صلاة العشاء وصلاة الفجر ، إكراماً لها . وانتهى الأمر به وبها على أن يحمل لها النصف من غلّات اليمامة وحمل إليها النصف مما اتفقا عليه ، فاحتملته وانصرفت به إلى الجزيرة ، وخلّفت وراءها من رجالها من يحمل لها النصف الآخر . لكن هؤلاء الرجال لم يقيموا إلا ريثما أقبلت جيوش المسلمين فهاجمت مسيلمة وقتلته . ولم تزل سجاح فى تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة إلى بنى تميم حيث أقامت مسلمة حسنة الإسلام إلى أن ماتت .

مسيلمة ينزل لأتباعه عن صلاتين صداقاً لسجاح

هذه قصة سجاح بنت الحارث . وهى — كما قدّمت — عجَبٌ كل العجب . وهل عجب كمغامرتها بالسير من الجزيرة للقاء أبى بكر وقتاله ، ثم إسراعها إلى العدول عن عزمها حين تحدث مالك بن نويرة إليها ، ثم انقلابها إلى اليمامة ولقائها مسيلمة وزواجها منه وعودها من عنده إلى أرضها ، وبقائها بعد

العجب من أمر سجاح وقصتها

ذلك مع ذويها كأنها لم تخرج من بينهم ولم تتزوج من غيرهم !

وأمر مسيلمة معها أعجب العجب . ولئن صح أنه تزوجها ليكونن ذلك برهاناً على دهائه فى السياسة وعلمه بمداخل القلوب ، فهو قد أراد أن يتخلص منها ليفرُغ لقتال من حوله من القبائل ومن أوفدهم أبو بكر لقتاله من المسلمين . ورآها ليِّنة فاستهوى أنوثتها ، فلما لانت له ودانت أعرض عنها وتخلص منها .

والحق أن حديث هذه المرأة مع مالك بن نويرة ، ثم مع هذا الزميل من مُدَّعى النبوة يشهد بأنها إن تكن حسنة السجع فى كهانتها فقد كانت لينة العريكة فى أنوثتها . فأما مسيلمة فكان رجلاً قَزَماً لا جمال فيه إلا حسن حديثه ؛ وكان قليل الافتتان بالمرأة ومحاسنها ، ولذلك كان مما شرعه لقومه أن من ولد له ولد لم يجز له أن يقرب امرأة إلا أن يموت ذلك الولد ؛ فإذا مات جاز له أن يبتغى ولداً غيره فيقرب امرأته . أما من كان له ولد ذكر فالنساء عليه حرام ! !

* * *

مالك بن نويرة بعد هزيمة طليحة الأسدى

بَيْنَا يجرى ذلك فى اليمامة بين مسيلمة وسجاح كان خالد بن الوليد يصعد فى البُزاخة ويصوب ، يستعيد إلى الإسلام من تاب وأناب ويعاقب بأشد العقوبة من قتل مسلماً أو عدا عليه ، وينتهى بمقاتلة أم زمل حتى يقتلها ويشتِّت جمعها بعد أن شتَّت جمع طُلَيحة وحمله على الفرار . وتداول الناس أنباء خالد ، فبلغت مالك بن نويرة بالبطاح فردَّته إلى الاضطراب والحيرة . لقد منع الزكاة وقام مع سجاح فى وجه المسلمين من بنى تميم ، وأصبح بذلك عدواً للمسلمين معرضاً لإغارتهم عليه . فماذا عساه يصنع بعد أن باءت جنوده وجنود سجاح معها بالفشل والهزيمة ؟ أمَّا صاحبه وكيع فقد رأى قبح ما صنع ، فعاد إلى الإسلام وأخرج الزكاة . وأما مالك فبقى متحيراً : أينكر أمسه ويعود مسلماً مع أبى بكر كما كان مع محمد يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، أم يصر على مثل موقفه مع سجاح والأمر لله من قبل ومن بعد ! !

خالد بن الوليد يزمع السير إلى البطاح ، وموقف الأنصار من هذا السير

وفرغ خالد من أسد وغطفان ومن معهما بعد أن عاد كل من بقى من هذه القبائل إلى الإسلام وأذعن لسلطان المدينة . ثم إنه أزمع السير إلى البطاح يلقى فيها مالك بن نويرة ومن كان معه فى مثل تردده . وعرف الأنصار هذا العزم

منه فترددوا وقالوا : « ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا » . وأجابهم خالد : « إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلىّ أن أمضى . وأنا الأمير وإلىّ تنتهى الأخبار . ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى أنتهزها . وكذلك إذ ا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ؛ وهذا مالك بن نويرة بحيالنا . وأنا قاصد له بمن معى من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أكرهكم » . وسار ومن معه خلا الأنصار ، يقصد البطاح .

وبرم الأنصار بالأمر وتشاوروا فيما بينهم فاستقر رأيهم على أن يلحقوا به . ذلك أنهم قالوا : لئن أصاب خالد اليوم خيراً إنه لخير حرمتموه ، ولئن أصابته ورجاله مصيبة ليجتنبنكم الناس ، وجردوا إلى خالد رسولا استمهله حتى لحقوا به وساروا معه ، فلما بلغوا البطاح لم يجدوا بها أحداً ؛ فقد فرق مالك بن نويرة قومه فى ديارهم ونهاهم عن الاجتماع ، وقال لهم : « يا بنى يربوع ، إنا كنا قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الأمر ، وبطأنا الناس عنهم فلم نفلح ولم ننجح . وإنى قد نظرت فرأيت الأمر يتأتّى للقوم بغير سياسة . وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قوم قد صُنع لهم » . ونصح لهم بالرجوع إلى الإسلام والتفرق فى الديار ، ورجع هو إلى منزله .

مالك بن نويرة ينصح لقومه بالرجوع إلى الإسلام

لم يجد خالد بالبطاح أحداً ، فبثّ الجنود وأمرهم أن يأتوه بكل من لم يُجب داعية الإسلام ، فإن امتنع فليقتلوه . وكانت وصية أبى بكر أن يؤذّن جند المسلمين إذا نزلوا منزلا ، فإن أذّن القوم كفوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا قتلوا منهم ونهبوهم . فإن أجابوا بعد ذلك إلى داعية الإسلام سألوهم عن الزكاة ، فإن أقروا قبلوا منهم ، وإن أبوا قاتلوهم .

جند خالد يجيئونه بمالك بن نويرة

جاء الجند بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع إلى خالد . وكان المنطق يقضى بعد الذى رأيت بأنه إن أقر مالك وأصحابه بالإسلام ، أن يعاملهم خالد معاملة من تاب وأناب . لكن الذى حدث أن خالداً أمر بمالك بن نويرة فقُتل ، وأن هذا القتل أثار بالمدينة ثائرة ظلت زمناً قبل أن تهدأ ، وأنه كان

ذا أثر فى تصرُّف عمر بن الخطاب مع خالد بن الوليد بعد أن ولى الخلافة . لهذا تفصّل الروايات مقتل مالك بن نويرة فى شىء من الإسهاب وتختلف فيه .

قتل مالك بن نويرة والروايات فى سببه

قيل إن رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه اختلفوا فيما بينهم : أأقرّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان، أم أنكروا وتنكروا ؟ روى الطبرى عن أبى قتادة الأنصارى ، وكان من رؤساء هذا الجند ، أنه كان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح ، فقلنا : إنا المسلمون . قالوا : ونحن المسلمون . فقلنا : ما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ فقلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح. فوضعوا السلاح ثم صلينا وصلوا » .

إلى هنا تتفق الروايات . ومن هنا يبدأ خلافها . قال أبو قتادة : إن القوم أقروا بالزكاة وإيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصروا على منعها . ماذا يصنع خالد إزاء هذا الاختلاف بين شهود العيان ، وكيف يقضى فيه ؟

رواية بأن مالكاً وأصحابه قتلوا لخطأ فى الفهم

تجرى رواية بأنه أمر بحبس مالك وأصحابه حتى ينظر فى أمرهم . وحُبسوا فى ليلة باردة جعلت تزداد بتقدم الليل برداً . وأخذت خالداً الشفقة بالقوم فأمر فنادى : « دافئوا أسراكم ». وكانت هذه العبارة فى لغة كنانة معناها القتل ، وكان الحراس من بنى كنانة ، فما لبثوا حين سمعوها أن ظنوا أن خالداً أراد قتلهم فقتلوهم . وسمع خالد الضجة فخرج ، وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه .

رواية المناظرة بين مالك وخالد

وتجرى رواية ثانية بأن خالداً دعا إليه مالكًا يناظره ليعرف أى الشهادتين حق : الشهادة بإسلامه ، أم الشهادة بإصراره على الردة أو على منع الزكاة . وفيما هما يتناظران راجع مالك خالداً وقال : « ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا » . قال خالد : « أو ما تعدّه لك صاحباً ؟ » ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه .

ويقول أبو الفرج فى الأغانى تفسيراً لهذا الحوار بين خالد ومالك ما نصه : قال ابن سلام : من لا يعذر خالداً يقول إن مالكًا قال لخالد : أو بهذا أمرك صاحبك — يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم — إنه أراد بهذه الفروسية . ومن يعذر خالداً يقول إنه أراد انتفاء أمر النبوة ، ويحتج بقول مالك :

وقُلت خذوا أموالكم غيرَ خائفٍ   ولا ناظرٍ فيما يجيء من الغد
فإن قام بالأمر المخوِّف قائمٌ   منعنا وقلنا : الدينُ « دين محمد »

أى إنه منع الزكاة وقال لقومه خذوا أموالكم فالدين دين محمد لا دين أبى بكر .

وقد روى ابن خلكان ما ذكر أنه الحديث الذى دار بين الرجلين ، وأورد ما يأتى : « فقال مالك إنى آتى الصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى ! ! فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك . قال خالد : أو ما تراه لك صاحباً ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك . ثم تجادلا بالكلام طويلا ، فقال له خالد : إنى قاتلك . قال: أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : والله لأقتلنك » . وأمر به فقتل .

يرجح بعضهم هذه الرواية الثانية على الرواية الأولى. على أن هؤلاء الذين يرجحونها يرونها ناقصة ، ويرون أنها إن لم تكمل ناقضت تصرف ابن الوليد فى أمر قُرّة بن هُبيرة والفُجاءة السُّلمىّ وأبو شَجْرة وأمثالهم ممن قصصنا حديثهم. فهو قد بعث بهؤلاء إلى أبى بكر ليرى فيهم رأيه. ولم يكن مالك بن نويرة أعظم من أيهم إثماً ولا أكبر جريرة ؛ فما باله يقتله ولا يبعث به إلى الخليفة ومكانُه من بنى تميم لم يكن دون مكان أى أولئك من قومه !

الذين يربطون بين مقتل مالك وتزوج خالد من امرأته

وتتمة القصة فى رأيهم أن خالداً تزوج أم تميم زوجة مالك فى يوم مقتله ، وقبل أن يجفف الترابُ دمه ، مخالفاً بذلك كل تقاليد العرب . وهم يريدون أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب ذلك القتل . ولعلهم فى ذلك على حق ، ولعلهم مخطئون .

ذكر اليعقوبى فى تاريخه : فأتاه مالك بن نويرة يناظره واتبعته امرأته ؛ فلما رآها خالد أعجبته فقال : « والله لا نلت ما فى مثابتك حتى أقتلك ، فنظر مالكاً فضرب عنقه وتزوج امرأته » . وذكر أبو الفرج فى الأغانى : « لما تنبأت سَجَاح اتبعها مالك ثم أظهر أنه مسلم، فضرب خالد عنقه ، فطعن عليه فى ذلك جماعة من الصحابة ، لأنه تزوج امرأة مالك بعده ، وقد كان يقال

إنه يهواها فى الجاهلية ، واتهم لذلك أنه قتل مسلماً ليتزوج امرأته بعد » .
وروى أبو الفرج كذلك قال : « قال محمد بن سلام : وسمعنى يوماً يونس وأنا أرادّ التميمية فى خالد وأعذره فقال لى : يا أبا عبد الله، أما سمعت بساقىْ أم تميم ! فكان يقال إنه لم يُرَ أحسنُ من ساقيها » .

موقف ليلى من مناظرة مالك وخالد

وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعدُ صوراً أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ . فقد قيل : إن ليلى كانت مع زوجها وهو يناظر خالداً ، فلما سمعته يقول له إنى قاتلك ، ووالله لأقتلنك ، ألقت بنفسها على قدمى الفاتح تلتمس منه العفو وقد انسدل شعرها على كتفيها وبال الدمع منها عينين زانهما الحور فزادهما سحراً . ونظر خالد إلى وجهها البارع ، وهى ترنو إليه مستعطفة مسترحمة ، نظرة هوى وإعجاب ، فصاح مالك : إنى مقتول لا محالة ! وأجاب خالد : ما لهذا والله ، وإنما قضى عليك كفرك ، وأمر بضرب عنقه .

لسنا نقف عندما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل . لكن الثابت الذى لا ريبة فيه أن ليلى أعجبت خالداً ، وأنه لذلك أمسكها من بعدُ ولم يُسَرِّحها مع ما جره زواجها عليه من متاعب .

ثورة أبى قتادة الأنصارى

وحسبُك لتقدّر هذه المتاعب أن تعلم أن أبا قتادة الأنصارى غضب لفعلة خالد ، إذ قتل مالكاً وتزوج امرأته ، أشد الغضب ، فتركه منصرفاً إلى المدينة ، مقسماً ألا يكون أبداً فى لواء عليه خالد . روينا ما قيل من أن الجند الذين سجنوا مالك بن نويرة وأصحابه هم الذين قتلوهم حين سمعوا خالداً يقول : دافئوا أسراكم وأن خالداً غضب لذلك ثم قال : إذا أراد الله أمراً أصابه . ويضيف أصحاب هذه الرواية أن أبا قتادة ظن ما حدث حيلةً من حيل خالد ، وأنه ذهب إليه يقول : هذا عملك ، وأن خالداً زجره فغضب وذهب إلى المدينة .

حديث أبى قتادة مع أبى بكر

ويذكر آخرون أن أبا قتادة ذهب إلى المدينة بعد أن تزوج خالد أم تميم ، وأن متمم بن نويرة أخا مالك ذهب معه . فلما بلغا المدينة ذهب أبو قتادة ولا يزال الغضب آخذاً منه مأخذه ، فلقى أبا بكر فقصّ عليه أمر خالد وقتْله مالكاً وزواجه من ليلى ، وأضاف أنه أقسم ألا يكون أبداً فى لواء عليه خالد .

لكن أبا بكر كان مُعْجَبًا بخالد وانتصاراته ، فلم يعجبه أبو قتادة ، بل أنكر منه أن يقول في سيف الإسلام ما قال .

عمر بن الخطاب يؤيد أبا قتادة عند الخليفة

أترى الأنصاري هاله غضب الخليفة فأسكته ؟ كلا ! فقد كانت ثورته على خالد عنيفة كل العنف . لذلك ذهب إلى عمر بن الخطاب فقص عليه القصة وصوّر له خالداً في صورة الرجل الذي يغلّب هواه على واجبه ، ويستهين بأمر الله إرضاءً لنفسه . وأقرّه عمر على رأيه وشاركه في الطعن على خالد والنيل منه . وذهب عمر إلى أبي بكر وقد أثارته فَعْلة خالد أيّما ثورة ، وطلب إليه أن يعزله وقال : « إن في سيف خالد رهَقًا[1] وحق عليه أن يُقيده » . ولم يكن أبو بكر يُقيد من عُمَّاله . لذلك قال حين ألح عمر عليه غير مرة : « هَيْه ياعمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » . ولم يكتف عمر بهذا الجواب ولم يكفّ عن المطالبة بتنفيذ رأيه . فلما ضاق أبو بكر ذرعًا بإلحاحه قال : « لا يا عمر ! ما كنت لأشيم[2] سيفًا سلَّه الله على الكافرين » .

ثورة ابن الخطاب بفعلة خالد

لكن عمر كان يرى صنيع خالد نُكراً ، فلم تطب نفسه ولم يسترح ضميره . كيف إذن يسكت ، وكيف يذر خالداً في طمأنينته يشعر كأنه لم يأثم ولم يجن ذنبًا ! لا بد أن يعيد القول على أبي بكر وأن يذكر له في صراحة أن عدوّ الله عدا على امرئ مسلم فقتله ونزا على امرأته ، فليس من الإنصاف في شيء ألا يؤاخذ بصنيعه . ولم يسع أبا بكر إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالداً ليسأله ما صنع . وأقبل خالد من الميدان إلى المدينة ، ودخل المسجد في عُدَّة الحرب مرتديًا قباء له عليه صدأ الحديد وقد غرز في عمامته أسهمًا . وقام إليه عمر إذ رآه يخطو في المسجد فنزع الأسهم من رأسه وحطمها وهو يقول : قتلت امرأ مسلمًا ثم نزوت على امرأته ! والله لأرجمنَّك بالأحجار . وأمسك خالد فلم يعترض ولم يقل شيئًا ، ولا يظن إلا أن رأى أبي بكر فيه مثل رأى عمر . ودخل على أبي بكر وقصّ عليه قصة مالك ومناصرته سجاح وتردده بعد ذلك ، وجعل يلتمس المعاذير عن قتله ، وعذره أبو بكر وتجاوز عما كان منه في الحرب ؛

أبو بكر يستدعي خالد إلى المدينة

(١) الرهق : السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .

(٢) أشيم : أغمد . والشيم يستعمل في السل والإغماد .

لكنه عنفه على التزوج من امرأة لم يجفّ دم زوجها . وكانت العرب تكره النساء في الحرب ، وترى الاتصال بهن أثناءها عاراً ، أي عار .

وخرج خالد من عند الخليفة ناجياً بإمارته على الجند ، متأهباً للعود إليهم وقيادتهم إلى اليمامة . ومر بعمر — وكان ما يزال في المسجد — فالتفت إليه وقال : هلم إليّ يا بن أم سامة ! قال هذه العبارة وفي عينيه نظرة الساخر ، وفي صوته نبرة المنتصر ، وكأنه يقول : استبق أحجارك فارجم بها غيري . وأيقن عمر أن أبا بكر عذره وغفر له وأظهر الرضا عنه ، فأمسك بدوره . وانقضى ذلك اليوم بينهما عند مبادلة هذه العبارات .

إصرار ابن الخطاب بعد خلافته على رأيه في خالد وعزله إياه

على أن عمر لم يتزحزح عن رأيه فيما صنع خالد . فلما تُوفّي أبو بكر ، وبويع عمر خليفة له ، كان من أول ما صنع أن أرسل إلى الشام ينعَى أبا بكر ، وبعث مع البريد الذي حمل النعي رسالة يعزل بها خالداً عن إمارة الجيش . وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة ، فكان جواب عمر : « ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخشيت أن تفتتن بالناس » . وهذه حجة لها قيمتها . لكن إجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقي متأثراً برأيه في موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه امرأته ، وأن هذا الرأي كان له أثره من بعد في عزل خالد .

متمم بن نويرة ونشاطه بعد مقتل أخيه

لم يكن نشاط متمم بن نويرة بأقل من نشاط أبي قتادة منذ قدم معه المدينة . فقد طلب إلى أبي بكر دية مالك فوداه ، وتحدث إليه في سبيهم ، فكتب إليه برد السبي . وأقام متمم بالمدينة زمناً طال إلى ما بعد غزوة اليمامة ، ثم كان موضع العطف الشديد من عمر لإصرار عمر على رأيه في خالد . وكان متمم قد قال في أخيه مراثي كثيرة لا تزال تُعد من عيون الشعر العربي . ذكروا عن السبب في اتصال المعرفة بين متمم وعمر أن ابن الخطاب كان يصلي الصبح يوماً ، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوساً وبيده هراوة ، فسأل من هذا ، وعرف أنه متمم بن نويرة ، فاستنشده قوله في أخيه ، فأنشد إحدى قصائده حتى بلغ قوله :

وكنّا كندْمانَى جَذيمة حِقبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتَصدَّعا
فلما تفرّقنا كأنّى ومالكا ... لطول اجتماع، لم نَبِتْ ليلةً معا

فقال عمر : « هذا والله التأبين . ولوَدِدت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل ما رثيت به أخاك » . قال متمم : « لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته » . وكان زيد قُتل باليمامة شهيداً تحت لواء خالد بن الوليد . قال عمر حين سمع قول متمم : « ما عزّانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم » .

اختلاف أبى بكر وعمر فى أمر خالد كان اختلافاً فى الرأى السياسى

بلغ اختلاف الرأى بين أبى بكر وعمر فى حادث مالك بن نويرة ما رأيت . وكلا الرجلين كان يريد للإسلام والمسلمين الخير لا ريب . أفكان اختلافهما مع ذلك راجعاً إلى خلاف فى تقدير ما صنع خالد، أم كان اختلافاً على السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف الدقيق من حياة المسلمين ، موقف الرّدة وقيام الثورة بها فى أنحاء شبه الجزيرة ؟! .

رأى عمر وحجته فى الأمر

الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافاً فى السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرئ مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها ، فلا يصح بقاؤه فى قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ، ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثمَ مع ليلى . ولو صح أنه تأوّل فأخطأ فى أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد . وليس ينهض عذراً له أنه سيف الله ، وأنه القائد الذى يسير النصر فى ركابه . فلو أن مثل هذا العذر نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولكان ذلك أسوأ مثل يضرب للمسلمين فى احترام كتاب الله . لذلك لم يفتأ عمر يعيد على أبى بكر ويلح حتى استدعى خالداً وعنّفه على فعْلته .

رأى أبى بكر وحجته فيه

أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور وزن . وما قَتْلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ فى التأويل أو لغير خطأ ، والخطر محيط بالدولة كلها ، والثورة ناشبة فى بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها . وهذا القائد الذى يتّهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التى يُدفَع بها البلاء ويتّقى

بها الخطر ! وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا ، فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبَايَا يصبحن ملك يمينه ! ! إن التزمت فى تطبيق التشريع لا ينبغى أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد، وبخاصة إذا كان ذلك يُضِرّ بالدولة أو يعرضها للخطر . ولقد كان المسلمون فى حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا فى حاجة إليه يوم استدعاه أبو بكر وعنَّفه أكثر من حاجتهم إليه من قبل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح فى أربعين ألفاً من بنى حنيفة ، وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ، وكان قد تغلَّب على عكرمة بن أبى جهل من قواد المسلمين، وكان أكبر الرجاء معلقاً بسيف خالد فى الانتصار عليه . أفمن أجل مقتل مالك بن نويرة ، أم من أجل ليلى الجميلة التى فتنت خالداً ، يعزل خالد وتتعرض جيوش المسلمين لتغلب مسيلمة عليها ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له ! ! إن خالداً آية الله ، وسيفه سيف الله . فلتكن سياسة أبى بكر حين استدعاه إليه أن يكتفى بتعنيفه ، وأن يأمره فى الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

أبو بكر يأمر خالداً بالسير إلى اليمامة

هذا فى رأيى هو التصوير الصحيح لما كان بين أبى بكر وعمر من خلاف فى هذا الحادث . ولعل أبا بكر إنما أصدر أمره إلى خالد يومئذ بالسير للقاء مسيلمة بعد أن تغلب متنبئ بنى حنيفة على عكرمة ليُرِىَ أهل المدينة ومن كان على رأى عمر منهم خاصة ، أن خالداً رجل الملمَّات ، وأنه قد قذف به حين أصدر إليه هذا الأمر إلى جحيم ، إما ابتعله وقضى عايه فكان ذلك خير عقاب له على ما صنع بأم تميم وزوجها ، وإما صهره النصر فيه وطهره فخرج مظفراً غانماً قد سكَّن من المسلمين روعاً لا تعدُّ فعلته بالبطاح شيئاً مذكوراً إلى جانبه .

وقد صهرت اليمامة خالداً وطهَّرته وإن تزوج فى أعقابها بنتاً بكراً عقد عليها كما فعل مع ليلى ، ولمَّا تجفّ دماء المسلمين ولا دماء أتباع مسيلمة . ولقد عنفه أبو بكر على فعلته هذه بأشد مما عنفه على فعلته مع ليلى . لكنه لم يزد على التعنيف ولم يزد خالد على سماعه . وما أرى أبا بكر فى تعنيفه إلا أراد أن يسكّن

من ثائرة الثائرين أمثال أبي قتادة . وإن أعجب فليس عجبي للكتّاب والمؤرخين الذين حاولوا أن يسيئوا بهذا الحادث إلى تاريخ خالد بأعظم من عجبي لأمثالهم ممن حاولوا أن يبرئوه أو يتلمسوا له الأعذار . فما مالك ، وما ليلى ، وما بنت مُجاَّعة إلى جانب المئات والألوف من الرءوس التي طاحت بسيف خالد أو بأمره ! وهذه المئات والألوف من الرءوس الطائرة عن أجسادها هي فخر خالد وهي التي جعلته سيف الله . فإن أصاب سيفه رهَقٌ في لحظة من اللحظات فقد أصاب هذا السيف النصر والفخار في سنوات وسنوات .

عاد خالد من المدينة إلى البطاح بعد أن أصدر أبو بكر إليه أمره أن يسير لقتال مسيلمة باليمامة ؛ وعاد إليها وقد برئت من الردة وآثارها ، فأقام بها على رأس جنده ، ينتظر من أبي بكر مدداً كان يجهزّه لمؤازرته . فلما جاءه المدد سار على رأس الجيش كله ، يقصد أبلغ المتنبئينَ في شبه الجزيرة مكراً ، وأشدهم خطراً . سار ممتلئاً ثقة بنفسه ، وإيماناً بالله ، وطمأنينة إلى أنه جل شأنه مؤيده وناصره .

وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .

الفصل التاسع

غزوة اليمامة

الجيش الذى أمد به أبو بكر خالداً لقتال مسيلمة

سار خالد بن الوليد من البطاح على رأس عسكره ومعه المدد الذى أمده أبو بكر به ، ومقصدهم جميعاً اليمامة ، يلقون بها مسيلمة بن حبيب متنبئ بنى حنيفة . ولم يكن هذا المدد الذى بعث به الصدّيق دون جيش خالد أيْداً أو قوة . فقد تألف من رجال من المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله الذين شهدوا الحرب فشهدت لهم الحرب ، ومن القبائل التى عُرفت فى القتال بالبأس والبطش . ولقد كان ثابت بن قيس والبَرّاء بن مالك على رأس الأنصار ، وأبو حُذيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب على رأس المهاجرين ؛ أما القبائل فكان على كل قبيلة زعيمها . وهل كان لأبى بكر أن يضن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمدد ! لقد كان يعلم أن أربعين ألفاً يقفون إلى جانب هذا المتنبئ فى عُدة القتال ، وأنهم يؤمنون به ويلاقون الموت فى سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين فى القيادة ، وفى البطولة ، وفى خوض المعامع ، تعرضت سياسته فى قتال أهل الردة جميعاً للفساد . وأبو بكر أحصف وأعلى رأياً وأبعد نظراً وأقوى إيماناً من أن يعرض الإسلام الناشئ لمثل هذا المصير .

وكان بين هؤلاء الذين أمد بهم أبو بكر خالداً جماعةٌ من القراء حفّاظ كتاب الله ، كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدراً . هذا مع أن أبا بكر كان يضن بأهل بدر ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » . وإنما خرج الصدّيق على رأيه ذاك ، فأمد خالداً بالبدريين وبمن شهدوا المواقع فى عهد الرسول ، لأن مسيلمة كان قد استغلظ أمره فى اليمامة ؛ فكل تضحية فى سبيل القضاء عليه دفع عن دين الله ، وكل تهاون معه يزيد الثورة فى بلاد العرب ضِراماً ، ويزيد موقف المسلمين حرجاً .

والحق أن ما أدركه المسلمون إلى ما قبل اليمامة من النصر قد كان بالقياس

إليها هيناً يسيراً . كانت القبائل القريبة من المدينة والتى أرادت محاصرتها غداة بيعة الصدّيق ، لا يدعى أحد فيها النبوة ، ولا تطمع فى شيء إلا أن تعفى من الزكاة . وقد نجح عَدِىّ بن حاتم فى صرف القبائل عن طُلَيحة الأسدىّ ، فهان أمره فلم يقدر على المقاومة . ولم تكن أم زِمل لتقوى عليها بمن اجتمع حولها من فلول تلك القبائل . وكان بنو تميم على خلاف بينهم ، وكانت سجاح قد وهَّنت من عزم مالك بن نويرة ، فلم يكن بينه وبين خالد بن الوليد قتال . أما مسيلمة ومن اجتمع حوله باليمامة فكانوا ينكرون أن يكون محمد رسول الله إليهم ، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق ، فلهم نبى ورسول ، كما لقريش نبى ورسول ؛ وبينهم من الجند البواسل أضعاف جند قريش عدداً . وهم إلى ذلك كتلة واحدة ، لا يفتُّ فى عضدهم خلاف ولا يضعضع من عزمهم تنافس ، وليس بينهم من التفاوت فى العقيدة والجنس ما بين أهل اليمن . لا جرم ، وذلك شأنهم ، أن يكونوا أولى بأس وقوة يجب أن يحسب الصدّيق لها الحساب .

قوة مسيلمة وأسبابها

ولم تكن هذه العوامل وحدها هى التى لفتت نظر أبى بكر لتقوية غُزَاة اليمامة ما استطاع تقويتهم . فهو حين عقد ألويته الأحد عشر لحرب أهل الرّدة لم يكن يقيم لمسيلمة كل هذا الوزن ، أو يحسب لبنى حنيفة كل هذا الحساب ، لذلك وجَّه إليهم عكرمة بن أبى جهل ، ثم وجَّه فى أثره شُرَحْبيل ابن حَسَنَة يعاونه . وسار عكرمة إلى اليمامة ولم يرَ أن ينتظر شُرَحبيل ، بل بادر بلقاء مسيلمة ليكون له فخار النصر عليه . وكان عكرمة بطلا مجرباً وفارساً مغواراً ، وقد اجتمع فى لوائه أبطال صناديد طالما أبلَوْا فى الحرب أحسن البلاء . مع ذلك لم يثبُت عكرمة ولا ثبت لواؤه لمسيلمة ، بل نكَبهم بنو حنيفة فانهزموا ، وبلغ من نُكْر هزيمتهم أن أقام شُرَحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر على حقيقته الفاجعة . وكتب عِكرمة لأبى بكر بالذى أصابه وأصاب جنده ، فملك أبا بكر الغضب وكتب إليه : « يا ابن أم عكرمة ! لا أرينَّك ولا ترنى . لا ترجعن فتوهن الناس . امضِ إلى حُذَيفَة وعَرْفَجَة فقاتل أهل عُمَان ومَهْرَة ، ثم تسير أنت وجندك تستبرعون الناس حتى تلقَى المهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت » . ولا أرانى فى حاجة إلى بيان ما فى هذا الكتاب من مظهر الغضب .

عكرمة بن أبى جهل ينهزم أمام قوات مسيلمة

وحسبُك بدؤه بقوله : « يا ابن أم عكرمة » ، فى هذه العبارة ما فيها من زراية واستخفاف .

كيف استغلظ أمر مسيلمة ؟!

كيف استغلظ أمر مسيلمة حتى بلغ هذا المبلغ ؟! لقد كان – على تعبير مؤرخى العرب – « رويجلا ، أصيفر ، أخينس » لا يدعو مظهره إلى تقدير واحترام . ولقد ذهب مع وفد بنى حنيفة إلى النبىّ عام الوفود ، فلما بلغ الوفد المدينة لم يأخذه قومه ليلقى النبىّ معهم ، بل خلّفوه على رحالهم . ولما سلم القوم بذل لهم النبى العطاء ، فذكروا له مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لكل منهم ، وقال يجامله : « أمَا إنه ليس بشرّكم مكانًا » ، وذلك لحفظه رحال أصحابه . أفيكون ذلك هو الذى يدعى النبوة من قومه ! لذلك لم يصدقه منهم أول الأمر إلا نفر قليل . أفمعجزة تلك التى جمعت الألوف وعشرات الألوف حوله فيما دون السنتين ؟ كلا ! وإنما هى شعبذة المشعبذين ، وحيل المحتالين ، وانقياد الجماعات لهؤلاء وأولئك . فقد كان من أهل هذه الأرجاء رجل يُدْعَى « نهاراً الرجّال – أو الرحال – بن عُنْفُوة » . وكان قد هاجر إلى رسول الله بالمدينة ، فقرأ القرآن ، وفقه الدين ، وعرف تعاليم الإسلام ، وكان ذكيًّا ذا بصيرة . أرسله رسول الله معلمًا لأهل اليمامة يفقههم فى الدين ، ويرد من اتبع منهم مسيلمة ، ويشد من عزائم المسلمين ويشغب معهم على المتنبئ الكاذب . لكن « نهاراً » كان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة نفسه . فهو لم يلبث ، حين رأى السواد يتبعه ، أن أقرّ بنبوته وأن شهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك فى الرسالة معه . ما عسى أن يقول أهل اليمامة عن هذا ! لقد شهد شاهد من أهل محمد لمسيلمة . وهذا الشاهد رجل فقيه عالم ، يتلو عليهم قرآن محمد ، ويقص عليهم تعاليمه ، ويفقّههم فى دينه ، وهو يشهد لمسيلمة بالنبوة . ما إلى نفى ذلك أو الطعن فى صحته بعدئذ من سبيل . لذلك أقبل الناس على مسيلمة أفواجًا يؤمنون به رسولا لله إلى بنى حنيفة ، وبذلك أقبلت عليه الدنيا وأصبح فى متناول يده كل ما يشاء ويهوَى .

نهار الرجال وخدعته

ووضع مسيلمة كل ثقته فى « نهار الرجّال » وصار ينتهى إلى أمره فى كل ما يريد أن يقلد محمداً فيه . وجعل نهار ، لقاء ذلك ، يَعُبّ من نعيم الحياة

الدنيا ويستمتع بكل ما لذَّ له أن يستمتع به منها . وإذا الفقهاء والعلماء أسلموا لمتاع الدنيا أنفسهم ، وأخضعوا لمن يملكون هذا المتاع علمهم ، فويلٌ للعلم والفقه ، وويل للحقيقة أى ويل ! . .

ولسنا نقف عندما يروى من محاولة مسيلمة إتيان المعجزات ، ولا عندما أوحى إليه فى زعمه ، فذلك كله سخف لا يثبت للتاريخ ونقده . وحسْبُنا ما تقدم بيانًا للأسباب التى أدت إلى متابعة الناس مسيلمة وإلى استفحال أمره ، حتى لم يستطع عكرمة حين لقيه إلا أن يعود منكوبًا مهيض الجناح .

طليحة النمرى وكيف اتبع مسيلمة

ولا تسل كيف اتّبع مسيلمةَ عقلاء قومه ، وأنت تعرف العصبية العربية وتعصب القبائل لاستقلالها وحريتها . ذكروا أن طُليحة النَّمرى جاء اليمامة فقال : أين مسيلمة ؟ قالوا مَـهْ ، رسول الله . قال لا ، حتى أراه . فلما جاء قال له : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نور أم فى ظلمة ؟ قال مسيلمة : فى ظلمة . ورد طليحة : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، لكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضر . وفى رواية ذكرها الطبرى أن طليحة قال : كذّاب ربيعة أحب إلينا من كذّاب مضر . واتّبع الرجل مع ذلك مسيلمة وقاتل وقتل معه .

خالد يسير إلى اليمامة بجيوشه

أمَّا وذلك شأن مسيلمة وما أصاب عكرمة فى قتاله ، فلم يكن بين قواد العرب من ينازله غير داهية الحرب وعبقريّها خالد بن الوليد ، ولم يكن عجبًا أن يعزز أبو بكر خالداً بالمدد . ثم إن الصديق كتب إلى شُرَحبيل بن حَسَنَة أن يقيم حيث هو حتى يجىء خالد إليه . فإذا فرغوا من مسيلمة لحق شرحبيل بعمرو ابن العاص يُعينه على قضاعة فى شمال شبه الجزيرة .

وفيما خالد يسير إلى اليمامة التقت جيوش مسيلمة بلواء شرحبيل واضطرته إلى الارتداد . يقول بعض المؤرخين إن شرحبيل صنع ما صنع عكرمة ، وأراد أن يفوز بفخار النصر فأصابه ما أصاب سلفه . ولعل الأمر لم يكن كذلك ، وإنما تقدمت جند من اليمامة فلاقوا شرحبيل فارتد عنهم حتى يجيئه خالد . وأى ذلك كان فقد بقى شرحبيل حيث تراجع حتى بلغته جيوش المسلمين ، فلما عرف خالد ما أصابه لامه أشد اللوم على صنيعه . ولعله كان يؤثر أن يتراجع

من غير أن يشتبك مع خصمه حتى لا يقوّىَ الظفر روحهم المعنوية .

سرية مجاعة بن مرارة يقتلها خالد بن الوليد

وإن جيوش خالد لتتلاحق إلى أرض اليمامة وتبلغ أنباؤها مسيلمة ، إذ خرج مُجَّاعة بن مُرَارَة فى سرية يطلب ثأراً له فى بنى عامر وبنى تميم ، وقد خاف أن يفوته إذا شُغل بلقاء المسلمين وقتالهم . وأدرك مُجَّاعة ثأره وكرَّ راجعاً مع أصحابه ، حتى إذا بلغوا ثَنِيَّة اليمامة كان التعب قد أخذ منهم فناموا . وأدركهم جيش خالد فتنبَّهوا ؛ وعرف خالد أنهم من بنى حنيفة ، وظن أنهم خفوا لقتاله فأمر بقتلهم ، لم يغن عنهم قولهم إنهم خرجوا لثأرهم . فقد سألهم عن رأيهم فى الإسلام ، فكان جوابهم : نقول منا نبىّ ومنكم نبىّ . وقال أحدهم ، سارية بن عامر ، وهو يُعرَض على السيف يخاطب خالداً :

لكنه يأخذ مجاعة رهينة عنده

« أيها الرجل ، إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شرًّا فاستبق هذا الرجل » وأشار إلى مُجَّاعة . واستبقى خالد مجاعة لم يقتله ، وجعله كالرهينة ؛ لأنه كان من أشراف بنى حنيفة ، وكان له عندهم مقام كريم ، ولأن خالداً كان يطمع فى معاونته إياه بالرأى . ولقد قيَّده بالحديد ، وجعله فى قبَّته ، وجعل زوجه الجديدة ليلى أم تميم على حراسته .

جند مسيلمة بعقرباء

كان مسيلمة قد جمع جنده بعقرباء فى طرف اليمامة ، وجعل الأموال وراء ظهورهم . وكان هذا الجند أربعين ألفاً ، وقيل ستين ألفاً . وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها فى الجيوش من قبل . وأقبل خالد غداة اليوم الذى ارتهن فيه مجاعة فصف جنده فى وجه مسيلمة صفَّ القتال . ووقف الجيشان ينظران أمر الصّدام ، وكلّ يقدر أن مصيره معلق بمصير ذلك اليوم . ولم يبالغ أيهما فى تقدير هذا الأمر ؛ فيوم اليمامة من الأيام الحاسمة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ العرب .

يوم اليمامة حاسم فى تاريخ العرب

كانت قوة مسيلمة قوة الردة الملحِّة والإنكار الصريح أن تكون نبوة محمد لغير قريش ، وأن تكون للناس كافة . وكانت هذه القوة هى المركز الذى تتطلع إليه الأعين من اليمن وعُمَان ومَهْرَة والبحرين وحضرموت والجنوب كله من شبه الجزيرة منحدراً من مكة والطائف إلى خليج عدن ، وتتطلع إليه الأعين كذلك من بلاط فارس . وكانت جيوش مسيلمة تؤمن به وتتفانى فى

سبيله ، ثم تزيدها الخصومة القديمة بين الحجاز وجنوب الجزيرة إيماناً وتفانياً .
وكانت جيوش المسلمين زهرة قوتهم والملاذ والحمى لدين الله وكلمته ؛ عليها خالد أعظم قائد عرفه التاريخ فى عصره ، وبينها حفّاظ كلام الله قراء القرآن ، وقد جاءوا جميعاً يملأ الإيمان قلوبهم بأن الجهاد فى سبيل الله والدفع عن دينه الحق أول فرض على المؤمن ، وأنه فرض عين على كل ذى علم وبيّنة . لا محيص إذن أن تكون المعركة حامية ، وأن تكون مثلاً لما لقوة الإيمان من بأس وسلطان .

ابن مسيلمة يحرض قومه فى بنى حنيفة

وتقدم شُرحْبيل بن مسيلمة يحرض جيش بنى حنيفة بعبارات تهتز لها النفس العربية الدقيقة الحس بكل ما يتصل بالعِرض والحسب أشد اهتزاز . صاح فيهم : « يا بنى حنيفة ! اليوم يوم الغَيْرة ، إن هُزمتم تُستَرْدَف النساء سبيّات ، ويُنْكَحْنَ غير حَظِيّات . فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » ، وأمرهم أن يشدوا . والتقى الجمعان والمسلمون لمّا تحتدم حميّتهم ؛ يقول المهاجرون لسالم مولى أبى حُذَيْفَةَ : تخشى علينا من نفسك شيئاً ؟ فيجيبهم : بئس حامل القرآن أنا إذاً . بل لقد تنابزوا بشر من هذا الحديث وأسوأ منه أثراً . جعل المهاجرون والأنصار يرمون بالجبن أهلَ البوادى ، ويرميهم أهلُ البوادى بمثل ما يرمونهم به . يقول أهل القرى : « نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم » . ويقول أهل البادية : « إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب » .

تراجع المسلمين ودخول جنود مسيلمة فسطاط خالد بن الوليد

لذلك لم يَثْبُتوا لجموع بنى حنيفة ، مع ما كان بين الفريقين من قتال شديد ؛ فانثنى صف المسلمين هزيماً ، وزال خالد عن فُسْطاطه ، فدخله بنو حنيفة فرأوا فيه مُجّاعة مقيداً بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم . وحمل رجل منهم بالسيف على ليلى يريد أن يقتلها ، فصاح به مجاعة : « مَهْ ؛ أنا لها جارٌ ، فنِعْمَتِ الحرة ؛ عليكم بالرجال ! » . وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعاً .

على أن المسلمين لم يتراجعوا حتى قتلوا من بنى حنيفة خلقاً كثيراً . وكان فى الأولين الذين قُتلوا نَهارٌ الرجّال القارئ الفقيه الخائن الخادع . خرج فى

طليعة بنى حنيفة ، فلقيه زيد بن الخطاب فقتله ، فأزال بقتاله من الوجود روح الإثم التى طوعت لمسيامة لأن يبلغ ما بلغ ، وأن يقف وجنده يهدد المسلمين ويرسل الروع فى نفس كل حريص على دين الله .

صيحة خالد : امتازوا أيها الناس

لم تزايل خالدَ بن الوليد رباطة جأشه حين زال عن فسطاطه ، ولم يداخله ريب فى مصير اليوم . لقد رأى أنَّما انهزم من جند المسلمين من انهزم لتنابز الناس وتواكلهم ، فلو لم يتواكلوا انتصروا . لذلك لم يلبث حين لاحت له فترة تهادن بين الفريقين أن صاح فى الجند صيحة بطش وغضب : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حىّ ، ولنعلم من أين نؤتى » . ودوَّت هذه الصيحة ، تداولها سمعُ الجيش كله فنبهته إلى حقيقة أمره . واطمأن خالد ، حين رأى الناس امتازوا ، إلى أنه قطع بأمره كل مظنة للتواكل ، وأنه هيَّأ للنصر طريقه .

الحمية لدين الله تثور فى قلوب المسلمين

أثارت صيحة خالد ما ركِّب فى الفطرة العربية من قوة العصبيَّة ، ورأى زعماء المسلمين ما حل بهم ، فثارت فى قلوبهم الحميَّة لدين الله ، وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة ، وتجلَّى الاستشهاد أمامهم باسمًا مضيئًا يفتح لهم أبواب الجنة خالدين فيها ، وأظلتهم نسمة من روح الله أرتهم الحياة لهواً ولعباً وغروراً باطلا ، فانقلبوا من الهزيمة يطلبون النصر أو الشهادة . قال ثابت بن قيس — وكان على رأس الأنصار — : « بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (وأشار إلى أهل اليمامة) وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (وأشار إلى المسلمين) ، ثم اندفع إلى الوطيس يقاتل ويقتُل ، وينادى : « هكذا عنّى حتى أريكم الجلاد ! » وأبلى بلاء أذهب عن الأنفس الروع ، وظل يجاهد حتى خلصت إليه الجراح من كل جانب فمات وقد رزق الشهادة . وكان البرَاء بن مالك من الصناديد الذين لا يعرفهم الفرار ، فلما رأى ما صنع الناس وثب وقال : « أين يا معشر المسلمين! أنا البراء بن مالك . هلمَّ إلىّ ! » . وسمعه المسلمون وكلهم يعرفون بأسه ، ففاء إليه منهم فئة قاتلت القوم وقتلت منهم حتى أجلتهم عن مواقفهم . وهبَّتْ ريح أثارت الرمال فى وجوه المسلمين ، فذهب قوم يتحدثون إلى زيد بن الخطاب

ما يصنعون ، فكان جوابه : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله فأكلمه بحجتى . غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدماً » واندفع فى صدر القوم يقاتل ويقتل ، وجنده من ورائه ، حتى لقى الله يكلّمه بحجته . وصاح أبو حُذيفة بمن حوله : « يأهل القرآن ، زيّنوا القرآن بالفعال » . وألقى بنفسه فى الغمار يقاتل وقومه حتى ضمه الله إليه . وأخذ سالم مولى أبى حُذيفة الراية وقال : « بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبُت » : وقاتل حتى قُتل . بهذه الصيحات الصادرة من قلوب ملأها الإيمان قوة وبأساً ، سرت روح الاستشهاد فى جند المسلمين جميعاً ، فهانت أمامهم الحياة واستحبوا الشهادة عليها ، فاندفعوا يطلبونها صادقين ، فردوا جيوش مسيلمة إلى ما وراء خطوطها الأولى .

الذين ابتغوا الشهادة وفازوا بها

وكانت جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس هى كذلك . كانت تقاتل عن وطنها ، وتقاتل عن أحسابها ، وتقاتل عن عقيدة مريضة هى عندها دون الوطن ، ودون الحسب مقاماً ؛ لذلك ثبتت للمسلمين وجعلت تردُّ منهم من تستطيع رده ، وتحارب عن كل شبر من الأرض لا تتزحزح عنه حتى تعود وتحاول استرداده .

جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس

لم يُرَعْ خالد لاستبسال بنى حنيفة ، بل أيقن حين سمع صيحات المسلمين ، ورأى إقدامهم على الموت مستبشرين ، أنه ملك زمام اليوم ، وأن النصر صار منهم قريباً .

لكنه حرص مع ذلك على أن يرى المسلمون هذا النصر قريباً كما يراه هو . لذلك خرج على رأس رجاله وقال لحماته : « لا أوتينَّ من خلفى » ، ثم صاح صيحة المعركة : « يا محمداه » . وهو لم يكن يريد بخروجه وبصيحته أن يشدد العزائم فحسب ، بل كان يريد كذلك أن يسلك إلى النصر أسرع طرقه ، وأن يستله من مكمنه . فقد رأى بنى حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه . لذلك داور برجاله حتى كان حياله ، ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه . وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثر

خالد يداور ليقتل مسيلمة

فى هؤلاء القتل ، وشعر مسيلمة بالخزى يركبه لشدة جبنه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا . لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج لا محالة ؛ فتردد واضطرب . وإنه لفى اضطرابه وتردده إذ شد خالد بن الوليد برجاله عليه وعلى من حوله وركبوهم يعملون فيهم السلاح . هنالك صاح أصحاب مسيلمة به : « أين ما كنت تعدنا ! » فأجابهم وقد ولى مدبراً : « قاتلوا عن أحسابكم » . وكيف يقاتلون وقد أسرع هو إلى الفرار ! أو ليس المنطق أن يتبعوه فاراً كما اتبعوه نبياً ! !

فرار مسيلمة وأصحابه

ورأى محكم بن الطفيل فرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقبونهم ، فصاح بهم : « يا بنى حنيفة ! الحديقة » ، يريد منهم أن يحتموا بها . وكانت هذه الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة وتدعى حديقة الرحمان ، وكانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن . وقد فروا إليها وتحصنوا بها من هزيمتهم بعد أن خر الألوف منهم صرعى مُجَدَّلين فى الميدان بسيوف المسلمين . ووقف المحكم برجاله يحمى ظهورهم فى أثناء فرارهم . وإنه لكذلك يحاول صد المسلمين ويحرض رجاله على دفعهم ، ويقاتل وإياهم أشد قتال حتى يتحصن قومه ، إذ رماه عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق بسهم وقع فى نحره فقتله .

احتماؤهم بالحديقة

تحصن مسيلمة وقومه بالحديقة . أفيحاصرهم المسلمون وإن طال حصارهم ؟! كلا ! إن هذا الجيش الثمل بنشوة الظفر يريد النصر كاملا ؛ ويريده سريعاً . لذلك أحاط بالحديقة يلتمس فيها فرجة تغنيه عن فتح بابها الوثيق الرتاج فلم يجد . قال البَراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ، ألقونى عليهم فى الحديقة » . قال الناس : « لا تفعل يابراء » . وماذا عسى أن يصنع البراء وحده بين هذه الألوف التى تكدست فى الحديقة لاجئة من الموت ! لكن البراء أصر على قوله وزاد : « والله لتطرحُنَّنى عليهم فيها » ورفعه المسلمون إلى أعلى الجدار ، فلما رأى القوم وكثرتهم تردد وتراجع وقال : أنزلونى . لكنه ما لبث أن عاد يقول : احملونى . وتكرر ذلك منه . ثم إنه وقف على الجدار تحدثه نفسه : إنه البراء البطل الذى يتحدث الناس فى شبه الجزيرة كلها بفعاله ، ألا لئن عاد أدراجه

البراء بن مالك يتسور الحديقة ثم يفتح بابها

ليقولنَّ الناس : همَّ ولم يفعل ، وليذهبن ذلك بشهرته فى البطولة ، وليتندرن الناس بإحجامه بعد الأقدام . وإن حدث ذلك فماذا يبقى له ، وأى وجه يطالع الناس به ! لذلك نضا عنه تردده وألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، فقاتلهم وقتل يمنة ويسرة ، حتى فتح الباب للمسلمين ، ودخلوا منه زُمَراً تلمع فى أيديهم سيوفهم ، ويطل الموت من حلق عيونهم ؛ فما لبث بنو حنيفة حين رأوهم أن فروا أمامهم يتراكضون فى الحديقة التى انقلبت سجناً تراكض الأغنام رأت الذابح يدخل عليها بسكينه ».

اقتحام المسلمين الحديقة وهاجمتهم جيوش مسيلمة بها

هذه رواية . ورواية أخرى أن المسلمين تسوّروا الحديقة من الجدران وحاولوا اقتحام الباب . ولعل البراء كان بين الذين تسوّروا الجدران أقربهم مكاناً من الباب ، وأنه ألقى بنفسه فى الحديقة ففتحه للمسلمين بعد أن قاتل من وجده من القوم دونه ؛ وذلك حين كان اللاجئون إلى الحديقة فى شغل عنه بمن شدوا عليهم يرمونهم بالنبل من أعلى.

اقتحم المسلمون الحديقة والتحموا بأعدائهم فيها ، وما عسى أن تجدى سيوف بنى حنيفة والأشجار من حولهم تعوقهم ! مع ذلك استحر القتال وكثر القتل بين الفريقين ، وإن زاد قتلى بنى حنيفة على قتلى المسلمين أضعافاً مضاعفة. وكان وحشيٌّ الحبشيّ قد أسلم بعد أحُد ، وبعد أن قتل حمزة سيد الشهداء فيها ، وكان حاضراً اليمامة . ولقد رأى مسيلمة فى الحديقة فهز حربته ، حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . وقد اشترك معه رجل من الأنصار ضرب مسيلمة بسيفه ، فكان وحشيٌّ يقول : ربك أعلم أينا قتله . وصاح رجل يقول : قتله العبد الأسود .

مقتل مسيلمة

انهدّت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة وأسلموا أنفسهم لا يقاومون ، وأمعن المسلمون فيهم قتلا . فلم تعرف بلاد العرب فى تلك العصور موقعة كان فيها ما كان فى موقعة اليمامة من دماء . لذلك أطلق على حديقة الرحمان اسم حديقة الموت ، ولا يزال هذا اسمها فى كتب التاريخ جميعاً .

مجاعة يدل خالداً على مسيلمة

ولما انتهت الموقعة أمر خالد فجىء بمُجّاعة من فسطاطه ، فطلب إليه

أن يدلّه على مُسيلمة . وجعل القوم يكشفون عن القتلى حتى مروا بمحكّم اليمامة ، وكان المحكم وسيما ، فلما رآه خالد سأل مجاعة : هذا صاحبكم ؟ وأجاب مجاعة : لا ! هذا والله خير منه وأكرم ؛ هذا محكّم اليمامة . ودخل خالد ومجّاعة حديقة الموت فمرّوا بجثة ذلك الرويجل الأصيفر الأخينس ، فقال مجاعة : هذا صاحبكم قد فرغتم منه . وقال خالد : هذا الذى فعل بكم ما فعل .

الآن وقد انتهت فتنة مسيلمة ، واجتُث أصلها ، وقد قُضِي على جيشه هذا القضاء المبرم ، أفما آن لخالد أن يطمئن ولجنده أن يستريح ؟

خالد يتابع المعركة حتى يبلغ النصر مداه

كلا ! ليس هذا من طبع خالد ، وليست هذه السياسة سياسته فى الحرب . إنما سياسته أن يبلغ النصرُ مداه حتى لا يترك وراءه ما قد تُخشى عواقبه . لم يكفه من حرب بنى أسد ومن والاهم فرار طليحة ، بل بقى حتى استبرأ الأرض ، وحتى قضى على أم زِمْل وفلولها . وهو لم يدَعْ بنى تميم حتى قضى فى ديارهم على كل نافخ فى نار للفتنة أو فى رماد . وكذلك فعل ها هنا . قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وقد فُرِغ ممن لجئوا إلى حديقة الموت : « ارتحلْ بنا وبالناس فانزل على الحصون » ، يريدان حصون اليمامة . فكان جواب خالد : «دعانى أبثّ الخيول فألقط من ليس بالحصون ، ثم أرى رأيى» . وبثّ الخيول فجاءوا بما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضمه إلى العسكر . ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون فيفتضّها على من بها ، ويفرغ بذلك من بنى حنيفة فلا تقوم لهم من بعدُ قائمة أبداً .

كان خالد قد وثق بمجاعة بعد الذى كان من جواره أمّ تميم ، ومن إخلاصه القول له فى مسيلمة ومن معه . وجاء مجاعة هذا إليه وقال : والله ما جاءك إلا سَرَعانُ الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالا ؛ فهل لك إلى الصلح على ما ورائى ؟ ونظر خالد إلى جيشه فرأى قوماً نهكتهم الحرب وقد أصيب من أشراف الناس فيهم خلق كثير ، وهم إلى ذلك حِراصٌ على أن يعودوا متوّجين بفخار النصر . أما وقد يكون مجاعة صادقاً فقد رأى خالد من الخير أن يصالحه . وتصالحا على أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلا نصف السبى .

الصلح بين خالد ومجاعة

واستطرد مجاعة يقول : الآن آتى قومى فأعرض عليهم ما قد صنعت . وانطلق فقال للنساء : البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون . وقد فعلن . ورآهن خالد فأيقن أن مجاعة لم يكذبه . وعاد مجاعة يزعم أنهم أبوا أن يجيزوا ما صنع ، وإنما أشرف على رءوس الحصون منهم من أشرف حتى يرجع إليهم فيروا رأيهم . ونزل خالد عن النصف مما كان قد تصالح عليه من السبي . فلما فتحت الحصون لم يجد بها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجالا ضَعْفَى . عند ذلك نظر إلى مجاعة مغضبًا وقال : ويحك ! خدعتنى ! وأجاب مجاعة مطمئنًّا : هم قومى ، ولم أستطع إلا ما صنعت . وأكبر منه خالد صدق وطنيته فأجاز الصلح وسرّح صاحبه .

ويروى أن مجاعة ذهب إلى قومه قبل كتابة عهد الصلح ، وقبل أن يرى خالد من بالحصون ، فعرضه عليهم ، فاعترضه سلمة بن عمير الحنفىّ وقال : « لا والله لا نقبل حتى نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نصالح خالداً ؛ فإن الحصون منيعة والطعام كثير والشتاء قد حضرَ » . وأجابه مجاعة : « إنك امرؤ غرٌّ مشئوم . غرك أنى خدعت القوم حتى أجابونى إلى الصلح ، فهل بقى أحد فيه خير أو به دفع ! وإنما بادرتكم قبل أن يصيبكم ما قال شَرَحْبيل بن مسيلمة : قبل أن تُستَرَدف النساء سبيَّات ، ويُنكحن غير حظيَّات » . وسمع إليه القوم فأجازوا صلحه ولم يحفلوا قول سلمة بن عمير .

رسالة أبى بكر إلى خالد وإنفاذه الصلح برغمها

وجاء خالداً رسول من أبى بكر ومعه أمر أن يقتل كل قادر على القتال من بنى حنيفة . لكن خالداً كان قد صالحهم ؛ وهو رجل متى عهد وفى . وحُشر بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه ؛ وجىء بهم إلى خالد فى عسكره ، فبايعوا وأعلنوا براءتهم من الردّة ورجوعهم إلى الإسلام . وبعث خالد بوفد منهم إلى أبى بكر بالمدينة . فلما قدموا عليه قال لهم : ما هذا الذى استذلّ منكم ما استذل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، وقد كان امرأً لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

عدد القتلى من بنى حنيفة

ولعلك تسأل : كيف رضى خالد عن مجاعة بعد أن خدعه ، وخالد من نعرف بأساً وشدة ؟ لكن نصر المسلمين المؤزَّر جعل خالداً أدنى إلى التسامح ؛

وقد بلغ قتلى بنى حنيفة مبلغاً زاده تسامحاً . قيل إن الذين قُتلوا فى حديقة الموت بلغوا سبعة آلاف ، وإن مثل هذا العدد قُتل منهم فى الميدان ، وإن سبعة آلاف أخرى قتلوا حين بثّ خالد جنوده تطارد الفارين . هذا إلى أن الصلح الذى عقده مجاعة قد ترك للمسلمين كل ما غنموا من ذهب وفضة ، وسلاح ، وجعل لهم ربع السبى ، وجعل لهم فى كل قرية من قرى بنى حنيفة حديقة ومزرعة يختارهما خالد . فإن يكن مجاعة قد أنجى بعد ذلك من بقى من قومه فلم يقتل منهم كل قادر على القتال ، فإن قومه جميعاً قد رجعوا إلى الإسلام وأقرّوا بسلطان أبى بكر . أما وقد بلغ خالد ذلك كله فليس له أن يغضب من مجاعة لخدعته أو ينقم منه بسببها .

وعدد قتلى المسلمين

وكما بلغ قتلى بنى حنيفة ذلك العدد الذى لم يكن يدور بخلد أحد من أهل ذلك العصر فى بلاد العرب ، بلغ عدد القتلى من المسلمين مبلغاً جاوز كل ما كان يجرى فى تقديرهم . قُتل فيها من المهاجرين ثلثمائة وستون ، ومن الأنصار ثلثمائة ، وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل . وبلغ مجموع قتلى المسلمين مائتين وألفاً .

ولقد عيَّر المهاجرون والأنصار أهل القبائل وفاخروهم بعدد قتلاهم . ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصوراً على زيادة العدد فى القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن . وأنت تعرف ما لهؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين . ولكن ! رُبَّ ضارَّة نافعة ؛ فقد كان مقتل هؤلاء الحفاظ سبب جمع القرآن فى خلافة أبى بكر مخافة أن يستحر القتل فى سائرهم من بعدُ ، كما استحر فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

حزن المسلمين بمكة والمدينة على القتلى

ولم يكن يعدل حزن المسلمين بمكة والمدينة على هؤلاء القتلى إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر . عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء . فلما لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! ألا واريت وجهك عنى ! » . وأجاب عبد الله : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسى تأخرت فأكرمه الله بالشهادة » . وفى رواية أنه قال :

« سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلىّ فلم أعطها » . وليس حزن عمر لمقتل أخيه زيد إلا مثلا لما عمّ مكة والمدينة من أسى على الأبطال الذين استشهدوا فى قتال مسيلمة .

أفحزن خالد بن الوليد كما حزنوا ؟ أفأزعجه منظر القتلى وروعه مسيل الدماء ؟ ! كلا ! ولو أن ذلك كان لما جاز له يوماً أن يتولى القيادة ، وأن يكون فاتح العراق والشام ، وموطد الأساس الأول للإمبراطورية الإسلامية . وأين القائد القادر الذى لا يهتز طرباً حين يرى الألوف من الأعداء يخرون صرعى أمام جيوشه ! لم يرعْ خالد إذن ولم ينزعج ؛ بل إنه لم يلبث حين اطمأن إلى النصر وأتم الصلح وتسلم زمام الأمر أن دعا مجاعة إليه وقال له : « زوّجنى ابنتك » . وكان مجاعة قد سمع بحديث ليلى أم تميم وباستدعاء أبى بكر خالداً وتعنيفه إياه على ما فعل مما يخالف تقاليد العرب ، فقال : « مهلا ! إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك » . ولم يعجب خالداً هذا الكلام فلم يعره أية عناية بل حدق إلى الرجل وقال : « أيها الرجل زوّجنى » . ومن ذا يستطيع أن يعصى له إثر نصره فى اليمامة أمراً ! وزوجه مجاعة ابنته ، فدخل بها فى بيت أبيها ، ثم جعل لها فسطاطاً يجاور فسطاط أم تميم .

خالد يتزوج ابنة مجاعة

ثورة أبى بكر لزواج خالد وكتابه إليه فى ذلك

وبلغ أبا بكر ما صنع خالد ، فتولته الدهشة أول ما عرفه ، ثم استحالت الدهشة غضباً ، فاستحال الغضب ثورة . لقد كان كل دفاعه عنه فى حادث أم تميم أنه لم يقتل زوجها ليتزوجها ، وأنه إن يكن أخطأ فإنما خطؤه أنه خالف تقاليد العرب وصنع ما يعيبونه من مثل هذا التزوج والدماء تقطر والمآتم قائمة . فكيف به يكرر فعلته فى اليمامة وقد قُتل بها من المسلمين مائتان وألف ولم يكن قتل منهم أحد فى حادث مالك بن نويرة ! لذلك لم يملك أبو بكر ، وهو الحليم ، غضبه ، بل دفعته ثورته فكتب إليه كتاباً « يقطر بالدم » على حد تعبير الطبرى ، جاء فيه : « لعمرى يا بن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفْ بعد » ! وتناول خالد الكتاب ونظر فيه فتألم لغضب أبى بكر وهز رأسه وجعل يقول : هذا عمل الأعيسر ، يعنى عمر بن الخطاب . لكن الأمر لم يجاوز الأسف

لغضب أبى بكر من جانب خالد ، ولم يجاوز هذه الثورة على خالد وهذا الكتاب إليه من جانب أبى بكر.

عذر خالد بالغ

ومن تكون بنت مُجَّاعة فى أعياد النصر التى يجب أن تقام لخالد ! إنها لن تزيد على قُربان يطرح على قدمى هذا العبقرى الفاتح الذى روى أرض اليمامة بالدماء لعلها تطهر من رجسها . بل إنها لن تزيد على جارية من الجوارى اللائى يضربن بالدفوف فى هذه الأعياد ويتغنين مطربات ، أن عاد مهد الإسلام كاملا إلى حمى الإسلام . لكن ! تبارك اسمك اللهم ! إن الإسلام لا يعرف هذه الأعياد ؟ وإنما يعرف أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . وقد آتاه خالداً ، فأعز به دينه الحق ، ومحق به الردة والمرتدين .

محا خالد الردة والمرتدين بغزوة اليمامة ومحقهم . بذلك آن لبلاد العرب أن تطمئن وتدين بدين الله . فأما ما بقى من أنباء حروب الردة بمَهْرة وعُمان واليمن مما تلا اليمامة فلم يكن فى مثل خطرها . من ثم آن لأبى بكر بعد اليمامة أن تسكن نفسه ، وآن لخالد بعدها أن يستريح .

وتحول خالد إلى واد من أودية اليمامة يقال له الوبْر ، وكان له به منزل جمع فيه بنت مجاعة وأم تميم .

أفطال هناك مقامه وكانت هناك راحته ؟ ذلك شأن لم تحدّثنا به كتب التاريخ .

لكن سياسة أبى بكر وسياسة الإسلام كانت لا تزال فى حاجة إلى سيف خالد ، وسنلقاه لذلك عما قريب . فإلى الملتقى عبقرى الحرب وسيف الله ! إلى الملتقى على شواطئ الفرات ! .

الفصل العاشر
بقية حروب الردة
البحرين – عمان ومهرة – اليمن – كندة وحضرموت

الربوع التي عادت إلى الإسلام

قضى خالد بن الوليد على المرتدين في بني أسد وبني تميم وفي ربوع اليمامة، وأعاد من بقي حيًّا من هذه القبائل إلى حمى الدين القيم. ومنازل هذه القبائل تمتد من الشمال الشرقي لبلاد العرب حتى تتاخم خليج فارس في شرقها، وهي تقع لذلك إلى شمال المدينة من الشرق، ثم تنحدر حتى الجنوب الشرقي من مكة. وقد فسح عودها إلى الإسلام رقعة الدولة التي تدين بالولاء لأبي بكر، والتي كانت حين الردة مقصورة على مثلث من الأرض رأسه المدينة وقاعدته بين مكة والطائف.

بقاء الثورة مشبوبة في الجنوب من شبه الجزيرة

ولم تكن ثورة القبائل النازلة إلى شمال المدينة بذات خطر تخشى آثاره. فلم يتحدث المؤرخون عن إصرار أهلها على الردة وقتالهم بسببها ما تحدثوا عن بني أسد أو عن اليمامة، ليس يستثنى من ذلك إلا دومة الجندل وعلى رأسها أكيدر الكندي؛ فقد أصرت دُومة وقاتلت حتى أخضعها ابن الوليد وأسر أكيدر وفرغ منه؛ وكان إخضاعه إياها في أثناء فتحه العراق. أما في الجنوب فقد بقيت الثورة على أبي بكر والردة عن الإسلام مشبوبتين، وبقي القتال ناشبًا بسببها بين جيوش المسلمين وأهل هذا الجنوب زمنًا غير مديد. وإذا قلت الجنوب قلت النصف من بلاد العرب، والنصف الذي لا يستهان به. وهذا النصف يشاطئ خليج فارس فخليج عدن فالبحر الأحمر إلى شمال اليمن، وتقع فيه ممالك البحرين فعُمَان فمَهْرة فحضرموت فكندة فاليمن. وأنت لا تستطيع أن تتخطى هذه الممالك من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق إلا أن تخترقها جميعًا. فكلها تقع تباعًا على شاطئ الخليجين والبحر الأحمر. وكلها، فيما خلا اليمن، قليلة العرض، فما بين حدودها والشاطئ أميال معدودة. أما سائر الجنوب من شبه الجزيرة مما تحيط به هذه الممالك وتفصله

عن الماء فبادية الدهناء ، هذه الصحراء المخوفة يوم ذاك ، والمخوفة إلى يومنا الحاضر ، والتي يطلق عليها اليوم اسم الرُّبع الخالي .

أما وذلك موقع هذه البلاد فمن اليسير أن تدرك ما كان بينها وبين فارس من اتصال ، وما كان بينها وبين الشمال من بلاد العرب من شُقة لا يسهل قطعها . فاجتياز الدهناء لم يكن ممكناً . والمجيء من الحجاز إلى عمان أو كندة أو حضرموت كان يقتضي السير إليها من بلاد البحرين شرقاً أو من اليمن غرباً . هذا الموقع الجغرافي لتلك البلاد جعل لبلاط كسرى من الصلة بها ، بل من السلطان فيها ، ما لم يكن له بغيرها من بلاد العرب .

سلطان فارس في البلاد الثائرة

أشرنا في غير موضع إلى أن اليمن ظلت في سلطان فارس إلى أن دخل بدهان في الإسلام ، وصار عامل النبي عليه السلام على اليمن بعد أن كان عامل كسرى عليها . وكان سلطان فارس أكثر وضوحاً في البحرين وعمان . وكان من أبناء فارس عدد عظيم استوطن البحرين وعمان وعات كلمته بين أهليهما . وكانت فارس تمد أبناءها هؤلاء بنفوذها وبقواتها كلما خشيت ثورة العرب الخلص بهم ، أو محاولة هؤلاء العرب القضاء على سلطانها في ربوعهم . ليس عجيباً إذن أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالإسلام على عهد رسول الله في عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ، ثم تكون آخر من يعود إلى الإسلام بعد حروب طاحنة تختم حروب الردة وتعيد إلى البلاد العربية وحدتها الدينية وتقيم فيها الوحدة السياسية .

وقد اختلفت الروايات متى كانت حروب الردة في هذه الأنحاء : أكانت في السنة الحادية عشرة للهجرة كما كان ما سبقها من تلك الحروب ، أم كانت في السنة الثانية عشرة . ولا غناء في الوقوف عند هذا الخلاف ؛ فالثابت أن حروب الردة اتصلت منذ بيعة أبي بكر إلى أن انتهت بلاد العرب كلها بالإذعان ، وأن بلاد الجنوب شاركت من بعد في تنفيذ سياسة أبي بكر ، قوية الإيمان صادقة العزم في الجهاد ، حريصة على الظفر والاستشهاد حرص السابقين الأولين من أصحاب رسول الله .

لا مفر ، وموقع البلاد الجغرافي ما رأيت ، أن يبدأ المسلمون للقضاء على الردة

فيها بالسير من البحرين إلى عمان فمهرة حتى اليمن ، أو من اليمن إلى كندة فحضرموت حتى البحرين . وقد آثروا أن يبدءوا بالبحرين ، لأنها كانت تجاور اليمامة ، فكان انتصارهم فى موقعة عقرباء ذا أثر فيها . ثم إنها كانت أيسر من اليمن أمراً ، فكان البدء بها أدنى إلى فوز يجر وراءه فوزاً مثله فى جميع البلاد التى تجاورها .

* * *

قتال المرتدين بالبحرين

مع ذلك لم يكن المجهود الذى بذله المسلمون للقضاء على الردة بالبحرين يسيراً . والبحرين شقة ضيقة من الأرض تشاطئ مع هجر خليج فارس ، وتمتد من القطيف إلى عمان . والصحراء فى بعض أنحائها تكاد تتصل بماء الخليج ، وهى تتصل باليمامة فى جزئها الأعلى ، لا يفصل بينهما إلا سلسلة من التلال يهون انخفاضها اجتيازها . وكان بنو بكر وبنو عبد القيس من قبائل ربيعة يقيمون بالبحرين وهجر وكان يقيم بهامعهم جماعة من التجار جاءوا من الهند وفارس وتوطنوا الثغور من مصب الفرات إلى عدن . وقد تزاوج هؤلاء مع أبناء البلاد فاستولدوا بها طائفة ذعيت الأبناء . وكان ملك هذه الأنحاء ، المنذر بن ساوى العبدى ، نصرانياً دان بالإسلام حين دعاه إليه العلاء بن الحضرمى رسول النبى إلى أهل البحرين فى السنة التاسعة من الهجرة . وقد ظل المنذر ملكاً على قومه بعد إسلامه ، فكان يدعوهم إلى دين الله كما كان يدعوهم إليه الجارود بن المعلى العبدى . وكان الجارود قدم على النبى بالمدينة فأسلم وفقه الدين ، وعاد إلى قومه يدعوهم إلى دين الحق ويفقههم فيه .

بدء الردة فى البحرين

مات المنذر بن ساوى فى الشهر الذى مات فيه النبى ، فارتد أهل البحرين جميعاً عن الإسلام ، كما ارتد غيرهم من سائر أنحاء شبه الجزيرة . وأدت ردتهم إلى فرار العلاء بن الحضرمى من البحرين ، كما فر غيره من رسل النبى فى البلاد التى ارتدت . لكن الجارود العبدى أصر على إسلامه ، وقام فى قومه بنى عبد القيس يسألهم عن سبب ردتهم . قالوا : لو كان محمد نبياً لما مات . فقال لهم : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ، فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا . قال الجارود : إن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ،

وأن محمداً عبده ورسوله . فشهد قومه كشهادته وعادوا إلى إسلامهم وثبتوا عليه .

لم يثن رجوع بنى عبد القيس إلى الإسلام سائر أهل البحرين عن ردتهم ، بل اجتمع الذين أصروا على الردة بزعامة الحُطَم بن ضُبيعة أخى بنى قيس بن ثعلبة ، فردوا الملك فى آل المنذر ، وملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر ، وكان يسمى الغَرُور . ثم إنهم حاولوا أن يصرفوا الجارود والذين معه عن إسلامهم فذهبت محاولتهم سدى . عند ذلك خرج الحطم حتى نزل القطيف وهجر واستغوى من بهما من الأبناء ، كما ضم إليه من لم يكن دخل فى الإسلام من قبل ، وحاصر الجارود ومن معه فى ناحية جُواثَى ، مؤيداً من فارس وبلاطها . ولقد ألح عليهم فى الحصار حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون . مع هذا لم يرجع عن إسلامه منهم أحد، وهانت عليهم الحياة فى سبيل دينهم الحق .

أبو بكر يرد العلاء بن الحضرمى لمحاربة المرتدين بالبحرين

وفيما هم كذلك كان أبو بكر قد رد العلاء بن الحضرمى إلى البحرين على رأس لواء من الألوية الإحدى عشر لقتال المرتدين فيها . ولم يذهب العلاء إليها حتى كان خالد بن الوليد قد قضى على مسيلمة وأتباعه . لذلك أسرع من عاد إلى الإسلام من بنى حنيفة ينضمون إلى العلاء حين مر باليمامة . لحق به ثُمَامة ابن أثال فى المسلمين من قومه ، وقيس بن عاصم المِنقرىّ كذلك ، كما جاء كثير من أهل اليمن ومن سائر القبائل التى شعرت بقوة المسلمين وبأن سلطانهم لا محالة عائد كما كان . ولا عجب ! فذلك شأن الناس فى كل أمة وعصر ، يتبعون القوة لأنهم يحسبون أن الحق يدعمها كما تدعمه ، ويرون أنها لا تستطيع أن تقوم وحدها إذا كان أساسها الجور والظلم. ولقد كان قيس بن عاصم ، قبل أن ينضم مع قومه إلى العلاء ، فيمن منعوا الزكاة وردوا الصدقات إلى الناس. فلما مر العلاء باليمامة بعد انتصار خالد ، عاد قيس فجمع الصدقات وساقها إليه ، ونزع عن الأمر الذى كان همّ به وخرج معه إلى قتال أهل البحرين .

قصة الدهناء وآية الله فيها

وانحدر العلاء بمن معه من الجند ، وسلك بهم مفاوز الدهناء إلى غايته . فلما جن الليل أمر الناس بالنزول حتى لا يضلوا فى تيه الصحراء . فلما نزلوا

نفرت إبلهم وتفرقت فى الصحراء بما عليها من الزاد والماء ، ولم يجد الجند ما يقتاتون منه أو يطفئون به ظمأهم . هنالك ركبهم من الهم ما ركبهم ، وأيقنوا الموت ، فأوصى بعضهم إلى بعض . وتحدث إليهم العلاء فقال : « ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم ! ! » . وأجاب الناس : « كيف نُلاَم ونحن إن بلغنا غداً لم تَحْمَ شمسه حتى نصير حديثاً ! » . وردَ عليهم العلاء ممتلىء القلب إيماناً يقول : « أيها الناس ، لا تُراعوا ! ألستم مسلمين ! ألستم فى سبيل الله ! ألستم أنصار الله ! » . قالوا : « بلى » ! قال : « فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم ! » .

وهنا تجرى الرواية بأنهم بعد أن صلوا الفجر نَصِبوا فى الدعاء ، حتى إذا بزغت الشمس لمع لهم سراب ثم آخر ثم ثالث قال رائدهم : إنه الماء ؛ فمشوا حتى نزلوا عليه فشربوا واغتسلوا ونالوا منه ما شاءوا . وتعالى النهار ، فإذا إبلهم تعود إليهم من كل صوب وتبرك ؛ فقام كل رجل إلى رحْله فركبه . ثم إن أبا هريرة وصاحباً له من أهدى العرب بهذه البلاد كرًّا راجعين إلى المكان الذى كان به الماء فإذا هو لا غدير به ولا أثر للماء فيه . وقال الذى له علم بهذه الأنحاء إنه يعرف هذا المكان وإنه لم ير به ماء ناقعاً قبل اليوم . ومن ثم قيل إنما كان ذلك من آيات الله . وإن الماء إنما كان مناً من الله .

المسلمون والمرتدون يتراوحون للقتال

ويبدى بعض المستشرقين الشك فى هذه الرواية . وسواء أكان لهذا الشك موضع أم لم يكن ، فقد ارتحل العلاء وجيشه إبلهم وتابعوا السير حتى بلغوا البحرين . وأرسل العلاء إلى الجارود يشد من عزيمته وعزيمة من معه ، ووقف هو من الحُطَم موقف المتأهب للقتال . ولكنه رأى المرتدين فى عدد وعدّة يجعلان المواجهة والهجوم عسيرين ؛ لذلك خندق المسلمون وخندق المرتدون ، وجعلوا يتراوحون القتال ثم يرجعون إلى خنادقهم . وأقاموا كذلك شهراً لا يدرى أيهم ما يكون المصير . وإنهم لكذلك إذ لاحت للمسلمين ذات ليلة فرصة غنموها ، فكانت القاضية على خصومهم قضاء حاسماً .

كيف قضى المسلمون على خصومهم

ذلك أنهم سمعوا فى عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال . فبعث العلاء من قص له الخبر ، وعرف أن القوم أمعنوا تلك الليلة

فى الشراب ، وأنهم سكارى لا يملك أحدهم دفعاً عن نفسه . عند ذلك خرج المسلمون من خنادقهم واقتحموا عليهم عسكرهم ووضعوا السيوف فيهم. وجعلوا يقتلون منهم كل من أصابوا . وفرّ المرتدون هرباً ، فإذا هم بين متردٍ فى الخندق، ودهِشٍ مقتول ، ومأسور ، وناج لا يعرف لنفسه مستقرّاً . ومرَّ قيس بن عاصم على الحُطَم ملقى على الأرض فقتله . وأسر عفيف بن المنذر الغرُور ، فقال له العلاء : أنت غررت هؤلاء ! فأسلم الغرور وهو يقول : إنى لست بالغرور ، ولكنى المغرور ! وعفا العلاء عنه .

وفرّ الذين نجوا من الموت أو الأسر ، وركبوا الشراع إلى جزيرة دارين ، فتركهم العلاء بها ريثما جاءته الكتب تنبئه بأن من بقى بالبحرين من القبائل قد فاءوا إلى أمر الله . وكان جيشه قد ازداد عدده بمن انضم إليه من أهل البلاد ومن الأبناء الذين بها . عند ذلك أمر الناس بالذهاب إلى دارين حتى لا يُبقى لمرتد فى الأرض ملجأ .

اقتحام البحر إلى دارين والقضاء على الردة فيها

ودارين جزيرة من جزر الخليج الفارسى ، تواجه البحرين ، كان بها أديار خمسة لخمس شُعبٍ من النصارى . وتجرى الرواية بأن العلاء لما أمر المسلمين بالذهاب إليها لم يكن لديهم سفن يركبون البحر عليها ، فنهض فيهم فقال : « قد أراكم الله من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر ؛ فانهضوا إلى عدوكم ، ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم » . وأجابه قومه : « نفعل ، ولا نهاب بعد الدهناء والله هولاً ما بقينا ! » وارتحلوا ، حتى إذا أتوا ساحل البحر اقتحموا على الخيل والبغال والحمير والجمال ودعوا الله ، فاجتازوا البوغاز يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل . أفكان ذلك ساعة جزر الخليج الفارسى ، أم فى الرواية مبالغة وأن الأبناء الذين انضموا إلى المسلمين أعاروهم سفناً عبروا البحر عليها ؟ لم تجر الرواية بهذا التصوير الأخير وإن كان فى رأى بعض المؤرخين محتملا . وأيّاً ما يكن الأمر ، فقد بلغ المسلمون دارين والتقوا فيها بالفارين فقاتلوهم أشد القتال ، حتى أتوا عليهم لم يتركوا منهم مخبراً ، وسبوا الذرارى وساقوا الأموال التى بلغت كثرتها حدّاً جعل نَفَلَ

الفارس ستة آلاف والراجل ألفين[١] .

وعاد العلاء بن الحضرمى إلى البحرين ، وعاد الناس معه إلا من أحب المقام . وكتب العلاء إلى أبى بكر بنصره ، وأقام بالبحرين وقد قضى على الردة فيها . من ثم لم يكن يخشى شيئاً إلا غارة قبائل البادية التى ألفت الغزو للسلب . ودسائس الفرس الذين تقلص نفوذهم فى جنوب شبه الجزيرة . على أنه كان مطمئناً من هذه الناحية إذ انضم إليه قبل ذهابه إلى دارين من قبائل البحرين ومن الأبناء من كفوه مئونة ما يخشى . وكان عُتيبة بن النَّهاس والمثنى ابن حارثة الشيبانى على رأس المنضمين إليه . وقد قعدوا بكل طريق للمنهزمين والذين يعيثون فى الأرض فساداً . بل لقد تابع المثنى السير على شاطئ الخليج الفارسى يقاوم دسائس الفرس ويقضى على أنصارهم من القبائل ومن الأبناء حتى بلغ مصب الفُرات . فكان لبلوغه هذا المصب ولاتصاله بأرض العراق ولدعوته إلى الإسلام هناك أثر لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان المقدمة لفتح العراق .

المثنى يستبرىء الأرض ويصل إلى العراق

* * *

قتال المرتدين فى عمان

لسنا نسبق الحوادث بالكلام عن هذا الفتح . وما لنا نفعل وعمان تجاور البحرين ، وشأن الردة فيها ليس أقل استغلاظاً منه فى غيرها ! فلنُتابع جيوش المسلمين إليها حتى تثوب وتنيب هى كذلك .

وكانت عمان على عهد النبى تابعة لفارس . وكان جيْفرٌ أميراً عليها ، وقد بعث النبىُّ إليه عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام . ولما أبدى جيفر مخافته أن يتمرد قومه على الزكاة يدفعونها إلى المدينة ، اتفق عمرو معه على أن تقسم بين فقراء بلاده . وأقام عمرو بين القوم ، حتى إذا ارتدوا إثر وفاة النبى فرّ عائداً إلى المدينة . وفر جيفر إلى الجبال فاعتصم بها .

وكان قائد الثورة بالردة فى عمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدىّ . وقد ادعى من النبوة ما ادعى غيره . وكان أبو بكر قد وجه حُذيفة بن مِحْصن

(١) تجرى رواية أخرى بأن العلاء لم يذهب بالمسلمين إلى دارين فى هذه الحرب ، وأن دارين بقيت فى عزلتها لم تعد إلى الإسلام وإلى حكومة شبه الجزيرة إلا فى عهد عمر بن الخطاب .

الغلفانى من حمير إلى عمان ووجه عرفجة بن هرثمة البارق من الأزد إلى مهرة . وأمرهما أن يسيرا معـًا وأن يبدءا بعُمان فتكون القيادة فيها لحُذيفة ، وأن يُثنّيا بمهرة فتكون القيادة فيها لعرفجة .

وأنت تذكر أن عكرمة بن أبى جهل كانت وجهته اليمامة . وأنه لم ينتظر شُرحبيل بن حسَنة يعاونه ، بل أسرع بلقاء مسيلمة ليعود بفخار النصر فردّه مسيلمة هزيمًا . وأنت تذكر كذلك أن أبا بكر أبى على عكرمة أن يعود إلى المدينة . وأمره أن يلحق بعمان يعين حذيفة وعرفجة على أهلها . وقد أبلغ أبو بكر هذا الأمر إلى هذين القائدين ، وعهد إليهما أن ينتهيا إلى رأى عكرمة. وأسرع عكرمة فأدرك القائدين قبل أن يبلغا عمان ، وتشاور وإياهما ، فراسلوا جيفراً وأخاه عبّادا[1] حيث كانا معتصمين ، وطلبوا إليهما أن ينضما مع أصحابهما إليهم .

كيف حالف المسلمين النصر فى عمان

وبلغ لقيطا مجىء المسلمين فجمع جموعه وعسكر بدبـَا . وخرج جيفر وعباد ومن معهما إلى صُحار وبعثا إلى عكرمة وصاحبيه فقدموا عليهم بها . والتقى الجيشان بدبا فى معركة حامية الوطيس كاد الظفر يتوّج فيها لقيطا وأصحابه . وإنهم لكذلك ، وإن المسلمين ليضطربون ويتمشى الخلل فى صفوفهم ، إذ أقبل عليهم مدد عظيم من بنى عبد القيس ومن غيرهم من قبائل البحرين حمَى ظهرهم وشد أزرهم وضاعف قوتهم ودفعهم يهاجمون لقيطا ومن معه ويركبونهم ويقتلون منهم عشرة آلاف ، ويسبون نساءهم وأبناءهم ، ويقتسمون بينهم أموالهم . بذلك تمت كلمة ربك فى عمان ، واستقر للمسلمين فيها الأمر .

وأقام حُذيفة بعمان يوطئ الأمور ويسكن الناس . وسار عرفجة إلى المدينة يسوق خُمس الغنائم إلى أبى بكر . أما عكرمة فمضى فى جيشه إلى مهْرة ليرد الأمر فيها إلى نصابه ، وليعيد إليها كلمة الإسلام .

* * *

قتال المرتدين فى مهرة

ترك عكرمة حذيفة بعمان أقصى الشرق من جنوب شبه الجزيرة ، وسار غربـًا إلى مهرة حيث ارتد الناس . سار فى جيش لجب تضاعف عدده بانضمام

---

(١) فى الكامل لابن الأثير : « عباذ » .

رجال القبائل التى عادت إلى الإسلام بعد أن بهرهم نصره . وبلغ مهرة فألفى جمعين مختلفين يدعو كلٌ منهما الآخر أن يذعن لرياسته . وقد اختار عكرمة أضعف الجمعين وأقلهما عدداً ، فدعاهم للرجوع إلى الإسلام فأسرعوا إلى دعوته . وخرج عكرمة فى جيشه وفيمن رجع إلى الحق من أهل مهرة ، فلقوا الجمع الآخر واقتتلوا أشد من قتال دبا ، وانتصر المسلمون فقتلوا وأسروا وغنموا ؛ وكان فيما غنموا ألفا نجيبة . وبعث عكرمة الخمس إلى أبى بكر مع رئيس الجمع الذى حالفه ، ثم أقام زمناً لتسكين الناس . فلما سكنوا واطمأن الأمن وعاد النظام ، خرج فى جيشه الذى ازداد كرّة أخرى أضعافاً مضاعفة بمن انضم إليه من أهل مهرة ، وسار يلقى المهاجر بن أبى أمية المخزومى تنفيذاً لأمر الخليفة حتى يتعاون معه على رد الأمر إلى الإسلام فى اليمن وفى حضرموت .

* * *

قتال المرتدين فى اليمن

ترى أيسير عكرمة من مهره إلى حضرموت وكندة ؟ ذلك أدنى إلى التصور . فحضرموت تجاور مهرة وتتاخمها . لكن المهاجر بن أبى أمية كان ينحدر من الشمال إلى اليمن ؛ فلم يكن لعكرمة بدٌ من أن يسرع ليلقاه بها . هذا إلى أن ثورة اليمن كان قد طال مداها واستفحل أمرها ، فالإسراع بالقضاء عليها يهون القضاء على من بقى بكندة وحضرموت من المرتدين .

العوامل التى أدت إلى اشتداد الثورة فى اليمن

وقد تحدثنا فيما سلف عن ثورة الأسود العنسى فى اليمن ، وعن ادعائه النبوة وخروجه إلى صنعاء ، وعن انتشار أمره كالحريق حتى بلغ مكة والطائف ، ثم عن قتله غيلة فى مؤامرة اشتركت فيها زوجه آزاد التى كانت قبله تحت شهر بن بازان ملك صنعاء . وقد جرت الروايات بأن قتل الأسود انتهى إلى المدينة يوم مات النبى ، فأقام أبو بكر فيروز حاكماً لليمن . لكن ذيوع النبأ بموت النبى بعد قليل أعاد الثورة فيها أشد مما كانت ، وتضافرت عوامل كثيرة زادت هذه الثورة ضراماً واستعارا .

العامل الأول: تفرق السلطة

أول هذه العوامل تفرُّق السلطة فى هذه الأنحاء تفرقاً أضعفها ؛ فقد مات بازان ووزِّعت السلطة فى اليمن بين ابنه شهر بصنعاء وجماعة من المسلمين

بنجران وهمـــدان وغيرهما ، فكان ذلك مما شجع العنسي على الانتقاض والثورة . وكان الأمر في شمال اليمن إلى مكة كأمر اليمن في تفرق السلطة ، فكان لتهامة مما يحاذي البحر حاكم ، وللداخل في مختلف القبائل حكام متفرقون . وكان طبيعيًّا بعد أن أخفقت ثورة الأسود أن يحاول كل واحد من هؤلاء الحكام العود إلى إمارته واسترداد السلطان فيها ، وأن يقاتل في سبيل ذلك ما أطاق القتال . وكان طبيعيًّا كذلك ألا يهدأ أنصار الأسود العنسي وأن يعملوا جهدهم ليثيروا الأرض ، لعل الأمر يعود إليهم كما كان للأسود . أما وقد مات النبي وانتشرت في بلاد العرب كلها فكرة الردة . وصح لكل قبيلة ولكل فخذ من قبيلة أن يطمع في استقلاله القديم ، فقد بلغ الاضطراب غايته في اليمن وما حولها من البلاد التي كانت مسرحاً لنشاط العنسي وأنصاره .

نشاط ثوار اليمن بعد مقتل العنسي

والذي حدث أن هؤلاء الأنصار لم تهدأ بموت العنسي ثائرتهم ، بل جعل فرسانهم يجوبون البلاد فيما بين نجران وصنعاء ، لا يأوون إلى أحد ، ولا يأوي إليهم أحد . وكان عمرو بن معدي كرب البطل الشاعر صاحب الصمصامة ممن انتهزوا هذه الفرصة ، فحاول اقتناص السلطان من طريق الثورة ، كما حاول اقتناصه أيام العنسي بالانضمام إليه . وقام قيس بن عبد يغوث من ناحيته ، وكان على رأس من ائتمروا بقتل العنسي ، فطرد فيروز عن الملك وطرد معه داذويه . بذلك عم الاضطراب ، وتعذر رد السكينة والأمن إلى هذه الأرجاء .

كيف السبيل إلى معالجة هذه الحال ؟ ! إن أول ما يجب عمله تأمين الطريق بين المدينة واليمن . وقد قامت قبائل عكّ وبعض الأشعريين على هذا الطريق الذي يساحل البحر فقطعوه مستعينين بمن انضم إليهم من الأوزاع . وأقرب مدن المسلمين إلى هذا الطريق الطائف . لذلك كتب حاكمها الطاهر ابن أبي هالة إلى أبي بكر ، وسار إليهم في جند قوي ، واصطحب معه مسروقاً الكلبيّ ؛ فلما لقيهم أكثر القتل فيهم ، حتى قيل إن الطريق تعطل بجثثهم . وكتب أبو بكر إلى الطاهر قبل أن يأتيه نبأ هذا الفتح يشجعه ومن معه على القتال

ويأمرهم أن يقيموا بالأعلاب[1] ، حتى يأمن طريق الأخابث . ومن يومئذ سميت جموع عك هذه جموع الأخابث ، وظل هذا الطريق يسمى طريق الأخابث زمناً طويلا .

العامل الثانى: الخلاف فى الجنس

أما العامل الثانى الذى زاد الثورة فى اليمن استعاراً فالخلاف فى الجنس . فقد أقام أبو بكر فيروز على صنعاء مقام شهْر حين قتل ذو الحمار . وكان شركاء فيروز فى المؤامرة بقتل الأسود داذويه الذى كان وزيراً معه لشهر ، وجِشْنَس صاحبهما ، وقيس بن عبد يغوث قائد الجند . وكان فيروز وجشنس من الفرس ، وكان قيس عربياً من حمْيَر اليمن . لذلك نفس قيس على فيروز أن أسند أبو بكر إليه الأمر من دونه وعزم قتله .

لكنه رأى حين أنعم النظر أن قتل فيروز قمين أن يجر إلى فتنة يقاومه فيها الأبناء جميعًا . والأبناء هم طائفة الفرس التى استقرت باليمن منذ حكمها الأكاسرة . وقد كبُرت هذه الطائفة وعلت مكانتها أن كان الحكام منها . فإذا لم يستنفر قيس عرب اليمن جميعاً للقضاء على الفرس جميعاً كان حرياً أن يصيبه ما أصاب الأسود من الإخفاق ، وأن يفقد حياته كما فقد الأسود حياته .

قيس بن عبد يغوث يريد اليمن لعرب اليمن

لذلك كتب إلى ذى الكَلاع الحميرى وأضرابه من زعماء العرب باليمن يقول : « إن الأبناء نُزّاع فى بلادكم ، فضلاء فيكم . وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم . وقد أرى من الرأى أن أقتل رءوسهم وأن أخرجهم من بلادنا فتبرءوا » . لكن ذا الكلاع وأصحابه لم يمالئوه ولم ينصروا الأبناء . بل اعتزلوا وأبلغوا قيساً يقولون : « لسنا من هذا فى شىء . أنت صاحبهم وهم أصحابك » . ولعلهم كانوا يمالئون قيساً وينصرونه على الأبناء لولا أنهم رأوا أبا بكر والمسلمين يمالئون هؤلاء ويكلون الأمر إليهم . ورأوا الأبناء يحتفظون بإسلامهم وبالولاء لأبى بكر وسلطان المدينة . ما لهم إذن والخلاف لا يدرى أحد ما تكون نتائجه ، وبخاصة بعد أن سرت الردة فى اليمن فأصبحت معرضة

---

(١) الأعلاب : أرض لبنى عك بن عدنان بين مكة والساحل .

لجيوش المسلمين ، وبعد أن تجاوبت أرجاء شبه الجزيرة جميعاً بنبأ هذه الجيوش وبسير النصر فى ركابها !

لم يثن قيساً عن عزمه قعود ذى الكلاع وأصحابه عن نصرته ، بل كاتب العصابات التى كانت مع الأسود سراً ، والتى كانت تصعد فى البلاد وتصوب محاربة جميع من خالفهم ، وطلب إليهم أن ينضموا إليه ليكون أمره وأمرهم واحداً ، وليجتمعوا على نفى الأبناء من بلاد اليمن . ولم يكن فى ريب من إجابة هذه العصابات طلِبته . أو لم تكن طلِبة الأسود وعلى أساسها انتصر ! ! وكتبت العصابات بالاستجابة إليه، وأخبروه أنهم إليه سراع . ولما كان ذلك كله قد حدث سراً فقد فجأ صنعاء خبر دنو هذه العصابات منها ، فاجتمع أهلها يتشاورون ماذا يصنعون .

وأسرع قيس إلى فيروز ، وكأنما فجأه الخبر فأزعجه ، واستشاره واستشار داذويه ليخدعهما ولئلا يتهماه ، ودعاهما فى الغد ودعا جشنس معهما إلى طعام الغذاء . وأقبل داذويه قبل صاحبيه ،فلم يلبث حين دخل على قيس أن عاجله فقتله . أما فيروز فجاء بعد صاحبه فسمع الهمس بأصحابه ففر يركض . ولقيه جشنس فى طريقه فركض معه يطلبان النجاة . وركضت خيل قيس تلاحقهما فلم تدركهما ؛ فعادت أدراجها تستنزل غضب قيس عليها . وبلغ الفارسان جبل خولان منزل أخوال فيروز ، لا يكادان يصدقان أنهما صارا من الهلاك بمنجاة .

قيس يقتل داذويه ويحكم صنعاء حكماً عربياً

وثار قيس بصنعاء فدانت واطمأن له الأمر فيها ، كما اطمأن للأسود من قبل ولم يدُر بخاطره أن أحداً سيقدر عليه فينزله عن عرشه . بلغه أن فيروز يزعم أنه سيستعين أبا بكر ويهاجم قيساً بقوة من بنى خولان ، فسخر وقال : « وما خولان ! وما فيروز ! وما قرار أووا إليه ! » . وانضم إليه عوام القبائل من عرب حمير وإن بقى الرؤساء فى عزلتهم . وإذ أنِس فى نفسه القوة عمد إلى الأبناء ففرقهم ثلاث فرق ؛ فأما من أقام ولم يظهر الميل إلى فيروز فأقرهم وأقر عيالهم . وأما من فر إلى فيروز فقسم عيالهم فرقتين ، وجه إحداهما إلى عدن

ليُحملوا فى البحر ، ووجه الأخرى فى البر إلى مصب الفرات وأمر بهم أن ينفوا إلى بلادهم وألا يقيم باليمن منهم أحد .

فيروز يجلي قيساً عن صنعاء ويسترد إمارته عليها

وعرف فيروز ما أصاب بنى وطنه ، فاستنهض القبائل التى بقيت على إسلامها لينصروه . وإنما فعل ذلك ليصد بعصبية الدين نُعرة الوطن . وأجابه بنو عقيل بن ربيعة كما أجابته عكّ ، وساروا يستنقذون عيال الأبناء الذين قرر قيس نفيهم . وخرج فيروز على رأسهم ، فرد أبناء فارس ، والتقى بقيس دون صنعاء فأجلاه عنها ، وعاد أميراً عليها من قِبل خليفة المسلمين . وخرج قيس هاربًا فى جنده ، وعاد إلى المكان الذى كانوا به حين مقتل العنسىّ ، فقضى بفراره على الفكرة القومية التى كانت أساس دعوته . وقد عزز أبو بكر مكانة فيروز إذ بعث إليه طاهر بن أبى هالة فى جيشه فأقام إلى جواره .

لكن انتصار فيروز وعوده إلى الإمارة لم يوطد السلم ولم يُعد الأمن فيما وراء صنعاء من ربوع اليمن ؛ فقد بقى المرتدون بها أشد ما يكونون تحمسًا لردتهم .

العامل الثالث : الخصومة القديمة بين الحجاز واليمن

وهنا موضع الكلام عن العامل الثالث من العوامل التى زادت الثورة فى هذه الأرجاء استعاراً . فلم تنس اليمن يومًا ما كان بينها وبين الحجاز من تنافس جعل لها أغلب الأمر الكلمة العليا . ولم تقم بين اليمن والحجاز فى عهد الرسول حروب تنكس نتائجها رءوس بنى حمير . ولئن دوّى فى أنحاء اليمن نصر خالد وعكرمة على قبائل العرب وملوكهم ، لقد كان فى عشائر اليمن من الأبطال والقواد من تفاخر بهم هذين البطلين الحجازيين ، ومن تهتز لسماع أسمائهم صناديد العرب فرقًا . وحسبك من هؤلاء عمرو بن معدى كرب صاحب الصمصامة . لقد كان فارس بنى زبيد وحاميهم ، إذا ذكر اسمه فزع الأبطال وهابوا لقاءه ؛ وكان له من بعد فى وقائع الفتح الإسلامى على عهد عمر بن الخطاب مواقف لايزال التاريخ يذكرها . ولم يغير تقدم سنه يومذاك من شدة بأسه . شهد غزوة القادسية وقد جاوز حد المائة فكان له فيها بلاء أحسن البلاء .

قام عمرو بالثورة مع من تابعه ، وانضم إليه قيس بن عبد يغوث ، وتضافر الرجلان يعيثان فى أنحاء البلاد فساداً ، ويجدان من أهلها عونًا ومدداً ، لم يند

منها غير نجران التى ثبتت بمن فيها من النصارى على عهدها لمحمد ، ثم أكدت نياتها بتجديد هذا العهد مع أبى بكر .

أفيذر المسلمون اليمن وذلك شأنها يعيث بها هذان الثائران ومن سار سيرتهم ، حتى يأكل بعضها بعضاً وتأكل الثورة أبناءها ؟ كلا ! بل سار عكرمة ابن أبى جهل من مهرة إلى اليمن حتى ورد أبْيَن فى جيشه اللجب زاده المنضمون من مهرة عدداً وعدة . وسار المهاجر بن أبى أمية منحدراً من المدينة إلى الجنوب ماراً بمكة والطائف ، فى اللواء الذى عقده أبو بكر له . والذى تأخر عن السير بضعة أشهر لمرضه . وقد اتبعه من مكة والطائف ونجران رجال لهم فى الحروب دُرْبة وشهرة . فلما سمع أهل اليمن بمقدم هذين القائدين ، عكرمة والمهاجر ، وبأن المهاجر قتل قوماً حاولوا مقاومته . أيقنوا أن ثورتهم مقضى عليها لا محالة ، وأنهم إن قاتلوا قُتلوا وأسروا ولم تغن عنهم المقاومة شيئاً . وقد بلغ بهم الأمر أن اختلف قيس وعمرو بن معدى كرب وتهاجيا وأضمر كل لصاحبه الغدر . وذلك بعد أن كانا متحالفين على لقاء المهاجر وقتاله . وأراد عمرو أن ينجو بنفسه . فهاجم قيساً ذات ليلة وأخذه إلى المهاجر أسيراً . عند ذلك قبض المهاجر عليهما جميعاً وبعث بهما إلى أبى بكر ليرى فيهما رأيه .

مسيرة عكرمة بن أبى جهل من مهرة إلى اليمن وانحدار المهاجر بن أبى أمية من المدينة إلى اليمن كذلك

وهمّ أبو بكر بقتل قيس قصاصاً لداذويه وقال له : « يا قيس . أعدوت على عباد الله تقتلهم وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين ! » . وأنكر قيس قتل داذويه ، ولم تكن عليه بينة . أن تم هذا القتل فى سرّ من الناس . لذلك تجافى أبو بكر عن دمه ولم يقتله . ونظر الصديق إلى عمرو بن معدى كرب وقال له : « وما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ! لو نصرت هذا الدين لرفعك الله ! » قال عمرو : « لا جرم لأفعلن ولن أعود » . وأخلى أبو بكر سبيلهما وردهما إلى عشائرهما .

أبو بكر يعفو عن قيس وعمرو بن معدى كرب

وسار المهاجر من نجران حتى نزل صنعاء ، وأمر جنده أن يتعقبوا العصابات المتمردة التى أثارت الفساد فى الأرض من عهد الأسود . وأن يقتلوا من ثقفوه منهم لا يقبلون منه توبة ولا إنابة . وإنما قبل توبة من أناب من غير المتمردة . أما عكرمة فقد بقى فى جنوب اليمن بعد أن استبرأ النخع وحمير . بذلك عادت

اليمن كلها آمنة مطمئنة ، ورجع أهلها إلى دين الله الحق ؛ وبذلك لم يبق من المرتدين فى شبه الجزيرة كلها إلا أهل حضرموت وكِندة .

كيف نصر أبو بكر الفرس على العرب ؟!

وقبل أن نسير مع عكرمة والمهاجر للقاء المرتدين فيهما ندفع شبهة قد ترد إلى بعض النفوس حين يذكرون ما حدث باليمن . فكيف نصر أبو بكر الفرس على العرب فيها ؟ وكيف ناصر فيروز ومن معه على قيس ومن اتبعه ؟ ودفع هذه الشبهة يسير . فأنت تعلم أن الإسلام لا يرى فرقًا بين عربى وعجمى إلا بالتقوى . وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم . على أن ذلك لم يكن وحده الذى دعا أبا بكر لنصرة فيروز . بل دعاه لنصرته كذلك أن الفرس أول من أسلم باليمن ، والسابقة فى الإسلام لها قدرها . ثم إن العرب من أهل تلك البلاد هم الذين قاموا بالثورة على الدين الجديد . قام بها الأسود العنسى مدعيًا النبوّة فى عهد الرسول ، وقام بها أنصار الأسود من بعده . وفى جملتهم عمرو بن معدى كرب ثم قيس بن عبد يغوث . وبازان وشهر وفيروز والفرس من حولهم هم الذين قاموا بالدعوة للإسلام فى هذه الربوع . وهم الذين استمسكوا به وقاوموا خصومه . وهم الذين أقاموا على الولاء لسلطان المدينة والخليفة رسول الله حين ارتدت العرب كلها وتضرمت الأرض فى شبه الجزيرة نارًا . فلا عجب إذًا أن يؤيد أبو بكر فيروز بسلطانه . وأن يمده بجنده وقواده ، وأن يقيمه أميرًا على صنعاء . كما أقام النبى شهرًا أميرًا عليها . وكما أقام أباه بازان أميرًا على اليمن كلها من قبله .

* * *

قتال المرتدين فى كندة وحضرموت

والآن فلنخط الخطوة الأخيرة فى حروب الردة ، ولننتقل مع المهاجر وعكرمة إلى كندة وإلى حضرموت .

ونذكر تمهيدًا لذلك أن رسول الله قُبض وعمّاله على هذه البلاد: زياد ابن لبيد على حضرموت ، وعكاشة بن مِحْصن على السَّكاسِك والسكُون ، والمهاجر بن أبى أمية على كِندة . وقد رأيت أن المهاجر كان مريضًا بالمدينة فلم يخرج إلى عمله بكندة ولا خرج فى لوائه إلى المرتدين باليمن إلا بعد أشهر من وفاة الرسول . لذلك أناب عنه زياد بن لبيد فى عمله منذ استعمله الرسول على كندة إلى أن خرج فى جيشه إلى اليمن .

كيف تولى المهاجر ابن أبى أمية أمر كندة

وقصة تولية المهاجر أمر كندة طريفة ؛ فقد كان أخا أمّ سَلمة زوج رسول الله أمّ المؤمنين ، وقد تخلف مع ذلك عن الخروج مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك . وغضب رسول الله لتخلفه وأقام زمناً عاتباً عليه . وحزّ فى نفس أم سلمة أنها لم تُفلح فى استرضاء زوجها عنه . وإنها يوماً لتغسل للنبى رأسه وتحدثه ويتلطف بها إذ قالت له : كيف ينفعنى شىء وأنت عاتب على أخى ! ورأت منه رقة فدعت أخاها ، فلم يزل برسول الله ينشر عذره حتى رضى عنه وأمّره على كندة . وقام زياد فى الإمارة مقامه حتى ذهب إليه فى خلافة أبى بكر .

سياسة زياد بن لبيد وصرامتها

وكانت كندة لمجاورتها اليمن قد استجابت لدعوة الأسود العنسى أول ما قام بها . لذلك أمر رسول الله أن توزع بعض صدقات كندة فى حضرموت وبعض صدقات حضرموت فى كندة . واشتد زياد فى اقتضاء هذه الصدقات شدة أثارت الخواطر . ولقد استطاع أن يغلب على المتذمرين فى كندة بمن ناصره من رجال السَّكون الذين حافظوا على إسلامهم وعلى ولائهم فلم يخرج عليه منهم أحد . فلما مات النبى وفشت الردة فى العرب ، أراد زياد قمعها قبل أن يستفحل فى إمارته أمرها . وشجعه على ما أراد أن التفّت حوله القبائل التى بقيت على إسلامها ودفعوه لمقاتلة المتمردين عليه . وهاجم زياد بنى عمرو بن معاوية فى غفلة منهم فقتل رجالهم وسبى نساءهم . وسار بهن وبالأموال فى طريق يفضى إلى عسكر الأشعث بن قيس زعيم كندة . وكان بين أولئك النسوة ذوات مكانة فى قومهن لم يعرفن قبل ذلك اليوم إلا العزة والكرامة . فلما مررن بالأشعث نادين منتحبات : « يا أشعث ، يا أشعث ! خالاتك ، خالاتك ! » ، هنالك ثار فى عروق الأشعث دمه ، وأقسم لينقذهن أو يموت دونهن .

وكان الأشعث زعيماً قوياً محبوباً من قومه عظيم المكانة فيهم . ولعلك تذكر أنه ذهب عام الوفود إلى المدينة ، فلقى رسول الله بها على رأس ثمانين رجلا من كندة قد لبسوا كلهم الحرير ، وأنه أسلم وخطب إلى أبى بكر أخته أمّ فروة ، فعقد أبو بكر الزواج ثم تأجل تنفيذه حتى يطمئن أهل العروس إلى فراقها . لا عجب وهذه مكانته أن يغضب قومه لغضبه ، وأن يخرجوا

الأشعث بن قيس يقاتل زياداً

مقاتلين معه . وقد خرجوا وقاتلوا زياداً واستردوا السبي وردوا إليهن عزتهن وكرامتهن .

من يومئذ أثارها الأشعث في كندة وحضرموت ضروساً شعواء ، حتى خاف زياد مغبتها ، فكتب إلى المهاجر بن أبي أمية يستنصره . وكان المهاجر قد انحدر من اليمن ، كما انحدر منها عكرمة ، للقضاء على ما بقي من الردة في شبه الجزيرة ، وسار المهاجر من صنعاء ، وسار عكرمة من اليمن وعدن ، والتقيا بمأرب ، وقطعا معاً مفازة صيهد . وعرف المهاجر ما أصاب زياداً ، فاستخلف عكرمة على الجيش . وتعجل في كتيبة سريعة ، حتى إذا التقى بجيش زياد هاجم الأشعث فهزمه وقتل رجاله . وفر الأشعث والناجون معه فالتجئوا إلى حصن النُجَيْر .

عكرمة والمهاجر يلتقيان بمأرب

كانت النجير مدينة منيعة ليس من اليسير أخذها عنوة . وكان لها ثلاثة سُبل تتصل عن طريقها بما وراء الحصن . فجاء زياد فنزل على أحدها ، ونزل المهاجر على الثاني ، وظل الثالث مفتوحاً لأهل الحصن يجيء إليهم منه المدد . على أن عكرمة قدم في جيشه فنزل على ذلك الطريق فقطع عنهم الميرة ورد الرجال . ولم يكتف بهذا ، بل بعث فرقاً من الفرسان تفرقت في كندة إلى الساحل وجعلت تمعن في الناس قتلا . ورأى المتحصنون بالنجير ما لقي قومهم ، فقال بعضهم لبعض : « الموت خير مما أنتم فيه . جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبوئتم بنعمته ، لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة » . وجز القوم نواصيهم وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض . وخرجوا حين تنفس الصبح فاقتتلوا في الطرق الثلاثة المؤدية إلى الحصن مستميتين . وما تُجدى الاستماتة وجيوش المهاجر وعكرمة لا تُغلب عدداً وبأساً ! وأيقن أهل النجير حين رأوا المدد لا ينقطع عن المسلمين أن القضاء نازل بهم لا محالة ، فتولاهم اليأس فخشعت نفوسهم وخافوا الموت . وخاف الرؤساء على أنفسهم فهانت عليهم نخوتهم ، فخرج الأشعث إلى عكرمة ليستأمن له المهاجر على نفسه وعلى تسعة معه على أن يفتح للمسلمين الحصن ويُخلي بينهم وبين من فيه . وأجابه المهاجر إلى ما طلب على أن يكتب كتاباً تكون فيه أسماء التسعة الذين يطلب

حصار حصن النجير والاستيلاء عليه

خيانة الأشعث ابن قيس

أمانتهم . وكتب الأشعث أسماء أخيه وبنى عمه وأهليهم ، ونسى أن يكتب اسمه معهم ، ثم جاء بالكتاب فختمه وتسلمه المهاجر . وسرب الأشعث التسعة من الحصن وفتح أبوابه للمسلمين ، فاقتحموه فلم يدعوا فيه مقاتلا إلا ضربوا عنقه . وسبى المسلمون النساء ممن فى النجير ، فكانت عدتهن ألف امرأة . ووضع المهاجر الحرس على الأسرى وعلى الأموال حتى يحصيهم ويبعث بالخمس إلى المدينة .

يا عجبا للحياة وتصاريفها ! فهذا الأشعث الذى ارتكب هذه الخيانة النكراء ، والذى أسلم قومه للقتل وأسلم ألف امرأة للسبى . هو هو الأشعث الذى لم يطق أن يسمع نداء خالاته نساء بنى رو بن معاوية : « يا أشعث ، يا أشعث ! خالاتك ، خالاتك ! » فخف للثأر لهن وأنقذهن من أسر زياد . والأشعث الذى ذهب إلى النبى فيما عرفت من كرامة فأكرمه المسلمون ، هو هو الأشعث الذى تدلى إلى هذا الحضيض فلعنه المسلمون ولعنه سبايا قومه وسمينه : « عُرف النار » ، وهى كلمة معناها فى لغة اليمن : الغادر . لكنه التعلق بالحياة والخوف من الموت إذا ركبا نفساً أذلاها فهانت فسقطت فيما هو شر من الموت .

ودعا المهاجر النفر الذين ذكرهم الأشعث فى كتابه فأطلق سراحهم . ولما لم يكن اسم الأشعث فى الكتاب الذى ختمه أمر به فشد وثاقه وهمَّ بقتله وقال له : « الحمد لله الذى خطأ فاك يا أشعث ! لقد كنت أشتهى أن يخزيك الله ! » على أن عكرمة بن أبى جهل تدخل فى الأمر وقال : « أخِّره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا . وإن كان رجلا نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى المخاطبة أفذاك يُبطل ذاك » ! وأخره المهاجر لا عن رضا ، وبعث به إلى أبى بكر مع السبى ، فجعلوا يلعنونه ويلعنه المسلمون طول الطريق .

أبو بكر يعفو عن الأشعث

وتحدث أبو بكر إلى الأشعث فأنبه على ما صنع ، وسأله : « ما تُرانى صانعًا بك ؟ » وأجاب الأشعث : « إنه لا علم لى برأيك وأنت أعلم به » . قال أبو بكر : « فإنى أرى قتلك » . قال الأشعث : « فإنى أنا الذى راوضت القوم فما يحل دمى » . وخشى الأشعث حين طال الحوار بينه وبين أبى بكر أن

يُقتل فقال : « أو تحتسب فىّ خيراً فتطلق أسارى وتقيلن عثرتى وتقبل إسلامى وتفعل بى مثل ما فعلته بأمثالى وترد علىّ زوجتى ؟ » وزوجته التى يتحدث عنها هى أم فروة أخت الصديق . وتردد أبو بكر هنيهة فى الإجابة ، فأردف الأشعث : « افعل تجد نى خير أهل بلادى لدين الله » . وبعد أن فكر أبو بكر فى الأمر غفر له وقبل منه ورد عليه أهله وقال : « انطلق فليبلغنى عنك خير » وأقام الأشعث مع أم فروة بالمدينة لم يبرحها إلا فى عهد عمر افتتح العراق والشام ، ثم كان له فى حروب ذلك الفتح من البلاء ما أعاد إليه اعتباره فى أعين الناس .

القضاء على الثورة فى بلاد العرب

وأقام المهاجر وعكرمة بحضرموت وكِندة حتى اطمأنت الأمور واستقر الأمن ؛ فكان ذلك آخر حروب الردة ، وكان القضاء على الثورة فى بلاد العرب ، ثم كان التوطيد لوحدتها السياسية ، وحدة استمرت بعد ذلك زمناً ثم شابتها الشوائب . ولم يكن عمل المهاجر فى القضاء على أسباب التمرد فى هذه الأرجاء بأقل شدة منه فى اليمن ؛ فقد قطع دابر المتمردين ، وأنزل أشد العقاب بالثائرين . ويكفيك مثلا يدل على أمثاله أن مغنيتين تغنت إحداهما بشتم رسول الله ، وتغنت الأخرى بهجاء المسلمين ، فقطع المهاجر يديهما ونزع ثناياهما . وقد كتب إليه أبو بكر يكشف له عن خطئه فيما صنع ، ويذكر أنه كان الأولى به أن يقتل الأولى لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود ، وأن يصفح عن الثانية إن كانت ذمية . « فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم . فاقبل الدعة . وإياك والمُثلة فى الناس فإنها مأثم ومنفَرة إلا فى قصاص » . وقس على ما صنع المهاجر بالمغنيتين ما صنع بالمتمردين والمرتدين .

المهاجر بن أبى أمية يتولى أمر اليمن

وبعث أبو بكر إلى المهاجر يخيره بين إمارة حضرموت وإمارة اليمن ، فاختار اليمن وذهب إلى صنعاء فأقام بها مع فيروز ، وبقى زياد بن لبيد على حضرموت .

أما عكرمة فقد أعد عُدّته للعود إلى المدينة . لكنه لم يرجع إليها كما خرج منها ، بل عاد وقد تزوج ابنة النعمان بن الجون ، لم يصده عن ذلك ما كان من تعنيف أبى بكر لخالد بن الوليد حين تزوج أم تميم وحين تزوج ابنة مجاعة

فخالف بذلك تقاليد العرب . على أن زواج عكرمة بهذه الفتاة قد أثار مشكلة من نوع آخر أدت إلى تذمر الجند وإلى عرض الأمر على أبى بكر ليفصل فيه برأيه .

قصة عكرمة وزواجه ابنة النعمان بن الجون

فقد تزوج عكرمة بابنة النعمان هذه وهو بعَدن ثم حملها معه إلى مأرب . واختلف الجند فى أمرها ، يقول بعضهم : دعْها فإنها ليست بأهل أن يرغب فيها ، ويقول آخرون : لا تدعْها . ورويت القصة للمهاجر فكتب إلى أبى بكر يسأله فيها . ورأى أبو بكر أن لا حرج على عِكرمة فيما صنع ؛ فقد كان النعمان بن الجون جاء إلى رسول الله وطمع فى أن يزوجه ابنته هذه فزينها له ثم جاء بها ، وزاد فى زينتها أنها لم تشك ُوجعًا قط ؛ ورغب رسول الله عنها وعاد بها أبوها إلى عدن . لذلك ظن جماعة من الجند أن عكرمة يجمل به أن يرغب عنها كما رغب عنها رسول الله ، ليكون له فيه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . أما أبو بكر فلم يرض هذا الرأى ، ولم ير فى زواج عكرمة منها بأسًا . واستقر عكرمة مع زوجه هذه بالمدينة ، كما اجتمع بها الجند الذين فصلوا عنها أول حروب الردة .

وأجال أبو بكر نظره فى شبه الجزيرة كلها حوله ، وتذكر يوم بيعته ، ففاضت بالدمع عينه شكراً لأنعم ربه أن آتاه النصر وعزز بعزمه وحزمه دين الحق . وأين المدينة يوم ذاك ، المدينة الظافرة المنتصرة صاحبة السلطان على ربوع العرب كلها ، من تلك المدينة التى انتقض عليها العرب وثاروا بها وحاولوا محاصرتها إثر وفاة الرسول ! ! وما كان لأبى بكر مع ذلك أن يفخر أو يستكبر وهو يذكر قول الله لرسوله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، ولَكِنَّ اللهَ رَمى » .

ما عسى أن يكون الغد

ما عسى أن يكون الغد ؟ وكيف تزداد وحدة الدين قوة ويزداد دين الله علوًّا وانتشاراً ؟ إلى هذه الناحية اتجهت سياسة أبى بكر ، وفى هذا كان يفكر منذ اطمأن إلى النصر . وقد طال تفكيره فيه حين كان قواده وجنوده لا يزالون فى الجنوب يقضون على البقية الباقية من الردة وآثارها . وإذ أراد الله أن يتم أمره فقد كانت الإمبراطورية الإسلامية ثمرة هذا التفكير وهذا الاتجاه .

الفصل الحادى عشر

التمهيد للفتح وللإمبراطورية

الحد الشمالى لبلاد العرب

ألف الناس من أقدم الحقب فى التاريخ أن يروا الحد الشمالى لبلاد العرب ممتداً من أعلى خليج العقبة إلى أعلى الخليج الفارسى فى شماليهما . وليس هذا الحد ممتداً فى خط مستقيم ، بل هو يتبع سلسلة الجبال التى تفصل بين صحراء النفود[1] وبادية الشام . وقد كانت دُومة الجندل بالجوف أعلى المدائن التى تتاخم هذا الخط ، وذلك فيما خلا العصور التى كانت الشام والعراق منضمتين فيها إلى الدولة العربية .

وأهل الشام الأصليون من الفينيقيين . وأهل العراق الأولون من الأشوريين . ولقد كانت الصحراء التى تترامى بينهما ، وهى بادية الشام ، تحول فى العصُر الأولى دون التقائهما وامتزاجهما . فاجتياز الصحارى ليس أمراً محبباً إلى أهل الحضر . وفيم يجتازونها ويتعرضون لأخطارها وليس فيها من أسباب الحياة ما يجذب النفس إليها ! وإن كثيرين ليفرون حتى اليوم من اجتياز هذه البادية بالسيارة ، ويؤثرون النقلة بين الشام والعراق على متن الهواء .

على أن هذه الصحراء التى لم يَستهْوِ إليها الفينيقيون من أهل الشام ولا الأشوريون من أهل العراق فى العصور القديمة ، قد استهوت العرب أهل البادية ممن يرون الصحراء الطليقة سحراً ووحياً وحرية وجمالا ، ويرون الحضر قيداً بل سجناً وإن لُبِست فيه الشفوف . والمؤرخون يذكرون هجرة العرب إلى الشمال لانهيار سد مأرب ، ونزوح قبائل الأزد التى جرفها السيل إلى الحجاز وإلى الشام ؛ أو لاتخاذ الروم البحر طريقاً للتجارة بدلا من البادية . وهم يذكرون أن هذه الهجرة حدثت فى القرن الثانى المسيحى . ومع التسليم بهذه الرواية ، فلا ريب فى أن قبائل من العرب استقرت ببادية الشام قروناً

هجرة العرب إلى بادية بالشام

---

(١) صحراء النفود ، كما نعرفها اليوم ، هى بادية السماوة المعروفة فى كتب العرب أو تقرب منها.

طويلة من قبل ، متخلفة عن القوافل التى كانت تنزل العراق أو الشام للغزو أو للتجارة .

وقد أقام العرب الذين نزحوا إلى الشام وإلى العراق على حدود الحضر فى كل من الدولتين . ولم يكن مقامهم على هذه الحدود مما اضطرتهم إليه سياسة الدولة التى نزلوا بها ، وإنما جذبتهم البادية إليها فلم يستطيعوا مقاومة سحرها ، واستهواهم الحضر ليكونوا على مقربة منه كى ينالوا رزقهم دون مشقة أو عناء . وذلك شأن أهل البادية فى كل عصر . وأنت إذا التمست منازلهم اليوم بمصر أو بالشام أو بالعراق أو بأى بلد يتصل فيه الزرع برمال الصحراء ، رأيتها على شفا الصحراء بين الحضر والبادية ، ورأيت أهلها يولون شطر البادية وجوههم ويمعنون فيها بقوافلهم حيناً بعد حين . وكأن الوراثة البدوية المتغلغلة فى نفوسهم والجارية مع الدماء فى عروقهم ، تأبى عليهم أن يستقروا وأن يسكنوا إلى ما يسكن أهل الحضر إليه من نظم الجماعة . وطبيعتهم هذه تفرض عليهم ألواناً من الشظف ما كان أغناهم عنها لولا ما يجدونه فى فسحة البادية من حرية مطلقة ومن اتصال بالوجود غير المحدود ، ينهض عندهم عوضاً عن كل شظف ، ويهون عليهم كل مشقة .

مملكة بنى غسان وعملكة الحيرة

ولم تلبث بادية الشام حين انتشرت فيها قبائل العرب الذين هاجروا إليها أن صارت كأنها قطعة من شبه الجزيرة . وكان الغسانيون أقوى هذه القبائل عنصراً ، وأكثرهم على الحياة صبراً وجلداً . لذلك أقاموا مملكة بنى غسان على حدود الشام ، كما أقام اللخميون ملك الحيرة على شواطئ الفرات . ولقد كان دأب هؤلاء العرب يومئذ كدأب بنى وطنهم دائماً ، يشاركون الأمة التى يقيمون على حدودها فى مصيرها ويشاطرونها آمالها . من ثم سلموا فى الشام بحكم الروم ، وفى العراق بحكم الفرس . وإنما كان ذلك منهم تسليماً بالأمر الواقع أكثر مما كان إذعاناً لغلب المنتصر ؛ لذلك كانت الأوضاع السياسية تتغير فى أمرهم تبعاً لقوتهم وضعفهم ، وكان لهم أكثر الأمر استقلال ذاتى حرصوا عليه ودافعوا عنه .

ومن العجب فى أمر البدوى أنه ، على تعلقه بالبادية وحبه إياها وانجذابه

إليها كلما بعد عنها ، شديد الإعجاب بالحضر وما يحيط به من زروع نضرة ، وما يبدو على أهله من نعمة ورفاه عيش . ولقد كان حديث الشام وجنَّاتها وأعنابها وحورها العين مما لا يفتأ أهل مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز يتذاكرونه بعد رحلة الصيف ، يقص نبأه من اشترك فى الرحلة ، ويرويه الرواة عنهم بعد ذلك ، فإذا شفاه السامعين تنفرج ، وحدق عيونهم يتسع . وريقهم يتحلَّب ، شوقاً لهذه الخضرة النضرة ، والمياه الجارية ، والأيدى الناعمة والخدود الملساء ، أن يكون لهم مثلها فى بلادهم . وكأنما غاب عنهم أن بارئ النَّسم قسم الرزق بين الناس بالعدل ، فجعل لأهل البادية الحرية الشاملة وإباء الضيم ، يقابلهما شظف لا يصدّ عنهما ولا يقلل من الرغبة فيهما والحرص عليهما ؛ وجعل لأهل الحضر الرفاهية والنَّعْمة والنظام والأمن ، يقابل ذلك قيود للحرية فى كل مظاهرها ، ثم لا ينزع الناس إلى تحطيم هذه القيود حرصاً على النّعمة وعلى الأمن .

حرص القبائل التى هاجرت إلى بادية الشام على حياتها العربية

كان ذلك شأن القبائل التى هاجرت إلى العراق وإلى الشام على تفاوت بينها فى التعلق بالبادية . ومع أن أكثرها نعم بالحضر وترفه ، لقد ظل حرصها جميعاً على حياتها العربية شديداً ، كما ظلت العلاقات بينها وبين شبه الجزيرة متصلة على القرون . وليس من غرضى أن أفصّل ذلك فى هذا الكتاب . فنطاق البحث لا يتسع له ولا يقتضيه . وإنما أثبت منه هنا ما يجلو لنا بعض السر فى تمهيد هاتين الإمارتين العربيتين ، إمارة اللخميين وإمارة الغسانيين . للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية فى عهد أبى بكر .

أشرنا إلى أن هجرة العرب من الجنوب إلى الشمال ترجع إلى ما قبل انهيار سدّ مأرب ، وقبل تحويل الروم طريق التجارة من البر إلى البحر . والواقع أن هذه الهجرة أقدم بكثير من هذين الحادثين ، على ما كان لهما من جليل الخطر فى حياة بلاد العرب ؛ فالنسَّابون يذكرون أن التنقل بين القبائل كان كثير الوقوع من قبل الإسلام ، وهو لا شك كان كثير الوقوع منذ أقدم العصور . فقد كان العرب يتعاملون مع البلاد التى تجاورهم ؛ إذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الأقصى إلى بلاد الشام ومصر والروم ، وكانوا ينقلون تجارة الشام ومصر والروم

إلى الشرق الأقصى . وكانت هذه التجارة تسير مخترقة شبه جزيرة العرب فى أحد طريقين : طريق حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسى ثم إلى الشام ، وطريق حضرموت إلى اليمن فالحجاز إلى الشام . وكانت مكة تتوسط هذا الطريق الثانى ، وكان أهل الجنوب من الحضارمة واليمنيين وأهل عمان والبحرين هم السابقين الأولين للقيام بهذه التجارة ذلك بأنهم كانوا أكثر من أهل الشمال حضارة ؛ لخصب أرضهم ، ولاتصالهم بالفرس اتصال جوار مباشر . لذلك كانت أكثر القبائل التى هاجرت إلى العراق وإلى الشام واستقرت بهما من قبائل الجنوب . فالغساسنة الذين أسسوا مملكتهم شرقى الشام كانوا من الأزد ، إحدى قبائل عُمان التى تنسب إلى شعب كهلان اليمنى . كذلك تُنسب قبائل قُضاعة وتنوخ وكلب التى استقرت على حدود الشام إلى شعب حمير اليمنى ، وطبيعىٌ أن تستقر قبائل الجنوب بالعراق ؛ فإن العراق يجاور حضرموت وما اتصل بها من قبائل بنى حنيفة وتغلب ومن إليهم .

قبائل الجنوب من شبه جزيرة العرب هى التى هاجرت إلى بادية الشام

هاجرت بطون من هذه القبائل منذ العصور الأولى إلى بادية الشام ، واستقرت بها مستقلة عن سلطان أولى السلطان فى حضر العراق وفى حضر الشام . فلما انهار سد مأرب ثم انقسمت التجارة بين طريق البادية وطريق البحر ، هاجرت بطون أخرى وقبائل أخرى إلى الحجاز ، ثم هاجرت بعض هذه البطون منه إلى الشام ، التماساً لرزق أوفر وحضارة أكثر وأرفه من حضارة البادية .

اتصال العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام بفارس والروم

وكان السلطان فى العراق وفى الشام متداولا بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . فكانت فارس تنتزع الشام من الروم أحياناً وتضمه إلى العراق التابع لها . وكان الروم ينتزعون العراق من فارس أحياناً ويضمونه إلى الشام التابع لهم . وكان العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام ينضمون فى كثير من الأحيان إلى جيش الفرس أو جيش الروم ، متأثرين بما فى طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب . وأدى ذلك إلى أن فكرت الدولتان فى اتخاذ هؤلاء الذين نزلوا البادية الممتدة بينهما سداً يحول دون اعتداء إحداهما على الأخرى ؛ لتبقى الشام خالصة للروم ، والعراق خالصة لفارس .

على أن هذه القبائل العربية انحازت بحكم منازلها فى البادية إلى أقرب حضر لها ؛ فانحاز المقيمون على حدود الشام إلى الروم ، وانحاز المقيمون على حدود العراق إلى فارس ، مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتى ، ومعيشتهم البدوية ، وحياتهم العربية الخالصة .

لم يحُل احتفاظهم بهذه الخصائص دون تأثرهم بحياة الحضر القريب منهم، وسياسة الدولة التى يخضع هذا الحضر لها . بل لقد تغلغل فى هذا الحضر من أنِس منهم فى نفسه الكفاية لامتثال حياة الحضر والاضطلاع بأعبائها ، وبلغ من ذلك أن امتد سلطانه وعظم فى المملكة نفوذه . وإن المؤرخين ليذكرون أن الإمبراطور الرومانى فيليب كان عربياً من بنى السميذع أول من عرف التاريخ من العرب الذين هاجروا إلى الشام ، وأنه كان قبل ارتقائه عرش الإمبراطورية رئيس عصابة فى تعبير الغربيين ، ورئيس قبائل تغير وتغزو فى تعبير العرب . وأعلى ذلك من مكانة العرب المقيمين بالشام ، وإن لم يصرفهم عن البادية ولم يُدمجهم فى حضارة الروم .

أما العرب الذين أقاموا على حدود العراق ، فلزموا البادية ولم يجازفوا بالدخول إلى حوض الفرات كى لا يخضعوا لسلطان الفرس فيه . وظل ذلك دأبهم حتى كانت الفُرس مسرحاً لثورات وحروب داخلية اتصلت بين ملوكها وزعماء الطوائف فيها . وقد تغلب زعماء الطوائف واستقلوا بأمر الفرس ، كل منهم فى ناحيته . وأتاح ذلك للعرب أن دخلوا حوض الفرات وأنشئوا على شاطئه مدينة الأنبار ، ثم أنشئوا الحيرة .

ولعل قبائل من هؤلاء العرب كانوا من الأسرى الذين جاء بهم الفرس حين غزواتهم الأولى لجنوب شبه الجزيرة . فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك بُخْتَنَصَّر الثانى غزا شبه الجزيرة وعاد منها بالأسرى ، وأنزلهم على شاطئ الفرات فأقاموا الأنبار ؛ ثم إنه نقلهم من الأنبار جنوباً فأنشئوا مدينة الحيرة[1] .

(١) يذكر المسعودى أن بختنصر لم يكن ملكاً بل كان مرزباناً على العراق للملك كيخسرو ، وأنه حارب العرب باسم كيخسرو وأسر منهم . ويخالف الطبرى وبعض مؤرخى العرب هذه الرواية =

جذيمة الأبرش يضم غرب الفرات تحت سلطانه

وأيًّا كانت الرواية الصحيحة فالثابت أن العرب بدأ سلطانهم يستقر فى العراق من ذلك الحين ، وأنهم استقلوا بالأمر غرب الفرات بين الأنبار والحيرة حين تولى أمرهم جَذِيمةُ الأبرش أو الوضَّاح بين سنة ٢١٥ وسنة ٢٦٨ ميلادية . وقد جمع جذيمة كلمتهم وامتدّ سلطانه فيهم من الحيرة إلى الأنبار إلى عين التَّمر ؛ وبذلك اشتمل غربَ الفرات كله إلى بادية الشام . بل لقد امتد سلطانه على العرب المقيمين بهذه البادية حين غزا مُضَر المقيمين بها ، وضم إليه منهم عدىّ بن ربيعة وشرّفه وأكرمه .

وعدىٌّ هذا هو الذى تزوج الرَّقَاش أخت جذيمة ، فتناولت كتب الأدب نبأهما بآثار روائية شائقة ، وهو الذى أولدها عمرو بن عدى صاحب قصة الزبَّاء التى انتحرت قائلة : « بيدى لا بيد عمرو » .

أذينة بن السميذع على رأس العرب بالشام

بينما جَذِيمة الوضَّاح على ملك العرب بالعراق ، كان أذينة ابن السَّمَيْذَع على رأس العرب بالشام ، وكان سابور عاهل فارس ، وفيليب إمبراطور الروم . وقد ثار أهل الشام بسلطان فيليب لقسوة حكمه . وانتهز سابور الفرصة فسار إلى الشام وهزم جند الروم . عند ذلك نقض أذينة عهد ولائه للروم وانضم للفرس ، وطمع فى أن يكون له فى ظل سابور من المكانة بالشام ما لجذيمة بالعراق . على أن ڤالريان تولى إمبراطورية الروم مكان فيليب ، وسار بنفسه إلى الشام وهزم سابور وردّه إلى فارس . عند ذلك عاد أذينة مواليا للروم . غير أن الدوائر ما لبثت أن دارت على ڤالريان . وأراد أذينة أن ينضم إلى سابور كرّةً أخرى . فرفض سابور ولاءه بعد الذى رآه منه . ولم يجد أذينة بدًّا فى محافظته على سلطانه وعلى حياته من أن ينهض بنفسه على رأس عرب الشام لمحاربة فارس . وبسَم له الحظ فغلبها وطارد جيوشها إلى المدائن . بذلك سمتْ مكانته عند الروم . وصار صاحب القِدْح المعلَّى فى محاربة الفرس . حتى لقد تغلَّب

= وينهون إلى أن تبعاً الأول سار من اليمن على رأس بطون من لخم وجذام وعاملة وقضاعة والأزد وغيرهم فغزا جانب العراق المجاور البحرين ، ثم إن جنده تحيروا ، أى أقاموا على شاطئ الفرات . ولما عاد تبع إلى اليمن تخلف بطون من هذه القبائل فأقاموا بالحيرة حيث تحيروا . وفى رواية عن ملوك الطوائف أن الإسكندر الأكبر هو الذى أقامهم حين غزا فارس إذ أقر كل مرزبان على ناحية وجعله ملكاً على أهلها ليفرق كلمة الفرس ويجعل بعضهم لبعض عدواً فلا يثورون به ولا ينتقضون على سلطانه .

عليهم من بعد ذلك كرّة أخرى .

وحكم بعد أذينة أبناؤه ، ومنهم الزبَّاء . وقد استهوت إليها جذيمة ودعته ليتزوجها ، ثم قتلته ، فكان جزاؤها أن ذهب إليها عمرو بن عدىّ ومعه قَصير بن عمرو فانتحرت حتّى لا يقتلها . وبوفاتها انقضى عهد بنى السميذَع بالشام .

وخلف الغسانيون من أبناء جَفْنة بنى السميذع على ملك الشام ، بعد فترة قصيرة حاول جماعة من بنى نصر القائمين بأمر العراق أن يتولوا أثناءها أمر الشام ، فلم يستقر لهم فيه أمر .

تمهيد هؤلاء العرب بالعراق والشام للفتح العربى والإمبراطورية الأسلامية

نقف هنيهة ها هنا ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، لنرى كيف صار الأمر فى شرق الشام وغرب العراق إلى العرب . فهؤلاء الذين نزلوا البادية أول ما نزلوها قبائلَ مهاجرة أو أسرى جاء بهم ملوك فارس من شبه الجزيرة ، قد صاروا إلى حيث يعتدّ بهم الروم وتعتدّ بهم فارس ، وتحرص كلتا الدولتين على ولائهم لها ومناصرتهم إياها ، وتعترف كلتاهما لهم بالاستقلال الذاتى تقديراً لشجاعتهم وإقدامهم فى الحروب . والحق أنهم لم يكونوا فى صلتهم بهاتين الإمبراطوريتين العظيمتين دون اليمن أو حضرموت أو غيرهما من بلاد شبه الجزيرة التابعة لنفوذ فارس ، بل لعلهم كانوا أكثر منها استقلالا . وأنت لذلك تستطيع أن تقول إن بلاد العرب امتدت من خليج فارس وخليج عَدن جنوباً إلى الموصل وأرمينية شمالا ، وإن تأثَّر عرب العراق وعرب الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم أكثر مما تأثر بهما سائر بقاع شبه الجزيرة .

ألسنا فى حلّ ، وذلك هو الشأن ، من أن نقول إن هؤلاء العرب فى العراق والشام كانوا الطلائع الأولى فى التمهيد للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية ؟ لم يدُرْ ذلك بخلد أحد منهم بطبيعة الحال . فلم يكن أحد منهم يتصور بعث محمد ورسالته ، وما أدى إليه البعث وأدت إليه الرسالة من وحدة بلاد العرب ومن سمو النفس العربية إلى حيث سمتْ . لكن مُقامهم بين الفرات وأودية الشام ، واحتفاظهم بخصائص حياتهم العربية ، واتصالهم بأهليهم وبمن يحيطون بهم فى شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدّمة لما تلاه بعد أربعة قرونٍ من

زحف عرب الجزيرة إليهم محاربين لتحلّ الإمبراطورية الإسلامية محل الإمبراطوريتين الفارسية والرومية .

تولى عمرو بن عدىّ ملك العراق بعدَ جذيمة الأبرش من قِبل سابور ، فانتقم لجذيمة من الزبَّاء ، كما قدمنا . وقد جعل عمرو الحِيرة عاصمته ؛ ومن يومئذ صارت عاصمة اللخميين إلى أن انحل الملك عنهم .

ملوك الحيرة لهم استقلال ذاتى مع تبعيتهم لفارس

وكانت تبعيَّة عمرو بن عدىّ ومن جاء بعده من ملوك الحيرة لبلاط فارس محدودة ، فكان صاحب الحيرة مطلق السلطان على غرب الفرات إلى بادية الشام وكان ولاؤه لعاهل الفرس مقيداً بدفع العرب من شبه الجزيرة أو عرب الشام التابعين لإمبراطور الروم عن أرض فارس ، وبحماية التجارة التى تسير من فارس إلى الشام أو إلى بلاد العرب .

على أن هذا الولاء لم يحل دون اقتحام العرب أرض فارس ، وبخاصة ما جاور منها الخليج الفارسى . وقد صدهم الفرس غير مرة ، ثم اضطُرّ سابور ذو الأكتاف إلى حفر خندق سابور على حدود بلاده ليصدّ عنها العدوان .

النعمان الأكبر صاحب الخورنق والسدير

وتوالى الملوك من بنى نصر على عرش الحيرة ، حتى تولاه النعمان الأكبر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس المسيحى . وقد تولاه من قِبَل يَزدَجِرْد . والنعمان الأكبر هو الذى بنى قصرى الخَوَرْنَق والسَّدِير ، وهو صاحب قصة سِنِمَّار .

ويروى أن النصرانية بدأت تنتشر بالعراق فى عهده ، وأنه لان لها وعطف عليها ، فأنشئت فيها برضاه أديار وبِيَعٌ . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنه تدينَّ بالنصرانية ، ثم تقشَّف ونزل عن ملكه لابنه المنذر الأكبر[1]، وذلك حين رأى يزدجرد يضطهد النصرانية ويحارب الذين يدينون بها .

وكان يَزْدَجِرد قد بعث بابنه بهرام جور إلى الحيرة لينشَّأ فيها ، وحذق

---

(١) أشار عدى بن زيد الشاعر إلى نزول النعمان الأكبر عن ملكه فى قصيدة جاء فيها :

تدبر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غبطة حى إلى المات يصير

بهرام العربية واليونانية وأحاط بشئون العرب والروم خُبْرا . فلما مات يزدجرد آثر الفرس أن يولّوا عليهم كسرى بن أرْدَشير بن سابور ذى الأكتاف ، لأنه نشأ بينهم حين كان بهرام غريباً عنهم . وسار بهرام يستّرد عرشه وأعانه المنذر . فلما اعتلى العرش نصح له المنذر أن يعفو عن خصومه ؛ بذلك كسب بهرام قلب الخاصة ، ثم كسب قلب الشعب بأعطياته وبتخفيفه من أعباء الضرائب .

بهرام جور يضطهد النصرانية

وبالغ بهرام جور فيما بدأه أبوه من محاربة النصرانية ، فكان ذلك سبباً فى نشوء الحرب بين فارس والروم . وأعان المنذر بهرام فى هذه الحرب التى انتهت إلى صلح بين الفريقين طال أمده .

كان ملوك العرب من بنى غسان بالشام ينصرون الروم فى محاربتهم الفرس ، كما كان اللخميون يقاتلون الروم حلفاء لجيش فارس . ولعل الحروب اشتدت فى هذه الفترة الأخيرة بين الإمبراطوريتين أن زاد العامل الدينى أوارها . فمنذ تولى قسْطنطين إمبراطورية الروم فى أوائل القرن الرابع الميلادى بدأت المسيحية تزدهر . وبدأ أباطرة الروم يُعلون من شأنها فى كل مكان ، وبدأ المبشرون بها ينتشرون فى مختلف البلاد . وانتقالهم من الشام إلى العراق وإلى بلاد فارس هو الذى هاج يزدجرد لمناهضة هذا الدين الجديد ، وهو الذى جعل بهرام جور يغلو فى محاربته ، حتّى ينتهى الأمر إلى ذلك الصلح الذى أشرنا إليه .

موقف العرب بالشام والعراق من دين الفرس ودين الروم

ماذا كان موقف العرب فى العراق وفى الشام من دين الفرس ، ومن دين الروم ؟ أتأثرت قبائل العراق بالمجوسية فأقبلت عليها ، وتأثرت قبائل الشام بالمسيحية فأقبلت عليها ؟ أم أعرض هؤلاء وأولئك عن المجوسية والمسيحية جميعاً ، واحتفظوا بوثنيتهم العربية ، وبأصنامهم يعبدونها لتقرّبهم إلى الله زلفى ؟

للجواب عن هذا السؤال قيمة كبرى فى البحث الذى نتناوله الآن . فهو يكشف عن اتجاه العقلية العربية وعن ميول العرب الروحية ، ويجلو لنا كيف مهّدت هذه العقلية وهذه الميول للفتح العربى فى ظل الإسلام .

ذكرنا أن العرب تأثروا فى العراق وفى الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم . فمن عرب العراق من أجادوا الفارسية ، وفقهوا تيارات التفكير الفارسى فى الفن والأدب والدين ،وتبينوا مَثْنَوِيَّة مانى وتعاليم زَرَدُشْت وزندقة مَزْدَك . ولم يكن ذلك عجيباً وقد أتاح لهم رغد العيش وترفه أن يتثقفوا ، وأن تبلغ بهم ثقافتهم علم هذا كله وعلم ما اتصل بهم من تفكير اليونان وفلسفتهم . ولذلك علّم أهل الحيرة قريشاً الزندقة فى الجاهلية والكتابة فى صدر الإسلام[1] .

وكان ذلك شأن عرب الشام فى اتصالهم بثقافة الروم وأدبهم ودينهم . بل لعلهم كانوا أرقى عقلية من عرب الحيرة ؛ لأنهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية .

لماذا هوت النفس العربية إلى النصرانية

لم يأخذ عرب العراق بمجوسية الفرس مع اتصالهم بهم وإعجابهم بحضارتهم . ولم يأخذ عرب الشام بوثنية الروم أو اليونان ولم يعبدوا آلهتهم . فلما استقرت المسيحية فى الإمبراطورية الرومية هوت إليها النفس العربية فى الشام والعراق جميعاً . فلماذا ؟

يذكر بعض المؤرخين أن أوّل ملك تنصَّر من بنى غسان إنما تنصر لأن إمبراطور الروم لم يكن يرضى عن ولاية غير نصرانى فى أنحاء الإمبراطورية . وإذا فسر هذا تنصر أمراء العرب فإنه لا يفسر تنصر القبائل . فإن قيل إن قبائل الشام تنصرت مجاراة لملوكها ، فالناس على دين ملوكهم ، فقد تنصر من قبائل العراق كثيرون يدينون بالولاء لملك الحيرة . وكان يحارب النصرانية حليفاً لفارس . لا بد إذاً من دافع آخر أدى بهذه القبائل العربية فى العراق لتدين بالنصرانية ، وأن يكون هذا الدافع متصلا بالعقلية العربية وميولها الروحية .

والعقلية العربية بفطرتها بدوية مستقيمة ، تريد الحقيقة فى بساطة ، وتقصد إليها فى غير التواء ولا تعقيد . فزندقة مزدك ومثنوية مانى قد تستهوى من يعجبهم الحوار ويغريهم الجدل ، وكذلك الأمر فى فلسفة اليونان . ولا تميل العقلية العربية إلى هذا التعقيد الجدلى . لهذا هوت إلى النصرانية وأخذت بها واطمأنت إليها ، ولم يدن بالمجوسية من العرب إلا قليل .

---

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٣ ، نقلا عن الأعلاق النفيسة لابن رسته .

والنصرانية دين سماوى أصحابه أهل كتاب أقرّ الإسلام صفاءه الأول ؛ فلا عجب أن يكون أخذ العرب بها فى العراق وفى الشام من طلائع التمهيد للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية .

تعلق العرب باستقلالهم وبحياتهم العربية

على أن سبق العرب للنصرانية فى العراق والشام لم يغير من خصائصهم ، ولم يصرفهم عن استقلالهم وعن تعلقهم بحياتهم العربية . تولت الأميرة العربية ماوية بنت الأرقم بن الحارث الثانى أمر العرب بالشام فى أواخر القرن الرابع المسيحى ، فطمع الروم فى ملكها ، فحاربتهم حتّى اضطرتهم لمصالحتها ، ثم أمدتهم بفوارس لمحاربة القوط الطامعين فيهم . وقد دافع هؤلاء الفرسان العرب عن القسطنطينية دفاعـًا مجيداً .

ولم يكن حرص الغساسنة على استقلالهم الذاتى إزاء الروم ، وحرص اللخميين على استقلالهم الذاتى إزاء فارس ، ليجمع بين هؤلاء العرب وأولئك ؛ ولم يجمع بينهم اشتراكهم فى الميل للمسيحية ؛ بل كانت الحروب تتصل بين اللخميين والغسانيين اتصالها بين فارس والروم . أليست القبيلة أساس العمران العربى ! فكما كان عرب شبه الجزيرة قبائل يقاتل بعضهم بعضًا ، كان عرب بادية الشام قبائل يقاتل بعضهم بعضًا .

اللخميون والغسانيون فى ذروة المجد

فى الثلث الأول من القرن السادس المسيحى بلغ اللخميون ذروة المجد فى العراق ، وبلغ الغساسنة ذروته فى الشام ، وكان ذلك فى عهد المنذر الثالث اللخمى والحارث بن جبلة الغسانى . تولى المنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة بين سنة ٥١٣ وسنة ٥٦٢ ميلادية فى عهد قباذ ، ثم كسرى أنوشروان . وتولى الحارث بن جبلة زوج مارية ذات القرطين ملك الغساسنة بين سنة ٥٢٩ وسنة ٥٧٢ ميلادية ، فى عهد چستنيان ، ثم فى عهد چستين الثانى . وكان هذا الحارث يدعى الحارث الأعرج ، كما كان يدعى الحارث الوهّاب .

فى هذا العهد ظلت الحروب متصلة بين الفرس يحالفهم المنذر ، والروم يحالفهم الحارث . وكان المنذر فى هذه الحروب شديد البأس قوى الشكيمة ، بلغ من ذلك أن فرض الصلح الذى تم بين الفرس والروم جعلاً سنويـًا يدفعه الروم للمنذر .

استمر هذا الصلح زمناً قوى فيه الروم واشتد ساعدهم وخشيهم كسرى ، فدفع حليفه المنذر فحارب الحارث وتغلّب عليه . ثم عادت الحرب فشبت بين الروم والفرس كرة أخرى إلى سنة ٥٦٢ م . وكان المنذر فى هذه الأثناء لا يهدأ عن الحرب ، يحارب خصومه ، ويحارب خصوم فارس ، ويوغل فى ممتلكات الروم حتى يبلغ حدود مصر .

لم تخفض قوة المنذر من قدر الحارث عند الروم ؛ فقد ظل فى نظرهم القوة التى يواجهون بها عرب العراق . ولذلك ولاه الإمبراطور چستنيان منذ سنة ٥٢٩ م ملكاً على جميع قبائل العرب فى سوريا ، وجعل له لقب فيلارك وبطريق (Phylarque et Patrice) وهو اللقب الذى يلى لقب الحاكم الرومانى فى الشام .

فكّر الحارث فى التخلص من المنذر . أما وهو لا يستطيع ذلك فى ميادين القتال . فليجعل الغدر سلاحه . فبينما كانت الحرب ناشبة بينهما يوماً أوفد مائة من رجاله عطرتهم ابنته حليمة ليلقوا ملك الحيرة ويبلغوه أن ملك الغسانيين يذعن له . وانتهز أحدهم فرصة غال فيها المنذر وقتله . عند ذلك اضطرب جند العراق ، فهاجمهم الحارث وشتت شملهم ؛ وذلك يوم حليمة[1] .

بلغ مجد العرب المقيمين ببادية الشام وما جاورها من أرض العراق وأرض الشام غاية ذروته فى هذا العهد . وقد أبرز الأدب الجاهلى هذا المجد فى كل جلاله .

فالمنذر هو صاحب يوم النعيم ويوم البؤس ، وهو الذى قتل عبيداً الأبرص فى يوم بؤسه ، وهو صاحب قصة شريك بن عمرو ؛ وكان كثيرون من شعراء شبه الجزيرة يؤمونه . وقد عاصر الحارث الوهاب النابغة الذبيانى وعلقمة الفحل .

آخر ملوك الحيرة

تولى عمرو بن هند ملك العراق بعد أبيه المنذر الثالث ؛ وفى السنة التاسعة من حكمه ولد رسول الله . ومن بعد عمرو توالى بنو المنذر على ملك الحيرة حتى

(١) راجع كوسان دبرسفال فى تاريخ العرب ج ٢ ، ص ١١٣ — ١١٤ . وتاريخ الحيرة وتاريخ غسان بعض ما استوفاه دبرسفال مستنداً إلى المصادر العربية واليونانية والأوربية .

تولاه أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع صاحب الشاعر الأعشى ميمون بن قيس بين سنة ٥٨٣ وسنة ٦٠٥ م . وقد امتد ملك النعمان فى بلاد فارس حتى بلغ دجلة حيث بنى مدينة النعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى . وكان النعمان على قبح صورته مترفًا ولوعًا بمتع الحياة ولينها . تزوج امرأة أبيه المتجردة ذات الجمال البارع ، فأحبت المُنَخَّل اليشكرى فقتله النعمان . وأنشأ النعمان الحدائق الغناء وجلب إليها أبهج الزهر ، فشقائق النعمان تنسب إليه .

لم يرض كسرى أبْرويزَ عما بلغ النعمانُ من سلطان وما يرفل فيه من نَعْمة ، فحبسه وقتله ، ثم قضى على سلطان اللخميين جميعًا . ولقد قام مقامه على ملك الحيرة إياس بن قبَيصة ، وأقام معه مرزبانًا فارسيًا يدعى بهرجان . وفى عهد إياس بُعث النبى ، وفى عهده كان يوم ذى قار ، ثم كان إياس آخر ملوك الحيرة من العرب . فقد قام داذويه الفارسى من بعده مرزبانًا على العراق من قِبَل كسرى .

ويوم ذى قار من أيام العرب المأثورة . ذكروا أن النعمان بن المنذر أودع أمواله وحريمه هانئ بن قبيصة حين عرف غضب كسرى عليه . فلما قَتل النعمان طالب كسرى هانئًا بودائعه فأبى هانئ . ثم إن بنى بكر بن وائل غضبوا لقتل النعمان فأغاروا على سواد العراق فنهبوا منه . وأراد كسرى معاقبتهم . فالتقت جيوشه بهم فى ذى قار . ففاز العرب على الفرس فوزاً عظيمًا . يروى عن النبى عليه السلام أنه قال فى يوم ذى قار : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونُصِرت عليهم بى »[١]. ذلك أن النبى عليه السلام بُعث عام ذى قار .

الغسانيون إلى آخر عهدهم

ذلك كان مصير اللخميين بالعراق . أما الغسانيون بالشام فظلوا يتولى الأمر منهم أمير بعد أمير ، حتى كان جبلة بن الأيهم حاكم عرب الشام عند ما فتحه عمر بن الخطاب . تولى منهم عمرو الأصغر فى سنة ٥٨٧ م ، فلجأ إليه النابغة الذبيانى هربًا من النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ؛ وتولى بعده أبو كرب النعمان السادس ابن الحارث الأصغر ، ففاز من النابغة بخير مدائحه . ثم توالى

---

(١) مروج الذهب للمسعودى . الجزء الأول ص ٢٣٦ طبع بغداد .

عدد من الأمراء تدل كثرتهم على اقتسامهم ملك الغساسنة بالشام ، حتى انتهى أمرهم إلى الأيهم الثانى ثم إلى ابنه جبلة بن الأيهم .

ولعل تقسيم السلطان فى الشام بين عدة أمراء من العرب كان بعض سياسة الروم فى عهود كثيرة ، حتى لا يناوئ العرب الإمبراطورية بوحدتهم . يرجع ذلك أن الغسانيين لم تكن لهم عاصمة بالشام كما كانت الحيرة عاصمة اللخميين بالعراق ؛ بل كانت الجابية عاصمة ، وكانت تَدْمُر عاصمة ، وكانت جَوْلان عاصمة ، وكانت جِلِّق على مقربة من دمَشْق عاصمة . وهذا يتفق مع السياسة المركزية التى جرت عليها إمبراطورية الروم ، كما تتفق سعة السلطان لصاحب الحيرة مع سياسة اللامركزية التى جرت عليها الإمبراطورية الفارسية .

ذكرنا فيما سلف أن عرب العراق وعرب الشام استمسكوا باستقلالهم الذاتى وبحياتهم العربية . لذلك ظلت لغة أهل شبه الجزيرة لغتهم ؛ فلم تمحها الفارسية فى العراق ، ولم تمحها اليونانية أو اللاتينية فى الشام . وكان من أثر هذا أن ظلت صِلات ملوك الحيرة وصلات بنى غسان بشبه الجزيرة وثيقة ، وظل الذين يُشيدون بذكر هؤلاء الملوك وينالون جوائزهم هم شعراء شبه الجزيرة . وكتب الأدب ودواوين الشعراء تروى للنابغة الذبيانى ولأعشى قيس ولعلقمة الفحل ولغيرهم كثيراً مما قيل فى هؤلاء الملوك وكرمهم وما بلغوا من حضارة وترف . وحسان بن ثابت شاعر النبى كان وثيق الصلة بجبلة بن الأيهم قبل إسلامه .

كان احتفاظ هؤلاء العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة إلى بادية الشام بخصائصهم وبحياتهم ولغتهم العربية ، من الطلائع التى مهدت للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية . وسنرى من بعد كيف انضم هؤلاء العرب فى كثير من الأحيان لجيوش المسلمين ، وكيف حاربوا فى صفوفهم من كانوا حلفاءهم من الروم والفرس .

الفرس والروم بعد تضعضع سلطان العرب

هل تأثرت علاقات فارس والروم بالقضاء على ملك الحِيرة ؟ كلا ! بل ظلت الحروب متصلة بينهما بعد ذلك ، كما كانت متصلة بينهما سبعة قرون

متوالية من قبل . كانت إمبراطورية الروم لذلك العهد مسرح قلق واضطراب شجع الفرس على غزو الشام . وكان فوكاس إمبراطور الروم يومئذ فى شغل بثورة هرقل عليه . لذلك أوغل الفرس فى بلاد الشام . فاستولوا عليها وانحدروا منها إلى ناحية بيت المقدس يحاصرون المدن ثم يأخذونها عنوة . وتولى هرقل حين كان الفرس فى مسيرتهم إلى القدس فلم يستطع ردّهم أو منعهم من تخريب آثار المسيحية واليهودية بالمدينة المقدسة . ثم إن اليهود انضموا إلى المجوس وأعانوهم على النصارى . فلما استقر الأمر لكسرى بالشام ، فتح مصر وحل بسلطانه محل الروم فيها . وفى هذه الانتصارات المتوالية للفرس على الروم نزل قوله تعالى :

«الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ» .

وصدق الله العظيم . ففى بضع سنين عاد هرقل فحارب الفرس وأخرجهم من مصر ومن الشام ، وطاردهم إلى المدائن ، واستّرد منهم الصليب الأعظم ، ثم رده إلى بيت المقدس فى حفل حافل . لذا تضعضع سلطان الفرس وإن استنفد ذلك من قوة الروم ما كان بالغ الأثر فى التمهيد للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية .

موقف أبى بكر من فارس والروم

لم يغبْ علم ما نزل بالروم ، ثم بالفرس عن أهل مكة والمدينة . ولم يغب عنهم كذلك أمر بنى عمومتهم من العرب ببادية الشام وما جاورها من العراق وبلاد الشام . وقد هوّن ذلك من أمر الإمبراطوريتين العظيمتين فى نظرهم . وزاد فى تهوين أمرهما قيام النبى العربى وانضواء بلاد العرب كلها تحت لواء الإسلام . لكن ما هان من أمر الإمبراطوريتين لم يبلغ بالعرب حد التحرش بهما أو التفكير فى غزوهما ، وإن بلغ بهم حد اليقين باستقلال شبه الجزيرة عنهما والذود عن هذا الاستقلال فى وجهيهما . لذلك ألقت اليمن وألقت بلاد الجنوب كلها بنير فارس ، ثم اتجه جلّ غرض الرسول عليه السلام إلى تأمين التخوم العربية فى الشمال من جنود قيصر . ولم يدر بخواطر المسلمين أن يغيروا على الشام ، أو أن يتخذوا من دعوة النبى هرقل إلى الإسلام سبباً للإيغال فيه . ترى

الصديق أبو بكر

أيقيم أبو بكر على هذه السياسة لا يتعداها ، وله فى رسول الله أسوة حسنة ، أم يغامر بحرب قيصر ، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء ؟

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبى بكر حينما كان النصر يحالف أعلامه فى حروب الردّة . فذ قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة ، ومذ نشر المهاجر بن أبى أمية وعكرمة بن أبى جهل لواء الإسلام فى أرجاء اليمن وما جاورها ، أيقنت شبه الجزيرة كلها أن الأمر فيها صائر بإذن الله إلى خليفة رسول الله . لكن أبا بكر كان أحصف من أن يستنيم لهذا النصر فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتُضرم الثورة كرة أخرى . أو ليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ماوراء الحدود من شبه الجزيرة فتنسى بذلك حفائظها وتنسى أحقادها ! وبادية الشام تنتشر فيها قبائل من العرب ، فجدير بها أن تسمع الدعوة إلى الدين الجديد كما سمعها العرب فى شبه الجزيرة . ولعل هذه القبائل إذ تتصل بأصولها وتسمع الحديث عن أجدادها ، تعود بها الذكرى إلى الماضى ، فتسرع لتشارك بنى عمومتها فيما هداهم الله إليه من الحق ، وتشهد معهم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

تفكير الصديق فيما بعد حروب الردة

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبى بكر وهو فى داره المتواضعة بالمدينة ، وكان يدور بنفسه وهو فى مجلسه بالمسجد ، ثم كان يدور بنفسه وهو يجوب الأنحاء الفقيرة آناء الليل فى سرّ من الناس ، يعين المحتاج ، ويأسو كلوم الجريح ، ويسكّن أنات البائس والمسكين . ولم يستأثر هذا الخاطر بتفكير أبى بكر لأنه كان يحب السلطان لنفسه أو يطمع فى التوسع فيه ، بل لأنه كان يريد أن يطمئنّ المسلمون إلى دينهم وحرية الدعوة إليه . وإنما تم للمسلمين الطمأنينة ما قام الحكم فيهم على أساس من العدل المجرد من الهوى . والحكم على هذا الأساس يقتضى الحاكم أن يسمو به فوق كل اعتبار شخصى ، وأن يكون العدل والرحمة مجتمعين . وقد كانت نظرية أبى بكر فى تولى أمور الدولة قائمة على إنكار الذات والتجرد لله تجرداً مطلقاً ، جعله يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، ويسمو بعدله على كل هوى ، وينسى فى سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله ، ثم هو مع ذلك يتتبع أمور الدولة جليلها ودقيقها بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر .

وكان حكم أبى بكر فى العام الأول من خلافته يكاد ينحصر فى القضاء على الردة والقائمين بها . وهل كان للمسلمين المقيمين بالمدينة ما يختلفون فيه وأهلوهم جميعاً قد ذهبوا مجندين يقمعون الثورة ويقضون على أسباب الفتنة ، وهم فى أثناء ذلك يتتبعون أخبارهم ويقيمون الصلوات لنصرهم ! ! وَلّى أبو بكر عمر بن الخطاب القضاء فى المدينة ، فأقام عاماً كاملاً لم يختلف إليه متقاضيان. وكان أبو عبيدة بن الجرّاح قائماً بأمر المال ، يتلقاه من الزكاة ، وينظر فى توزيعه على حاجات المسلمين . وكان عثمان بن عفان يكتب الأخبار للخليفة ، ويكتب زيد بن ثابت ما عداها . وقد كفاه عمّاله على البلاد والقبائل مؤونة إدارتها بما كان لهم من أمانة وحسن بصر بالأمور ، ثم كانوا على اتصال دائم به فى توجيه سياستهم . وقد رأيت الشيء الكثير من ذلك فيما كان بينه وبينهم من مكاتبات أثناء حروب الردة . وإذا كان أبو بكر فى شغل بهذه الحروب طيلة العام الأول من خلافته ، فقد أقام مقامه عتّاب بن أسيد عامله على مكة فى الحج بالناس ذلك العام .

لم يشغل أبا بكر عن حروب الردة شاغل إلا ما اتصل بها مما قصصنا نبأه حين الحديث عنها . أما وقد هان أمر المرتدين ولم يبق لأحد من أهل الحواضر والبوادى أن يأبه لهم أو يخشى خطرهم ، أفلا يجمل بأبى بكر أن يغامر بحرب قيصر ؟ إنه إن يفعل يصرف أذهان العرب فى شبه الجزيرة كلها عن ثاراتهم ، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضِغْنهم على يثْرب وأهلها ، ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله فى الإمبراطورية الرومية المترامية الأطراف .

غزو الروم مغامرة لا يسهل الإقدام عليها

لكن غزو الروم مغامرة إن لم يحالف النصر فيها أعلام المسلمين تعرضت شبه الجزيرة لشرّ من الثورة التى أخمدتها حُروب الردّة : تعرضت للروم وحكمهم ، وتعرضت بذلك لكارثة تجتث حكم المدينة ، وقد تفتن المسلمين عن دينهم . ومنازلة الروم ليست هينة . إنما انتصر أبو بكر على المرتدين فى شبه الجزيرة لأن الإسلام قضى على الوثنية فيها ، ولأن البواعث التى أدت بطُليحة ومسيلمة والعنسىّ إلى الثورة وجدت من قبائل هؤلاء المتنبئين من رأى رِدتهم نقضاً لعهد عقدوه مع رسول الله ، حين ذهبت وفودهم إليه بالمدينة تعلن

الإسلام وتنضوى تحت لوائه . أما الروم فكانوا نصارى أهل كتاب كالمسلمين ، ثم كانوا إلى ذلك أصحاب الكلمة العليا فى توجيه سياسة العالم لذلك العصر .

صحيح أنه قامت بينهم وبين فارس حروب استطالت على السنين ، كتب النصر فى بداءتها للفرس ، ثم انتهى الغلب فيها للروم . وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين الكبيرتين ما يحتاج إلى الجهد الضخم والسنين الكثيرة لتعويضه . لكن للفوز فى الحروب بريقاً يكلل هام المنتصر بأكاليل تبهر أنظار الناس ، وتصدهم عن محاربة من كان النصر حليفه . ولم تكن الأمة العربية قد جرّبت حظها فى مثل هذه الحروب من بعد لتقدُم على مغامرة لها من الخطر ما يصد عنها ، بل ما يخيف منها .

ولم يرد التفكير فى محاربة الفرس بخاطر أبى بكر ؛ فالحجاز لا يتصل بفارس . والبلاد العربية التى تتاخم الفرس هى البلاد التى فشت فيها الردة ، ويتعذر لذلك أن يعتمد أبو بكر عليها أو يأمن أهلها فى غزو دولة لا يزال لها ، مع ظفر الروم بها ، جيوش جرارة وموارد كثيرة . أفلا يجمل بالخليفة أن يوجّه همه إلى توطيد الأمن فى مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لتنضمّ كلها فى وحدة تزيدها قوة وتزيد سياستها اتساقاً !

المثنى بن حارثة الشيبانى يتقدم فى أرض العراق

وإن أبا بكر ليفكر فى هذا وفى مثله إذ ترامت إليه الأنباء بأن المُثنى بن حارثة الشيبانى قد سار بقواته شمالا فى البحرين ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات ، وأنه قضى فى مسيرته هذه على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين بالبحرين . وسأل أبو بكر عن هذا المثنّى من هو ، وإلى أى قبيلة ينتسب ، وعلم أنه من البحرين من بنى بكر بن وائل ، وأنه انضم إلى العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحى ، وأنه تابع مسيره مساحلا الخليج الفارسى إلى الشمال ، حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين فتحدث إليهم وتعاهد معهم . وعلم أكثر من ذلك أنه رجل جليل المكانة يعتمد عليه . قال عنه قيس بن عاصم المِنقرىّ : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد . هذا المثنى بن حارثة الشيبانى ! » .

جعل أبو بكر يفكر فيما سمعه من ذلك وفيما يمكن أن ينشأ عنه . وأدّى ذلك به إلى معاودة التفكير فى دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة كيما ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة . ألا يستطيع هذا المثنى أن يتوغل فى العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية ! فقبائل العرب فى العراق من بنى لخم وتغلِب وإياد والنّمر وبنى شيبان تهوى نفوسهم إلى منابتهم فى شبه الجزيرة . ومن العراق انحدرت سجَاح تُعلن نبوتها فى بنى تميم ، وتعتمد على أبناء هذه القبائل العربية التى نزحت إلى شواطئ الفرات . لعل البدء بتوجيه سياسة المسلمين إلى هذه الناحية يكون أجدى من كل توجيه آخر ! ولعل هذا المثنّى الشيبانى يكون خير طليعة لتنفيذ هذه السياسة !

اضطراب الأمر فى فارس

وشجّع أبا بكر على العود إلى هذا التفكير ما يعلمه من أمر فارس صاحبة السلطان فى العراق . فقد انتصر هرقل على الفرس قُبيل وفاة النبى وحطم جيوشهم فى نينَوى ودستَجِرد ، وسار حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم . وقد بلغ من ضعف سلطانهم أن تخلصت اليمن من نيرهم وأن انضم بازان إلى رسول الله ، ثم لم يحركوا لاستردادها ساكناً . ومن بعد ذلك تقلص سلطانهم من البحرين ومن جميع الإمارات الواقعة على الخليج الفارسى وعلى خليج عدن ، ولم يفكر أحد من ملوكهم فى استرداد شىء من هذا السلطان قلّ أو كثر . وكيف يفكرون والاضطراب ضارب بجرانه فى بلاطهم ، يسعى كل أمير ليقتل الجالس على العرش فيأخذ مكانه ؛ حتى لقد ادعى هذا العرش فى أربع سنين تسعة من الأمراء كانوا يقتتلون عليه فيقتل بعضهم بعضاً ، جهرة حيناً وغيلة حيناً . لا عجب إذن أن يصح ما تحدّث الناس به إلى أبى بكر عن المثنى وفعاله . ثم لا عجب أن ينشط تفكير أبى بكر فى العراق وفتحه .

مقدم المثنى بن حارثة إلى المدينة

وبينا يتأمل الخليفة الأمر ويطيل التفكير فيه ، إذ أقبل المثنى إلى المدينة وتلقاه أبو بكر وسمع منه وعرف من أنبائه ما زاده اطمئناناً إلى أن البدء بفتح العراق العربى أدنى إلى النجاح ، ولن يلقى من المقاومة ما يلقاه التقدم فى الشام . وليس العراق على شواطئ النهرين دجلة والفرات وفى الجزيرة الواقعة بينهما بأقل من الشام جمالا ونضرة . وإذا لم يكن أهل الحجاز قد تحدثوا عنه ما تحدثوا عن

الشام لقرب الشام منهم ، ولأن الطريق إليه طريقهم فى رحلة الصيف ، فغداً يتحدثون عن العراق وتتجه إليه أنظارهم ما اتجهت إلى الشام . فليعزم الصدّيق إذن أمره ، وليتوكل على الله .

وكيف له أن يتردد وقد ذكَّره المثنى بأن قبائل العرب التى استقرت بدلتا النهرين الغنية بألوان الزرع والفاكهة وبالطير والحيوان، مالت إلى الحضر والإقامة وعمل أبناؤها فلاحين فى الأرض ، وأن دهاقين الفرس يستولون على غَلَّتها ، ولا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذى يجود الدهاقين عليهم به . أىّ مرعى أخصب من هذا المرعى لبثّ الدعوة العربية ، ولتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس ومن عدوانهم ، فهؤلاء العرب وإن استقروا بأرض العراق يستجيبون لا ريب لكل دعوة عربية . ومعاملة الدهاقين لهم تُعِدّهم للثورة بهم ، أما وقد أحسنوا السماع لحديث المثنّى فالفرصة من ذهب ، يجب ألا تضيَّع ، بل يجب أن تتخذ خطوة لما بعدها .

ولئن حالف النَّجاح المسلمين فى هذه الخطوة لتكونن البشير بخطوات واسعة . فليست دلتا النهرين ، على خصبها وحسن ثمرها ، أخصب العراق أو أجمله أو أحسنه ثمراً ؛ بل إن دجلة والفرات ليجريان متوازيين قرابة ثلاثمائة ميل قبل أن يتصلا . ولا يقف أمر المناطق التى يتوازيان فيها عند الخِصب الممرع الذى يجعل منها جنة دونها جنات الشام التى بهرت أنظار أهل الحجاز وسحرت قلوبهم ، بل إن بها من ذكريات التاريخ ما يثير الإعجاب فى نفس من يسمع بها من أهل شبه الجزيرة ، بل من أهل الأرض جميعاً . وحسبُك أن مدينة « أور » التى تكشفت فى عصرنا الحديث عن آثار يقرنها بعض الناس إلى آثار الفراعنة ، تقع فى هذه المِنْطقة . فإذا أنت سرت شمالا لقيك بعد قليل من توازى النهرين آثار بابل القديمة ، ولقيك على شواطئ الفرات برج بابل قائماً يحدّث عن عظمة الأشوريين ويروى تاريخ مجدهم . ونحن نتحدث إلى اليوم عن هذا البرج فيثير حديثه فى نفوسنا العجب . ما بالك به من أربعمائة وألف سنة مضت ، وبما كان يثيره فى النفوس حين كان العرب يسمعون حديثه !

ليس العراق أقل إغراء من الشام

فإذا أنت تابعت السير على الفرات قابلتك المدائن عاصمة الفرس ومهد الترف والنّعمة لذلك العهد فى العالم كله . فقد بلغ الفرس يومئذ من الترف ما تبلغه الأمم حين تنحدر إلى ناحية التدهور والانحلال .

لعل الأسماء التى ذكرنا قد أثارت فى نفسك صورة من العظمة التاريخية لهذه البقعة التى تقع شمالى دلتا النهرين ، وأثارت كذلك فيها ذكر ما كان حول هذه المدن من حدائق وكروم وزروع تمتد إلى الأفق زاهية الخضرة ، يبعث أريج زهرها أروح العطر إلى الهواء الذى تتنفسه .

أمَّا وذلك بعض ما فى هذه البقاع من خصب جعل الناس يطلقون عليها اسم « جنة الأرض » لكثْرة غلالها ووفرة خيراتها وبعض ما فيها من جمال يعدل ما فى الشام أو يزيد عليه ، فقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنّى الشيبانىّ ، ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها . فإذا استجاب هؤلاء العرب من بعدُ للدعوة الإسلامية ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك، وإلا قاتل المسلمون الفرس ليكون الميدان لحرية الرأى فسيحاً ، وكلمة الحق منتصرة لا محالة بالحجة والموعظة الحسنة .

رأى خالد ابن الوليد فى غزو العراق

واستشار أبو بكر أصحابه وعرض عليهم ما جاء به المثنى من الأنباء ، وقوله له : « أمِّرْنى على من قِبَلى من قومى أقاتل مَنْ يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى » . وتداول القوم المشورة بينهم ، فرأوا أن الأمر فى حاجة إلى رأى خالد بن الوليد يكشف لهم عما يجب إذا قاوم أهل فارس المسلمين . وكان خالد باليمامة مقيما مع زوجتيه أم تميم وبنت مُجاعة ، يستجم بعد غزوة عقْرباء ، ويطمئن إلى العيش بينهما . وقد استدعاه أبو بكر على عجل فحضر . ولم يتردد خالد حين عرف ما جاء المثنى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب من النتائج على مقاومة الفرس لجيش ابن حارثة . فقد يلعوتهم انتصارهم إلى التفكير فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها . فأما إن أعد الخليفة للحرب عُدتها ، وجعل ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلتى إليه المسلمون بفِلَذ أكبادهم فلا ريب عنده فى أن العراق سيفتح أبوابه ؛ وفى أن العرب المقيمين به عاملين فى الزراعة سيكونون من عوامل النصر لبنى جنسهم .

وأتم أولو الرأى المداولة فيما بينهم ، وأقروا أبا بكر على تأمير المثنّى . عند

ذلك أمره أن يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ودعوة إلى الحق ، فكان أمره هذا الخطوة الأولى فى فتح العراق . فأما الخطوة الحاسمة فكانت توجيه خالد ابن الوليد على القيادة العامة لجيوش الفتح . وفعال خالد فى العراق وانتصاراته على الفرس موضع حديثنا فى الفصل التالى .

* * *

رواية أخرى فى فتح العراق

هذه الرواية فى التمهيد لفتح العراق هى الراجحة فى رأينا . على أن طائفة من المؤرخين يذهبون إلى أن المثنى لم يذهب إلى المدينة ولم يقابل أبا بكر ، وأنه أمعن فى السير بجيشه فى دلتا الفرات ، فلقيه هُرْمز ، فكانت بينهما وقعات نمى خبرها إلى أبى بكر . فلما سأل عن المثنَّى وعرف من هو وماذا كانت فعاله فى البحرين أثناء حروب الردّة ، أصدر أمره إلى خالد بن الوليد كى يخفّ إليه ، ويعينه على هُرمز ، وينصره والعرب الذين آزروه ليريحهم من هذا الطاغية الفارسى . وهذه الرواية مرجوحة عندنا وإن كنا لا نقطع بعدم صحتها . فقد انتصر المثنَّى على الفرس ولم يكن فى حاجة إلى مدد . وشجع انتصاره أبا بكر على التفكير فى غزو العراق ، فأمر خالداً أن يذهب إلى دلتا الفرات يعزز المثنَّى ثم يسير حتى يفتح الحيرة عاصمة العرب اللخميين ، وأمر عياض بن غنْم أن يسير إلى دومة الجندل يُخضع أهلها الذين تمردوا وارتدوا ثم يسير من هناك إلى الحيرة . وأى القائدين سبق صاحبه فله القيادة العليا وله الأمر فى تلك البلاد .

وإنما ذكرنا أن الرواية الثانية مرجوحة ، ولم نقل إنها غير صحيحة ، لما فى الروايات التى انتهت إلينا عن ذلك العهد من الاضطراب . ولقد بلغ من اضطرابها حين الحديث عن فتح العراق ومقدماته أن تردد الطبرى وابن الأثير وغيرهما فلم يرجحوا رواية على أخرى .

ويرى بعض المتأخرين من المؤرخين أن خالداً حين ذهب إلى دلتا الفرات لم تكن أمامه خُطة مرسومة ولا غاية معينة ، وإنما ذهب مدداً للمثنى ينقذه وينقذ جيشه . فلما انتصر على الفرس وتقدم إلى الشمال وبعث إلى الخليفة بالأخماس وبأنبائه كان هو الذى صور الفتح كيف يكون ، وهو الذى اتجه إلى الحيرة فما شمالها . ولقد يُضعف من هذه الرواية أن أوامر أبى بكر إلى قواده

كانت صريحة دائمًا فى ألا ينتقل أحدهم من غزاة إلى ما بعدها إلا بإذنه. ذلك ما رأيناه فى حروب الردة ، وذلك ما كان من بعدُ فى فتح العراق والشام. فليس من الممكن مع هذا أن يكون فتح العراق فلتةً ، أو أن يسير خالد بن الوليد مستقلاً عن أوامر أبى بكر .

والآن فلنسرْ مع المثنَّى إلى دلتا النهرين . وعما قريب يلحقنا خالد هناك ليضرب الفرس فى العراق ، ولينتقل منه إلى الشام فيمهد للقضاء على دولة الروم فى آسيا القضاء الأخير .

الفصل الثانى عشر

فتح العراق

أجاب أبو بكر طلب المثنَّى بن حارثة الشيبانى ، فأمّره على من معه من قومه ليقاتل أهل فارس ، فلما بلغته أنباء نصره بدلتا النهرين رأى أن يُمِده ليتابع غزواته . لذلك أمر خالد بن الوليد أن يجمع بقية جنده وأن يسير إليه ، وأن تكون القيادة العليا لخالد بطبيعة الحال . ولقد أمر عياض بن غَنْم أن يسير إلى دُومة الجندل يخضع أهلها المتمردين ثم يسير منها شرقاً إلى الحيرة ، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له ، وخالد فيها من قواده ، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة لخالد وعياض من قواده .

أوامر أبى بكر بحسن معاملة العرب من أهل العراق

وكان العرب فى العراق يعملون فلاحين فى أرضه ، ثم ينالهم القليل من خيره . أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم . وقد أصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ؛ لا يقتلون منهم أحداً ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسيئون إليهم فى أمر يتصل بهم ؛ فهم عرب مثلهم ، وهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس ، فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين مقدم العرب ، ويجب أن يعمّهم العدل على أيدى بنى عمومتهم . ذلك واجب على المسلمين يأمرهم الله به ، وهو بعدُ السياسة الحكيمة التى تكفل للمسلمين النصر ، وألا يُؤْتوا بعد نصرهم من خلفهم .

وكان جنود خالد قد قلَّ عددهم ، إذ قُتل منهم باليمامة ما سبق أن ذكرنا ، وعاد منهم مسرَّحاً إلى قومه من رغب فى الرجوع إليهم . وما كان لخالد أن يستدعى هؤلاء ، وقد أمره أبو بكر أن يأذن لمن شاء بالرجوع ، وألا يستفتح بمتكاره ، وألا يكون معه فى الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه .

جيش خالد لفتح العراق

وطلب خالد إلى أبى بكر المدد فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمىّ . وعجب قوم وقالوا : أتمد رجلاً قد ارفضّ عنه جنوده برجل ! ! وأجابهم أبو بكر : لا يُهزم

جيش فيهم مثلُ هذا ! وكذلك كان جوابه حين أمدّ عياضًا بعبد بن عوف[١] الحميريّ . على أنه كتب إلى خالد حين بعث إليه القعقاع يقول له : « استنفر من قاتل أهل الردّة ومَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٢] .

ولم يلبث خالد حين عاد ينظم جيشه أن حشد ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه ، ثم سار إلى العراق على رأس عشرة آلاف ، قدم بهم على ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوه إليه ، والمثنّى فى مقدمتهم .

وكان أمر أبى بكر إلى خالد إذا دخل العراق أن يبدأ بالأُبُلَّة على الخليج الفارسىّ . وكانت الأبلة الثغرَ الذى تسير التجارة منه إلى الهند والسند ، وترد إليه منهما للعراق . وقد اختلف الرواة : أفتح المسلمون الأبلة فى هذه الحرب ثم عادوا فاستردوها من الفرس أيام عمر بن الخطاب ؟ أم أنهم لم يفتحوها إلا فى عهد عمر ؟ . أمّا إجماع الرواة فعلى أن أول غزاة بالعراق كانت غزاة الحفير[٣] .

هرمز أمير الثغور

والحفير تقع قريبًا من خليج فارس على حدود الصحراء وعلى مقربة من ثغر كاظمة . وكان هُرْمُز أمير هذه المنطقة كلها من قِبل فارس ، وممن

(١) فى الكامل لابن الأثير : « عبد بن غوث » .

(٢) وقد أورد الأزدى كتاب أبى بكر إلى خالد بن الوليد ليسير إلى العراق فإذا هو موجه إلى خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وفيه بعد حمد الله والثناء على نبيه والتذكير لأمره ما نصه : « فقد أمرت خالد بن الوليد بالسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمرى ، فسيروا معه ولا تثاقلوا عنه فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته ، وعظمت فى الخير رغبته . فإذا قدمتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى . كفانا الله وإياكم مهم أمور الدنيا والآخرة ! والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

ولم يذكر الطبرى ولا ابن خلدون ولا ابن الأثير هذا الكتاب .

(٣) يذكر الطبرى وابن الأثير هذا الخلاف فى أمر الأبلة . ويقول الأزدى فى فتوح الشام: إن سويد بن قطبة الذهلى قاتل أهل الأبلة فقاوموه ؛ فلما بلغ خالد العراق وسار إليه اتفقا على أن يتظاهر خالد بمغادرته والسير إلى المثنى ، ثم يرجع إليه إذا جن الليل . وخيل إلى جيش الفرس بالأبلة أنهم قادرون على قتال ابن قطبة فغدوا إليه مصبحين ، فلقيهم خالد فهزمهم شر هزيمة . ومثل هذه الرواية ورد فى فتوح البلدان للبلاذرى .

تم شرفهم بين أمرائها . وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم ؛ فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مئة ألف ، وتلك كانت قيمة قلنسوة هرمز . وكان هرمز من أسوأ أمراء الثغور معاملة للعرب ؛ حتى لقد بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل فى الخبث ؛ فكانوا يقولون : « أخبث من هرمز » ، و « أكفر من هرمز » . وترجع كراهيته للعرب إلى أن أبناء عمومتهم فى شبه الجزيرة كانوا لا يفتئون يشنون الغارات للنهب والسطو على البلاد الواقعة فى إمارته، فكان يحاربهم فى البر . أما الهنود ، وكانت تجىء سفنهم إلى تلك الثغور فتقوم فيها بأعمال تشبه القرصنة، فكان يحاربهم فى البحر ؛ وكان بهذه الحرب فى البر والبحر يعدّ نفسه حامى البلاد التى تعدّ مفاتح فارس .

خالد بن الوليد يقسم جيش المسلمين ثلاث فرق

سار خالد من اليمامة إلى العراق على رأس عشرة آلاف من الجند . فلما بلغ حدوده ألفى المثنى ومن معه ينتظرونه . هنالك قسم الجند كله ثلاث فرق؛ وجـّه كل واحدة منها فى طريق على أن يلتقوا جميعـًا بالحفير . فأما الفرقة الأولى وعلى رأسها المثنى بن حارثة الشيبانى فسارت قبل خالد بيومين . وأما الفرقة الثانية وعلى رأسها عدىّ بن حاتم الطائى فسارت قبله بيوم . وسار خالد فى المؤخرة . وكان خالد قد بعث قبل ذلك إلى هرمز كتابـًا يقول فيه : « أما بعد ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمـّة، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

تناول هرمز هذا الكتاب وترامت إليه أنباء المسلمين ومسيرة جندهم ، فكتب إلى أردشير الملك بالخبر ، وجمع جموعه وسار إلى الكواظم يلقى خالداً بها . فلما علم أن خالداً أمر أصحابه بالسير إلى الحفير أسرع بجنده إليها ونزل على الماء فيها . وقد قدم خالد عليهم وأمر بالنداء فى الجند لينزلوا ويحطوا أثقالهم . وتحدث إليه قوم من رجاله أنهم على غير ماء ، فقال لهم : « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء . فلعمرى ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ! » .

ووقف هرمز فى جيشه ، وعلى ميمنته وعلى ميسرته أميران من بيت الملك

غزاة كاظمة وانتصار خالد على الفرس

فى فارس ، هما قُباذ ، وأنُوشَجان ؛ ونادى هرمز : أين خالد ؟ يريد أن يخرج ابن الوليد إليه يبارزه . فلقد كان يعرف من بطولة خالد وفعاله فى بلاد العرب ما آمن معه بأنه إن يقتل خالداً يضمن لفارس نصف النصر إن لم يضمن لها النصر كله . ولكن كيف سولت له نفسه أن يقتله وخالدٌ البطل الذى لا يغلب ؟ ! الأمر يسير ؛ فالخيانة تمهد له درك غرضه . لهذا عهد إلى جماعة من فرسانه إذا رأوا خالداً خرج إليه أن ينقضوا عليه ويقتلوه .

وسمع خالد نداء هرمز فنزل عن جواده ومشى إليه فالتقيا فاختلفا ضربتين . وشدّ فرسان فارس يريدون قتل خالد واستخلاص هرمز من يده . لكن القعقاع بن عمرو لم يُمهلهم أن حمل عليهم حين كان خالد قد قبض على ناصية هرمز يستلّ روحه من بين جنبيه . وشدّ المسلمون فانهزم أهل فارس أمامهم ، فطاردوهم وركبوا أكتافهم إلى الليل . وبلغ المسلمون الجسر الأعظم من الفرات حيث تقع البصرة اليوم ، فى حين فرّ قباذ وأنوشجان فيمن بقى من جيش الفرس لا يلوون على شىء .

تم النصر للمسلمين ، فأمر خالد معقل بن مقرّن المزنى بالسير إلى الأبُلَّة ليجمع مالها وسبيها ففعل[1]، وأمر المثنى بن حارثة أن يلاحق المنهزمين من جيش الفرس فطار فى أثرهم وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المدائن .

حصن المرأة

ومر المثنى أثناء مطاردته جيش الفرس بحصن تقيم فيه أميرة فارسية يطلق مؤرخو العرب عليه اسم حصن المرأة . وقد ترك أخاه المُعَنَّى بن حارثة على حصار هذا الحصن ، وسار هو فحاصر زوجها فى حصنه ، ففض الحصن على من فيه وقتلهم ، واستفاء أموالهم ، ثم استمر يطارد بقية الجيش ، وعلمت المرأة بما أصاب زوجها فصالحت المعنّى وأسلمت وتزوجته .

أطلق على هذه الغزاة الأولى لخالد بالعراق اسم «ذات السلاسل» .

---

(١) ينكر بعض المؤرخين ذهاب معقل إلى الأبلة ، ويذكرون ، كما قدمنا ، أن المسلمين لم يفتحوا هذا الثغر إلا فى عهد عمر بن الخطاب . ويذهب مؤرخون آخرون إلى أن معقلا فتح الأبلة فاستردها الفرس ثم عاد العرب فى عهد عمر فاستولوا عليها . وقد يمكن التوفيق بين هذه الرواية وما سبق أن ذكرناه من أن سويد بن قطبة هو الذى فتح الأبلة بمعاونة خالد ، وذلك بأن يكون معقل اقتصر ، بعد غزاة كاظمة ، على جمع المال والسبى تنفيذاً لأمر خالد .

وعلة هذه التسمية ، فيما يقولون ، أن الفرس اقترنوا فى السلاسل حتى لا يفروا . ويروى أن خالداً جمع ما خلّف القوم وراءهم من هذه السلاسل فكانت وقر بعير ألف رطل . ويرتاب بعضهم فى هذه الرواية فيسمى هذه الغزاة غزاة كاظمة، نسبة إلى أقرب قرية من المكان الذى وقعت فيه .

أثر الغزوة فى نفوس العرب

كان لهذه الغزوة الأولى أثر عظيم ألهب حمية المسلمين . فقد رأوا الفرس لا يثبتون أمامهم أكثر مما كان يثبت العرب فى حروب الردّة . ولقد قُتل هرمز من يد خالد ، فكان مقتله مرضاة للعرب جميعاً أى مرضاة . هذا إلى جسامة ما غنموه فيها مما لم يكن لهم بمثله عهد ؛ فقد بلغ نَفَلُ الفارس ألف درهم خلا السلاح .

وزاد نصر المسلمين فى هذه المعركة جلالاً تنفيذ خالد للسياسة التى رسمها أبو بكر مع العرب الفلاحين بالعراق أدق تنفيذ . فقد سبى أبناء المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم . أما الفلاحون فتركهم لم يحركهم ، وأقر من لم ينهض منهم وجعل لهم الذمّة .

وبعث خالد خمس الغنائم إلى أبى بكر بالمدينة ، وبعث معها قلنسوة هرمز وفيلاً أخذه المسلمون فى الموقعة . ولم يكن أهل المدينة قد رأوا فيلا فى حياتهم ، بل لم تر بلاد العرب كلها فيلا قبل ذلك إلا فيل أبرهة حين حاول هدم الكعبة . فلما طاف قائد الفيل به فى المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان الضخم وتولى بعضهم الريبُ فى أمره ، بل لقد جعلت ضعيفات النساء يقلن : أمن خلق الله هذا ! ! وخيِّل إلى بعضهن أنه من صناعة فارس ! ورأى أبو بكر أنه لا نفع فيه فردّه إلى العراق مع قائده .

الفرس يتجهزون لغزاة المذار

ألهبت هذه الغزاة حميَّة المسلمين ، حتى لقد استمر المثنى الشيبانى يطارد الفرس المنهزمين وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المدائن . وفيما هو يتعقبهم جاءته الأنباء بأن جيشاً عظيماً من الفرس أقبل من المدائن لملاقاة خالد وجنوده . ذلك أن الملك أردشير ما لبث حين جاءته رسالة هرمز أن دعا إليه قارن بن قريانس أحد الأمراء الذين تم شرفهم ، وجعله على رأس قوة سارت مدداً لجيش الثغور . ولقى قارن فى طريقه إلى الجنوب قباذ وأنوشَجان

على رأس الفلّال المنهزمين ، فاستوقفهم وتحدث إليهم وبعث السكينة إلى نفوسهم وضمهم إلى جيشه وعسكر بهم فى المـَذار على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات . وأيقن المثنّى أن انفراد جيشه بلقاء هذه القوة العظيمة قد يجر عليه الهزيمة ، فاختار مكاناً قريباً من المذار أنزل جنده فيه ، وكتب إلى ابن الوليد بتفصيل ما عنده . وخشى خالد أول ما بلغه النبأ أن يلقى قارنُ ابنَ حارثة فيهزمه فيفتّ ذلك فى أعضاد المسلمين ، فطار بجيشه وبلغ المذار ، وقارن يُعِدّ للقاء المثنى عُدته ، وجنود المثنى لا يعلمون ما الله صانع بهم .

كان للمثنى وجنوده العذر أن تثور مخاوفهم . فقد بعثت هزيمة هرمز الحقد والحفيظة إلى نفوس الفرس ، فأقبلوا وكلهم حب الانتقام ، وحسبوا أنهم بالغون منه غايتهم بهزيمة المثنّى وجنوده وهم بعيدون عن مركز القيادة . فلما بلغ خالد المذارَ أخاف الفرس وإن لم يخفف وصوله غُلواء قارن ولم يضعف من عزمه . ورأى قباذ وأنوشجان فرصة الثأر لهزيمة الحفير سانحة ، وأرادا أن يغسلا بفعالهما ما تجللاه ثَمّ من ثياب الخزى والعار ، فاستنهضا هم الجند الذين كانوا معهما ودفعاهم إلى الميدان يغلى فى عروقهم حرص على الثأر لا تهدأ ناره . وخيّل إليهما وإلى قارن أنهم إن هاجموا خالداً قبل أن يتخذ للموقف عُدته لم يفتهم الظفر بالمسلمين وأن يردوهم على أعقابهم إلى شبه الجزيرة منكسة رءوسهم ، صريعاً فى أذهانهم كل أمل فى قتال كسرى أو منازلة رجاله .

خالد بن الوليد فى غزوة المذار

ورأى خالد تأهب جيوش الفرس فبقى على تعبئته التى جاء بها من الجسر الأعظم وشد بقواته عليهم . ورأى المثنى وجنوده فى مقْدم خالد عليهم معجزة أمدهم الله بها لينصرهم ، فانقلبوا من الخوف إلى اليقين بالنصر أسوداً كاسرة لا تهاب الموت بل تلقاه باسمة . وهنا حقت كلمة خالد لهرمز : « إنى جئتكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة » . والتحم الجمعان ، فإذا قارن وقباذ وأنوشجان يُذْبحون بأعين رجالهم ، وإذا سيوف المسلمين تطيح برءوس الفرس من كل جانب ، وإذا الجيش الذى خيل إليه أن النصر بين يديه يفر أمام خالد وجنده إلى السفن يتخذونها مطاياهم للنجاة ، وإذا المسلمون يغنمون مما تركوا ما شاء الله أن يغنموا . وحال الماء بين المسلمين وتعقبهم ، فأقام خالد بالمذار

وسلم الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت ، وقسم الفيء ونفّل من الأخماس من أحسنوا البلاء .

أقام خالد بالمذار ، فسبى أبناء المقاتلة ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس . وكان أبو الحسن البصريّ بين الأسرى فى هذه الموقعة . وحرص خالد بعد أن اطمأن له الأمر على تأمين مواصلاته إلى الخليج الفارسى ، فأمّر القواد على الجند الذين استبقاهم بالحفير وعلى الجسر الأعظم ، وولى العمّال على الجباية ، وأقام مكانه يتنطس أخبار عدوه .

وما كان ليحسب أنه ، وهو لا يزال على مقربة من خليج فارس ، قد قضى على قوات كسرى بالعراق ؛ فهو بعدُ من الحيرة على آماد غير قليلة ؛ والحيرة تكاد تنتصف الطريق بين الخليج والمدائن . وإلى شمال المدائن من أرض الفرس ما يعج بالجند عجيجاً . ولا يأمن المسلمون أن يستعين الفرس قبائل العرب بالعراق عليهم . وهذه القبائل منتشرة على تخوم العراق إلى البادية ، منتشرة فى جزيرة العراق بين النهرين ، وأكثرها على النصرانية لم تزعجها فارس المجوسية عنها . فإذا جاء هؤلاء المسلمون فدعوها إلى الإسلام أو الجزية رأت أن الخير لها فى أن تبقى كما هى متمتعة بحريتها . لا جرم إن رأت ذلك أن تنضم إلى الفرس وأن تعينهم . هذه كلها احتمالات دارت بخلد القائد العبقرى ، فقدّرها قدرها ، وحسب لها حسابها .

التجهيز لغزوة الولجة

ولم يخطئ فيما قدّر ؛ فإن الفرس ما لبثوا ، حين رأوا ما أصابهم بالحفير والمذار ، أن اتجه تفكيرهم إلى الاستعانة على العرب بالعرب . فإنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد . وكان كسرى يطمئن إلى ولاء قبائل عربية كثيرة بينها جماعات عظيمة من بنى بكر بن وائل . لذلك دعاهم وجعل عليهم قائداً منهم ووجههم إلى الولَجة . ولكى لا يكون لهم كل فخار النصر أقام قائداً من أقدر قواده ، هو بَهْمَن جاذويْه ، على جيش من الفرس وجّهه فى أثرهم . ولقد ازداد جيش القبائل العربية بمن انضم إليهم بين الحيرة والولَجة من العرب والدهاقين الذين عسكروا إلى جانبهم . وبلغهم بهمن على رأس الجنود الفارسية وأعدّ معهم لقتال المسلمين عدّته .

بلغت هذه الأنباء خالد بن الوليد وهو بالمذار ، فأمر من خلّف من قواده وجنوده على الحفير وكاظمة وسائر ما اطمأن له من أرض العراق أن يكونوا على حذر ، وألا يغترّوا بما فتح الله عليهم من النصر ، وخرج فى جنده إلى الولجة يقاتل جنود كسرى . وكان الفريقان فى الغاية من قوة البأس والعزم ، حتى لقد تردد النصر بينهما زمناً أى الفريقين يصاحب . وكان خالد فى عبقرية قيادته قد أمر اثنين من أمراء جنده أن ينفصلوا أثناء السير عنه وأن يكمنوا وراء العدو فيأخذوه أثناء القتال على غرّة . لكن هذا الكمين تأخر فلم يظهر ، على حين كانت صفوف المقاتلين من المسلمين ومن عدوهم تترجّح متقدمة طوراً ، متراجعة طوراً آخر . وظن الفريقان أن الصبر قد نفد وأن المعركة لن تنتهى إلى غاية . وإنهم لكذلك إذ خرج كمين المسلمين فى ناحيتين من وراء جيش كسرى ، فى حين كان خالد يشتد فى الضغط عليهم من أمامهم . هنالك انهزمت صفوف الأعاجم فولوا وقد أخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه . ولى الأعاجم وولى العرب الموالون لهم وسيوف المسلمين آخذة برقابهم ، وجنود المسلمين يأسرون منهم من لم يتردّ قتيلا ؛ وسبى خالد ذرارى المقاتلة ومن أعانهم .

انتصار المسلمين فى الولجة ومغانمهم منها

بلغت المغانم يومئذ مبلغاً جعل خالداً يقوم فى الجيش مشيراً إلى ثراء الأرض التى يقاتلون فيها ويقول : « ألا ترون إلى الطعام كرفْغ التراب[1] وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثّاقل عما أنتم عليه » . أفيضنّ مسلم بعد هذا الكلام بروحه ! إنه ها هنا يجاهد فى سبيل الله ، وينفل المغانم ، وتصبح السبايا ملك يمينه . أليس هذا نعيم الدنيا والآخرة ! من ذا يزهد فيه ! ومن ذا لا يسارع إلى لقاء الله عليه ! ! .

التجهز لغزوة أليس

كان هذا شأن العرب ؛ فماذا كان شأن فارس حامية الحضارة فى عالم يومئذ ، ومهد الترف والنعمة ، والعلم والفن ؟ إن تعجب لأمر بعد الولجة فلأن

(١) الرفغ هنا : الأرض الكثيرة التراب ؛ يقال جاء فلان بمال كرفغ التراب ؛ أى فى كثرته .

الذين غلى الدم فى عروقهم للهزيمة التى نزلت بهم لم يكونوا الفرس، بل كانوا بنى بكر بن وائل من العرب . هؤلاء شقّ عليهم أن يغلبهم بنو عمومتهم من شبه الجزيرة فغضبوا وغضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبهم الأعاجم . فاجتمعوا جميعاً بأُلَّيْس على صلب الفرات فى منتصف الطريق بين الحيرة والأبُلَّة . وكتب كسرى أردشير إلى بهمن جاذويه أن سِرْ حتى تقدم أُلَّيس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب . ورأى بهمن أن يسير إلى أردشير ليُحدث به عهداً ، وليتلقى أوامره، فقدّم جابان أحد القواد وأمره أن يحث السير إلى أُلَّيس وقال له : « كَفكِفْ نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحقَ بك إلا أن يُعْجِلوك » . وألفى بهمن أردشير مريضاً فأقام إلى جانبه وترك الأمر إلى جابان ولم يبعث له عن مقامه بنبأ ولم يُحدث له منه ذكراً . وبلغ جابان أُلَّيس فوقف إلى جانب عبد الأسود العِجْلى أمير الجند على بنى بكر بن وائل ومن نفر معهم من نصارى العرب ، وجعل يدبِّر وإياه أمر القتال .

لم يقف خالد بن الوليد على نبأ من مسيرة جابان وجنود فارس ، وإنما بلغه ما كان من تجمع العرب النصارى بأُلَّيس ، فخرج فى جيشه ومن انضم إليه من عرب العراق ، وكرّ راجعاً إلى الحفير يؤمِّن مؤخرته . واطمأن إلى ما أراد ، ثم انقلب مسرعاً يلقى العدو حيث عسكر . ولم ينتظر القوم حين بلغ أُلَّيس ، بل دعاهم إلى القتال . وأسرع العرب إلى لقائه ، فلم يمهلهم أن قتل قائدهم مالك بن قيس . ولما رأى جابان صفوفهم تضطرب تقدم بجنود فارس يعززهم ، وهو وجنوده أشد ما يكونون بالفوز ثقة . أليس بهمن قد وعدهم أنه آت إليهم ، فليصبروا للمسلمين وليصابروا حتى يجيئهم المدد، وليستميتوا فى الدفاع عن مواقفهم. ورأى خالد صبرهم وقوة تجلدهم لبأسه، وإن لم يعرف باعثهم على هذا وذاك . وترجّحت الموقعة حيناً حار له خالد، فتوجه إلى ربه يستنصره ويقول : « اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم ! » . وأنت تعرف معنى هذه الكلمة صادرة من أعماق سيف الله ومن صميم قلبه، هذا القلب الذى لا يعرف الخوف ولا يهاب الموت

المعركة تترجح فيستنصر خالد ربه

ولا يفزع لمرأى الدماء. وطال بالفرس وأنصارهم الصبر وبهمن لا يُقبل، ولم يذر خالد أثناء ذلك لوناً من ألوان المداورة التي تفيض بها عبقريته في القيادة إلا ضيَّق به الخناق على أعدائه، فلما عيل صبرهم وتداعت قوتهم ولم يبق لهم من الهزيمة مفر، تحطمت صفوفهم وانقلبوا على أعقابهم يسارعون إلى الهرب، ولا مأرب لهم إلا النجاة. ورأى خالد فرارهم، فأمر مناديه فنادى في رجاله: «الأسر! الأسر! لا تقتلوا إلا من امتنع». ولحق فوارس المسلمين بالفرس وأنصارهم من العرب وجاءوا بهم أفواجاً أسارى يساقون سوق النَّعَم.

وكان الفرس قد أعدوا قبل المعركة طعام غذائهم فأعجلهم خالد عنه، فلما انهزموا وقف خالد على الطعام وقال لرجاله: «قد نفَّلتكموه فهو لكم». وجلس المسلمون إلى الموائد يتناولون عشاء شهياً رأى الكثيرون منهم فيه عجباً؛ رأوا الرُّقاق ولم يكونوا يعرفونه، فجعلوا يقولون: ماهذه الرقاع البيض! وجعل من عرفها يجيبهم مازحاً: هل سمعتم برقيق العيش! فهذا هو. ولذلك سمي الرقاق. أما العرب فكانت تسميه القِرى.

ودعا خالد بالأسرى يستعرضهم ليبر يمينه أن يُجرى نهرهم بدمائهم، ووكل بهم رجالا يضربون أعناقهم في النهر بعد أن صدَّ الماء عنه. وأقام الموكلون يضربون يوماً وليلة والنهر لا يجرى دماً. وقال قوم من أصحاب خالد يخاطبونه: «لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم. إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق، فأرسل عليها الماء تبر يمينك». وأمر خالد فأعيد الماء إلى النهر فجرى دماً عبيطاً، ومن يومئذ سمي هذا النهر: «نهر الدم». روى الطبرى أنه كانت على النهر أرحاء طحنت في ثلاثة أيام قوت ثمانية عشر ألفاً من الجند والماء من تحتها يتدفق أحمر قانياً.

نهر الدم

لم يكف خالداً أن يجرى النهر دماً، بل قصد إلى بلد قريب من أُلَّيْس يسمى أمْغيشيا أو منَيشيا كان مصراً كالحيرة، وكان يقع عند منتهى الفرات بنهير بادقْلى، وكان أهله قد اشتركوا في الحرب بضاحية أليس، فأمر جنده فهدموه وجعلوا عاليه سافله، وأصابوا كل ما كان فيه وعدوه مغنماً،

فكان نصيب الفارس منه ألفاً وخمسمائة سوى ما منحه خالد من أحسنوا البلاء في ألّيس .

وبعث خالد بالأنباء وبخمس الفيء والسبي إلى أبي بكر مع رجل يدعى جندلا من بني عجل . فلما قصّ عليه ما حدث وأخبره بفتح ألّيس وبعدد الفيء وبعدة السبي وبأهل البلاء من الناس وبفعال ابن الوليد، لم يملك أبو بكر نفسه أن صاح : «عقمت النساء أن يلدن مثل خالد ! » . وأمر لجندل بجارية من ألّيس ولدت من بعدُ له، وأمر فأذيعت أنباء النصر في المدينة وفي غير المدينة من بلاد العرب ، واطمأن إلى نصر الله جنوده في العراق، وإلى أن سيف الله لا غالب له[1] .

ما يتهم به خالد من الوحشية ورأينا فيه

يقف بعض المؤرخين عند ما قصصنا من حوادث أليس وأمغيشيا يُبدون الأسف أن يقع من قائد عبقري كخالد فعال ذلك مبلغها من الوحشية ، ويودون لو أن ما روى عنها غير صحيح ، وإن رجحوا صحته لتضافر رواة المسلمين على ذكره . ولست أقف عند ترجيح ما روى أو عدم ترجيحه . لكني لا أملك نفسي دون الابتسام حين أرى هذه الفعال تنعت بأنها وحشية . ولست أبتسم إنكاراً لهذا النعت أو استنكاراً له ،وإنما أبتسم لأنني أرى أن كل حرب وحشية ، والحرب مع ذلك مسوَّغة في نظر الأمم المتحضرة . فإذا كان الالتجاء إلى الحرب مع وحشيتها تسوغه قضية نعتقدها عادلة، فتصوير ما يترتب على الحرب الوحشية في أصلها وصميمها بأنه وحشي يدعو إلى الابتسام وإلى أكثر من الابتسام .

والحق أن الحضارة الإنسانية لما تصل إلى المدنية السامية التي تنزهها عن الوحشية وتسمو بها عليها . فهذه الوحشية لا تزال تعد من مقومات الحضارة ، ولا يزال الاستعداد للحرب يعدّ جوهريًّا في حياة الأمم ، بل جوهريًّا لحفظ كيانها حتى تكسب المناعة من أسباب الانحلال؛ فما يلجأ إليه قائدٌ من القواد في أثناء الحرب ،مما يزيد في وحشيتها بعض الزيادة أو ينقص منها بعض النقص، ليس أمراً ذا بال في حياة هذه الإنسانية . وقد اعتاد الناس في مختلف العصور

---

(١) يذكر الطبري وابن الأثير وغيرهما أن عدد القتلى من غير المسلمين بلغ في أليس سبعين ألفاً.

أن يعدلوا النصر عذراً عن كل ما سبقه . وقد حالف النصر خالداً فى كل مواقعه ، فليكن له من انتصاره العذر ، إن لم يكن من التماس العذر بدٌّ .

وحسبك لتطمئن إلى هذا العذر أن تعلم أن انتصار خالد وفعاله قد حطمت الروح المعنوية فى قلوب الفرس ومن والاهم من العرب ، فانكمشوا ولم يفكر أحد منهم فى الثأر بعد ألّيس ، كما أرادوا من قبل أن يثأروا للمذار وللحفير . بل لقد بلغت هزائم الفرس من نفس كسرى أردشير فلم يُطق أن يقاوم المرض الذى أصابه واستبقى بهمن إلى جواره فمات غمًّا وكمداً . وكيف للفرس أو لأوليائهم من العرب أن يفكروا فى الثأر ، وقد رأوا المسلمين يحبون الموت حقًّا ، ورأوا حبهم الموت يهب لهم الحياة ! ثم رأوا قائدهم وكأنه إله الحرب استحال رجلا ! أليس خيراً لهم ، وذلك ما تراه أعينهم ، أن يُلقوا سلاحهم وأن يسلموا لحكم القدر ! ! .

أثر غزاة أليس فى الفرس وفى أوليائهم من العرب

وذلك ما فعلوا . تشاغل الفرس بموت مليكهم ، وتشتت العرب فى البادية وفى جزيرة بين النهرين ، وانقطع كل نبأ عن التهيؤ للحرب أو لإجلاء المسلمين عن البلاد. لكن خالداً كان أحصف من أن يُلهيه سكوتهم أو يُبطره الظفر فلا يرى ما يطوى الغد فى ضميره . وقبائل العرب هى التى حرضت الفرس على القتال فى ألّيس . وهذه القبائل إن سكنت يوماً فلتَغْدِر فى غده . فإن لم يقض خالد على كل أمل لهم فى الثورة أو فى الغدر ، وإن لم يؤمّن كل طريق يؤدى إلى شبه الجزيرة ، فلا يلومن إن أصابه المكروه إلا نفسه . والحساب لكل صغيرة وكبيرة لم يفته فى يوم من الأيام ، لهذا حسب للموقف حسابه وأحكم تدبيره . وأيسر هذا الحساب أن يحتل الحيرة عاصمة العرب ، وأن يضع يده على منازلهم غرب الفرات إلى حدود شبه الجزيرة .

وكان حاكم الحيرة مرْزباناً فارسيًّا يدعى آزاذبه . وكانت عاصمة العراق العربى قد تقلص سلطانها فى ذلك العهد ، بعد أن كان قبل خمس وعشرين سنة قوى الجانب مسموع الكلمة . ذلك أن اللخميين الذين أنشئوا الملك فى الحيرة منذ القرن الثانى للمسيح وقاموا به قروناً متوالية ، اختلفوا مع الطائيين اختلافاً أنشب الحرب بينهم . وانتهز كسرى فرصة خلافهم فنصر الطائيين على

النعمان بن المنذر ثم قبض عليه فحبسه وقتله ، وأقام إياس بن قَبِيصة الطائى حاكماً للحيرة وما يقع فى سلطانها . وبعد سنوات من ولايته هزم بنو بكر بن وائل جيشاً من الفرس يؤيده أنصار إياس بذى قار هزيمة أطاحت إياساً عن عرشه وطوعت لكسرى أن يقيم مرزباناً من لدنه حاكماً للحيرة . بذلك زال نفوذها وانحل سلطانها . لكن مكانتها فى نفوس العرب جعلتهم مع ذلك يرمقونها بعطفهم وينالونها برعايتهم . ولهذا خشى خالد حين رأى حقدهم عليه ، أن يتضافر بنو بكر بن وائل مع الطائيين وسائر العرب المقيمين بالحيره وفيما حولها لمقاومته أو قطع الطريق عليه ، فعزم مهاجمتها والاستيلاء عليها واتخاذها مقر قيادته ومصدر نشاطه .

التجهز لفتح الحيرة

ولم يكن أهل الحيرة فى شك من مَقْدَمه عليهم وحصاره إياهم بعد أن استفاضت بينهم أخبار ألَّيس وأمغيشيا وانتصاره عندهما وأفعاله فيهما . وقدَّر حاكم الحيرة أنه سيركب إليه النهر متخذاً من سفن أمغيشيا مطيته . لذلك نهض آزاذبه فى عسكره إلى خارج الحيرة ، وأمر ابنه فسدَّ قناطر الفرات ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها ، وليعوق بذلك سير السفن إليه .

ولم يخطئ آزاذبه فى تقديره ؛ فقد استقل خالد وجيشه سفن أمغيشيا ودفعوها شمالا إلى ناحية الحيرة . وإنهم لكذلك إذ جنحت السفن وارتطمت بقاع النهر . وريع المسلمون لجنوحها وارتطامها ، وأخذ الغضب من خالد مأخذه . وسأل عن علة ما حدث ، فأجابه الملاحون بأن أهل فارس سدوا القناطر وحولوا الماء ، فلم يبق منه بالنهر ما يحمل سفنهم ، فخرج فى كتيبة من فرسانه فلقى ابن آزاذبه على فم العقيق ، ففاجأه ورجاله وهم فى مأمنهم ، وأعاد الماء يجرى فى النهر وأقام مع فرسانه يحرسه . وعادت السفن إلى المسير وحملت إليه جيشه فسار به إلى الخَوَرْنَق حيث أنزله ليُعدَّ لفتح الحيرة عُدَّته .

خالد فى قصر الخورنق

ووضع خالد يده على قصرى الخورنق والنَّجف ، وكانا مصيف أمراء الحيرة ، فى حين عسكر جيشه أمام أسوار المدينة . أما آزاذبه ففر هارباً من غير قتال ، متأثراً بما أصاب ابنه ، وبموت أردشير . ولم يثن فراره أهل الحيرة عن التحصن بقلاع المدينة الأربعة وبأسوارها ، وعن اتخاذ العُدة للدفاع عنها

ما وجدوا إلى الدفاع سبيلا .

لكن عُدتهم لم تكن لتُجديهم فتيلا . فقد أثار الخورنق وأثارت الحيرة خيال الجند المسلمين وبعثت إلى نفوسهم ذكرى النُعمان الأكبر ابن المنذر وذكرى سِنمَّار وما أصابه لبناء هذا القصر المنيف وما قيل من الشعر فيه ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم وعزماً على عزمهم . والقائد النابغة ، ابن الوليد ، سيف الله وسيف دينه الحق ، ما غناء عدة وإن عظمت أمام عبقريته وبأس لقائه ! لقد أبى أهل الحيرة أن يُسلموا وألحوا فى إبائهم ، فعهد خالد إلى أمرائه أن يدعوهم بالدعوة إلى التسليم ، فإن أجابوا إليه قبلوا منهم ، وإن أصروا على الإباء أجّلوهم يوماً ثم قاتلوهم وقتلوهم . ودعا أمراء المسلمين زعماء الحيرة إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة . واختار الزعماء المنابذة ، فقض الجند عليهم قصورهم وأكثروا القتل فيهم . وكان بأديار الحيرة عدد عظيم من القسيسين والرهبان ما لبثوا حين رأوا المذبحة تصيبهم وتصيب غيرهم أن نادوا : « يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ! » ورأى أهل القصور المقاومة عبثاً فنادوا : « يا معشر العرب ! قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تُبلغونا خالداً » .

مقاومة الحيرة تتحطم

وخلا خالد بأهل كل قصر دون الآخر ، وقال لهم : « ويحكم ! أأنتم عرب ، فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ » . وكان جوابهم : « بل عربٌ عاربة وأخرى متعرّبة » . قال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحادُّونا وتكرهوا أمرنا ؟ » . وأجابوا : « ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية » . قال خالد : « فاختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » . وأجابوا : « بل نعطيك الجزية » .

وعجب خالد منهم لإلحاحهم فى نصرانيتهم ، وقال لهم : « تباً لكم ! ويحكم ؛ إن الكفر فلاةٌ مضلةٌ ، فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان أحدهما عربىّ فتركه واستدل الأعجمى » . ولم يغير هذا الكلام من إصرار القوم

على دينهم . ولعلهم إنما فعلوا متأثرة نفوسهم باعتبار الكرامة الإنسانية التي تحول بين المرء والرجوع عن عقيدة يؤمن بها لأنه غُلب على أمره وأكره على تبديل دينه؛ متأثرة كذلك بأن المسلمين لا يزالون فى أول عهدهم بالعراق، وليس يدرى أحد أيطمئن لهم الأمر فيه أم تُجليهم الحوادث عنه .

صلح أهل الحيرة على الجزية

وصالح خالد القوم على الجزية تسعين ومائة ألف درهم، وكتب بينه وبين نقبائهم عدىّ وعمرو ابنى عدىّ وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرىّ ابن أكال كتاباً عاهدهم فيه برضا أهل الحيرة وأمرهم على هذه الجزية ، تقبل فى كل سنة على أن يمنعهم، فإن لم يمنعهم فلا جزية عليهم . أما إن غدروا بفعل أو قول فذمّته منهم بريئة .

وأهدى القوم إلى خالد هدايا بعث بها وبنبأ الفتح والمعاهدة إلى أبى بكر ، فأجاز المعاهدة وقبل الهدايا ، لكنه احتسبها من الجزية وكتب بذلك إلى خالد[1] .

قصة شويل وكرامة بنت عبد المسيح

ويروى المؤرخون عند ذكرهم نبأ الصلح قصة طريفة وإن ران الريب على حوادثها ؛ ذلك أن خالداً أبى أن يكتب مع القوم عهداً إلا أن تُسْلم كَرامة بنت عبد المسيح أخت عمرو إلى شُوَيْل[2]. وهو إنما أصر على ذلك

(١) يجمع المؤرخون على قصص يروونها عن عمرو بن عبد المسيح ، وكان يسمى بقيلة لأنه خرج على قومه فى بردين أخضرين فقالوا له : ياحار ، ما أنت إلا بقيلة خضراء . قيل كان بقيلة أول من طلب الصلح ففوضه فيه قومه . وسأل خالد بن الوليد عمراً : كم أتت عليك ؟ قال : مئو سنين . قال : فما أعجب ما رأيت ؟ قال : رأيت القرى منظومة بين دمشق والحيرة تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفاً . فتبسم خالد وقال : هل لك من شيخك إلا عقله ، خرفت والله يا عمرو ! ثم أقبل على أهل الحيرة فقال : ألم يبلغنى عنكم أنكم خبثة خدعة مكرة ! فما لكم تتناولون أموركم بخرف لا يدرى من أين جاء ! فتجاهل عمرو وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله ويستدل به على صحة ما روى عنه فقال : وحقك أيها الأمير إنى لأعرف من أين جئت ، قال خالد : فمن أين جئت ؟ قال : من بطن أمى . فقال : فأين تريد ؟ قال : أمامى . قال : وما هو ؟ قال . الآخرة . قال: فمن أين أقصى أثرك ؟ قال : من صلب أبى . قال: ففيم أنت ؟ قال : فى ثيابى . قال : أتعقل ؟ قال : أى والله . فلما رأى خالد حصافته قال : قتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها والقوم أعلم بما فيهم . قال عمرو : أيها الأمير . النملة أعلم بما فى بيتها من الجمل بما فى بيت النملة .

(٢) والبلاذرى يذكر أن اسم الرجل خريسم .

لما قيل من أن شويلا هذا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فتح الحيرة فسأله كرامة ، فقال له : « هى لك ، إذا فتحت عنوة » . وكانت كرامة بارعة الجمال فى صباها ، وكان شويل قد رآها فى شبابه فجنّ بها وأقام يهرف بها دهره . أما وقد طالب بها فما كان لخالد إلا أن ينفذ وعد رسول الله .

وشق هذا الأمر على أهلها وأعظموا الخطر ؛ فقالت لهم « هونوا عليكم وأسلمونى فإنى سأفتدى . وما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ! إنما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ! » . ودُفعت إلى شويل ، فقالت له : « ما أربُك إلى عجوز كما ترى ؟ فادنى » قال : « لا ، إلا على حكمى » . وقلت : « فلك حكمك مرسلا » ، قال : « لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم » . وتظاهرت كرامة باستكثار المبلغ لتخدعه ، ثم أتته به ورجعت إلى أهلها . وسمع أصحاب شويل بما صنع فسخروا منه لقلّة الفداء وعنفه بعضهم ؛ فكان اعتذاره : « ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف » ، وشكا أمره إلى خالد ، وقال : « كانت نيتى غاية العدد » . قال خالد : « أردت أمراً وأراد الله غيره. نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك كاذباً كنت أو صادقاً » .

ولما تم لخالد فتح الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلّم فيها . فلما أتمهُن انفتل إلى أصحابه يقول : « لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف ، وما لقيت قوماً كمن لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أُلَّيْس » .

خالد يتخذ الحيرة مركز قيادته

وأقام خالد بالحيرة وجعلها مركز قيادته ، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب . على أنه ترك أمر إدارتها لزعماء من أبنائها . لذلك اطمأنوا إلى حكمه ، ونشروا حولهم جواً من السكينة إليه . ورأى أهل البلاد القريبة من الحيرة عدلا شاملا ، ورأوا بلاط فارس مشتغلا عنهم ، ففكروا فى مصالحة خالد والانضواء للوائه . أليس قد ترك الفلاحين يعملون فى الأرض لم يتعرض لهم ، بل رفع عنهم ما كان نازلاً بهم من ظلم دهاقين الفرس ، وحفظ عليهم كل حقوقهم ؟ وكان أول من صالحه صُلوبا بن نسطونا صاحب قُس النَّاطِف

على بانقيا وبسما، وكتب معه عهداً على الجزية والمنعة لقاء عشرة آلاف دينار فى كل سنة ، القوىّ على قدر قوته، والمقلّ على قدر إقلاله . وختم هذا العهد بالعبارة الآتية وجّه فيها الحديث إلى صلوبا : « وإنك قد نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك ، وقد قبلت ومن معى من المسلمين » .

صلح البلاد القريبة من الحيرة مع خالد

وأسرع غير صلوبا من الدهاقين إلى مصالحة خالد على ما بين الفلاليج إلى هُرْمُزْ جِرْد على ألفى ألف. بذلك بلغ سلطان خالد إلى شاطئ دجلة ، وجعل عمّاله يقتضون الجزية فى هذه البلاد جميعاً ما بين الخليج الفارسى جنوبا إلى الحيرة شمالا ، ومن حدود بلاد العرب غرباً إلى دجلة شرقاً .

وأقام خالد فيالق من جيشه فى أماكن حصينة ليمنعوا من أجارهم من عدوان غيرهم عليهم ، وليكون مُقامهم فى مختلف المواطن مظهر السلطان الإسلامى بين أهل البلاد . ولقد كان لتوزيع هذه القوات فى مواطن حصينة أثره الحاسم فى القضاء على كل تفكير فى الفتنة ، وفى توطيد الأمر للمسلمين لا ينازعهم فيه منازع .

الاضطراب فى ملك فارس

وإنما خشى خالد ثورة الفتنة من ناحية القبائل العربية . أما الفرس فكفاهم أن بقيت المدائن بعيدة عن غزو المسلمين ، ثم كفاهم ما كانوا فيه من اضطراب حال بينهم وبين التفكير فيما عداه . فقد قتل شيرى بن كسرى وخلفاؤه كل وارث للعرش من أبناء كسرى وبَهْرام جُور ، فلم يجد الفرس من يملّكونه عليهم وتجتمع الكلمة حوله . وتعاقبت على العرش أميرات زدنه ضعفاً على ضعف . لهذا قنع الأعاجم بأن تظل عاصمتهم آمنة بما أقاموا حولها من قوات اتخذت نهر شير الذى يصل بين دجلة والفرات معقلا لها ، فى حين ظل ملكهم فيما هو فيه من فساد واضطراب .

وما كانت هذه القوات الفارسية لتصد خالداً عن مهاجمتهم لولا أوامر أبى بكر إليه ألا يبرح الحيرة أو يوغل فى الفتح حتى يدركه عياض بن غَنْم ليحمى ظهره . وقد بقى عياض بدومة لم يستطع التغلب على أهلها من يوم خرج إليهم . لذلك أقام خالد سنة كاملة بعاصمته الجديدة ، ويكاد بُعده عن ميادين القتال يقتله . ولطالما قال لأصحابه : « لولا ما عهد إلىّ الخليفة لم

أتنقذ عياضاً ، وما كان دون فتح فارس شيء . إنها لسنة كأنها سنة نساء!».

سأم خالد وتحديه ملوك فارس ومرازبتها

ثم إنه غلبه السأم ، فدعا إليه من أهل الحيرة رجالا دفع إليهم كتابين ، أحدهما إلى ملوك فارس ، والآخر إلى مرازبتها فى أولهما : «والحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم . فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون ، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» . وجاء فى الثانى : «أسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر» .

ماذا عساه يفعل بعد هذين الكتابين وأوامر أبى بكر إليه صريحة ، «ورأى الخليفة — فى تعبير خالد — يعدل نجدة الأمة ؟!». لقد حرّم أبو بكر عليه المدائن قبل أن يدركه عياض . أو لا يجد فيما سوى المدائن رياضة لنشاطه الحربى تتفق وأوامر الخليفة ؟! نعم ! فهؤلاء هم الفرس قد أقاموا كتائب فى الأنبار وعين التمر على مقربة من الحيرة ، وقد تسوّل لهذه الكتائب نفسها أن تهدد المسلمين فى مستقرهم الجديد . فليتحرك خالد إليهم وليقض عليهم ، وليجعل لنفسه من ذلك رياضة عن سنة النساء التى قضاها قاعداً لا يقاتل ولا يقتل . وترك القعقاع على الحيرة ، وجعل على مقدّمته الأقرع بن حابس وسار على شاطئ الفرات يبدأ بالأنبار .

خالد يسير إلى الأنبار ويستولى عليها

ونزل خالد فحاصر المدينة ، وأمر جنده فرشقوا رجالها بالنبل . لكنها ظلت متحصنة بأسوارها وبالخندق العميق الذى حفر حولها . وخالد قائد لا صبر له دون النصر . لذلك طاف بالخندق ، حتى إذا كان عند أضيق مكان منه أمر بالإبل الضعاف فنحرت وألقيت فى أعماقه فطمّته ، واقتحم الجند من فوقها إلى الأسوار فحطموا أبوابها ؛ وكانوا على أهبة الدخول إلى المدينة يمعنون فيها قتلا وسبيًا ؛ لكن قائدها الفارسى شيرزاد أرسل إلى خالد أنه قبل مطالبه فى الصلح على أن يُلحقه بمأمنه فى كتيبة من خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء . وقبل خالد وسرّح شيرزاد ، ودخل الأنبار واستقرّ بها وصالح مَن حولها ، واستتب له الأمر ، وتم له بعض ما أراد من رياضة عبقريته على القيادة .

ثم يسير إلى عين التمر فيحاصرها ويفتحها

اطمأن الأمر لخالد فى الأنبار وما حولها ، فاستخلف عليها الزّبْرِقان ابن بدر ، وقام فى جنوده يقصد عين التمر على شفا الصحراء بين العراق وبادية الشام فبلغها فى ثلاثة أيام . وكان مهران بن بهرام جوبين حاكم عين التمر من قِبل فارس ، وكان حوله فيها جمع عظيم من العجم ، وإلى جانب هؤلاء الأعاجم أقام عشير عظيم من قبائل البادية ، بنى تغلب والنَّمر وإياد يرأسهم عقَّة بن أبى عقة والهذيل ومن كانوا معهم على قيادة الجنود التى نفرت مع سجاح لتغزو المسلمين بالمدينة . ورأى أهل عين التمر مقدم خالد عليهم ، فقال عقَّة لمهران: « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالداً ! » وابتسم مهران وقال : « صدقت ! لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم ؛ دونكموهم ! وإن احتجتم إلينا أعنّاكم». ولم يفطن بعض الفرس لخدعة مهران وخالوا كلامه عجزاً فلاموه عليه فأجابهم : «دعونى ، فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم. إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلّ حدكم ، فاتقيته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهى لكم، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهِنوا فنقاتلهم ونحن أقوى وهم مُضْعَفُون » .

شدة خالد فى معاملة المدافعين عن عين التمر

ونزل عقَّة لخالد على الطريق وحمل بجنده على جيش المسلمين ، فأسرع خالد إليه فاحتضنه فأخذه أسيراً ، فولَّى البدو منهزمين من غير قتال . وتعقبهم المسلمون فأكثروا الأسر فيهم فى حين نجا الهذيل ومن معه من أمرائهم . ولم يلبث مهران حين رأى من الحصْن ما حدث أن فرّ فى جنده وترك الحصن تحميه الكتائب التى امتنعت فيه ، وتحميه فلول البدو التى عادت هزيمة إليه . ورأى مَنْ بالحصن أن لا طاقة لهم بخالد ، فسألوه الأمان فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه . وأجابوه إلى ما طلب وفتحوا له أبواب الحصن ، فاعتقلهم وأمر بعقَّة فضُرب عنقه ، ثم ضرب أعناق المقاتلة بالحصن وسبى نساءهم وغنم أموالهم .

ويفسر الرواة شدة خالد فى هذا الموقف بأن أعداءه قتلوا عُميراً الصحابى كما قتلوا أحد الأنصار غدراً ؛ ويرى بعضهم أن هذه القسوة أورثت عرب العراق حقداً على خالد كان ذا أثر فى الانتقاض الذى حدث بعد ذهابه لفتح الشام .

وكان بالحصن بيعةٌ يتعلم الإنجيل فيها أربعون غلامًا عليهم باب مغلق . وقد كسر خالد الباب عليهم وسألهم : ما أنتم ؟ قالوا: رُهُنٌ ، فقسمهم فيمن أحسنوا البلاء . وأكبر الظن أن ما كانوا يتعلمونه فى هذه البيعة كان عظيم الجدوى ؛ فقد نشأ منهم سيرينُ أبو محمد بن سيرين فقيه البصرة ، ونُصَيْر أبو البطل الفاتح موسى بن نصير فاتح الأندلس .

ولما أتم خالد فتح الأنبار وعين التمر بعث إلى أبى بكر بالأخماس والأنباء مع الوليد بن عقبة . وقص الوليد على الخليفة ما حدث . ولعله قص عليه سأم خالد سنة مُقامه بالحيرة وقوله للمسلمين : «لولا ما عهِد إلىّ الخليفة لم أتنقذ عياضًا ، وما كان دون فتح فارس شىء ! إنها لسنة كأنها سنة نساء! » وكان أبو بكر من جانبه قد بدأ يسأم موقف عياض ويرى فيه ما يضعف الروح المعنوية للمسلمين . ولولا فعال خالد بالعراق لأزرى هذا الموقف بهم ، ولأغرى خصومهم بالانتقاض عليهم ومحاولة النيل منهم . فلما سمع قصص الوليد عن خالد وسأمه أمر الوليد أن يتوجّه مددًا لعياض بدومة الجندل . وألفى الوليد عياضًا يحاصر القوم ويحاصرونه وقد أخذوا عليه الطريق ، ولم يجد بعد مداولة الرأى معه وسيلة تُنقذه من هذا الموقف. هنالك قال له : «الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف . ابعثْ إلى خالد فاستَعْنِدْه » .

أبو بكر يمد عياض بن غنم بالوليد بن عقبة لفتح دومة الجندل

وما كان لعياض أن يتردد فى قبول المشورة وقد بقى سنة كاملة لا يقوى على خصومه ولا يبلغ منهم . وبعث إلى خالد رسولا أدركه غداة فراغه من عين التمر . فلما فض خالد كتاب عياض ورأى ما فيه تهلل وأخذ منه الطرب وردّ الرسول لساعته يحمل كتابًا منه إلى عياض يقول فيه :

إياك أريد .

لبّث قليلا تأتك الحلائبْ   يحملن آسادا عليها القاشب[1]

كتائبٌ تتبعها كتائب

وخفّة خالد لنجدة عياض وهذه الشطرات من الرجز تقطع فى الدلالة على ما قدمنا من أن سأمه سنة النساء وبُعده عن ميادين القتال كادا

---

(١) القاشب : السيف الصقيل المجلو .

يقتلانه ، كما تدل على أن الأنبار وعين التمر لم تشفيا غُلَّته ، ولم تكفيا رياضة لعبقريته الجبارة .

ابن الوليد يسرع السير إلى دومة

وخلَّف خالد عُويم بن الكاهل الأسلمى على عين التمر وخرج فى جنده يسرع إلى دومة جهده . وكان بين دومة الجندل وعين التمر ثلاثمائة ميل قطعها خالد فى أقل من عشرة أيام ، اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفود ، منحدراً من الشمال إلى الجنوب ، مستعرضاً خطر الصحراء ورمالها السافية بعزم لا يعرف الخطر . فلما كان قريباً من دومة وتسامعت القبائل بمقْدمه بُهِتَتْ ، ثم اختلف زعماؤها بينهم ما يصنعون .

وكانت القبائل المعسكرة بدومة فى ذلك الحين أضعاف عددها يوم جاءها عياض قبل عام . ذلك أن بنى كلب وبهْراء وغسان نفروا من العراق ونفر معهم غيرهم منحدرين إلى دومة يريدون أن يثأروا من عياض لهزائمهم أمام خالد . وكان مجيئهم مما زاد موقف عياض حرجاً . وكان أكيدر بن عبد الملك الكندىّ صاحب دومة هو الذى انتقض على سلطان المدينة ، وهو الذى دفع أبا بكر ليبعث إليه عياض يرده بالسيف عن انتقاضه . ولم يكن أحد من أهل هذه القبائل أعرف بخالد من أكيدر ؛ فهو لم ينس عام تبوك ورجوع رسول الله منها إلى المدينة ، وانقلاب خالد بن الوليد بأمر الرسول إلى دومة فى خمسمائة فارس وانقضاضه عليه وأخذه إياه أسيراً ، وتهديده إياه بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها . وهو لم ينس كيف فتحت دومة الأبواب فداءً لأميرها ، وكيف ساق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُرّ وأربعمائة درع . ولم ينس أخذه إياه إلى المدينة حيث أسلم وحالف رسول الله . لم ينس أكيدر هذا كله . لذلك لم يلبث حين عرف مقدم صاحبه أن توجَّه بالقول إلى الجودى بن ربيعة أمير القبائل التى انحدرت تنصر دومة وتثأر من عياض ينصحه أن يصالح خالداً . قال : « أنا أعلم الناس بخالد ! لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحدّ فى حرب . ولا يرى وجه خالد قوم أبداً كثروا أو قلوا إلا انهزموا عنه . فأطيعونى وصالحوا القوم » .

صاحب دومة ينصح القبائل بمصالحة خالد

أبت القبائل رأى أكيدر فقال لهم : « لن أمالئكم على حرب خالد ،

فشأنكم » وخرج لطيّته يلقاه . وتختلف الرواية فيما أصابه حين أدخل على خالد : يقول بعضهم أمر به خالد فضُرب عنقه ، ويقول آخرون بل أسر وأرسل إلى المدينة ثم سرّحه عمر فى خلافته ، فذهب إلى العراق وأقام على مقربة من عين التمر بمكان أسماه دومة .

ومضى خالد فجعل دومة بين عسكره وعسكر عياض بن غَنْم . وكان الجودىّ بن ربيعة قد بقى على أهل دومة ، فى حين ترأس كل قبيلة من القبائل التى أمدت دومة زعيمها . وقد ضاق حصن دومة بهذا العدد، فأقام سائر القوم حوله يحيطون به. واستفتح الفريقان القتال، فلم يلبث الجودى أمام خالد إلا قليلا ثم أخذه خالد أخذاً ؛ وأخذ الأقرع بن حابس زميله على أهل دومة، وهزم عياض من يليه من جند القبائل . عند ذلك أسرع القوم جميعاً إلى الفرار يريدون دخول الحصن والاحتماء به . فلما امتلأ أغلق مَن فيه أبوابه دون أصحابهم وتركوهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ويأسرون منهم من يشاءون .

وأقبل خالد فقتل الذين ظلوا خارج الحصن حتى سدّ بهم بابه ، ودعا بالجودىّ فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم ، إلا أسرى كلب فإنه أطلقهم على كره منه أن أجارهم الأقرع وعاصم . قال هذان لخالد . «قد آمنّاهم » ، فأطلقهم وهو يقول : «مالى ولكم ! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ! » .

خالد يحاصر حصن دومة ويفتضه ويقتل المقاتلة ويسبى النساء

وطوّف خالد بالحصن ، حتى إذا كان عند بابه أمر به فاقتلع ، واقتحم المسلمون على من فيه فقتلوا المقاتلة وسبوا النساء وباعوهن خير المشترين ، واشترى خالد أجمل فتاة فيهن ابنة الجودىّ بن ربيعة وأقام معها بدومة، وردّ الأقرع ابن حابس إلى الأنبار.

ما عناية المسلمين بدومة الجندل كل هذه العناية؟ وما حرصهم على الاستيلاء عليها كل هذا الحرص ؟ ! لقد رأيتهم على عهد الرسول تتجه أنظارهم إليها ، ثم يحالفونها ويضمونها إليهم. وها هم أولاء فى عهد أبى بكر

سبب عناية المسلمين بدومة

يقضون سنة أمام حصونها ، ثم لا ينفكون عنها حتى تدين لهم وتعود إلى سلطانهم، ولعلك عرفت الجواب من خلال هذا القصص : فدومة كانت تقع على رأس

الطريق الذى يؤدى إلى الحيرة وإلى العراق ، وعلى أبواب وادى سرحان الذى يؤدى إلى الشام. فطبيعىّ أن تنال من عناية رسول الله ما نالت حين كان أكبر همه إلى تأمين الحدود ما بين الشام وشبه الجزيرة . وطبيعىّ أن تنال مثل هذه العناية من أبى بكر وجنوده تقاتل بالعراق وتقف على تخوم الشام . وتلك هى العلة فى أن عياضًا لم يبرحها على طول ما أقام أمامها ، وفى أن خالداً خف إليها أول ما استشير فى الوسيلة للتغلب عليها ، ولو أن دومة لم تُذعن للمسلمين ولم تخضع لسلطانهم لبقى أمرهم فى العراق تحت رحمة المقادير ، ولما استطاعوا فتح الشام .

ولنقف الآن هنيهة مع خالد بدومة نسأله: ما سرّ هذه الموهبة التى جعلت النصر طوع يده ، بل جسمت النصر فى شخصه وجعلته مثاله ، فلو أنه عاش بين اليونان الأقدمين لأسموا إله النصر خالداً ؟ ! . أتراه يجيبنا ؟ ما أظن ! وهو لا يضن بالجواب استكباراً ، بل لأنه لا يعرف هذا السر أكثر مما نعرف . فهذا السر يتصل بالروح ، والروح من أمر ربى ، وخالد مثلنا لم يؤتَ من العلم إلا قليلا . ومتى عرف صاحب موهبة مكانها من نفسه ومصدر نبعها من روحه؟! إنما هو فيض من فضل الله يتجلى به على من يشاء من عباده ، فإذا هذا خالد بن الوليد وذاك عمر بن الخطاب ، وغيرهما ابن سينا ، وابن رشد ، ورفائيل وبتهوفن ، وشكسبير ، والمعرى ، وشوقى. وهذا الفيض الإلهى الذى يتصل بروح عبد من خلق الله هو الذى يسمو به وبالأمة التى ينشأ فيها إلى حيث يريد الله . فإذا التقت تيارات الفيض فى زمن واحد وفى أمة واحدة ما التقت فى أبى بكر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ومن عاصرهم وعمل معهم ، سمت فى فترة وجيزة من الزمن إلى حيث سمت الأمة الإسلامية فى سنوات معدودة ، فانتقلت فى أقل من جيل من بداوة شبه الجزيرة إلى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف المتغلغلة بسلطانها الروحى فى أعماق النفوس ، والتى حملت عبء الحضارة عن العالم كله عشرة قرون تباعًا حتى احتملته أوربا ولا تزال تنهض بعبئه إلى اليوم .

والناس يشعرون بسلطان هذه المواهب فتعنو لها وجوههم ، فإذا ارتحل

الصديق أبو بكر

عنهم صاحبها خلا لهم الجو فرفعوا رءوسهم وحاولوا الظفر بحريتهم . وكذلك صنع أهل الحيرة وغيرهم من أهل العراق فى غيبة خالد بدومة . ظن الأعاجم ومن ناصرهم من العرب أن الحظ موات والفرصة سانحة ، وخيِّل إلى بنى تغلب أن الثأر لمقتل عقَّة قد حان . ولم يكن فى طاقة القعقاع إلا أن يحمى ما كسب المسلمون فلا يدع من وراء حدودهم يتقدم إلى غزوهم . وبلغت خالداً هذه الأنباء فلم يطق البقاء بدومة بل خرج وعلى مقدّمته الأقرع بن حابس ومعه عياض بن غنم . وما لبث حين بلغ الحيرة أن جعل عليها عياضًا ، ووجه القعقاع إلى الحُصَيْد حيث تواعد الثائرون من العرب والفرس . أما هو فأقسم ليبغتنَّ تغلب فى دارها .

أهل العراق ينتهزون الفرصة لغياب خالد فيثورون

ولقد كفى أن علم أهل العراق بمقدمه فأسقط فى أيديهم وتنكَّر وجه الحظ لهم ، وخاب ما ظنوا أن هؤلاء الغزاة من شبه الجزيرة سيرحلون عنهم كما رحل من قبل أمثالهم . وبدا ذلك كله واضحًا فى وجوههم حين خرج القعقاع إلى استقبال خالد بظاهر الحيرة . فقد وقف فى طرقاتها رجال من أهلها يرون جيش المسلمين يمر بهم فيقولون لأصحابهم إذا رأوهم : مرّوا بنا فهذا فرَح الشرّ .

عود خالد إلى العراق وفعاله فيه

وسار القعقاع إلى حُصيد وقد أمده خالد من روحه بقوة على قوته ، فلم يثبت له العجم بل قُتل قائدهم ، وفرّ جيشهم ، وغنم المسلمون ما شاء الله أن يغنموا . وخيل إلى الفارين أنهم يستطيعون التحصن ببلدة الخنافس مع من بها من العجم . لكن قائدها فرّ أول ما سمع بمقدم جيش المسلمين ، فلم يلق هذا الجيش من يحاربه . وانتهى خبر ذلك كله إلى خالد ، فكتب إلى قواده فواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها ببلدة المُصَيَّخ ، منازل هذيل الثائرة بهم . واجتمعوا ليلة موعدهم وأغاروا على هذه القبائل وهم نائمون ، فملأوا الفضاء بقتلاهم ، حتى كأنهم غنم مصرّعه .

وقتل بالمُصَيَّخ رجلان من المسلمين معهما من أبى بكر كتاب بإسلامهما ، فلما بلغ مقتلهما أبا بكر وداهما . لكن عمر أخذها على خالد وأضافها إلى قتل مالك بن نويرة . وكما دافع الصدّيق عن ابن الوليد فى الأولى دافع عنه فى هذه

بقوله عن الرجلين . « كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب » .

وان لخالد بعد المُصَيَّخ أن تبرّ يمينه ليبغتنّ تغلب فى دارها . لذلك تقدم إلى قائديه القعقاع وأبى ليلى أن يرتحلا أمامه، وواعدهما الغارة على التغلبيين فى ليلة عيَّنها . واجتمع القواد الثلاثة من ثلاثة أوجه فجردوا السيوف ، فلم يفلت من جيش بنى تغلب مخبر . وأخذ خالد السبى والمغانم ، فبعث بالخمس إلى أبى بكر مع النعمان بن عوف الشيبانى . وقد اشترى علىّ بن أبى طالب من السبى صابحة بنت ربيعة بن بُجيْر التغلبى فولدت له عمر ورُقيَّة .

خالد يبلغ الفراض على تخوم العراق والشام

ذاعت أنباء خالد وشنُّه الغارة على القبائل ليلا فى منازلها ، وأخذه النساء والبنات سبيَّات منها ، وقسمته المغانم والسبى بين عسكره ، وعجز القبائل جميعًا عن مقاومته ، ففت ذلك فى أعضاد رجال البادية بالعراق ، فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان ، وجعل خالد يسير شمالا على شاطئ الفرات وفيما حوله ، فلا يلقى إلا الإذعان والإيمان بعبقريته . فلما بلغ الفِراض ، وهى تخوم العراق والشام ، نزلها بجيشه وأفطر بها رمضان فى تلك السفرة التى اتصلت له فيها الغزوات والأيام ونظمت نظمًا .

ولنتزل مع خالد الفِراض نستجم قليلا. فالفراض هذا أدنى إلى شمال العراق وشمال الشام . فلو أن عياض بن غنْم ساعفه الحظ فأخضع دومة أول ما ذهب إليها لما كان هذا الشمال الذى بلغه خالد هو الذى عناه أبو بكر حين أمر عياضًا أن ينزل العراق من شماله ، إنما كان مقصد الصدّيق إلى شمال الحيرة . أما أن تبلغ جنوده تخوم الشام من أعلاه فتلك معجزة لم يفكر الخليفة فيها ، وهى معجزة لم يؤتها إلا الذى عقمت النساء أن يلدن مثله . وأية معجزة كمواجهة الروم من تخوم فارس! وأية جرأة كمقام خالد بالفِراض شهراً كاملا وليس بينه وبين جيوش الروم المعسكرة بالشام غير مجرى الفرات ! أولا يخشى أن تضيق هذه الجيوش صبراً بمرآه فتنازله فيتضاعف بذلك عدوه ؟ وأىُّ عدو ! فارس من الشرق ، والروم من الغرب ، وقبائل البدو الحاقدة المحنقة من كل جانب. أليس خيراً له وقد قضى على ثورة العراق أن ينسحب إلى الحيرة وأن يقيم بها فيوطد ملك المسلمين فيها ! ! .

كلا ! لئن فعل ليكونن السياسى الذى يريد أن يجعل الزمن من جنده ، والصبر من أعوانه . وخالد أضيق صدراً بالزمن وأكثر ازدراء للصبر وأشد مقتاً للسياسة المحاولة المطاولة من أن يمر شىء من ذلك بخاطره . وما الفرس وما الروم وما رجال البادية وما جموعهم وإن زخرت أمام نظرته القوية الصارمة التى تلقى الرعب فى القلوب فتهز الميادين وتبطش بالدول أسرع البطش ! . إنه مقيم ها هنا بالفراض ، وللروم رأيهم إن شاءوا مصاولته .

ولمّا تكن الروم قد ذاقت بأس خالد . لذلك أغاظهم أن يقيم جيش المسلمين فى وجوههم وأن يطيل المقام ، وثارت فى عروقهم حمية أذكاها الفرس والعرب الذين ذاقوا من نكال خالد أهوالا . فقد كان للفرس كتائب قريبة من الفراض ، وأهل البادية من تغلب والنمر وإياد منتشرون فى كل مكان . هؤلاء وأولئك انضموا للروم وحرضوهم وأمدوهم ، فساروا حتّى إذا لم يبق إلا الماء بينهم وبين خالد بعثوا إليه يقولون : إما أن تَعْبُروا إلينا ، وإما أن نعبُر إليكم . قال خالد : بل اعبروا إلينا . وفيما يعبرون صفّ صفوفه ودبر خُطته . وقالت الروم لحلفائهم : امتازوا حتّى نعرف اليوم ما يكون من حسن أو قبيح من أيِّنا يجىء . والتقى الجمعان وقد أمرَ خالد رجاله أن يلحوا عليهم ولا يرفهوا عنهم ؛ فكان صاحب الخيل يحشر منهم الزُّمر برماح أصحابه ، فإذا جمعوهم قتلوهم . على أن مقاومة الروم وحلفائهم تُؤذِن بالمعركة أن تطول ؛ لذا أبدع خالد ألواناً من المداورة فى القيادة لم يعهدها أعداؤه من قبل فلم يثبتوا لها . وانكشف الروم وحلفاؤهم مدبرين والمسلمون من ورائهم يُمعنون فيهم قتلا . وبلغ من ذلك أن قتل بالفِراض فى المعركة وفى الطلب مائة ألف فى رواية جميع المؤرخين .

غزوة الفراض

انتصار المسلمين الحاسم فى وقعة الفراض

أقام خالد على الفراض بعد الموقعة عشرة أيام ، ثم أذّن فى الناس بالرجوع إلى الحيرة ، وكان أذانه ذاك لخمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة للهجرة .

ترى أيعود خالد مع الجيش يستقر بالعاصمة الجديدة ؟! .

إن عليه لله ديناً يجب قبل كل شىء أداؤه . وهو قد شعر بعد الفراض بجلال هذا الدين وبأنه لم يعد فى وسعه إرجاؤه . لقد فتح الله عليه اليمامة ، ثم

فتح عليه العراق ، وأدال له من دولة كسرى ، وبشره فى الفراض بإدالة الروم ودولتهم . لله الحمد على ذلك كله ألف حمد ، جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ! ترى أو يكفى الحمد ويجزئ الثناء عما أنعم الله به عليه ؟ أو ليس فرضاً لله عليه أن يحج بيته ، يزيده تبارك وتعالى حمداً وشكراً ، ويستغفره عما فرط منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! ! .

وتجسم الشعور بهذا الواجب فى نفس خالد بعد موقعة الفراض ، وجعل يزداد فى العشرة الأيام التى قضاها بها ، ثم صار قوة قاهرة لا فكاك له منها ولا سلطان له عليها ، بل صار أمامها أضعف من جيش الروم ومن جيش الفرس أمامه . لم يغب عنه ما يُهيئ بُعده عن العراق من فرص للفرس يحركون أثناءها أسباب الفتنة ويشجعون بها عوامل الانتقاض والثورة . ذلك أمر يجب لا ريب اتقاؤه . لكنه لن يردّه بحال عن عزمه ولن يصرفه عن أن يؤدى لله دينه .

ولا سبيل إلى اتقاء هذا الأمر إلا أن يحج خالد وأن يعود إلى العراق ، ثم لا يعلم بذلك أحد إلا أصفياؤه الذين يخرجون معه . لكن ! أليس واجبًا عليه أن يبلغ الخليفة وأن يتلقى أوامره ! فإن أبى عليه الخروج كان له عند الله عذره . وهبْه أجازه ثم حدث ما يخشى وانتقض العراق فأىّ خير للإسلام فى أن يعود بعد حجه يجاهد كما جاهد بعد دومة ! وإن لم يجزه الخليفة لم يسترح ضميره لنكوله . ليس له إذنَ إلا أن يمضى فى عزمه وأن يتم حجه فى سرّ من أبى بكر ومن الناس جميعًا . وإنه لواثق أن الصدّيق سيلتمس له عن صنيعه عذراً ، وأن الله سيكتب له بحجه أجراً .

حج خالد فى سر من الناس

أمر خالد الجيش إذن أن يعود إلى الحيرة متمهلا وأظهر أنه فى الساقة ، وخرج فى نفر من أصحابه ينهب الأرض إلى مكة ، متخذاً أكثر الطرق استقامة وإن كان أشدها وعورة . ومتى صده الوعر عن شىء ؟ ولم يحتج سلوك هذا الطريق إلى دليل يهديه . وما حاجته إلى دليل وهو من أبناء مكة يعرف ما يعرفون من طرق بلاد العرب لتجارتهم ، وهو قائد جاب أرجاء البادية جميعًا وعرف أوديتها وكثبانها ، سهولها ونجودها ! . وبلغ مكة وأتم فرائض الحج وأدى لله دينه ، ثم عاد أدراجه لم يعلم بمقدمه إلى مكة أحد من الألوف

الذين قدموا إليها ، ولم يعلم به أبو بكر ، وفى رواية أنه كان بمكة على الحج فى ذلك العام .

عاد أدراجه ينهب الأرض إلى الحيرة فى ذلك الطريق الوعر ، كما نهبها من قبل إلى مكة . ودخل الحيرة حين دخول ساقة الجيش من الفراض إليها . بذلك لم يفطن إلى رحلته لأداء الفريضة أحد من فرس العراق ولا من عربه ، ولم يترتب على غيبته هذه الفترة عن العراق أثر .

متى علم أبو بكر بحج خالد

وأقام خالد بالحيرة مطمئناً ، وكأنما خيّل إليه أنه أدى كل ما عليه لله وللدين الحق من واجب ، وأنه يستطيع بذلك أن يجمّ ، ثم لعله من بعد أن يذهب إلى المدائن يفتضّ على كسرى عاصمته . لكن للأقدار أحكاماً يُعجِز الناس غيبُها وإن أوتوا من قوة الحكم وسرعته ما أوتى سيف الله . ولقد شاءت الأقدار أن يتابع خالد ما فتح الله به عليه فى الفراض ، وأن يغزو الروم فى صميم ملكها ، كما غزا فارس فى صميم ملكها[1] .

قيل إن عمر هو الذى كان على الحج حين ذهب خالد إلى مكة ، وأن أبا بكر لم يرأس الحج فى خلافته . والمؤرخون يرجحون أن أبا بكر هو الذى كان على حج ذلك العام . وأيما الروايتين صحت فإن أبا بكر لم يعرف بحج قائده الأكبر إلا بعد أن رجع الناس جميعاً من الفريضة وبعد أن استقر خالد بالحيرة . أفغضب الخليفة لخروج خالد من غير إذنه ؟ وهل ترك هذا الغضب موجدة فى نفس الصدّيق عليه ؟ ! ذلك ما سنراه بعد حين .

---

(١) تتفق روايات المؤرخين عن فتح العراق ومسيرة خالد به إلى فتح الحيرة ؛ وما يقع على بعض التفاصيل من اختلاف الروايات لا يغير من تتابع الحوادث ولا من نتائجها . أما ما بعد ذلك فوضع خلاف . وما روينا فى هذا الفصل عن الأنبار وعين التمر والفراض هو ما اتفق عليه الطبرى وابن الأثير وابن خلدون ومن أخذ مأخذهم . أما البلاذرى فى فتوح البلدان ، وأما الأزدى والواقدى فى فتوح الشام ، فلا يذكرون شيئاً عن وقعة الفراض ، ويروون أن خالداً إنما غزا الأنبار وعين التمر حين وجهه أبو بكر من العراق أميراً على قوات المسلمين بالشام .

الفصل الثالث عشر

بين العراق والشام

تحدث الناس فى مختلف الأقطار بفعال خالد بن الوليد فى العراق العربى ، وبانتصار المسلمين على الفرس فى جميع المواقع التى التحموا فيها . وكان لهذه الأنباء من الصدى فى الشام وفى باديته ما نبّه عاهل الإمبراطورية الرومية الشرقية فى مستقره ببزنطية وما أثار تفكيره . فالغساسنة الذين يقيمون تحت كنفه بالشام عرب كاللخميين وبنى تغلب وإياد والنمر وغيرهم ممن يقيمون على حدود العراق ويتغلغلون بين النهرين فيه . وقبائل بنى بكر وبنى عُذرة وبنى عدوان وبنى بحْرة تقع منازلهم على تخوم الغساسنة وبادية الشام . أليس طبيعياً أن يفكر المسلمون فى غزو الشام العربى كما فكروا فى غزو العراق العربى ؟! هذا أمر يجب الاحتياط له والحذر منه . ويجب لذلك تحصين التخوم بين الشام وبلاد العرب وجعلها من المنعة بحيث تصد المسلمين عن التفكير فى العدوان على أية ناحية من الإمبراطورية الرومية .

حذر الروم من المسلمين

إلى هذا الاتجاه انصرفت سياسة الروم ، فانقلبت من الطمأنينة إلى الحذر . لقد كان همّ المسلمين فى عهد الرسول أن يحصّنوا تخوم العرب فى الشمال مخافة عدوان الروم عليهم بتحريض اليهود والنصارى الذين أجلاهم الدين الجديد عن شبه الجزيرة . أما اليوم فالروم هم الذين يُعنون بتحصين تخومهم فى الجنوب مخافة عدوان المسلمين عليهم بقوة إيمانهم وبما كفل لهم هذا الإيمان من نصر وفتح .

تفكير أبى بكر فى غزو الشام

لم يكن هذا الخاطر الذى أثار هواجس هرقل بعيداً عن تفكير أبى بكر ، بل كان يتردد فى نفسه مذ بدأت طلائع النصر تساير أعلام المسلمين فى حروب الردة . لكنه كان يتردد فى تنفيذه قبل الفراغ من هذه الحروب ، خشية انتقاض العرب عليه وثورتهم به كرة أخرى . فلما هون المثنّى بن حارثة الشيبانى أمر العراق ، ولما انطلق خالد بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهل البادية

ويضع يده على الحيرة ويجعلها عاصمته ، ازداد أبو بكر تفكيراً فى أمر الشام . إن به من قبائل العرب مثل ما بالعراق ، وقد انضمت بعض قبائل العراق إلى جيوش المسلمين وحاربت فى صفوفهم جيوش كسرى مع بقائها على نصرانيتها . لا جرم أن تفعل قبائل الشام فعلها . فالروم حكام على الشام ، وبينهم وبين قبائل البادية المقيمة به من اختلاف الجنس واللغة ما بين الفرس والعرب على شواطئ دجلة والفرات . فإذا تقدم العرب فى الشام وتغلبوا على جنود الروم انضم عرب الشام إلى أبناء عمومتهم من أهل شبه الجزيرة . ومن شأن هذا الانضمام أن يزيد المسلمين طمأنينة إلى النصر على عدوهم ، وأن ينتهى بهم إلى الاستقرار فى هذه البلاد الممرعة الخصب مع بنى عمومتهم . فإن أسلم هؤلاء يوماً كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

موقف الروم والعرب على تخوم الشام

وزال كل تردد من نفس أبى بكر حين سلمت دومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين . لكن انشغال قوات المسلمين بالعراق وبقتال المرتدين فى الجنوب من شبه الجزيرة جعله يؤثر أن يقف من الروم موقف المدافع ، فلا يبدؤهم بقتال إلا أن يبدءوه به . ولقد كانت أوامره إلى قواده على تخوم الشام صريحة فى هذا المعنى كل الصراحة . ولم تكن الروم من جانبها لتجازف باجتياز تلك التخوم وهم يرون المسلمين ينتصرون فى كل مكان . بذلك ظل الفريقان على حذر بعضهم من بعض ، وأكبر همّ هؤلاء وأولئك ألا يشتبكوا فى قتال .

وزاد الروم إيثاراً لهذا الموقف أن القوات التى أوفدها أبو بكر عقب بيعته إلى شمال شبه الجزيرة لقتال من ارتد ولحماية التخوم بقيت سليمة لم يُصبها أذى . فقد عادت القبائل هناك إلى سلطان المدينة دون أن يستحر قتال ، اللهم إلا دومة الجندل ، إذ أصرّت على انتقاضها فقاومت عياضاً وظلت متحصنة منه حتى فض ابن الوليد حصونها . وكانت قوات الروم من أهل فلسطين ومن عرب البادية المقيمين على حدود الحضر ؛ فلم يكن يدفعها إلى مقاتلة العرب وازع نفسانى يحبب إليها الموت انتصاراً لحق تُعلى كلمته ، أو لمثل أعلى تحرص على تحقيقه .

خالد بن سعيد قائد المسلمين على تخوم الشام

كان قائد المسلمين على هذه التخوم خالد بن سعيد بن العاص . قيل إن أبا بكر لما عقد الألوية لقتال أهل الردة عقد لخالد فيمن عقد ، فنهاه عمر ابن الخطاب عن تأميره ، وقال له : « إنه لمخذول ، وإنه لضعيف التروئة » ؛ وما زال يحرضه على عزله حتى جعله أبو بكر ردءاً بتيماء على تخوم الشام ، ولم يجعله على من يقاتلون المرتدين .

ونزل خالد تيماء وقد أمره أبو بكر ألا يبرحها ، وأن يدعو القبائل التى حولها إلى الانضمام إليه إلا من ارتد منهم ، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره . ونفذ خالد أمر الخليفة ، فاجتمعت إليه جموع كثيرة جعلت عسكره عظيماً . وترامت إلى الروم أنباء هذه الجموع على تخومهم ، فلم يبق لدى هرقل ريب فى وجوب دفعهم ؛ ولهذا الأمر اتخذ عدته . وترامت إلى خالد بن سعيد من ذلك أنباء سارع فبعث بها إلى المدينة مشفوعة برأيه أن يأذن الخليفة له فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام ، مخافة أن يأخذوه ومن معه على غرة .

رسالته الأولى إلى أبى بكر

فكّر أبو بكر فى رسالة خالد بن سعيد وطال تفكيره . إن الأنباء الواردة من جنوب شبه الجزيرة حسنة كلها . لقد قضى عكرمة بن أبى جهل والمهاجر ابن أبى أمية على المرتدين هناك . وعما قريب يرجع عكرمة بجيوشه ويظل المهاجر أميراً على اليمن . ومتى عادت جنود المسلمين كان إرسال المدد إلى الشام يسيراً . لكن ! أو تكفى هذه الجنود لقتال الروم ولغزو الشام وعند الروم من العدد والعُدة ما لا يجهله أبو بكر ، وما تغلّب هرقل به من قبل على فارس ؟ . أو ليس من الخير أن يستعين بمن بقى على إسلامه من أهل الجنوب ليبعثهم إلى الشام فإذا ذهبوا فلن يقاوم الروم أكثر مما قاوم الفرس فى العراق العربى .

أبو بكر يشاور أهل الرأى فى غزو الشام

وأصبح يوماً فدعا إليه عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وأبىّ ابن كعب وزيد بن ثابت وجلة المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه ، فتحدث إليهم وذكر لهم أن رسول الله كان عوّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه ، واختار له ما لديه . « والعرب بنو أم وأب .

وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين » . ثم طلب إليهم رأيهم ، فقال عمر : « والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سرِّبْ إليهم الخيل فى أثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ؛ فإن الله عز وجل ناصر دينه ومقر الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

رأى عبدالرحمن ابن عوف

على أن عبد الرحمن بن عوف كان أدنى إلى الحذر وأشد اتقاء للمغامرة . قام فقال : « يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ! حدٌّ حديد ، وركن شديد ! والله ما أرى أن تُقحم الخيل عليهم إقحاماً ولكن تبعث الخيل فتغير فى أدانى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضر بعدوهم وغنموا من أدانى أرضهم فقووا بذلك على قتالهم . ثم تبعث إلى أقاصى أهل اليمن وإلى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعاً . فإن شئت بعد ذلك غزوْتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك » .

جلس ابن عوف بعد هذا الكلام فسكت الناس وسادت هنيهة صمت اتجه بعدها أبو بكر إلى الحاضرين يسألهم : « ماذا ترون رحمكم الله ؟ » . وتكلم عثمان بن عفان فقال : « أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، شفيق عليهم ، فإن رأيت رأياً فيه لهم رشد وصلاح وخير فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ضنين ولا متَّهم عليهم » . وأقر الحاضرون جميعاً رأى عثمان وقالوا : « ما رأيت من رأى فأمضه ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك » . فقام أبو بكر يدعو القوم للتجهز إلى غزو الروم بالشام ، ويقول : « فإنى مؤمِّر عليكم أمراء وعاقدٌ لهم عليكم ، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتكم ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

موقف المسلمين من الدعوة لغزو الشام

ترى أتحمس الناس لهذه الدعوة ؟ أأجاب الخليفة منهم أحد يطلب الجهاد ؟ ! لقد أخذتهم هيبة الروم فسكتوا . عند ذلك صاح فيهم عمر : « ما لكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول الله إذ دعاكم لما يحييكم ؟ » ونبهت القوم هذه الصيحة فرضوا الجهاد وإن آثروا أن يستعين الخليفة على عدوه بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً[1].

لا عجب وذلك موقف المسلمين أن يطول تفكير الصدّيق فيه ، وأن يشغل به عن كل ما سواه . كان جرير بن عبد الله ممن خرج مع خالد بن سعيد إلى الشام ، فاستأذن خالداً إلى أبي بكر ليكلمه في قومه وليتخلصهم وليجمعهم له ، وكانوا أوزاعاً في العرب . وأذن له خالد ، فقدم على أبي بكر فذكر له عِدَةً من النبي وأتاه على العدة بشهود وسأله إنجازها . فلما سمع أبو بكر حديثه غضب وقال له : « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم ، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو أرضى لله ورسوله ! دعني وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين » . وسار جرير حتى قدم على خالد بالحيرة .

موقف أبي بكر من الأحداث المحيطة به

ولا عجب كذلك إذا انصرف تفكير الصديق إلى هذه الحرب التي نشبت منذ بويع ؛ فقد جعلت تزداد على الأيام دقة وخطراً ، وتقتضي العناية بها والسهر عليها . فهذه الجيوش المنتشرة بالعراق ، والقائمة على تخوم الشام ، أي حاجة هي إلى المدد ؟ وأيها أشد إلى المدد حاجة ؟ وهؤلاء المقيمون بالمدينة ومكة والطائف ممن ذهب أهلوهم إلى صفوف القتال ، أيعوزهم شيء ؟ ! وقبائل العرب من الشمال إلى الجنوب ما شأنها ؟ وما عواطفها إزاء المدينة وإزاء الخليفة ؟ والأنباء الواردة من ميادين القتال بالنصر تارة ، وبالعجز طوراً كشأن عياض بن غنم بدومة ، بأي شيء تقابل ، وعلى أي نحو تذاع في الناس ؟ ! كان أبو بكر في شغل بهذا كله وبما يتصل به . ولئن كان أهل الرأي حوله موضع ثقته

---

(١) يذكر الأزدي ، على خلاف مع الطبري وابن خلدون وابن الأثير أن خالد بن سعيد كان حاضراً هذا المجلس ، وأنه كان أول من أجاب إلى التجهز مع أهله ومن تبعه . ونحن نؤثر رواية الطبري أن خالداً كان بتيماء ، وأنه لم يحضر هذا الاجتماع .

واطمئنانه ، لقد كان هو المرجع الأخير وصاحب الرأى النافذ فى هذه الأمور جميعاً . تلك أيام حرب إذا لم يوحد فيها التوجيه خيف الاضطراب وسوء الأثر . والخليفة هو المسئول الأول أمام الذين بايعوه عن كل ما يقع ، فعليه التبعة العظمى أمام الله وأمام ضميره وأمام الناس .

وكان شعور أبى بكر بجسامة هذه التبعة عظيماً ، وذلك ما دعاه للمُقام بالمدينة منذ اشتدت حروب الردة ، كى يفرغ لشؤون الدولة لا يشغله شىء عنها . أما وقد تضاعفت هذه الشؤون وامتدت الحرب إلى فارس وأوشكت أن تمتد إلى الروم ، فقد نسى الرجل ما عداها ليتم له التفرغ لها وإن فاته كل ما يرفه عنه ؛ بذلك يكفل للمسلمين النجاح ، ولدين الله النصر ، سائراً دائماً فى الطريق الذى رسمه رسول الله ، لا يتنكبه ولا يحيد عنه .

سياسة أبى بكر بعد حروب الردة وانتصار المسلمين بالعراق

كانت سياسة أبى بكر خير كفيل بالنصر والنجاح . فقد كان فى حكمه مثال العدل والرحمة مجتمعين ، كما كان العزم الذى لا تفلّ منه قوة ، ولا يعرف الوهن إلى ناحية من نواحيه مأتى . لم يلبث حين عادت بلاد العرب إلى دين الله أن ترك لكل منها من الاستقلال ما ترك لها رسول الله من قبل ، فلم يطلب إليها إلا الزكاة التى كانت تؤديها أيام النبى . وكانت الزكاة ينفق جانب عظيم منها فى شؤون هذه البلاد وعلى فقرائها بإشراف عمّاله الذين ولاهم أمورها ، والذين كانوا على مثاله عدلا ونَصَفَة . بذلك اطمأنت العرب جميعاً إلى عيشهم ، وزال كل خوف من انتقاضهم .

ولم يكن أبو بكر يستبقى لنفسه من الزكاة أو من أخماس الفىء إلا ما فرضه المسلمون له ، ثم ينفق أكثرها فى تجهيز الجيوش للجهاد ، ويوزع ما بقى على الفقراء وأبناء السبيل وكل من له حق فى بيت مال المسلمين . وكان بيت المال فى دار أبى بكر بالسُّنح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله إلى داره بها . ورأى بعضهم ما يجىء من مغانم فارس ، فقال له : ألا تجعل على بيت المال من يحرسه ! ! قال : لا ! ذلك أنه كان ينفق كل ما فيه فلا يبقى به ما يحتاج إلى حارس . ولم يقف أمر ذلك عند الزكاة وأخماس الفىء . فقد فُتح أثناء خلافته منجم للذهب فى بنى سُلَيم على مقربة من المدينة ، هو عرق الذهب الذى

يستغلّ في عصرنا الحاضر ، فكان أبو بكر يسوّى فى قسمه بين السابقين الأوّلين والمتأخرين فى الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وقيل له : « ألا تقدّم أهل السبق على قدر منازلهم ؟ » ؛ فقال : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يوفّيهم ذلك فى الآخرة ؛ وإنما هذه الدنيا بلاغ » .

أدّى هذا العدل بين الناس جميعاً إلى اطمئنانهم جميعاً . وأدى حزم أبى بكر وحمله تَبِعة الأمر كاملة إلى مهابتهم إياه وإكبارهم له . كان عمر بن الخطاب أقرب المشيرين إلى قلبه وأرجحهم رأياً عنده ، وكان عثمان وعلىّ وطلحة والزبير وغيرهم موضع تقديره واحترامه ، لايقطع فى أمر برأى قبل مشورتهم . ولكنه لم يكن مع ذلك يُلْقى على أحد منهم تبعة ، ولم يكن يتوارى وراء مشورتهم ليدفع عن نفسه لوماً . ولقد رأيته كيف خالف الجماعة فى بعث أسامة ، وكيف أبدى من الحزم وقوة العزم فى محاربة المرتدين ما جعل مشيريه كلهم يقرّون من بعد بسَداد رأيه وبعد نظره ؛ ثم رأيته كيف خالف ابن الخطاب فى خالد بن الوليد حين مقتل مالك بن نويرة ، وكيف كان يستخير الله فى كل شىء ، فإذا خار له فى أمر لم يرجع عنه ولم يتراجع لأى اعتبار دونه .

تفرغه التام لشؤون الدولة

ولم يغيّر تزايد تَبِعاته من شظف عيشه ، بل زاده انصرافاً عن كل ما يرفه به عن نفسه . كان حين مقامه بالسُّنح لا يأبى على نفسه ألواناً من الرّفه تعينه على الحياة والجهد فيها ؛ فكان يغدو إلى المدينة وربما ركب فرسه وعليه إزار ورداء مُمشّق فيصلى بالناس ؛ وكان يستريح بالسنح أحياناً فيصلى عمر بهم . وكان يقيم بداره صدر النهار يوم الجمعة يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يذهب إلى المدينة يخطب الناس ويؤمهم للصلاة . أما مذ أقام بالمدينة لتزايد أعباء الدولة فقد تم تفرغه لشؤون المسلمين وإن فاته ما يرفه عنه . وأقام مع تزايد هذه الأعباء لا يتخذ لنفسه خادماً فى داره ولا فى أعمال الدولة . ثم كان يجلس فى المسجد حيث كان يجلس رسول الله ، يسمع للناس ويحدثهم ويستشيرهم ويشير عليهم ، ويقضى فيما يعرض عليه من شتّى الشؤون .

وكان ، على إيثاره الشظف ، شديد البر بالفقراء والضعفاء . كان يشترى الأكسية ويفرقها على الأرامل فى الشتاء ، وكان يرعى الفقراء والمساكين بنفسه

فى سرّ من الناس . كان عمر بن الخطاب يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قُضيت حاجاتها . وترصد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو الذى يكفيها مئونتها ، لم تصرفه عن ذلك الخلافة وجسامة تبعاتها . وقال عمر حين رآه : « أنت هو لعمرى ! » .

ولا حاجة إلى القول بأن مثال أبى بكر كان أسوة عماله فى سائر بلاد شبه الجزيرة ، وأن طمأنينة العرب إلى عدل الخليفة وإنصافه ، وإلى بره ورحمته ، وإلى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر فى نجاح سياسته .

عوامل النصر فى تقدير أبى بكر

وكان أبو بكر مطمئناً من جانبه إلى النجاح كل الاطمئنان . لقد وعد الله رسوله لينصرن دينه ، ووعد الله حقّ . وقد نصر الله المسلمين فى حروب الردّة ، وها هى ذى جيوشهم بالعراق يسايرها النصر حيث سارت ، ويفىء النصر عليها من المغانم ما جعل قبائل العرب أشد على الحرب إقبالا . وقد رأيت ما استفاء المسلمون بالعراق . ولم يكن يرسل للخليفة من هذا الفىء إلا خمسه ، أما أربعة الأخماس فكانت توزع بين الجند فى ميادين القتال . وكان لأهل الجند فى مختلف القبائل من حظ رجالهم نصيب يُغرى من تخلف على أن يخف إلى الميدان ليكون له ولأهله مثله . هذا إلى ما غرسه الإسلام فى النفوس من حب الاستشهاد؛ لذلك كان أبو بكر مطمئناً إلى إقبال القبائل على الحرب إذا دعيت إليها ، لا تضنّ عليها بتضحية ، بل تخف إليها سراعاً يجذبها حب الاستشهاد وتغريها معالم النصر .

وكان أبو بكر يعلم ما للحرص على الاستشهاد فى نفوس الأكثرين من أثر لا يقاس إليه إغراء الفىء . وهل نسيت صيحات الأبطال الذين اندفعوا إلى الوطيس فى معركة اليمامة ، لا يشك أحدهم فى أنه ملاق ربه . وهو بهذا اللقاء سعيد كل السعادة ! وحب الاستشهاد هو الذى أملى على خالد بن الوليد ما كتبه إلى هرمز وإلى غيره من الفرس يقول لهم : « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . وهم يقبلون على الاستشهاد لأنه طريق الجنة ؛ إذ يغفر الله للمجاهد فى سبيله كل ذنوبه . وقد كان أحدهم يرى صاحبه يتخطفه

الموت من صفوف القتال فيرى فى استشهاده آية الرضا من الله عنه ، ويتمنى لنفسه مثل هذا الحظ من رضا ربه . قوم ذلك حرصهم على الموت طبيعى أن توهب لهم الحياة فى أسمى مكان من العز والسؤدد ، وأن يطمئن خليفة رسول الله إلى نصرهم، وأن يبعثهم إلى الشام يفتحونه كما فتح إخوانهم العراق .

على أن إغراء الفىء لم يكن بالأمر الذى يستهان به . فهو فى فطرة البدوى منذ خلقه ، ولن يزال فى فطرته أبد الدهر . وقد رأيت خالد بن الوليد حين وقف بعد غزاة أليّس بالعراق يقول لجنده : «إنه إذا لم يكن فى العراق إلا هذا الثراء الضخم وهذا الفىء الذى يعدّ فى بلاد العرب حلماً لكفى مغرياً بالحرب» . ولقد كانت القبائل التى ارتدت تعضّ أصابعها ندماً على ما فعلت مما حرمها الاشتراك فى حروب العراق . والذين أقاموا على إسلامهم فى أنحاء شبه الجزيرة كثيرون ، ولن يتردد هؤلاء فى إجابة الدعوة إلى الجهاد متى وجهها الخليفة إليهم ، ولن يكونوا إذا غزوا الشام إلا أبطالا فاتحين .

كتاب ابى بكر إلى أهل اليمن

لذلك كله لم يتغير عزم أبى بكر على غزو الشام حين دعا القوم إلى التجهز إليه فسكتوا متأثرين بقول عبد الرحمن بن عوف : « إنها الروم وبنو الأصفر ، حدّ حديد وركن شديد ! » ، بل بدأ يستنفر الناس ، وكتب إلى أهل اليمن يقول لهم : « أما بعد ، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالا . " وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله " . فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم . وقد استنفرنا مَنْ قِبَلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، فسارعوا إلى ذلك وعسكروا . وخرجوا وحسنت فى ذلك نيتهم وعظمت فى الخير حسبتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم » .

لقيت هذه الدعوة أذناً سميعة . فما كاد رسول الخليفة يتلوها حتى خف ذو الكلاَع الحميرىّ إلى فرسه وسلاحه ونهض فى قومه ومن عسكر معه من جموع اليمن وسار يطلب المدينة . كذلك خفّ قيس بن هبيرة المرادىّ فى مذحِج ، وجُندب بن عمرو الدوسىّ فى الأزد ، وحابس بن سعد الطائى فى طيئ .

بيْنا كان رسول أبي بكر إلى اليمن قد بلغها وأقام يتحدث إلى أهلها ، وبينا كان أهل اليمن فى استعدادهم ومسيرتهم ، كان أبو بكر يستنفر إليه مَنْ حوله من المهاجرين والأنصار وأهل مكة وغيرهم يجمعهم ليوفدهم إلى الشام .

وقد اختلفت الروايات : متى بدأ أبوبكر يسيّر هذه الجيوش ، وأى جيش كان أولها ، ومنْ هم الأمراء الذين اجتمعوا إليه ، ومَنْ من الأمراء أقام حيث هو ثم توجه إلى الشام طوعاً لأمر الخليفة . واضطراب الروايات فى أمر الشام يزيد على اضطرابها فى فتح العراق وفى حروب الردّة[1] .

مسيرة الجيوش إلى الشام

والكثير من هذه الروايات يذهب إلى أن أول جيش سار إلى الشام إنما سار بعد أن عاد أبو بكر من حجّه فى آخر السنة الثانية عشرة وأول السنة الثالثة عشرة من الهجرة . وتذهب روايات أخرى إلى أن أبا بكر سيّر خالد ابن سعيد بن العاص إلى حدود الشام حين سير خالد بن الوليد إلى العراق السنة الثانية عشرة . والراجح عندى أن خالد بن الوليد ذهب إلى العراق فتولى القيادة العامة فيه على المثنّى ومن معه قبل أن يفرغ المسلمون من حروب الردة فى اليمن وكندة وحضرموت ، وأن خالد بن سعيد ، إن كان قد ذهب فى هذا الوقت أو ذهب قبله ، فإنما ذهب لحماية التخوم لا للغزو . والراجح عندى كذلك أن أبا بكر لم يفكر فى غزو الشام إلا بعد أن تم النصر للمسلمين فى حروب الردة باليمن وما حولها ، وبعد أن دخل ابن الوليد الحيرة واطمأن بها ، وبعد أن فتحت دومة أبوابها فصار طريق وادى سرحان إلى الشام آمناً بفتحها .

يؤيد هذا الرأى ما سبق أن ذكرناه من استنفار أبي بكر قبائل اليمن ، وما كان ليستنفرها قبل القضاء على الردة فيها . ثم إن عكرمة بن أبي جهل

(١) فى الطبرى روايات عدة . وفى البلاذرى روايات يتفق بعضها مع بعض روايات الطبرى ، ويختلف بعضها كل الاختلاف . والأزدى يروى غير روايات الطبرى والبلاذرى . والواقدى يخالف هؤلاء فى أمور ويتفق معهم فى أمور . أما ابن الأثير وابن خلدون فأقرب إلى الطبرى حتى ليحسب الإنسان أنهما أخذا عنه .

وذا الكلاَع الحميرىّ لم يقيما باليمن بعد أن اطمأن الأمر فى ربوعها ، بل ذهبا مع المهاجر بن أبى أمية للقضاء على الردة بكندة وحضرموت . فلما اطمأن أمر الجنوب كله وآن لعكرمة أن يعود إلى المدينة سرّح الجند الذين جاهدوا معه ، ثم تولى قيادة جيش آخر تألّف بديلاً من جيشه . ومن اليسير عليك أن تقدر ما يستغرقه العود من اليمن إلى المدينة ، ثم السفر من المدينة إلى الشام ، وأنت تعلم أن الطريق بين مكة والمدينة تقطع على ظهور الإبل فى أكثر من عشرة أيام ، وأن العِير كانت تطَّرِد فى ذلك الزمن إلى الشام شهراً مقبلة وشهراً مدبرة .

أول أمير على جند المسلمين إلى الشام

ولقد اختلفت الروايات كذلك : أى أمراء الجند ذهب إلى الشام أول ما فكر أبو بكر فى غزو الروم ؟ قيل إن خالد بن سعيد بن العاص الأموىّ كان هذا الأمير . وقد ذكرنا فيما سلف أن خالداً إنما ذهب أول حروب الردّة رِدءاً بتيماء على تخوم الشام . وتجرى رواية غير هاتين بأن خالداً كان باليمن من قِبل رسول الله ، وأنه قدِم إلى المدينة بعد شهر من وفاة النبى ، فلما رأى علىّ بن أبى طالب وعثمان بن عفان قال لهما : « يا بنى عبد مناف ، لقد طِبتم نفساً عن أمر يليه غيركم ! » . فلما وجّه أبو بكر الجنود إلى الشام جعل خالد بن سعيد عليها ؛ فقال له عمر : أتؤمّره وقد صنع ما صنع وقال ما قال ؟» ولم يزل به حتى عزل خالداً وأمّر يزيد بن أبى سفيان . وفى رواية أن عمر قال لأبى بكر فى شأن خالد : « إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصّب » . وقيل إن خالداً لم يذهب أميراً وإنما ذهب فى جيش أبى عبيدة بن الجراح . ونحن نرجح رغم هذا الاضطراب فى الروايات ، أن خالداً ذهب ردءاً بتيماء ، وأنه أقام بها ، وأنه لم يكن بالمدينة حين استنفر أبو بكر الناس لقتال الروم ، وأن أبا بكر إنما استنفر الناس تلبية لنداء خالد حين بعث إليه يستمده ويذكر له من أنباء الروم وتحرّكهم ما حرك الخليفة لغزو الشام .

ولقد كان للروم كل العذر فى أن يتحركوا وأن تزداد حركتهم نشاطاً . فالأنباء كانت تصل إليهم تترى بانتصار المسلمين فى العراق وبانقضاء الثورة التى كانت قائمة فى بلاد العرب . وهم لم ينسوا مجازفة محمد وأصحابه بالغارة

عليهم والانتقاص من أطرافهم وموادعة القبائل المقيمة على تخومهم . وها هم أولاء أتباعه يقيمون اليوم على تلك التخوم ، وقد تحدثهم أنفسهم باجتيازها . لذلك دعا الروم الغسانيين وغيرهم من القبائل المقيمة ببادية الشام ليقفوا سداً منيعاً فى وجه المسلمين . واجتمع من هذه القبائل عدد عظيم لا يقل عمن اجتمع حول خالد بن سعيد . ووقف الجمعان ، هذا فى أرض العرب وذاك فى أرض الشام ، وكلٌ يتربص بصاحبه الدوائر . وفيما هم كذلك كانت أنباء خالد بن الوليد تدوّى فى جو الفرس والروم والعرب كله . فالأنبار تفتح أبوابها ، وعين التمر يقتل مقاتلتها وتسبي نساؤها ، وجنود المسلمين يغنمون ما شاء الله أن يغنموا . أفيبقى إخوانهم فى الدين بمنزلتهم من تيماء لا يقتحمون الشام كما اقتحم ابن الوليد وجيوشه العراق ! ! .

أول فتح الشام

وكتب خالد بن سعيد إلى الخليفة كرةً أخرى . كتب إليه باجتماع الروم ومن نفر إليهم من بهراء وكلب وتنوخ ولخم وجذام وغسّان ، واستأذنه فى منازلتهم . وكان أبو بكر يعدّ إذ ذاك جيوشه لغزو الروم ؛ لذلك كتب إلى خالد بن سعيد يقول : « أقدِمْ ولا تُحجم واستنصر الله ! » .

وكانت هذه الكلمات أول فتح الشام .

الفصل الرابع عشر
فتح الشام

أقام خالد بن سعيد بتيماء فى جيشه وفيمن نفر معه من قبائل البادية على تخوم الشام . وأقام جيش الروم مضاعف العدد بمن انضم إليه من القبائل على الناحية الأخرى من هذه التخوم . ولقد أثار تقابل الجيشين على هذا النحو حميَّة المسلمين وحركهم لقتال خصومهم . فلما قرأ خالد فى كتاب أبى بكر : « أقْدم ولا تُحجم واستنصر الله » . أسرع بكل قواته فتخطى الحدود لمنازلة القوم . ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم ، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه ، وكتب إلى أبى بكر بالنبأ ؛ فأجابه : « تقدم ولا تقتحم حتى لا تُؤتى من خلفك » . وتقدم خالد حتى بلغ القَسْطَل فى طريق البحر الميت ، فهزم جيشاً من الروم على الشاطئ الشرقى لذلك البحر ثم تابع مسيرته . هنالك ثارت حميَّة الروم وثارت حمية أهل الشام معهم ، فتجمعوا فى قوات تزيد على ما اجتمع قُبالة تيماء أضعافاً مضاعفة .

خالد بن سعيد يغلب الروم ويدخل معسكرهم

ورأى خالد بن سعيد تجمعهم ، فكتب إلى أبى بكر يستمده ليتابع مسيرته المظفرة . وكانت جيوش المسلمين قد بدأت السير من المدينة إلى الشام لغزو الروم . وأبو بكر متفائل بمسيرتها ، مملوء أملا بنصر الله إياها . فالروم ليسوا خيراً من الفرس حالا . وهم مذ غلبوا الفرس قد استغرقوا فى سُباتهم . وجعلوا كل اعتمادهم فى حماية تخومهم على أبناء البادية . ولأبناء البادية فى مواقف كثيرة آيات بأس وشجاعة ميزتهم . لكن روابط الجنس واللغة لم تكن قائمة بينهم وبين الروم كقيامها بينهم وبين بنى عمومتهم العرب المسلمين . ولم تكن نصرانية عرب الشام كنصرانية هرقل ، إذ كانوا من الأرثوذكس ، وكان قيصر من الكاثوليك . ولعلهم رأوا فى ضن هرقل بالروم على القتال دليلا على خوفه أن يُهزم أبناء وطنه أو يُقتلوا . لذلك تراخوا فى القتال ، وتركوا خالد ابن سعيد يتقدم دون أن يثبتوا له .

الجيوش التي سارت مدداً لخالد بن سعيد

أي جيوش المسلمين كان أسرع إلى إمداد خالد بن سعيد ؟ اختلف الرواة في هذا الأمر كما اختلفوا في بدء خالد بغزو الشام كما قدمنا . أما والطبري يجعل لخالد هذا السبق ويوافقه ابن الأثير وابن خلدون ومن إليهما على هذا الرأي ، فإننا نساير الطبري وأصحابه الآن في روايتهم ، لنعود إلى رواية الواقدىّ والأزدىّ والبلاذرىّ من بعد .

كان عكرمة بن أبي جهل قافلا من كندة وحضرموت عن طريق اليمن ومكة ، فلما بلغ المدينة أمره أبو بكر أن يسير مدداً لخالد بن سعيد . وكان عكرمة قد سرّح الجند الذين قاتلوا معه في جنوب شبه الجزيرة ، فاستبدل الخليفة بهم غيرهم ، وأمرهم أن يسيروا تحت لواء عكرمة إلى الشام ؛ ولذلك سمي هذا الجيش جيش البدال . وسار ذو الكلّاع على رأس الجند الذين صحبوه من اليمن مسرعًا مع عكرمة إلى الشام ، حتى يطمئن خالد بن سعيد ويتابع مسيرته .

وكان عمرو بن العاص مقيمًا بقضاعة مذ قضى على الردّة فيها ، فبعث إليه أبو بكر يخيّره أن يبقى حيث هو أو أن يسير إلى الشام ، وكتب له : « وقد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك» . وكان جواب عمرو : « إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها . فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي » . وكتب الصدّيق إلى الوليد بن عُقْبة بمثل ما كتب به إلى ابن العاص ، فكان جوابه إيثار الجهاد . عند ذلك أمّر الخليفة عَمْرًا على فلسطين ، وكتب إلى الوليد فأمّره بالأرْدن .

سارت هذه الجيوش متجهة إلى الشام ، ولا يشك أبو بكر في أن الله قد فتحه عليه . وكان الوليد بن عُقبة أول من أدرك خالد بن سعيد ، وقص عليه أنباء المدد وحماسة أبي بكر لفتح الشام ، وغبطة أهل المدينة بانتصار إخوانهم على بني الأصفر . وفاضت نفس خالد بالمسرة ، فأمر جيشه أن يتهيأ للمسير حتى يكون له من فخار النصر ما يجعله في قتال الروم ندًّا لابن الوليد في قتال الفرس . وتقدم بالمسلمين ومعه الوليد بن عُقبة يقابل جيشًا للروم على رأسه قائدهم

الأكبر باهان ، ونفسه تحدثه بأن ينقضّ على هذا القائد كما انقض ابن الوليد على هُرمز ، وأن يورده حتفًا كحتفه . وكيف لا يفعل وقد أدركه عكرمة وذو الكلاع فصار فى قوة لا تثبت أمامها قوة ! .

ولم يكن جيش الروم قريبًا منه . مع ذلك تراجع باهان به متجهًا نحو دمشق . وسار خالد فى أثره يريد مرج الصُّفْر بين واقوصة ودمشق ، ليتخذ هناك معسكره ومكان قيادته العامة . ولم يكن تراجع باهان إلا خُدعة لاستدراج خصْمه حتى يعرّى ظهره فيتمكن من حصاره ويجيئه من خلفه ، وذلك ما حذر أبو بكر خالداً منه . لكن نشوة الظفر وحب الفَخَار أنسياه الحذر ودفعاه يُغِذّ السير ، حتى إذا كان على مقربة من مرج الصّفر إلى الشرق من بحيرة طبرية ارتد باهان بجنوده وأحاط به وقطع عليه خط رجعته . وصادف باهان سعيد بن خالد بن سعيد فى فرقة من العسكر متعزلة عن المسلمين فقتلهم وقتل سعيداً فى مقدمتهم . وبلغ خالداً مقتل ابنه ، ورأى نفسه قد أحيط به ، فخرج هاربًا فى كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل والإبل ، تاركًا وراءه جيش المسلمين يقوده عِكرمة متقهقراً .

خدعة الروم وفرار خالد بن سعيد بعد مقتل إبنه

ولم يقف خالد بن سعيد من فراره دون ذى المروة على مقربة من المدينة . وعرف أبو بكر فراره هزيمًا يريد مدينة الرسول ، فأبى ذلك عليه وبعث له بكتاب لقيه بذى المروة جاء فيه : « أقم مكانك . فلعمرى إنك مقدام محجام نجّاء من الغمرات ، لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه » . وأقام خالد بذى المروة فى فلول الفارين معه حسيراً حزينًا لمقتل ابنه وللهزيمة التى حلت به . أما أبو بكر فكان يقول : « كان عمر وعلىٌّ أعلم بخالد منى ، ولو أطعتهما فيه اتقيته » .

أبو بكر يزداد حماسة لفتح الشام

أأضعف فرار خالد بن سعيد من عزم أبى بكر فتح الشام ومن حماسته لهذا العزم ؟ كلا ! فقد جاءته الأنباء بأن عكرمة بن أبى جهل داور بجيوش المسلمين ، وداور معه ذو الكلاع ، فتراجع بهم إلى حدود الشام ، وهناك تحصن ينتظر المدد . فليمده ، وليكن هذا المدد من القوة بما يزيل كل أثر

لهزيمة ابن سعيد، وما يرد إلى المسلمين الإيمان بالنصر، وما ينزل فى قلوب الروم الخوف والهلع .

كان شُرحبيل بن حسنة مع خالد بن الوليد بالعراق . وقد جاء فى هذه الآونة إلى المدينة بأنباء النصر وبالسبي والأخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عُقبة الذى باء مع خالد بن سعيد بما باء به . وجمع شرحبيل قوة من جيش ابن سعيد وابن عقبة وسار بها إلى عكرمة . ودعا أبو بكر يزيد بن أبى سفيان فأمَّره على جند عظيم جاءهم من أهل مكة ، ثم أردفه بأخيه معاوية ، وجعله على بقية الجيش الذى استدرجه خالد بن سعيد للغزو معه . وندب الخليفة جيشاً عظيماً جعل عليه أبا عبيدة بن الجراح وأمَّره على حمص . وكانت هذه الجيوش تُعسكر بالجرف ، فإذا آن لأحدها أن يسير خرج إليه الخليفة وودعه على النحو الذى ودع به جيش أسامة غداة بيعته . وانطلقت هذه الجيوش جميعاً فى طريقها إلى الشام مجاهدة فى سبيل الله .

وصيته حين توديع الجيوش التى عبأها لغزو الشام

وأنت تذكر أن أبا بكر أوصى أسامة حين ودعه وصية تسجل له فى تاريخ الحروب بحروف من نور . كذلك فعل مع هذه الجيوش ، قال وهو يودعهم : « ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبُه . ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجدّ والقصد فإن القصد أبلغ . ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حِسْبة له ؛ ولا عمل لمن لا نية له ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله لما ينبغى للمسلم أن يحب أن يُخصّ به . هذه التجارة التى دل الله عليها ، ونجّى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة » .

وكان مما قاله ليزيد بن أبى سفيان : « إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعِدْهم إياه . وإذا وعظتهم فأوجز ؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . . . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل

لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . . . وامنع مَنْ قِبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم . . . واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار . . . وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس » .

المهاجرون والأنصار يسيرون لفتح الشام

واطمأن أبو بكر حين ودع هذه الجيوش جميعًا ورأى نصر الله منه قريبًا . وكيف لا يطمئن وفى هذه الجيوش زهرة المسلمين مهاجريهم والأنصار . وفيها ما يزيد على ألف من أصحاب رسول الله الذين سمعوا له وجاهدوا معه ، وفيها أهل بدر الذين قال فيهم رسول الله يناجى ربه : « اللهم إن تهلِك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ، والذين أمدهم الله بالملائكة ونزل فيهم قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

أين من هؤلاء جيش خالد بن الوليد الذى غزا العراق ومزق الفرس ! لقد تألف هذا الجيش من بقية قليلة من جيش اليمامة ، ثم كان أكثره ممن استنفرهم خالد من أهل البحرين وعُمان وممن قاتل أهل الردة وثبت على الإسلام فى هذه النواحى . أفيقاس أولئك إلى الذين شهدوا بدراً وأحُداً وحُنَيْناً ، والذين أمدهم رسول الله فى حياته بنفحة منه ! ! وهل يقاسون إلى الأبطال أمجاد مكة والمدينة والطائف ممن عركوا الحرب وعركتهم الحرب ! فإن يكن خالد قد غلب الفرس بعرب الجنوب ، فما أحرى عكرمة وأبا عبيدة وابن العاص ويزيد أن يقضوا بجيوش مكة والمدينة على الروم القضاء الحاسم ! .

وأبو بكر لم يبالغ حين بعث هذه الجيوش كلها إلى الشام بعد أن انتصر عسكره بالعراق . فلو أن أمر المسلمين هناك وقف عند هزيمة خالد بن سعيد لذهب نصرهم بالعراق بددا ، ولاقتحم الروم عليهم شبه الجزيرة ، ولوقف الإسلام من الأسدين فارس والروم موقفاً لا يرضاه الحق جل شأنه . وما كان ذلك ليحدُث وأبو بكر فى خلافة رسول الله ، وما كان ليحدث ولو لم يبق فى القرى غيره ، على حد تعبيره رضى الله عنه عند اختلاف أصحابه معه عشية حروب الردة .

منازل جيوش المسلمين بالشام

وظل أمراء الجند فى مسيرتهم حتى نزلوا الشام . أما عمرو بن العاص فلم يتحرك جيشه من العربة حيث كان منذ أوفده أبو بكر . وأما أبو عبيدة فتخطى البلْقاء إلى الجابية بعد أن أخضع من قاومه من عرب مآب وصالحهم . ولقد نزل شُرحبيل الأردنّ ،ونزل يزيد بن أبى سفيان البلقاء ؛ وفى رواية أنه لتى قوة من الروم والبدو فى داثنٍ فتغلب عليها . ولقد اختلفت الروايات : ألتى جنود المسلمين حرباً فى جنوب فلسطين ، أم تقدموا فيها فلم يجدوا من يواجههم . والراجح أنهم تقدموا حتى صاروا على مقربة من جيش عكرمة ، وأن الروم لم يواجهوهم بقواتهم ، بل تركوا أمرهم لرجال البادية ، وأن ما حدث من وقائع بين العرب والروم فى جنوب فلسطين قد حدث من بعدُ فى عهد عمر بن الخطاب .

على أن اضطراب الروايات ينتهى حين تتصل جيوش المسلمين بجيش عكرمة ؛ إذ يعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق . ويعسكر شرحبيل فى مرتفع بأعلى الغور فوق طبرية ونهر الأردن ، ويظل يزيد بالبلقاء مهدّداً بُصرَى ، ويبقى عمرو بالعربة مهدّداً حبرون . وفى هذه المواقع وقفت الجيوش يتداول أمراؤها الرأى ما يصنعون .

الروم يتجهزون لمواجهة المسلمين

ذلك أن الروم لم يكترثوا أول الأمر لهم ، بل خيِّل إليهم أن هؤلاء العرب لن يتقدموا إلى أكثر مما تقدم محمد من قبل فى غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم لا محالة . فلما هُزِم خالد بن سعيد وفرّ من الميدان ازدادوا طمأنينة إلى ما توهموا ، وظنوا أن ما يترامى إليهم من أنباء المسلمين وتجهيزهم مدداً لعكرمة على حدود الشام لن يزعجهم ، ولن يكون مصيره إلا كمصير خالد بن سعيد . فلما رأوهم تقدموا إلى المواقع التى ذكرنا أفاقوا من سُباتهم ورأوا الأمر أجلّ خطراً من أن يستهينوا به ، وأدركوا أنهم إن لم يواجهوه بكل قوتهم أصابهم ما أصاب فارس ، وفتح هؤلاء الغزاة المسلمون الشام كما فتحوا العراق . لذلك سيَّر هرقل إليهم قوات عظيمة ، وقفت كل واحدة منها إزاء كل جيش من جيوش المسلمين ، حتى يشتغل بعضهم عن بعض فيسهل التغلب عليهم وطردهم من البلاد .

وتجرى الرواية فى أمر الجيوش من الجانبين بأن عدد المسلمين كان ثلاثين ألفًا أو نحوها ، وأن جيوش الروم بلغت عدّتها أربعين ومئتى ألف . قيل إن جيش عكرمة كان ستة آلاف ، وإن الجيوش الثلاثة الأخرى بإمارة أبى عبيدة ويزيد وعمرو بن العاص كانت تترجح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف لكل منها . أما جيوش الروم فكان أكبرها عدداً بإمارة تذارق (تيوَدوريك) أخى هرقل لأبيه وأمه ، وكانت عِدته تسعين ألفًا ، وقد عسكر بإزاء عمرو ابن العاص . ووقف جيش عدّته ستون ألفًا بإمارة الفيقار بن نسطوس بإزاء أبى عبيدة . أما شُرَحبيل بن حسنة فاستقبل الدّراقص على قوة من الروم عدّتها أربعون ألفًا واستقبل جَرَجة بن تُذرا جيش يزيد بن أبى سفيان .

هرقل يتحصن بحمص ويتتبع أنباء الغزاة

رأى المسلمون هذه الجيوش فهابوها وتداولوا فى موقفهم منها . فهم لم يكونوا يتوقعون مقاومة منظمة هذا التنظيم . ثم إنهم علموا أن هرقل تحصن بحمص ، وأنه يتتبّع أنباء الغُزاة بعناية بالغة ، وأنه منذ علم بقدوم الجموع العربية إلى أراضى الإمبراطورية قد جعل كل همه إلى الاحتفاظ بالسلطان الذى كفله النصر على فارس له . أما وقد كان أخوه تذارق قائد الجيوش التى غلبت الأعاجم وعادت تتقدمها أعلام النصر ، فليكن قائد الحملة على العرب ليطهر أرض المعاد منهم ، وليُلْقى عليهم درسًا لا ينسونه أبد الدهر .

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد ، ففزعوا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص يلتمسون عنده الرأى . ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين فكاتبهم يقول : « إن الرأى الاجتماع . وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » . وجاءهم كتاب من أبى بكر بمثل رأى عمرو ، وفيه : « اجتمعوا عسكراً واحداً ، وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره . ولن يُؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يُؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم . فاحترسوا من الذنوب ، والله ناصركم » وإتعد المسلمون اليرمُوك على طريق دمشق ، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه

كتاب أبى بكر لأمراء الجند أن يجتمعوا عسكراً واحداً

الأيسر . فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر وتولى تذارق قيادتها .

التقاء المسلمين والروم على اليرموك

ونهر اليرموك ينبع من جبال حوران . وينحدر سريع التيار بين آكام مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت . وعلى ثلاثين أو أربعين ميلا من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوصة فى منبطح فسيح من الأرض تحيط به من ثلاث نواح جبال بالغة الارتفاع . وقد اختار الروم هذا المنبطح معسكراً لهم حين رأوه يتسع لجموعهم العظيمة . فلما قدموا إليه واستقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى واختاروا منبطحاً آخر على الطريق المفتوح لجيش الروم . فلم يبق للروم طريق إلا عليهم . ورأى عمرو بن العاص هذا الموقف ، ورأى الروم حُصرت بين الجبال ، فقال : « أيها الناس أبشِروا ! حُصِرتْ والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير ! » .

عن أى شىء أسفر الموقف الجديد ؟ ! أفهاجم المسلمون الروم فى بطيحهم فحصروهم فيه فقضوا عليهم ؟ أفخرج الروم فلاقوا المسلمون فأتاح لهم تفوقهم فى العدد الظفر بهم ؟ لا هذا ولا ذاك ؛ بل أقام المسلمون على طريق الروم ومخرجهم لا يقدرون منهم على شىء ، ولا يقدر الروم منهم على شىء . إذا خرج الروم على الطريق ردهم المسلمون إلى بطيحهم . وإذا غامر المسلمون بالهجوم لم يلبثوا أن يتراجعوا مخافة أن يحصرهم الروم بينهم وأن يقضوا عليهم ، وأقام هؤلاء وأولئك على هذه الحال شهرين كاملين أيقن المسلمون خلالهما أنه لا بدّ لهم من مدد يعينهم ، فكتبوا إلى أبى بكر يصفون له الحال ويستمدونه ، حتى لا يطلوا الشهور ، فيسأم الجند ويضعف إيمانهم بالنصر وتذهب ريحهم .

أبو بكر يضيق صدراً بموقف جيوشه على اليرموك

وكان أبو بكر أشد من أمراء الجند بالشام ضجراً ؛ فلم يدُرْ بخلده أن يقف أبو عبيدة وزملاؤه هذا الموقف ، ولم يحسب أن البدريين الذين غلبوا على قلّتهم أهل مكةمن المشركين يطيقون هذا المقام بإزاءالروم لايقتلون ولا يُقتلون . وطال تفكير الخليفة فى هذا الأمر ، وجعل يشاور ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب

وسائر أولى الرأى المقيمين بالمدينة . وبينما هو يفكر انكشفت له الحقيقة جلية واضحة . إن المسلمين لم ينتصروا يوماً بكثرة عددهم ، وإنما انتصروا دائماً بمهارة القيادة ، وبقوة الإيمان . والإيمان لا ينقص جيوش الشام وفيها السابقون الأولون من أصحاب رسول الله مهاجريهم والأنصار ، وفيها أهل بدر الذين فتحوا مكة ومن انتصروا على أهل الردة . لا بد أن تكون العلة إذن فى القيادة . فهذا الموقف يحتاج إلى القائد الجسور الذى لا يعرف الهوادة ولا الإحجام ولا يهاب الموت . وأبو عبيدة على مقدرته رجل رقيق القلب . وابن العاص على دهائه فى السياسة هيَّاب غير مقدام . وعكرمة مداور مقدام إلا أنه تعوزه دقة التقدير . وسائر القواد لم يخوضوا بعد المعارك الكبرى ؛ ثم إن هؤلاء الأمراء جميعاً لا يقرون لواحد منهم بالتفوق على سائرهم تفوقاً يكفل بسلطانه وحدة القيادة . تكشفت هذه الحقيقة لأبى بكر جليَّة واضحة ، فقال لأصحابه : « والله لأنسينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

خالد بن الوليد يدعى من العراق إلى الشام

لم يعترض أحد رأى الخليفة هذا ؛ فقد بلغ الموقف فى الشام من الحرج أن ترددوا جميعاً فى احتمال تبعته . ولعل منهم من رأى فى تعريض خالد لهذا الموقف الدقيق ما يُنَهْنِه من كبريائه بعد نصره المتصل فى حروب الردة ، وبلوغه قمة النصر فى العراق . وكتب أبو بكر إلى خالد بالحيرة يقول : « سِر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ؛ فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوا[1] . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشجِ الجموع من الناس[2] بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشَّجا من الناس نزعك . فليهنئك أبا سليمان النية والحُظوة . فأتمم يُتمم الله لك . ولا يدخلنك عجبٌ فتخسر وتُخذل . وإياك أن تُدِلَّ بعمل ؛ فإن الله عز وجل له المنُّ وهو ولىُّ الجزاء » .

ضيق خالد بهذه الدعوة

أى أثر ترك هذا الخطاب فى نفس خالد ! إنه كان يرجو أن يظل بالعراق

---

(١) الشجا هنا : الغصص . يريد أن المسلمين ضاقوا بعدوهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجا فى الحلق .

(٢) من الناس : صفة لمحذوف هو فاعل « لم يشج » و « لم ينزع » . أى لم يشج أعداءه أحد من الناس كما تشجيهم أنت ، ولم ينزع الشجا من أوليائه أحد من الناس نزعك . وحذف الموصوف فى مثل هذا جائز .

حتى يفتح المدائن عاصمة الفرس ويتربع فيها على عرش كسرى وخلفائه . ولم يخالجه فى بلوغ هذا الغرض ريب . فقد سبر غور الفرس وعرف قوتهم . وفتحُ المدائن فخارٌ لا فخار بعده . فما اليمامة وما الحيرة وما هُرْمُز وقواد فارس جميعاً بالقياس إلى العاصمة التى يتطلع إليها قيصر الروم ويتطلع إليها العالم من كل نواحيه ، وبالقياس إلى كسرى وإيوانه وأبهة ملكه ! لا مرية إذن فى أن يكون خالد قد برم بكتاب أبى بكر وضاق به صدره . ولعله رأى فيه كيد عمر ابن الخطاب له . روى الطبرى أنه قال بعد تلاوته : « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخْلة — يعنى عمر بن الخطاب — حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » . بل لعله ظن أن عمر طمع فى أن يجىء إلى العراق مكانه . وإن يكن هذا الظن قد دار بخاطره فلعله لم يكن مخطئاً ولا آثماً فيه . فقد روى عن أبى بكر أنه قال وهو فى مرضه الأخير : « وددتُ أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدىّ كلتيهما فى سبيل الله » .

ولقد توقع أبو بكر أن تدور مثل هذه الخواطر بنفس خالد فيكون لها أثر فى تصرفه ، ولذلك قال له : « إياك أن تعود لمثل ما فعلت » ، يشير إلى حجه بغير استئذان ، وينبه إلى أن واجبه الأول أن ينفّذ أمر الخليفة إليه ، وألا يقوم بعمل لا يرضاه . وأكبر الظن أن ما توقعه الخليفة من برم خالد بترك العراق هو الذى جعله يُفرغ كتابه فى هذه الصيغة وفيها ما فيها من تمليق خالد وكبريائه ، وفيها ما فيها من تخويفه الخسارة والخذلان إن دخله العجب أو دلّ بعمل ؛ « فإن الله عز وجل له المن وهو ولى الجزاء » .

كيف حبب أبو بكر إليه هذه المهمة

بل لقد أراد أبو بكر أن يزيل من نفس خالد كل مظنّة ، فأمره أن يستخلف المثنّى بن حارثة على العراق فى نصف الناس وأن يأخذ معه النصف ، ثم أضاف فى ختام كتابه : « فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك »[1] . لا خوف إذن من أن يجىء إلى العراق عمر أو غير عمر ؛ فالمثنى هو الذى سيخلفه ، فإذا فتح الله الشام على خالد عاد إلى العراق .

---

(١) وفى رواية : « فإذا فتح الله على المسلمين الشام فارجع إلى عملك بالعراق » .

ولم يكُ خالد فى ريب من أن الله سيفتحه عليه . ولئن بلغه من أنباء المسلمين هناك ما بلغه ، لقد كان مطمئناً إلى أنه سيف الله وأنه لن يغلب ، فليمتثل أمر أبى بكر وليذهب للقاء الروم . و « إنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْن وإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كفَرُوا » ، ذلك قوله تعالى فى المؤمنين . وليس كإيمان خالد إيمان ، وليس كسيف الله سيف مؤمن .

*

ويوم يهزم خالد الروم فذلك يوم الفصل الأكبر . ويومئذ لا يقول ابن الخطاب مثل الذى قاله فى أعقاب مقتل مالك بن نويرة ، وفى أعقاب غزوة اليمامة . ويومئذ لا يكون لطامع فى العراق مطمع . بل يرجع هو إلى الحيرة فيتأهب لفتح المدائن وفضّ إيوان كسرى على من فيه ، ثم يسير غازياً أرض العجم ما شاء الله أن يسير .

جيش خالد الشام

على أن خالداً قدر ما سيواجهه بأرض الروم ، فأحضر أصحاب رسول الله الذين كانوا معه بالعراق واستأثر بهم لنفسه ، وترك للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول صحبة . ونظر بعد ذلك فيمن بقى ، فاختار من كان قدم على النبى وافداً أو غير وافد وترك للمثنى مثل عددهم من أهل القناعة ، ثم قسم سائر الجند قسمين . فلما رأى المثنى صنيعه غضب وقال : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وكيف تُعَرّينى منهم ! ووالله ما أرجو النصر إلا بهم ! » . فلما رأى خالد ذلك منه تلكأ عليه بعض الشىء ، ثم عذره وأرضاه وأعاضه من الصحابة أبطالا مجربين .

مع هذا خشى خالد أن يُصيب المسلمين بالعراق شرّ بعد مغادرته إياهم ، فرد الضعفاء والنساء منهم إلى المدينة ، حتى لا يشغل المثنى بهم إذا أراد الفرس مناجزته . ولما اطمأن إلى مسيرتهم تجهز فيمن معه من الجند للسفر إلى الشام . وخرج المثنى فى كتيبة من الجند فشيَّعه إلى تخوم الصحراء .

أى طريق يسلكه خالد ؟

أى طريق يسلك ليُنْسى الروم وساوس الشيطان ؟ إن بينه وبين الشام صحراء جرداء لا تطرقها قافلة ويضل فى مفاوزها الدليل الخِرّيت ! أيتخطى

البادية من الشمال بين عين التمر وما حاذاها من بلاد الشام ؟ ذلك أقصر الطرق خلال البادية . لكن قبائل العرب النازلة منه على تخوم الشام موالية كلها للروم ، ولقيصر ثمّ جند مقيمون قد يلقونه فيقطعون عليه طريقه . أفينحدر إلى بلاد العرب ثم يأخذ الطريق التى سلكها عكرمة وأبو عبيدة وسائر الأمراء قبله ؟ إنه إن يفعل فلن يبلغ جيوش المسلمين إلا بعد أمد طويل . ماذا يصنع إذن حتى يتقى مقاومة العدو ويقهر طول الأمد ؟! إلى هذا انصرف تفكير القائد العبقرى . وتفكير العباقرة لا يوجهه المنطق وإنما يهديه الإلهام ؛ فليس لنا معشر الناس إلا أن نسير وراء القائد الملْهم لا نراجع منطقه ولا نسأله عما يفعل . ومالنا نسأله أو نراجعه ! ألم يسر بنا من ظفر إلى ظفر ! لقد سحر ألبابنا وملك أفئدتنا من قبل حين وقفنا معه مواقف أرتنا الموت رأى العين ، ثم خرجنا وإياه من المعمعة متوجين بأكاليل النصر . فلنلق إليه قيادنا مطمئنين ؛ فهو سيف الله ، والله ناصره لا محالة .

القصة المشهورة فى اجتياز خالد الصحراء إلى الشام

والواقع أن مسيرة خالد من العراق إلى الشام أدنى إلى القصص الروائى منها إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أيسر ما يقال عن أشهر الروايات فيها وأكثرها قصداً . ولذلك يمر بعض المؤرخين بها لا يقفون عندها ، ويكتفى بعضهم بالإشارة إليها ، ويقدمها ابن خلدون لقارئه بكلمة « ويقال » . ولم يفصّلها أحدٌ ما فصلها ابن قتيبة فى بعض كتبه . ونُقاد ابن قتيبة يذكرون عنه أنه مؤرخ أديب شديد الولع بالقصص . على أن الوقائع الأساسية فى هذه الرواية مذكورة فى تاريخ الطبرى وفى ابن الأثير وفى أكثر الكتب . وقد يكون فيها ما يحيّر اللب ويذهل الذهن . لكن أعمال خالد ، عبقرى الحرب وأكبر قائد عرفه العالم فى عصره ، لا تخضع كلها للمقاييس المطردة فى أمر غيره من القواد . فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرنا غير مرة من اضطراب الروايات عن عهد أبى بكر ، قام هذا وذاك عذراً للمؤرخين جميعاً ، سواء منهم من يثبت هذه الرواية المشهورة ومن يتخطاها أو يبدى الريبة فيها .

وتذهب هذه الرواية إلى أن خالداً لم ير اجتياز الصحراء من عين التمر إلى شمال الشام ، مع قصر هذا الطريق ، مخافة القبائل الموالية للروم والجيوش

الحاتمة فى هذا الجانب من إمبراطورية قيصر . لذلك انحدر بجيشه إلى دومة الجندل فى طريقه الذى سلكه حين ذهب من الحيرة مدداً لعياض بن غنم.[١] ومن دومة سلك خالد طريق وادى سرحان ، حتى إذا بلغ قُراقِر أغار على أهلها من بنى كلب . ولو أنه تابع مسيرته فى طريق الوادى لبلغ بُصرى فى أيام ، ولاتصل بجيش أبى عبيدة وسائر جيوش المسلمين على اليرموك . لكنه قدر أنه ربما لقى من جيوش الروم قبل بُصرى من يصده عن غايته أو يُطيل مكثه دونها . لذلك قال لأصحابه : « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؛ فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين » . وأجابوه كلهم : « لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش وإنما يأخذه الفذ الراكب . فإياك أن تغرر بالمسلمين » . لكن خالداً كان قد عزم سلوك هذا الطريق ، فقام إلى أصحابه فقال لهم : « لا يختلفن هدْيُكم ، ولا يضْعُفَنّ يقينكم . واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحِسْبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء يقع فيه مع معونة الله له » . وتحمس أصحابه حين سمعوا قوله هذا ، فكان ردهم عليه : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » .

حديث رافع بن عميرة الطائى

والتمس خالد دليلا يسلك به هذه الطريق ، فجىء برافع بن عَميرة الطائى ، فقال له : « انطلق بالناس » . قال رافع : « إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال . والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . إنها لخمس ليال لا يصاب فيها ماء » . وحدق إليه خالد وقال : « لا بد والله من ذلك ، فمرْ بأمرك » . وكان رافع قد سمع حديث خالد لأصحابه ورأى إقرارهم إياه ، وأيقن أن لا مفر من نفاذ أمره ، فقال : « استكثروا إذن من الماء . من استطاع منكم أن يُصرّ أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله » . وطلب إلى خالد أن يجيئوه بما استطاعوا من إبل سمان . فلما جاءوه بها عمد إليها فظمأها ، حتى إذا أجهدها عطشاً أوردها الماء عللا بعد نهل[٢] فلما امتلأت صرّ آذانها وشد مشافرها لئلا تجترّ . وانطلق خالد بن الوليد بالجيش يتقدمه رافع .

---

(١) راجع ص ٢٢٣ من هذا الكتاب .

(٢) العلل : الشربة الثانية . والنهل : الشربة الأولى .

وقضوا خمسة أيام يسيرون فى وحشة الصحراء ووحدتها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم ؛ ينزلون فى كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء ، ثم يشقون بطون عدد من هذه الإبل التى اتخذوها صهاريج ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل . فلما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ! ما عندك ؟ » قال رافع : « خير . . . أدركتم الرىّ إن شاء الله ، وأنتم على الماء » . وكان رافع أرمد فأدار رأسه يمنة ويسرة ثم قال : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما أتوهما وقف عليهما وقال : « انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ » قالوا : ما نراها . قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم إذن والله وهلكتُ لا أبالكم ! اضربوا يمنة ويسرة » . فنظروا فوجدوا الشجرة قد قطعت وبقيت منها بقية .فلما رآها المسلمون كبّروا وكبر رافع ، ثم قال : « احفروا فى أصلها » ، فحفروا فنبع الماء من عين فشرب الناس حتى رووا . فلما اطمأنوا إلى السلامة قال رافع : « والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبى وأنا غلام » .

خالد يبلغ الشام ويعسكر بجنده إلى جوار زملائه

أدرك خالد وجيشه الرىّ حين بلغوا هذا المكان ، وأدركوا عنده مفاتح الشام . ودخل خالد سُوَى قُبيل الصبح فأغار على أهلها من بهْراء . وفزع الناس حين رأوا المسلمين ،ولم يطيقوا مقاومتهم فأذعنوا طوعاً أو كرهاً . وسالم أهل تدْمُر بعد مقاومة يسيرة . ولم ير خالد أن يهاجم دمشق وهو إنما جاء مدداً لجيوش المسلمين المقيمة على اليرموك . فسلك غير بعيد طريق حُوارين ، حتى إذا أتى قُصَم صالح أهلها قضاعة ، ومنها انحدر إلى أذْرعات ، وأغار على غسان بمرج راهط ، ثم سار حتى نزل على قناة بُصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة ويزيد بن أبى سفيان . وتقدمهم خالد فاقتحموا بُصرى وفتحها الله عليهم. ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص بالعربات عند الغَوْر . وعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه ، وبذلك اكتمل جمع المسلمين على اليرموك .

هذه هى الرواية المشهورة عن سير خالد من العراق إلى الشام . وأنت ترى أنها أقرب إلى القصص الروائى وإن تضافرت روايات المؤرخين عليها . واجتياز

المفازة بدلالة رافع بن عميرة أعجب ما فيها . على أن هذا العجب لم يمنع من تصديقها ، أن كان لخالد ما هو أعجب منها ؛ فانحداره من عين التمر لغياث عياض بن غنم أمام دومة بعض هذا العجب . وحجة خالد فى سر من الناس عجب أيضاً . وحروب خالد باليمامة وفتحه العراق عجب كل العجب . وهو إنما كان يختار أقرب الطرق إلى الظفر وأدناها إلى بلوغ النصر . وهذه المفازة التى اجتازها قد بعدت به عن مخاطر أراد اتقاءها ، وأدنته من لقاء جيش المسلمين. فلا عجب أن تصدق الرواية عنها ، ولا عجب أن يتخذ خالد هذا الطريق طريقه ، وإن حير ذلك ألبابنا وأذهل أذهاننا .

عدد القوات التى سارت مع خالد من العراق

أراد بعض المؤلفين الذين أقروا هذه الرواية أن ينفوا عنها كل ما يبعد بها عن مقتضى العقل . اختلف فى عدد الجيش الذى سار به خالد من العراق ، فقيل كان تسعة آلاف ، وقيل ستة آلاف ، وذهب بعضهم إلى أنه ثمانمائة ، أو ستمائة ، أو خمسمائة . وأصحاب الرواية الأولى يذكرون أن خالداً سار بنصف الجيش الذى كان بالعراق تنفيذاً لأمر أبى بكر ، وكان هذا الجيش ثمانية عشر ألفاً أو نحوها . أما الذين يذكرون أن هذا الجيش كان دون الألف فيؤيدون رأيهم بأن القصد من مسيرة خالد إلى الشام إنما كان لعبقريته فى القيادة ؛ أما الجيوش التى كانت تواجه الروم فلم تكن قليلة العدد ، وكان المدد يجيء لها من المدينة متصلا ؛ فسيرة خالد فى عدد قليل مقصودة حتى لا تحول ضخامة العدد بينه وبين السرعة فى نجدة من رآهم الخليفة فى حاجة إلى نجدته .

ويتوسط بعضهم فيذهب إلى أن خالداً فصل من العراق فى النصف من جيشه ، فلما بلغ قُراقر وعزم اجتياز المفازة سار خلالها فى بضع مئات، وتابع سائر الجيش مسيرته بوادى سرحان حتى اتصل بجيوش المسلمين عند بُصرى. وليس هذا الرأى بالمستحيل وإن اعترض عليه بأن مخافة خالد أن تستقبله جموع الروم فتحبسه عن غياث المسلمين تطعن على خالد أنه عرّض القسم الأكبر من جيشه لأمر لم يرد أن يتعرض له هو ومن اختارهم للسير معه .

وأيًّا كان الرأى فى مسيرة خالد وفى الجيش الذى صحبه من العراق فإنه

خالد وباهان يصلان إلى اليرموك فى وقت واحد

أدرك المسلمين باليرموك وقام معهم لقتال الروم . ولقد صادف مجيئه أن عزز هرقل جيشه بباهان القائد القادر الذى هزم خالد بن سعيد . واغتبط الروم بباهان اغتباط المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام الجيشان يتحيَّن كل منهما فرصة النزال يريدها مواتية ليتم له بها النصر على عدوه .

والحق أنه كان موقفاً بالغاً غاية الدقة . ولم تكن كل دقته فى فرق ما بين الجيشين فى العدد ، إذ كان المسلمون لا يزيدون على أربعين ألفاً ، فى حين كان الروم أربعين ومائتى ألف ؛ بل كانت دقته كذلك فى تفوق عُدة الروم على عُدة المسلمين . لم يكن هذا التفوق مما نعهده بين الجيوش فى عصرنا الحاضر ، فلم يكن الروم بأعلم من العرب بأساليب الحرب ؛ لكنه كان تفوقاً يضاف إلى العدد فيزيده بأساً وإن لم يظهر له أثر طيلة الشهرين اللذين انقضيا منذ جمع المسلمون وجمع الروم قواتهم على اليرموك . وعلة ذلك أن المسلمين كانوا يتفوقون على الروم بقوتهم المعنوية . كانت جموع الروم خليطاً من البدو المقيمين بالشام ومن جيوش هرقل التى غزت الفرس من قبل . ولم تكن بين هؤلاء وأولئك رابطة تجمعهم ، ولم يكن لهم مثلٌ أعلى يجاهدون فى سبيله . أما المسلمون فكانوا جميعاً من العرب ، وكانوا جميعاً يؤمنون بأنهم فى غزوهم الروم يجاهدون فى سبيل الله حق جهاده ، فمن استشهد منهم فله الجنة فيها نعيم مقيم ومغفرة من الله ورضوان ، ومن لم يؤتَ الشهادة كُتب له جهاده عند الله ، ثم كان له من مغانم الحرب ما يزيده حباً فيها وإقبالا عليها . ترى لأى القوتين فى هذا الموقف يكون الغلب : قوة العدد أم قوة الإيمان ؟! قوة المادة أم قوة الروح ؟! .

وتعاقبت الأيام وانقضى أسبوع وأسبوعان وثلاثة أسابيع والجيشان فى موقفهما لا تحين لأيهما فرصة النزال . كيف أطاق خالد بن الوليد هذا الموقف وما صبر قط لمثله من قبل ؟ أفراعته كثرة جيوش الروم فهابها كما هابها زملاؤه ؟ أم كان يدرس الموقف ويفكر فى أسباب النصر ؟! أم أن عوامل أخرى كان لها فى نفسه من الأثر ما قعد به كل هذا الزمن عن القيام بهجوم ؟ كل ما تذكره الروايات أن جيش المسلمين لم يكن موحد القيادة ، وأن خالداً جاء من العراق

مدداً لزملائه ولم يجئ أميراً عليهم . بل لقد كان الأذان للصلاة ينادى به فى كل معسكر على حدة ، وكان كل أمير من أمراء الجند ينظم خُطته بما يكفل عدم تراجعه . لذلك لم يستطع خالد أن يقوم بهجوم وحده ، وليس فى إمرته على أكثر تقدير غير تسعة الآلاف الذين جاءوا معه من العراق . وقد أدّى هذا التفرق فى القيادة إلى هجمات من جانب الروم ردها المسلمون ثم قعد بهم تفرق القيادة عن القيام بمثلها .

جمود الموقف وكيف الخروج منه

ماذا يستطيع خالد أن يفعل فى مثل هذا الموقف ؟ إن أبا بكر لم يولّه إمارة الجيش حين كتب إليه بالسير من العراق إلى الشام . فلو أنه طلب أن يتولاها لأوغر صدر زملائه ولأقام بالمدينة قيامة خصومه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب . لكن البقاء فى هذا الموقف على ضفة اليرموك يُزرى به ويذهب عزم المسلمين . والروم ينشطون كل يوم وينظّمون صفوفهم ، وتدل أنباؤهم على أنهم يتجهزون لموقعة حاسمة . وقد عرف أمراء الجند من زملاء خالد هذه الأنباء . أفلا يستطيع أن يُقنعهم برأيه فى وحدة القيادة ؟ ! لكنه لا يثق بأحد منهم ما يثق بنفسه . وهو إن دعا إلى أبى عبيدة أو إلى عمرو مثلا أغضب سائر الأمراء . فماذا عساه يصنع ؟ ! .

تواترت الأنباء بتجهز الروم وحماستهم لقتال المسلمين بعد أن جاءهم باهان بعدد كبير من القسيسين أقاموا شهراً يحرضونهم وينعون لهم النصرانية إذا لم يقض على هؤلاء العرب البُغاة القضاء الأخير . بل لقد ترامى إلى أمراء الجند على المسلمين أن الروم سينازلونهم فى غدهم . وأن باهان صفهم للقتال صفاً لم يسمع أحد من قبل بمثله . عند ذلك ريعوا واجتمعوا يتشاورون ما يصنعون .

خطاب خالد بن الوليد فى زملائه عن الموقف

ويدعوا الحديث عن كل أمير منهم ووجهته للقاء العدو . أما تعبئة الجيش فلم يتناولها البحث إذ كان كل أمير صاحب الرأى فى صف جنوده . فلما آن لابن الوليد أن يتكلم حمِد الله وأثنى عليه وقال : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك

لا يحل ولا ينبغي . وإن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تُؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته » . أمسك الأمراء عن القول هنيهة بعد الذى سمعوا من خالد . إنه على حق . وآية ذلك بقاؤهم شهرين قبل مجيئه وشهراً بعده وهم لايقدرون من أمر الروم على شيء. وقد تجهز الروم فعبئوا ، تُرى لو أنهم ظفروا بالمسلمين وردوهم ، فلمن تكون الإمارات التى وعد أبو بكر بها هؤلاء الأمراء ؟ لمن تكون حمص إذا لم يدركها أبو عُبيدة ، ولمن تكون البلقاء إذا لم يُقم بها يزيد ؟ ولمن تكون الأردن إذا جلا عنها شُرحبيل ، والعربة إذا أخلاها ابن العاص ؟ وإذا ظفر الروم بالمسلمين فكيف يرجع هؤلاء الأمراء إلى المدينة وقد فصلوا عنها مدداً لعكرمة بعد أن أصاب خالد بن سعيد من خزى الهزيمة ما أصابه ؟ ! .

مرَّ ذلك كله بخاطر الأمراء حين سمعوا خالداً ، فقالوا له بعد هنيهة : « هات ! فما الرأى ؟ » قال : « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر . ولو علم بالذى كان ويكون لقد صحبكم . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرّقت بينكم ، فالله الله ! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان لغيره من الأمراء ، ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ، هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وإن هذا يوم له ما بعده ؛ إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزَلْ نردّهم ، وإن هزمونا لم نُفلح بعدها . هلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلكم ، ودعونى أتأمر اليوم » .

خالد يتولى إمارة الجيش العامة أول يوم للمعركة

ولم يتردد القوم فى إجابة خالد إلى ما طلب بعد أن سمعوا كلامه . وما لهم لا يؤمّرونه اليوم الأول وهذه المعركة لا ريب تطول ، وإن هى إلا واحدة من المعارك التى تطاولت ثلاثة أشهر والتى توشك أن تمتد حتى يتداول كل واحد منهم إمارة الجيش مرات ! وهون عليهم ما بلغهم من تجهز الروم أن يدعوا خالداً يتلقى الصدمة الأولى لأنه قد عرض نفسه لها . وما كان لأحدهم أن ينكر مقدرته عليها وهو غازى اليمامة وفاتح العراق .

وكان خالد أثناء هذا الشهر الذى أقامه بالشام قد عرف من أسرار قيادة الروم ما طوع لعبقريته أن ترسم الخُطة لملاقاتهم والظفر بهم . لذلك عبأ الجيش فرقًا ، أو كراديس على تعبير المؤرخين ، كل كُرْدوس منها ألف رجل ، وجعل على كراديس القلب أبا عُبيدة ، وعلى كراديس الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة ، وعلى كراديس الميسرة يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلا من القادة الشجعان أمثال القعقاع وعكرمة وصفوان ابن أمية ومن إليهم . وهذه تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ؛ وإنما سوغها خالد بقوله لأصحابه : « إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس أكثر فى رأى العين من الكراديس » .

وعهد خالد إلى أبى سفيان فى مهمة القاصّ ، فكان ينتقل بين الكراديس فيقول : « الله ، الله ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا اليوم من أيامك ؟ أنزلْ نصرك على عبادك ! » .

إنما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان

وسمع خالد رجلاً يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فغضب حين سمعها وصاح : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . والله لوددت أن الأشقر برئ من تَوَجّيه وأنهم أضْعفوا فى العدد» . والأشقر فرسه ، وكان حَفِىَ فى مسيره بالمفازة .

وانتشرت عبارات خالد هذه فى المعسكر ، وجعل الجند يتناقلونها من كردوس إلى كردوس ، فتلهب النفوس حمية وتوقظ فى القلوب الشوق إلى الاستشهاد . بل لقد تكررت على كل الألسنة كلمته : « إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وذكروا جميعًا غزواته وذكروا قبلها غزوات الرسول . وكيف لا يذكرونها وبينهم ألف رجل من أصحاب رسول الله ، منهم مائة من أهل بدر ! . وخالد بن الوليد هذا ، أليس هو الذى دوخ الفرس وحطم جيوشهم ، وكانوا بالنسبة لجيشه بالعراق كجيوش الروم بالنسبة لهم عدداً ! النصر إذن آت لا محالة . وإن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم .

وسرت إلى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد منذ نزلوا الشام .

فقد أيقنوا أن خالداً أراد لهذا اليوم أن يكون يوم الفصل . وهم يعلمون أن خالداً إذا أراد لم تردّه قوة عن عزمه . ثم إنهم رأوا الروم تهيئوا من جانبهم إلى موقعة حاسمة فليس إلى اتقائها سبيل . صدق إذن والله خالد : هذا يوم من أيام الله ، يستحب فيه الاستشهاد ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتوهب فيه الحياة لمن حرص على الموت . لذلك تقدم القادة صفوفهم ، هذا يرتجز ، وذاك يرتجل ، والثالث يتمثل ، وكلهم ينتظر الأمر بالهجوم بصبر نافد وعزم ثابت على النصر أو الموت .

غزوة اليرموك

اتصلت بالروم أنباء عن تجهز المسلمين كما اتصل بالمسلمين نبأ تجهزهم ، أن كان بعض البدو من تلك الأصقاع ينقلون الأنباء متجسسين بين العسكرين . وقد عرف خالد من هؤلاء البدو أسرار قيادة الروم ، كما عرف فزع بعض أمرائهم حين علموا بمقدمه من العراق . وكان جَرَجة أكثر هؤلاء الأمراء فزعاً . ولعل جرجة هذا كان عربياً ، أو رومياً أقام بالشام السنين الطوال ، فعرف العربية وسمع بأنباء المسلمين . ولقد مال قلبه إلى خالد حين نقل له المتجسسون أنباء نصره ، وعرف خالد ذلك عنه . فلما صدرت أوامر باهان إلى جيوش الروم بالزحف على المسلمين كان جرجة بجيشه فى الطليعة ، فتلقاه خالد وفسح له ولعسكره طريقاً . وظن فيلق من الروم أن جرجة فى حاجة إلى المدد فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم عن مواقفهم وحملوهم على التراجع .

الذين بايعوا عكرمة على الموت

كان عكرمة بن أبى جهل على كردوسه أمام فُسطاط خالد بن الوليد . وقد رأى تسليم جرجة وجنوده فاستراح له . فلما رأى هجمة فيلق الروم وتراجع المسلمين أمامهم ثار فى عروقه دمه وصاح فى وجه الروم : « قاتلتُ رسول الله فى كل موطن وأفرّ منكم اليوم ! » ، ثم انقلب إلى أصحابه ينادى : « من يبايع على الموت ؟ ! » ، وبايعه ضِرار بن الأزور والحارث بن هشام فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم بينهم عمرو بن عكرمة ولده . واندفع هؤلاء أربع المائة الذين بايعوا على الموت على فيلق الروم هجمة رجل واحد ، مستميتين فى سبيل ربهم ، وقد تجلى لهم وجهه الأكرم ، وقد أضاء لهم بنوره سبيل الاستشهاد والجنة . وزلزلت الهجمة الروم ، وزادهم زلزالا أن انضم جرجة وجنوده

للمسلمين فى مهاجمتهم ، مما ثبت فى نفوسهم اليقين بغدر بنى وطنهم وانضمامهم لأعدائهم .

ورأى خالد فيلق الروم يرتد فأمر الجيش كله بالتقدم ، فإذا الروم يلقونه بهجوم ليس دون هجومه عنفاً . هنالك أيقن المسلمون أن لا مفر لهم من الفناء إلا بالنصر ، فازدادوا بالله إيماناً ، وزاد الإيمان هجومهم قوة ، واندفع ابن الوليد فى مقدمتهم يهوى بسيفه على عدوه فيخطف أرواحهم خطفاً . وبلغت الحماسة بالمسلمين حتى شارك النساء الرجال ، فكانت لجويرية ابنة أبى سفيان مواقف تعيد إلى الذاكرة موقف أمها هند فى غزوة أحُد .

استماتة الروم فى القتال

وقاتل الروم مستميتين ، واندفعوا يقتلون من المسلمين كل من وقع فى يدهم ، ولذا ترجحت المعركة واستمر ترجحها طيلة النهار . ووقف عكرمة والذين بايعوه على الموت لا يتراجع أحد منهم قيد أنملة بعد أن وهب كل منهم لله نفسه ، وبذلك حملوا وطيس المعركة من بداءتها إلى منتهاها . فلما كانت الشمس فى المغيب بدأت قوات الروم تهن ، وبدا الإعياء على وجوه فرسانهم ، ورأى خالد أنهم يلتمسون إلى الهرب الوسيلة . أما والهاوية من ورائهم والمسلمون من أمامهم ، فليس لهم إلى مهرب من سبيل .

وقدر خالد أن فرارهم يزيد أصحابهم ضعفاً ، فأمر رجاله ففسحوا طريقاً يؤدى بهم إلى الوادى . ولم يلبث هؤلاء الفرسان حين رأوا وسيلة النجاة تهيأت لهم أن فروا هاربين وتفرقوا فى البلاد . عند ذلك انقضّ خالد بفرسانه ومشاته على مشاة الروم فاقتحموا عليهم خندقهم فتراجعوا ؛ وكانت وراءهم هاوية الواقوصة فتردوا فيها وكأنهم جدار دكّ من أساسه . وشدد المسلمون الضغط عليهم فجعلوا يتراجعون فيتردى فى الهاوية منهم فريق بعد فريق . وظلوا كذلك يتلاحقون ، حتى قيل إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف ، وقيل مائة وعشرون ألفاً .

الروم يفرّون وقوادهم يقتلون

وقُتل يومئذ تذارق أخو هرقل ، كما قتل عدد كبير من أمراء الجيش على الروم . وكان الفيقار وطائفة معه من أشراف الروم قد نجوا من الموت .

فلما رأوا ما حل بأصحابهم تجللوا برانسهم ونكسوا رءوسهم وجلسوا حيث كانوا فقتلوا ، وكان الموت منجاتهم من العار . أما باهان ففر ونجا ليقف أمام المسلمين من بعدُ فى مواقع لا يكون حظه فيها خيراً من حظه فى فى اليرموك .

خالد فى رواق تذارق

تمت هزيمة الروم ، فدخل المسلمون عسكرهم ، واستقر خالد فى رواق تذارق ، وغنم المسلمون كل ما فى عسكر الروم ، فكان نفلُ الفارس منه ألفاً وخمسة دراهم . ومن الرواق الذى أقام به شقيق قيصر خلال ثلاثة الأشهر التى انقضت مذ وقف المسلمون والروم وجها لوجه ، مدّ خالد بصره إلى الميدان الذى فر منه الروم فأصبح خلاء ليس لهم فيه نبأة ولا هسيس ، ثم رفعه إلى السماء شكراً لله على نعمائه .

عكرمة بن أبى جهل وابنه بين قتلى المسلمين باليرموك

ولم يكن عدد القتلى من المسلمين فى وقعة اليرموك قليلا ، إذ بلغ ثلاثة الآلاف ، من بينهم عدد من كبار الصحابة والفرسان ذوى المكانة والبلاء . وكان عكرمة ابن أبى جهل وابنه عمرو قد أصابتهما الجراح من كل جانب أثناء المعركة . فلما أصبح القوم جيء بهما إلى خالد برواق تذارق ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو بن عكرمة على ساقه وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر فى حلقيهما الماء حتى استُشهدا . وأصيبت عين أبى سفيان بسهم أخرجه منها أبو حَثْمة .

جلاء هرقل عن حمص

قضت موقعة اليرموك على كل أمل للروم فى استبقاء الشام . فلم يكد هرقل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بحمْص وجعلها بينه وبين المسلمين ، وأقام عليها أميراً كما أقام من قبل على دمشق أميراً . أما المسلمون فما لبثوا حين فرغوا من أمر اليرموك أن ساروا إلى أرض الأردن فطهروها من رافضة الروم ، ثم لاحقوهم إلى دمشق وحاصروهم بها .

وحصار دمشق وتغلُّب المسلمين عليها وما تلا ذلك إلى أن تم فتح الشام قد حدث فى خلافة عمر ، على رواية الطبرى ومن إليه .

لم نقف من قصصنا أنباء اليرموك عند نبأ تواترت روايته واختلف مع

ذلك فيه . ذلك النبأ أن محمِيَّة بن زنيْم قدم بريداً من المدينة بعد ما بدأت الموقعة، فأخذه الفرسان وسألوه ما وراءه ، فأخبرهم بأن الأمداد فى طريقها إليهم؛ فجاءوا به إلى خالد فأسرّ إليه أن أبا بكر قُبض ، ودفع إليه كتاباً أخذه خالد فجعله فى كِنانته مخافة أن ينتشر الخبر فى الجند. وكان هذا الكتاب يحوى استخلاف عمر بن الخطاب وأمراً بعزل خالد عن إمارة الجيش ، وبتأميره أبا عبيدة بن الجراح . فلما أتم خالد واجبه وظفر بالروم تنحى عن القيادة وتولاها أبو عبيدة مكانه .

وفاة أبى بكر واستخلاف عمر

عمر يعزل خالداً عن إمارة الجيش

هذا نبأ تختلف الروايات فيه مع تواتره . وليس يقع الخلاف على عزل خالد ، فهذا أمر مسلم به ؛ إنما يقع على تصويره فى هذه الصورة التى روينا . فالأكثرون يؤيدونها ، وبعضهم يذكر أن الأمر بعزل خالد لم يسلَّم إليه ، وإنما أخذه أبو عبيدة فأخفاه حتى تمَّت المعركة ؛ ولم يطالع به خالداً حتى حاصروا دمشق . ويذهب غير هؤلاء إلى أن أبا عبيدة أمسك عن ذكره حتى فتحت دمشق ، فلما تمَّ فتحها أظهر إمارته وعزل خالد .

وعَزَلُ ابن الخطاب خالداً عن إمارة الجند بالشام على النحو الذى رواه الطبرى ومن إليه يثير الدهشة ؛ فلم يكن خالد أميراً على جيش بالشام غير جيشه الذى جاء معه من العراق . ولم يكن أبو عبيدة فى هذه الرواية أميراً إلا على جيشه ، شأنه فى ذلك شأن عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشُرَحبيل ابن حَسَنة . وإنما قام خالد على إمارة الجيش عامة يوم اليرموك بالاتفاق بينه وبين سائر القوّاد . ولو أن النصر لم يتم له فى اليوم الأول لكانت القيادة لغيره فى اليوم الثانى ، ولغيرهما فى اليوم الذى يليه . والدهشة لعزل ابن الخطاب خالداً تدعونا أن نتلمَّس فى غير رواية الطبرى وأصحابه ما يزيلها .

وسنرى أن الأزدىّ والواقدىّ والبلاذُرى يخالفون الطبرى كذلك فى الترتيب التاريخى لوقائع الفتح فى الشام ، ويختلفون على هذا الترتيب فيما بينهم . فقد قيل إن أجنادين ودمشق وغيرهما كانت قبل اليرموك ، وقيل إن اليرموك كانت آخر الوقائع . وسنقص هذه الروايات فى إيجاز لا يخفى عليها ويصوّر ما تنطوى عليه وما تتفق أو تختلف مع الطبرى فيه .

الرواية الثانية فى فتح الشام

هذه الروايات تذهب إلى أن الله عزم لأبى بكر فتح الشام بعد أن تمّت حروب الردّة ولم يكن على تخومه من المسلمين أحد. ثم إنه أصبح يوماً ودعا إليه أهل الرأى بالمدينة وأفضى إليهم بما استقرّ عليه رأيه. فلما اطمأنوا إليه على ما ذكرنا فى الفصل السابق، بعث إلى أهل اليمن وإلى غيرهم من المسلمين يستنفرهم لغزو الروم بالشام. وفى انتظار مجيئهم جعل يُعِدّ جيوشه من أهل المدينة ومكة والطائف وما جاورها. وقد عيّن من هؤلاء أربعة ألوية جعل عليها يزيد بن أبى سفيان وأبا عبيدة بن الجرّاح ومُعاذ بن جبل وشُرحبيل بن حسنة. وفى رواية أنه عيّن لكل أمير من هؤلاء مِنطَقة من فلسطين أو الشام، ثم تكون القيادة العامة على الجيوش لمن يقع القتال فى مِنْطَقته. وفى رواية أخرى أنه جعل أبا عبيدة أميراً على هذه الجيوش جميعاً، وجعل يزيد بن أبى سفيان خلفه فى الإمارة[1]. وتمّ تجهيز هذه الجيوش للسير حين أقبل ذو الكَلاع الحميرى وسائر أمراء اليمن على قبائلهم من مَذْحِج وطيّئ وأسد وغيرهم. هنالك ودّع أبو بكر يزيد بن أبى سفيان وجيشه إلى الشام وأردفه بزَمْعة بن الأسود وأوصاه بما سبق أن ذكرناه.

ضيق المدينة بجيوش المسلمين إلى الشام

وضاقت المدينة بالقادمين من أرجاء شبه الجزيرة، فخرج أبو بكر إلى ثنيّة الوداع فوجّه الجيوش منها إلى الشام. وقد انضم خالد بن سعيد بن العاص إلى جيش أبى عبيدة الجرّاح مفضلا إيّاه على ابن عمه يزيد بن أبى سفيان؛ لأنه أسبق فى الإسلام، ولأنه أمين الأمة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وخرجت جيوش اليمن ومعها نساؤها وأبناؤها تسير مع المهاجرين والأنصار فيمتلىء بهم فضاء الصحراء. وجاء إلى المدينة بعد مسيرهم جند من اليمن ومن سائر العرب بعثهم الخليفة فى أثر من تقدّموهم لينضموا إلى أى الأمراء شاءوا.

وكان هرقل بفلسطين حين بلغته أنباء المسلمين ومسيرتهم لغزو

---

(١) وفى رواية البلاذرى أن أبا عبيدة استعفى أبا بكر حين أراد أن يعقد له على لواء إلى الشام، وأن عمر بن الخطاب هو الذى ولاه على الشام كله حين استخلف.

بلاده عند ذلك جمع رءوس المدن وحرَّضهم على قتال هؤلاء « الحفاة العُراة الجياع » الذين خرجوا إلى بلادهم ، وقال لهم : « وأنا شاخص عنكم ومُمِدكم بالخيول والرجال . وقد أمَّرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا » . ثم إنه خرج من فلسطين إلى دمشق فإلى حمص فإلى أنطاكية ، وجعل يحرّض الناس ويقول لهم مثل ما قال لأهل فلسطين ، وأقام بأنطاكية يتخذ لمواجهة المسلمين عُدَّته .

وبلغ أبو عبيدة أرض الشام مارًّا بوادى القرى وبالحِجر . فلما دخل مآب قاومه جند من الروم لم يلبث أن شتَّتهم . ولما بلغ أبو عبيدة الجابية جاءته أنباء هِرقل تصف تجهز الروم للقاء المسلمين بجيش لم يسمع بمثله عدداً وعُدة . عند ذلك كتب إلى أبى بكر يستشيره ويستمده . وكتب يزيد بن أبى سفيان كذلك يذكر أن انسحاب هرقل إلى أنطاكية آية خوفه وانزعاجه . ورضى أبو بكر عن كتاب يزيد وأجابه يشجعه . أما جوابه إلى أبى عبيدة فلم يخل من بعض اللوم . وفى الكتابين ذكر أبو بكر أنه ممدٌّ المسلمين بأضعاف ما يمدّ هرقل به أمراء جنده .

هل مكة وفتح الشام

وكتب الخليفة إلى أهل مكة يشاورهم ، فغضب عمر ورأى فى استشارتهم تسوية لهم بالسابقين الأولين من المسلمين . وعتب أهل مكة على ابن الخطاب ، وكان مما قاله عكرمة بن أبى جهل : « أما إنكم إن كنتم تجدون قبل اليوم فى عداوتنا عقالا فلستم اليوم بأشدَّ على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا » .

كانت العرب فى هذه الأثناء تنسل من كل صوب وحَدَب إلى المدينة تريد أن يكون لها فى غزو الشام نصيب . وجمعهم أبو بكر ، وجعل عمرو ابن العاص عليهم وعلى من جاء من أهل مكة . وسأل عمرو : « ألست أنا الوالى على الناس ؟ » وأجابه الخليفة : « أنت الوالى على من معك من ها هنا . فإن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح » . ولما آن لعمرو أن يسير توجه إلى عمر بن الخطاب فسأله أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام قال عمر : « لا أكذبك ، ما كنت لأكلمه فى ذلك أبداً وأبو عبيدة

أفضل منزلة عندنا منك » . وألح ابن العاص يقول : « إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئًا من فضله أن أَلِىَ عليه » . ولم يغير هذا الكلام من رأى ابن الخطاب ، بل أجابه : « ويحك يا عمرو ! إنك لتحب الإمارة . والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا . فاتق الله يا عمرو ولا تطلب بشىء من سعيك إلا وجه الله . فاخرج إلى هذا الجيش ؛ فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . ورضى عمرو وسار بجيشه إلى الشام بعد أن ودّعه أبو بكر ونصح إليه .

أبوبكر يبعث خالداً إلى العراق وكتابه إليه فى ذلك

وكتب أبو بكر إلى أبى عبيدة يستحثه على الغزو . لكن تقدُّم المسلمين بالشام كان بطيئًا لم يغير من بطئه وصول الأمداد ثم وصول عمرو بن العاص إليهم . بل لقد ظل أبو عبيدة يكتب إلى الخليفة يذكر له : « إن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد اجتمعوا على حرب المسلمين » ويطلب إليه رأيه . عند ذلك ضاق أبو بكر ذرعًا ، فرأى أن يُنسى الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، فكتب إليه بالعراق يقول : « إذا جاءك كتابى هذا فدع العراق وخلّف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامضِ متخففًا فى أهل القوة من أصحابك الذين قدِموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق وقدِموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك » .

غضب خالد حين بلغه الخبر فقال قبل أن يقرأ كتاب الخليفة : « هذا عمل عمر . نفس علىّ أن يفتح الله العراق على يدى » . فلما قرأ كتاب الخليفة ورآه قد ولاّه على أبى عبيدة وعلى الشام كله اطمأن وقال : « أمّا إذ ولاّنى فإن فى الشام خلفًا من العراق » .

يذهب المؤرخون الذين يروون الحوادث على هذا النحو إلى أن خالداً كان بالحيرة ولم يكن قد فتح الأنبار ولا عين التمر حين جاءه كتاب أبى بكر . فلما تجهّز للخروج إلى الشام سار إليهما ففتحهما وانحدر منهما إلى قراقر ،

ومن هناك اجتاز المفازة ودليله رافع بن عَمِيرة الطائى حتى بلغ سُوًى من أرض الشام .

وفى هذه الأثناء كان أبو بكر قد كتب إلى أبى عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنى قد ولّيت خالد بن الوليد قتال الروم فى الشام فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنى ولّيته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » . وكتب خالد إلى أبى عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنى أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة فى دار الدنيا . فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولى لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت — رحمك الله — على حالك التى كنت بها لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمر دونك؛ فإنك سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . تمم الله مابنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار . والسلام عليك ورحمة الله » .

كتاب خالد إلى أبى عبيدة ابن الجراح

وسار خالد من سُوى إلى اللِّوى، ثم إلى قُصم حيث صالح بنى مَشْجَعَة ، ومن هناك انحدر إلى الغُوَيْر وذات الصنمين حتى بلغ غُوطة دمَشْق بعد أن بث الفزع والرعب حيث سار ، وبعد أن دانت له تدمر وصالحه[1] أهلها .

ومن الغوطة سار خالد إلى ثنيَّة العُقاب يريد دمشق . وإنما سميت هذه الثنية « ثنية العقاب » بعد غارة خالد لأنه نشر بها العقاب راية رسول الله . وعلى ميل من الباب الشرقى لدمشق نزل ديراً عُرف بعده باسم دير خالد . ويروى أن أبا عبيدة أدركه هناك ، وأن أول حصار لدمشق بدأ يومئذ .

والراجح فى الروايات جميعاً أن خالداً لم يقم أمام دمشق ، بل تخطاها إلى قناة بُصرى حيث اجتمعت قوات المسلمين . وأيما الروايتين صحّت فقد نُمى إلى المسلمين أن هرقل جمع جيشاً عظيماً بأجنادين ليهاجمهم ، فساروا لقتاله من

(١) وروى البلاذرى أنه سار من تدمر إلى حوارين فمرج راهط ومنها إلى غوطة دمشق .

بُصرى، أو أنهم فكوا حصار دمشق وساروا لقتاله منها[1]. والتقى الروم والمسلمون بأجنادين قبل أربعة وعشرين يومًا من وفاة الصديق .

اجتماع المسلمين جميعاً بأجنادين

وبأجنادين اجتمع المسلمون جميعًا إجابة لكتاب وجَّهه خالد إلى أمراء الجند : يزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة . وعمرو بن العاص . وعبأ خالد هذه الجنود فجعل أبا عبيدة على المشاة ، ومعاذ بن جبل على الميمنة ، وسعيد بن عامر بن حِزْيَم الجُمَحى على الميسرة، وسعيد بن زيد بن عمرو على الفرسان ، وطفق هو يحرّض الناس متنقلا بين الصفوف لا يستقر فى مكان .

ويادر الروم المسلمين بالقتال . وكان خالد قد أمر رجاله أن يؤخروه إلى صلاة الظهر . ورأى سعيد بن زيد كثْرة القتلى من المسلمين فنادى يستعجل المعركة . هنالك تقدم خالد الفرسان وأمرهم أن يحملوا معه ، ثم حمل الناس بأجمعهم ، فانهزم الروم وأنصارهم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وأصابوا عسكرهم وما فيه .

وارتدّ خالد بالمسلمين فحاصروا دمشق ، فنزل هو دير خالد مما يلى الباب الشرقى ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل عمرو بن العاص على باب تُوماء ، ونزل شُرحبيل على باب الفراديس ، ونزل يزيد على الباب الصغير الذى يعرف بكَيْسان . وأحاط المسلمون بالمدينة وضيَّقوا عليها الحصار ، ولا يخامرهم الريب فى أنها ستفتح لهم أبوابها وتسلمهم مفاتحها .

وكتب أهل دمشق إلى هرقل يستنصرونه ويذكرون له تضييق المسلمين عليهم وشدتهم فى محاصرتهم ، فأرسل هرقل إليهم جيشًا لقيه خالد والمسلمون

---

(١) وفى رواية الأزدى أن خالداً مر بدمشق ولم يقف عندها إلا ريثما شن هو وأبو عبيدة الغارات على الغوطة وغير الغوطة . فبينا هما كذلك إذ أتاهما النبأ أن صاحب حمص أقبل فى جمع عظيم من الروم يريد أن يقتطع شرحبيل بن حسنة ببصرى . ثم علم خالد وأبو عبيدة أن جموعاً عظيمة من الروم قد نزلت أجنادين وأن أهل البلد وجموعاً من العرب أسرعت إليهم ، فخرجا عن دمشق يقصدان مواجهة هذا الجمع من الروم ، وكان أبو عبيدة على الساقة . وإنه ليسير إذ أدركه أهل دمشق يريدون قتاله ، فارتد خالد إليهم وقاتلهم ففروا راجعين يتحصنون بالمدينة ثم سار خالد وأبو عبيدة ومن معهما من المسلمين إلى أجنادين .

بمرْج الصُّفَّر فهزموه فارتد مدبراً ، وعادوا إلى حصار دمشق .

حصار دمشق والدفاع عنها

ودافع أهل دمشق عن مدينتهم ما استطاعوا . تحصنوا بأسوارها ، ورموا المسلمين بالنبل من أعلاها : وبالغوا فى تحصين أبوابها ؛ لكن ذلك كله لم يصد المسلمين عن الشدة فى الحصار . وعاد أمراء دمشق فكتبوا إلى هرقل يذكرون أنه إن لم يُنجدهم فلا سبيل لهم إلا مصالحة عدوه وعدوهم . وكتب هرقل إليهم يحرّضهم ويشجّعهم ويذكر لهم أنه مرسل المدد وراء رسوله إليهم . لكن المدد طال غيابه عنهم ، فلم يكن لهم بدٌّ من التسليم .

صلح أهل دمشق مع المسلمين

وصالح أهل دمشق المسلمين . تجرى بعض الروايات بأن أبا عبيدة صالح أهل دمشق القريبين من باب الجابية ، فلما دخل المدينة بعد توقيع الصلح كان خالد قد فتح الباب الشرقى عنوة . والتقى الأميران ، هذا يقول إنه صالح أهل المدينة ، وهذا يقول إنه فتحها بقوة الجند ، ثم أجيز الصلح . وتجرى بعض الروايات بأن خالداً هو الذى صالح أهل دمشق القريبين من الباب الشرقى ، وأن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة . والمتفق عليه أن الأمر انتهى بالصلح بين الفريقين .

والروايات تجرى كذلك بأن أبا بكر قُبض وتولى عمر بن الخطاب أمر المسلمين وجيوشُهم لا تزال على حصار دمشق ، وأن ابن الخطاب بعث إلى أبى عبيدة بوفاة أبى بكر وبولايته وبعزل خالد بن الوليد، فلم يُفْضِ أبو عبيدة إلى خالد بعزله حتّى فتحت دمشق أبوابها . وقيل بل أفضى إليه بأمر العزل فلم يغير ذلك من نشاط خالد، وأن خالداً صالح أهل دمشق حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية عنوة، فلما قيل لأبى عبيدة : والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه ، قال إنه يُجيز على المسلمين أدناهم ، وأجاز صلحه .

هذه رواية الأزدىّ والبلاذرىّ والواقدى عن فتح الشام أوجزنا تفاصيلها ولم نُطل الوقوف عند اختلاف الروايات فيها . وهى تختلف كما رأيت عن رواية الطبرى فى الترتيب التاريخى للوقائع ، وتختلف كذلك معه فى أمر خالد بن الوليد وإمارته على الجند وعزله عن هذه الإمارة .

على أن أمرين أساسيين لا يقع عليهما خلاف : أولهما أن أبا بكر هو الذى

أبو بكر وابن الوليد ومكانهما فى فتح العراق والشام

قرر غزو الشام كما قرر غزو العراق ، وهو الذى جيَّش الجيوش وسيَّر الأمداد إليهما ، وأن ما تم للمسلمين من نصر على الروم وعلى الفرس فى عهده كان أساس الإمبراطورية الإسلامية . والثانى أن سيف الله خالد بن الوليد كان القائد المظفر فى فتح الشام ، كما كان القائد المظفَّر فى فتح العراق ، وأن عزل عمر إياه عن إمارة الجند لم يغضّ من مكانته ولا من عبقريته فى الحرب ، هذه العبقرية التى عرفها رسول الله فيه فسمَّاه سيف الله ، وأقرها له أبو بكر فقال : « ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين » .

تعذر التحقيق التاريخى لوقائع الفتح فى الشام

أما اختلاف المؤرخين فى ترتيب الوقائع فليس يسيراً تحقيقه . لقد رأيت من رواية الطبرى ومن إليه أن خالد بن سعيد ما لبث حين أمره أبو بكر بالتقدم فى الشام أن اجتاز حدوده فانسحب الروم وأنصارهم من العرب أمامه دون قتال ، وأن باهان قائد الروم جعل يتراجع بجيوشه نحو دمشق فيتبعه خالد حتى كانا على مقربة من مرْج الصُّفَّر ؛ هنالك ارتد باهان فأحاط به وقطع عليه خط رجعته وقتل فرقة من عسكره فيها ابنه سعيد بن خالد بن سعيد . عند ذلك فر خالد فى كتيبة من أصحابه حتى بلغ ذا المروة على مقربة من المدينة . أما سائر قوات المسلمين فتقهقر بها عكرمة بن أبى جهل إلى حدود الشام ، وهناك أقام حتى أمده أبو بكر بالأمراء والجيوش الذين تقدموا إلى اليرموك دون أن يلقوا الروم . وعسكر الروم على ضفة اليرموك الأخرى . ولم يقع بين القوتين قتال طيلة شهرين سئم الخليفة جمود الموقف أثناءهما فأمد المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام خالد مع القوم حتى هزم جيوش هرقل هزيمة نكراء . ويوم تم لخالد هذا النصر قدم محميَّة بن زنيْم بريداً من المدينة يحمل النبأ بأن أبا بكر قُبض وأن عمر استخلف وأنه عزل خالداً عن إمارة الجيش .

هذه رواية الطبرى ومن إليه . أما البلاذرى ومن شاكله فيذكرون أن اليرموك حدثت فى عهد عمر ، وهى فى رأى بعضهم آخر الوقائع فى فتح الشام ، كما يذكرون أن أبا بكر جعل أبا عبيدة أميراً على المسلمين لفتح الشام ، وأنه أمده بجيوش كان خالد بن سعيد فى بعضها . وقد فتح أبو عبيدة الجابية ثم أبطأ فى تقدمه وألح على الخليفة بالكتب يستمده ويذكر له من بأس الروم وقوتهم

ما جعل أبا بكر يوفد خالد بن الوليد من العراق أميراً على جيوش المسلمين بالشام ، ويعزل أبا عبيدة عن هذه الإمارة . وسار ابن الوليد حتى انضم إلى قوات المسلمين على قناة بُصرى ، ومن هناك التقى المسلمون بقوات الروم العظيمة التي اجتمعت بأجنادين فغلبوها . ثم إنهم حاصروا دمشق وطال حصارهم إياها قبل أن تفتح أبوابها . ويوم فتحت هذه الأبواب جاء بريد المدينة بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد .

تعادل روايتى الطبرى والبلاذرى فى وقائع الفتح

أكانت اليرموك فى عهد أبى بكر كرواية الطبرى ومن إليه ، أم فى عهد عمر كرواية البلاذرى ومن شاكله ؟ ! ربما أيَّد رأى الطبرى أن واقوصه الواقعة على اليرموك والتى حدثت المعركة عندها ، قريبة من بادية الشام ، ومن تخوم العرب ، ومن طريق وادى سرحان ، وأنها كانت لذلك أدنى الأرض إلى جيوش المسلمين حين التقائها بعد أن جاءت من المدينة تغزو هرقل وإمبراطوريته . وربما أيد رواية البلاذرى ومن شاكله ما ذكره الطبرى نفسه من أن الروم تراجعوا منذ بدأت الحرب نحو دمشق ، مطمئنين إلى حصونها وإلى قوة المدن الحصينة المحيطة بها ، وأنهم أرادوا بتراجعهم أن يستدرجوا العرب إلى المواقع القوية ليوقعوا بهم ويردوهم منهزمين إلى بلادهم فلا تحدثهم أنفسهم بالعود إلى غزو الشام كرة أخرى .

الرأى فى عزل ابن الخطاب خالداً

من العسير ، والأمر ما ترى ، أن نقطع كيف كان ترتيب الوقائع فى فتح الشام . أما عزل ابن الخطاب خالداً عن إمارة الجيش فالأمر فيه يسير . فالطبرى والبلاذرى والمؤرخون جميعاً متفقون على أن أبا بكر بعث خالداً من العراق إلى الشام لينسى الروم وساوس الشيطان ، وذلك بعد أن سئم جمود قوات المسلمين هناك . وإنما يقع الخلاف على مكان خالد من زملائه الأمراء : أذهب أميراً عليهم جميعاً ، أم ذهب أميراً على القوة التى فصل بها من العراق دون سواها ؟ فإذا انحسم هذا الخلاف تيسر لنا أن نفهم أمر ابن الخطاب بعزل خالد .

يذهب الطبرى ومن إليه إلى أن ابن الوليد ذهب إلى الشام أميراً على القوة التى فصل بها من العراق ، وأنه لم يتول الإمارة العامة إلا يوم اليرموك ،

وذلك حين اتفق مع زملائه أن يتعاوروا الإمارة بينهم ، وأن يتأمر هو اليوم الأول . أما البلاذرى ومن شاكله فيذكرون أن أبا بكر بعثه أميراً على قوات المسلمين كلها بالشام ، ويثبتون نص الكتابين اللذين بعث بهما الخليفة إلى خالد وإلى أبى عبيدة متضمنين أمره هذا . ولسنا نتردد فى الأخذ برواية البلاذرى . فليس طبيعياً أن تقف جيوش دولة بعضها إلى جانب بعض ولا تسند القيادة العامة على القوات كلها إلى أحد أمراء هذه الجيوش . والطبرى نفسه يثبت أن أبا بكر بعث إلى أمراء الجند بالشام أن يجتمعوا عسكراً واحداً وأن يلقوا زحف المشركين بزحفهم . وهذا أمر لا سبيل إلى نفاذه إذا تفرقت القيادة . وقد أصدر الخليفة هذا الأمر قبل أن يبعث ابن الوليد إلى الشام . فلا بد أن إمارة الجيش العامة كانت لأبى عبيدة أو ليزيد بن أبى سفيان أو لغيرهما من سائر الأمراء . والراجح أنها كانت لأبى عبيدة وإن ذكر بعضهم أنه استعفى أبا بكر منها . أما وذلك ما لا نتردد فى القطع به، فلا شبهة فى أن أبا بكر أوفدخالداً من العراق إلى الشام أميراً على جيوش المسلمين كلها ، على نحو ما رواه البلاذرى ومن شاكله .

ولولا أن خالداً كان الأمير على جيوش المسلمين لما عزله عمر بن الخطاب عن هذه الإمارة أول ما استخلف . فالثابت فى كتاب الطبرى وغيره من المؤرخين أن خالداً ظل بعد عزله هذا أميراً على القوات التى كان يباشر قيادتها ، وأنه ظل كذلك حتى عزله عمر عن إمارة قِنَّسرِين وعن عمله فى الجيش، وذلك فى السنة السابعة عشرة من الهجرة ، وهى السنة الخامسة من خلافة عمر . فالعزل الأول كان إذن عن القيادة العامة ، أما العزل الذى حدث بعد ذلك بما يزيد على أربع سنوات فكان عن عمله كله .

هذا ما نقطع به ، وما لا شبهة عندنا فيه . وهو وحده الذى يفسر تصرف عمر أول ما استخلف . فلو أن خالداً كان أميراً على القوات التى فصل بها من العراق دون سواها لما احتاج عزله إلى أمر من الخليفة ، ولأسترد أبو عبيدة إمارته على جيوش المسلمين بعد يوم اليرموك فى رواية الطبرى ، أو بعد دمشق فى رواية البلاذرى .

موقف خالد بعد عزله من إمارة الجيش

وهذا اليوم الذى عزل ابن الخطاب فيه خالداً عن إمارة الجيش العامة إثر معركة من أكبر المعارك فى فتح الشام هو فى حياة خالد من أمجد أيامه . وليس يقف مجده فى ذلك اليوم عند انتصاره على عدوه ، فقد كان هذا النصر واحداً من عشرات . إنما أكبر مجده يومذاك أنه انتصر على نفسه ، فلم يضعف عزل الخليفة إياه من حماسته لله ولدين الله ، ولم ينهنه من قوة بأسه وعظيم شعوره بواجبه ؛ فقد رضى إمارة أبى عبيدة وسلم بها طائعاً ، وسار على رأس لوائه يخوض غمار المعارك واحدة بعد أخرى فإذا هو هو ، وإذا النصر يسير فى ركابه ، وإذا المسلمون والروم يتحدثون بفعاله ، وكأنه القائد الأول ، وكأنه النصر تجسم رجلا ، وكيف لا يكونه وهو سيف الله فلا غالب له ! .

قصة جرجه وإسلامه

لا جناح علينا ونحن نختتم الآن حديث خالد فى عهد أبى بكر أن نقص رواية أثبتها الطبرى وأثبتها ابن الأثير . وإنما نقصها على علاتها لا نحمل تبعتها ولا نطلب إلى القارىء تصديقها . فقد ذكر أن جرجة القائد الرومى خرج صبح يوم اليرموك حتى كان بين الجيشين ونادى : ليخرج إلىّ خالد. فخرج خالد حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن كل منهما صاحبه . عند ذلك قال جرجة : يا خالد اصدقنى ، ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ وأجابه خالد بالنفى . فقال : فبم سميت سيف الله ؟ وأجابه خالد فحدثه عن بعث الله رسوله ، وأن الله هداه للإيمان به والذود عن دينه ؛ ولذلك قال رسول الله له : « أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » . ودعا له بالنصر ، فسمى « سيف الله » بذلك . ثم دار بين الرجلين حوار حول رسالة محمد انتهى بإسلام جرجة وصلاته ركعتين وإلى قتاله فى صف خالد ومقتله مع المسلمين الذين قُتلوا فى الموقعة .

قصصت هذه الرواية على علاتها لأنها تصور ما لخالد وعبقريته فى النفوس من أثر جعل الطبرى وابن الأثير وغيرهما من المؤرخين لا يرون بأساً فى تصديق كل ما يتصل بهذا القائد النابغة البطل صاحب المعجزات فى الحرب . وهو فى الحق جدير أن يبلغ إعجابنا به غاية ما نعجب ببطل من أبطال العالم فى

تاريخ العالم كله ، وإن لم يسوغ لنا الإعجاب أن نقبل إلا ما يثبت أمام النقد وما يقره المنطق السليم .

وداعاً موطد القواعد من الإمبراطورية الإسلامية

والآن ، وداعاً خالد ! وداعاً فاتح العراق وسورية ، وموطد القواعد من الإمبراطورية الإسلامية ! وداعاً سيف الله البتار ! ولعل الأقدار تجمعنا يوماً في عهد الفاروق عمر ! .

الفصل الخامس عشر

المثنى فى العراق

ودع المثنَّى خالد بن الوليد حين سفره من العراق إلى الشام حتّى تخوم البادية . فلما رجع إلى الحيرة بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقِى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد . ولم يكن المثنَّى فى ريب من أن الفرس سيتحرشون به متى علموا بسفر خالد ، وأنهم سيحاولون طرده وطرد المسلمين من الحيرة ومن أرض العراق جميعاً .

المثنى ودقة موقفه

والحق أنه كان فى موقف بالغ غاية الدقة ؛ فقد بطش خالد بالبدو المقيمين بجزيرة العراق بطشاً جعلهم جميعاً خصوماً للمسلمين ، يتربصون بهم الدوائر ويحرصون على مناصرة أعدائهم . وقد تنبه الفرس إلى أن دولتهم مؤذنة بالزوال إذا ظل لهؤلاء العرب الغُزاة فى العراق سلطان . وشعور خالد بن الوليد بدقة الموقف هو الذى دفعه فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة قبل سفره إلى الشام . طبيعى أن يفكر المثنَّى فى هذا كله وأن يطول تفكيره فيه . فهو الذى دفع أبا بكر إلى غزو العراق ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعاً إلى مفاتِحه بالسير إلى دلتا النهرين . فليس من الهين على نفسه أن يهزم فى بلد كان الطليعة فى غزوه . وأشد من ذلك عليه أن تبلغ به الهزيمة حتّى يجلو عن هذا البلد بعد فتحه .

وزاد الموقف دقة أن هدأ الاضطراب الذى ساد بلاط فارس سنوات متتالية . فقد اتفق أهل فارس فملكوا عليهم شهريران[1] ابن أردشير بن سابور . فلما اطمأن له الأمر كان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه . وما له ينتظر والفرصة سانحة وخالد بن الوليد غائب بالنصف من جيش هؤلاء الغزاة ! . لذلك وجه هُرمز جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربة المثنى . وجعل هرمز فى مقدمة جيشه فيلا من فيلة الحرب يخوّف به المسلمين ويشتت صفوفهم .

(١) وقيل شهر بازان ، أو شهر بازار ، أو شهر براز .

الكتب المتبادلة بين شهريران والمثنى

وبلغت المثنى أنباء هذه التجهيز ، ثم بلغته أنباء تحرك هرمز وجيشه . أتراه ينتظر حتى يجيء إليه بالحيرة متخطياً حدود البلاد التى فتحها المسلمون ؟! كلا! بل خرج هو كذلك بجنوده وجعل أخويه المعنَّى ومسعوداً على ميمنته وميسرته وسار حتى بلغ أطلال بابل . وإنه لفى مسيرته إذ جاءته رسالة من شهريران يقول فيها : « إنى قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس . وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ،ولست أقاتلك إلا بهم » . وتناول المثنَّى الرسالة وتلاها ، فلم يلبث أن رد عليها مع الرسول الذى جاء بها برسالة يقول فيها: « من المثنَّى إلى شهر يران، إنما أنت أحد رجلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم . فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

بُهت أهل فارس حينما عرفوا رسالة المثنى وعرفوا مسيرته . فلم يكن أحد منهم يتوقع أن تكون فى المسلمين هذه القوة بعد انصراف خالد عنهم ؛ بل لقد أخذ بعضهم ملكهم أن يخاطب قائد جيش باللهجة التى أفرغ فيها رسالته ، وقالوا له : « جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به إليهم ؛ فإذا كاتبت أحداً فاستشر » .

عسكر المثنَّى بجيشه على مرتفع من أطلال بابل على خمسين ميلا من المدائن ، وأقام بين شبكة من جداول تتصل بدجلة ينتظر هُرمز جاذويه وهجومه عليه . وأقبل هرمز بجيشه يتقدمه الفيل وكله الاطمئنان إلى أنه مشتت شمل المسلمين لا محالة . وسار الفيل يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، ويفرق

قتل الفيل وانتصار المسلمين

صفوف المثنَّى ويوقع الرعب فيهم . وأيقن المثنى أن انتصاره رهن بالقضاء على الفيل ، فخرج فى جماعة من رجاله فهاجموه فأصابوا منه مقتلا فهوى جسمه على الأرض سريعاً، هنالك التأمت صفوف المسلمين وقويت روحهم، فهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة . واحتل فريق من رجال المثنَّى معاقل الفرس وتعقب سائرهم المنهزمين حتى انتهوا بهم إلى أبواب المدائن .

عود الاضطراب إلى بلاط فارس

ونزلت أنباء الهزيمة بشهريران نزول الصاعقة فحُمَّ فمات ، وأراد الفرس

أن يملكوا عليهم ابنة كسرى ليفرغوا إلى تنظيم شئونهم كرة أخرى . ولم يُنفذْ لها أمر فخلِعتْ ، وخلفها على العرش سابور بن شهريران . واستوزر سابور الفرُّخزاد وأراد أن يزوجه آزرْميدخْت ابنة كسرى ، فغضبت ألا يكون زوجها من بيت الملك ، وقالت لسابور : « يا بن عمّ ، أتزوجنى عبدى ! » . لكن سابور لم يسمع لقولها وأغلظ لها فى الخطاب ، فاستعانت بسياوخْش الرازى أحد فُتاك الأعاجم . فلما كانت ليلة العرس ودخل الفرخزاد مخدع آزرميدخت ثار به الفاتك فقتله ومن معه ، ثم سار بابنة كسرى وأعوانها إلى سابور فحاصروه ودخلوا عليه فقتلوه ، وجلست آزرميدخت على العرش مكانه .

المثنى يستعين الصديق بالتائبين من أهل الردة

ترامت هذه الأنباء إلى المثنى فاطمأن ؛ وما خوفه من بلاط عاد إليه الاضطراب والغدر واختلاف الجالسين على العرش ! ! لكنه إن أمن يومه فالحذر يقتضيه الحساب لغده . وسار بجيشه يطارد الفرس حتّى بلغ أبواب المدائن ، فهو يطمع فى أن يفتحها . ولا بد له ليفتحها من مدد يقوى جيشه . وما كان أبو بكر ليمدّه وجيوش المسلمين كلها بالشام . لذلك كتب المثنى يخبر الصديق بانتصاره على الفرس ويستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . وإذ كان يعلم أن أبا بكر لا يطيب نفساً بهذا الرأى فقد أيده بأن التائبين من أهل الردة يطمعون فى مغانم الغزو ، وأنه لا يرى أحداً أنشط إلى معاونته فى محاربة فارس منهم . وفى انتظار المدد أقام يدبِّر خطته . ويحكم تدبيره .

لكن انتظاره طال وأبطأ عليه رد الخليفة . هنالك انسحب فى الجيش إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية ، واستخلف بشير بن الخصاصية على من بالعراق من المسلمين ، وذهب بنفسه إلى المدينة يدافع عن رأيه . وألفى أبا بكر اشتد به المرض حتى أشفى على الموت . مع ذلك استقبله الخليفة وسمع إليه واقتنع برأيه وقال : علىّ بعمر ، وكان قد استخلفه ؛ فلما جاء قال له :

وصية أبى بكر لعمر فى أمر العراق

« اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به . إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن مت فلا تُمسينّ حتى تندب الناس مع المثنّى . وإن تأخرت إلى الليل

فلا تُصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتنى مُتوفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعتُ ، ولم يُصبْ الخلقُ بمثله . وبالله لو أنِّى أَنِى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً . وإن فتح الله على أمراء الشام فارددْ أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » .

ووعد عمر أن ينفّذ أمر أبى بكر . وكان يقول من بعدُ : « قد علم أبو بكر أنه يسوءنى أن أؤمّر خالداً ، فلهذا أمرنى أن أرد أصحاب خالد وترك ذكره معهم » .

وعاد المثنّى إلى العراق أول ما استخلف عمر . ورفع عمر الحظر عمن عادوا إلى الإسلام من المرتدين لينهضوا إلى حرب فارس . وما لهم لا يفعلون وقد فتح الله على المسلمين ! ثم ما لهم لا يسارعون إلى الخيرات يتطهرون بجهادهم من حوبة ردّتهم ، فإن استشهدوا فلهم الجنة ، وإن أقاموا بعد النصر فلهم من الفيء ما يجعل الحياة جنة أمامهم ! .

ولقد استفتح عمر عهده بمتابعة حروب فارس ؛ فكان لهؤلاء الذين عادوا إلى الإسلام من حسن البلاء ما أرجو أن أقص نبأه فى خلافة الفاروق .

الفصل السادس عشر

جمع القرآن

يقتضينا الحديث عن جمع القرآن أن نعود بالذاكرة إلى غزوة اليمامة . فعلى أثرها بدأت فكرة هذا الجمع ، ثم نُفذت ، واستغرق التنفيذ ما بقى بعد اليمامة من خلافة الصدّيق . وفى رواية أنه استغرق زمناً من عهد عمر . وإنما أرجأنا الحديث فى هذا الموضوع لئلا نقطع حديث الحرب والفتح ، وليكون حديثنا عن جمع القرآن متصلا حتى وفاة أبى بكر .

غزوة اليمامة وأثرها فى حياة المسلمين

كانت غزوة اليمامة أعظم الغزوات فى حروب الردة ، كما كانت أجلها خطراً وأبعدها أثراً . قضى مقتل مُسيلمة بن حبيب قضاء حاسمًا على المتنبئين فى بلاد العرب ، وآذن عود بنى حنيفة إلى الإسلام بالقضاء على الردّة بالبحرين . والقضاء على ردة البحرين هو الذى طوع للمثنّى بن حارثة الشيبانى أن يسير إلى مصبّ دجلة والفرات ، وأن يكون الطليعةالميمونة لفتح العراق ولإقامة بناء الإمبراطورية الإسلامية . غزاةٌ ذلك شأنها لم يخطىء خالد بن الوليد حين دفع إليها جيوش المسلمين يَقتلون ويُقتلون ويقضون على مسيلمة وأصحابه عند احتمائهم بحديقة الموت ، ولم يبالغ المهاجرون والأنصار حين اندفعوا إلى وطيسها مستميتين يبتغون الشهادة . استُشهِد من المسلمين يومئذ مائتان وألف ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفّاظ القرآن .

وقد جزع أهل المدينة لمن استُشهد من المسلمين باليمامة واشتد حزنهم ، وإن اختلفت البواعث لهذا الحزن والجزع . فأواصر القربى وروابط الودّ والصداقة وتقدير ما كان لكبار الصحابة وحفّاظ القرآن الذين استُشهدوا من مكانة سامية عند الرسول عليه السلام ، كل هذه كانت دوافع تحزّ فى النفوس . لقى عمر بن الخطاب ابنه عبد الله بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء . وكان عمر شديد الجزع لمقتل أخيه زيد بها ، فكان أول ما واجه به ابنه ما أسلفنا ذكره من قوله : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! . ألا واريت وجهك عنّى ! » وكان

جواب عبد الله : «سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلىّ فلم أعطها» .

على أن جزع ابن الخطاب لمقتل أخيه زيد وأصحابه الذين استُشهدوا باليمامة لم يَثنِه عن التفكير فى أمر خطير ، هو لا ريب أجل الأمور فى حياة الإسلام والمسلمين خطراً . لقد استُشهد من حفاظ القرآن فى هذه الغزاة من استشهد . واليمامة ليست إلا واحدة من الغزوات التى واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول . فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحقت الغزوات فقتل فيها من الحفاظ مثل من قتل باليمامة ؟! فكر عمر فى هذا وطال تفكيره . فلما استقر به الرأى ذهب إلى أبى بكر وهو بمجلسه من المسجد فقال له : «إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس . وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإنى لأرى أن تجمع القرآن»[٢] .

عمر يشير على أبى بكر بجمع القرآن

لم يكن أبو بكر قد فكر فى هذا الأمر . لذلك لم يلبث حين سمعه أن قال : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم!» . عند ذلك دار بين الرجلين حوار طويل لم يورد المؤرخون تفصيله . واقتنع أبو بكر بعد هذا الحوار برأى عمر ، فدعا زيد بن ثابت . جاء فى البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : «أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر . فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل استحرّ يوم اليمامة بالناس وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإنى لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعنى حتّى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله (ص) ، فتَتبَّع القرآن فاجْمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ

رواية البخارى عما دار بين أبى بكر وعمر وزيد ابن ثابت

(١) بين الروايات التى أوردت عبارة عمر خلاف فى اللفظ ولكنها متفقة كلها فى المعنى . ومن هذه الروايات أنه قال : «إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن» .

مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (ص) ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسب[1] وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خُزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره : «لقدْ جاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ عزيزٌ عَلَيْهِ ما عنِتُّمْ حِريصٌ عَلَيْكُمْ بالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رحِيمٌ . فَإن تَولَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إله إلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ وَهُوَ ربُّ الْعرشِ الْعظِيمِ » .

فلما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين: «مِن الْمُؤْمِنِينَ رجَالٌ صدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه. فمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ مَنْ ينْتَظِرُ » فألحقتها فى سورتها . فكانت الصحف التى اجتمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

هذا حديث زيد بن ثابت فيما رواه البخارى . وقد أجمعت الروايات على صحته . وذكر القرطبى أن زيداً جمع القرآن غير مرتَّب السور بعد تعب شديد ، وأن الصحف حفظت بعد جمعها عند أبى بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة أم المؤمنين .

الروايات عن جمع عمر وعثمان القرآن

وتذهب رواية إلى أن عمر بن الخطاب أوّل من جمع القرآن فى المصحف[2]. ذلك أنه سأل يوماً عن آية من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان فقُتل يوم اليمامة . فقال إنا لله ! وأمر بالقرآن فجمع . وأصحاب الرواية المتواترة يردون هذا القول بأن عمر كان أوّل من رأى جمع القرآن لأنه أشار على أبى بكر بذلك وأقنعه به ، أما الجمع فتم فى عهد الصدّيق . وهذا الرأى هو الصحيح . يؤيد

(١) العسب : جمع عسيب . وهو هنا : ما لم ينبت عليه الخوص من جريد النخل .

(٢) راجع صفحة ٢٠ من كتاب المصاحف لابن أبى داود ، وصفحة ٥٩ من كتاب الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

ذلك ما روى عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : «رحمة الله على أبى بكر ! كان أعظم الناس أجراً فى جمع المصاحف . وهو أوّل من جمع بين اللوحين » . وقد تواترت بذلك شهادة عدد كبير من أصحاب رسول الله .

والذين قالوا إن عمر أول من جمع القرآن يذكرون أنه حين أراد أن يجمعه قام فى الناس فقال : «من كان تلقّى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فليأتنا به» . وكانوا كتبوا ما تلقوه من ذلك فى الصحف والألواح والعُسب . وكان عمر لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد عليه شاهدان . وقُتل وهو يجمع ذلك إليه ؛ فقام عثمان بن عفان فقال ما قال عمر وصنع صنيعه ، وعهد إلى زيد بن ثابت بجمع القرآن ، وضم إليه نفراً من الحفاظ وقال لهم : «إذا اختلفتم فاكتبوا لغة مُضَر فإن القرآن نزل على رجل من مضر» .

أما والثابت المقطوع به أن أبا بكر هو الذى أمر بجمع القرآن بعد حواره مع ابن الخطاب ، فيجمل بى قبل أن أفصّل كيف كان هذا الجمع أن أقف عند قول الصدّيق : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم» . فقد نزل الوحى بالقرآن على رسول الله خلال ثلاث وعشرين سنة ، منذ بعثه الله نبياً وهو بمكة إلى أن قبضه إليه وهو بالمدينة . وكان الوحى ينزل ببعض الآيات أحياناً ، وبالسورة كاملة أحياناً أخرى . ولقد كان أول ما نزل من الوحى قوله تعالى : «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» . أما بقية هذه السورة على ما نتلوها اليوم فى المصاحف فنزلت بعد ذلك، وبعد أن نزل غيرها من الوحى قبل نزولها . أفيعنى قول أبى بكر وقول زيد بن ثابت من بعده «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟» أن القرآن بقى إلى وفاة الرسول لم يجمع سوراً ، ولم ينتظم كتاباً ، فبقيت الآيات التى نزلت فُرادى لم تضمّ إلى غيرها على الصورة التى نراها اليوم بها ، فلما كان الجمع رتبت السور ونظمت فى كتاب ؟ .

هل جمعت الآيات سوراً فى حياة رسول الله

هذا ما يقول به بعض المؤرخين ، وترجحه طائفة من المستشرقين . بل لقد نسب إلى زيد بن ثابت أنه قال : «قُبض النبىّ ولم يكن القرآن جمع فى

رأى لبعض المؤرخين يؤيده المستشرقون

شيء» . والمستشرق الإنجليزي سير وليم مو ير يسوق هذا القول فى مقدمة كتابه عن سيرة الرسول حجة من الحجج على الدقة والصدق فى جمع القرآن فيقول : «إن القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق فى قوة بدقة جمعه ؛ فقد ضمّت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لا تعمُّل ولا تكلف فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق . وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض» . والمستشرقون المؤيدون لهذا الرأى يؤاخذون زيد بن ثابت والذين عاونوه فى جمع القرآن بأنهم لم يراعوا فى ترتيب القرآن أوقات نزوله ولم يقدموا ما نزل منه بمكة على ما نزل منه بالمدينة ، بل وضعوا آيات مدنية خلال السور المكية دون أن يقتضيهم المقام هذا الصنيع . ولو أنهم راعوا الدقة التاريخية فى الترتيب لكان ذلك أدنى فى نظر هؤلاء المستشرقين إلى التحقيق العلمى ، وأجدى فى كتابة السيرة وفى تتبع أحوال النبي العربى من يوم بعثه إلى يوم وفاته .

ويزيد المستشرقون أن جامعى القرآن لم يعنوا كذلك بتأليف آياته حسب موضوعاتها . فأنت ترى فى السورة الواحدة شؤوناً مختلفة من القصص والتاريخ ، ومن الإيمان والعبادات ، ومن الأحكام التشريعية ، ومن قواعد الخلق . وأنت ترى الموضوع الواحد من هذه الشؤون جميعاً مذكوراً فى سور مختلفة على صور تتقارب أو تتفاوت فى اللفظ وفى قوة العبارة . أما وقد كان الجامعون أحراراً فى ترتيب الآيات فى السور فهم جديرون ، فى رأى هؤلاء المستشرقين ، بالتثريب من الناحية العلمية ؛ لأنهم لم يراعوا الموضوعات ، وكان حقاً عليهم أن يراعوها وبخاصة لأنهم لم يتقيدوا بمواقيت الوحى ونزوله .

نقد هذا الرأى والدليل على أن القرآن جمع سوراً فى عهد الرسول

هذه ملاحظات يبديها المستشرقون على جمع القرآن مستندين فيها إلى قول أبى بكر : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟» . وهم مخطئون فى تحميل عبارة أبى بكر هذا المعنى ، وفى ظنهم أن الآيات ظلت مبعثرة منذ نزولها إلى أن جُمعت فى عهد الخليفة الأول ، ثم فى عهد عثمان . فالأمر الذى لا ريبة فيه أن الآيات قد جمعت سوراً فى عهد رسول الله وبتوقيفه .

ولقد كان مالك يقول: « إنما أُلّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكان عبد الله بن مسعود يقول : قرأت مِنْ فِى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة . وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ».

الذين جمعوا القرآن فى عهد الرسول تلقيناً منه

ولقد قرأ زيد بن ثابت القرآن كله على رسول الله . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك أنه قال : « جَمع القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » . وقول أنس لا يراد به أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن فى عهد النبى دون سواهم . يقول القرطبى : « فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان ، وعلىّ ، وتميم الدارىّ ، وعُبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره. وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم » .

وروايات السلف متواترة على أن رسول الله كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرة ، فلما كان العام الذى قُبض فيه عرضه عليه مرتين . ومن هذا العرض فى عام الوفاة عرف عبد الله بن عباس ما نسخ من القرآن وما بُدل .

وما ورد فى سيرة النبى يؤيد الروايات التى قدمنا . من ذلك ما روى عن إسلام عمر بن الخطاب بعد عشر سنين أو نحوها من بعث محمد . فقد هال عمر ما أحدثه الدين الجديد من فُرقة بين أهل مكة اضطرت كثيرين منهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فرأى أن يقتل محمداً لتعود إلى قريش وحدتها . فلما ذكر له نُعَيْم بن عبد الله أن فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد أسلما ذهب إليهما ودخل البيت عليهما ، فسمع عندهما من يقرأ القرآن ، فبطش بهما حتى شجّ أخته ، وندم لما صنع ، وطلب إليها أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون

قراءة عمر بن الخطاب سورة طه فى صحيفة يوم إسلامه

فإذا بها سورة طه . فلما قرأها أخذه إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التى تدعو إليها ، فذهب إلى محمد فأسلم بين يديه .

لم تكن الصحيفة التى سجّلت سورة طه إلا واحدة من صحف كثيرة كانت متداولة بين أيدى الذين أسلموا من أهل مكة سجّلت سوراً أخرى من القرآن . ولقد ظل رسول الله بين المسلمين بمكة وبالمدينة ثلاث عشرة سنة بعد إسلام عمر ، كان يقول خلالها لأصحابه : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمْحُهُ » . وكان طبيعياً أن يكتب الصحابة كل ما يستطيعون كتابته من القرآن لتلاوته فى الصلاة ، ولمعرفة أحكام الدين الذى يؤمنون به . وكان يكتبه الذين يوفدهم النبى إلى القبائل لتعليم أهلها القرآن وتفقيههم فى الدين . وهم لم يكونوا يكتبونه آيات متقطعة ، بل سوراً متصلة يمليها رسول الله .

نصوص القرآن تؤيد جمعه سوراً فى عهد الرسول

ونصوص القرآن تؤيِّد ما سبق . من ذلك قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّل قم الَّليْلَ إلا قَلِيلًا ، نِصْفَه أَوِ انْقُصْ مِنْه قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عليْهِ وَرَتِّل الْقُرءَانَ تَرْتِيلًا » .

وآيات المزمل هذه نزلت فى الفترة الأولى من بعث الرسول . فمطالبة النبى فيها أن يقوم الليل يرتل القرآن ترجح أن الآيات لم تكن مبعثرة من غير ترتيب ، وتؤكد ما قلمنا من أن ما كان يوحى إلى النبى متصلا بوحى سبق إليه كان الوحى يُلحقه به . وذلك قولهم إن جبريل قال للنبى حين أوحى إليه قوله تعالى « وَاتَّقُوا يوْمًا تُرْجَعونَ فِيهِ إلى اللهِ ثمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » : « يا محمد ضعْها فى رأس ثمانين مائتين من البقرة » .

ولقد تكرر فى القرآن نعتُه بأنه الكتاب . وسورة البقرة أولى سور القرآن بعد الفاتحة تبدأ بقوله تعالى : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » . وهذا المعنى وارد فى مواضع كثيرة من سور مختلفة . والكتاب هو ما كتب منسقاً . وقد كُتب القرآن فى عهد النبى كما أسلفنا من قول أنس بن مالك

وقول غيره من أصحاب رسول الله . بل إن زيد بن ثابت نفسه ، وهو الذى قال كما قدمنا : « قبض النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع فى شىء » قد قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرّقاع » ، يريد بذلك تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة رسول الله . وكثيراً ما كان رسول الله يتلو فى الصلاة وفى غير الصلاة سوراً كاملة منها البقرة وآل عمران والنساء والأعراف والجنّ والنجم والرحمن والقمر وغيرها . وهذا كله صريح فى الدلالة على أن ترتيب الآيات فى السور قد تم بتوقيف النبى ، وأنه قُبض وهذا الجمع تام معروف للمسلمين ، ثابت فى صدور القراء والحفّاظ .

رسول الله يتلو الصلاة سوراً كاملة

ولقد رأيت كثيرين من الصحابة جمعوا القرآن على عهد النبى ، منهم أربعة جمعوه بإملائه . واتفاق المؤرخين منعقد على أن ترتيب الآيات فى السور كان واحداً فى كل المصاحف التى جمعت قبل وفاة الرسول، وفى المصاحف التى جمعت عقب وفاته وقبل أن يأمر أبو بكر بجمع القرآن . أما ترتيب السور والابتداء بالفاتحة فالبقرة فآل عمران فالنساء فالمائدة والانتهاء بالمعوّذتين ، فذلك ما اختلف فيه ، وما قيل إن رسول الله تركه كله أو بعضه لأمته .

ماذا أراد أبو بكر إذن بقوله ردًّا على عمر حين أشار عليه أن يجمع القرآن : « كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ! » . وما هى الحجج التى شرحت صدر أبى بكر ثم صدر زيد بن ثابت لجمع القرآن والأخذ برأى ابن الخطاب ؟ .

علىّ بن أبى طالب وجمع القرآن

لما تمت البيعة لأبى بكر لزم علىّ بن أبى طالب بيته، وتحدث الناس إلى أبى بكر فى أمره ، فأرسل إليه يقول : « أكرهت بيعتى فقعدت عنى ؟ ! » فكان جواب علىّ : « لا والله ، ولكن رأيت كتاب الله يزاد فيه ، فحدّثت نفسى ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمعه »[1].

---

(١) قول علىّ « رأيت كتاب الله يزاد فيه » أورده السيوطى بإسناده فى كتاب الإتقان . وقد اقتصر كثير من المؤلفين فيما رووا عن على أنه قال : آليت ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمع=

السبب فى تردد أبى بكر فى جمع القرآن أول ما عرض عمر عليه جمعه

ولم يكن علىٌّ وحده هو الذى دأب على جمع القرآن بعد وفاة الرسول ، بل دأب على ذلك كثيرون جعلوا يتلقَّونه عمن يطمئنون إليهم من أصحاب رسول الله . وكما حمد أبو بكر لعلىّ بن أبى طالب حديثه عن جمع القرآن حمد لغيره من المسلمين سعيهم فى جمعه ورأى فى عملهم تأسياً بالسابقين الأولين الذين جمعوه فى عهد رسول الله . ولم يَدُرْ بخاطره أن يصد أحداً دون هذا العمل الجليل ، مطمئناً إلى أن الله نزّل الذكر وهو حافظه ، وإلى أن المسلمين لن تحدث أحداً منهم نفسه بأن يدخل عليه ما ليس منه . فإذا أقدم أحد على ما قاله علىّ بن أبى طالب من زيادة على القرآن ردّ الله كيده فى نحره ، ورد الصالحون من المسلمين كلام الله إلى مواضعه . وذلك كان سبب تردده حين عرض عليه عمر أن يجمع القرآن . فقد كانت سُنّته ألا يصنع إلا ما كان يصنع رسول الله ، وألا يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه . أما وقد ترك رسول الله كتابة القرآن للمسلمين ، وقد كتب بعضهم القرآن بإملائه عليه السلام ، ونقل آخرون عن هؤلاء الكاتبين وعمن وعت ذاكرتهم القرآن ، فليجر الأمر فى خلافته كما جرى فى عهد الرسول ، وليمسك خليفته فلا يُقدِم على ما لم يقم هو به .

حجة عمر التى شرحت صدر أبى بكر لجمع القرآن

كانت هذه حجة أبى بكر وحجة زيد بن ثابت ، فلما راجع عمر الخليفة عدل عن رأيه . ولئن لم يورد المؤرخون تفصيل ما دار بين الرجلين من حوار ، إن فيما أورده الرواة عن تاريخ القرآن لما يُفصح لنا عن حجة عمر وما يؤيدها ويجلو لنا اقتناع أبى بكر وزيد بن ثابت بها .

روى الترمذى قال : « لَقِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتاباً قط . فقال لى : يا محمد ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف »[1]. وقد اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة وأوردوا فيها خمسة

أنزل القرآن على سبعة أحرف

= القرآن . ورواية ابن أبى داود فى كتاب المصاحف أن أبا بكر أرسل إلى على بعد أيام يقول: أكرهت إمارتى يا أبا الحسن ؟ قال : لا والله ، إلا أنى أقسمت ألا ارتدى بردائى إلا لجمعة ، فبايعه ثم رجع . ويضيف ابن أبى داود . وإنما رووا : حتى أجمع القرآن ، يعنى أتم حفظه ؛ فإنه يقال للذى حفظ القرآن قد جمع القرآن .

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن القرطبى ، جزء أول ، ص ٣٦ وما بعدها .

الأقوال فى الأحرف التى نزل عليها القرآن

وثلاثين قولا ؛ من هذه الأقوال أنه رخص للمسلمين أول العهد بالإسلام أن يحلوا المترادف محل بعضه إلا أن يخلطوا آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . وذلك فى نحو هلُم وتعال وأقبل وأسرع وعجل . وعن أُبىّ بن كعب أنه كان يقرأ « للذين آمنوا انظرونا » : « للذين آمنو أمهلونا » ، « للذين آمنوا أخرونا » ، « للذين آمنوا ارقبونا » وكان يقرأ « كلما أضاء لهم مشوا فيه » : « مروا فيه » ، « سعوا فيه » . ذلك أن أهل القبائل كان يُعجزهم أن يأخذوا القرآن على غير لغاتهم ، ولو راموا ذلك لم يتهيأ لهم إلا بمشقة عظيمة ، فوسَّع لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعْنى متفقًا . فلما كثر اتصالهم برسول الله حفظوا القرآن بألفاظه ولم يسعهم أن يقرءوا بخلافها . وفى رأى أن الإباحة فى هذا كانت مطلقة أول العهد ثم نسخت .

صحيح أن بعض الأقوال فى تأويل نزول القرآن على سبعة أحرف تخالف هذا القول ، فيذهب بعضها إلى أن فى القرآن سبع لغات هى لغات العرب كلها وأن هذه اللغات متفرقة فيه ، أو أن هذه اللغات السبع فى مصر . ويذهب بعض آخر إلى أن سبعة الأحرف تتصل بوجوه الاختلاف فى القراءة ، أو تتصل بمعانى كتاب الله . لكن هذه الأقوال لا تنفى القول الأول ، على الأقل أول ما بدأ الإسلام ينتشر فى القبائل . ويذكر بعضهم أن الأمر ظل كذلك سنين متعاقبة ، أو إلى أن قُبض النبى ؛ لكنهم يقيدونه بأن ذلك كان بالوحى لا بالاختيار . يقول القرطبى : « إنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبى صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبىّ بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضًا. وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ :

قراءات الصحابة وعرضها على رسول الله

« إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وطْئًا وأَصْوَبُ قِيلًا » . فقيل له إنما نقرأ : « وأقوم قيلا » ، فقال أنس : « وأصوب قيلا وأقوم قيلا وأهيأ واحد » . فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبى صلى الله عليه وسلم . وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ».

الذين احتكموا إلى رسول الله لخلافهم فى القراءة

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أعجّل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه ، فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله ، اقرأ ؛ فقرأ القراءةالتى سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت إن هذا القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

وأضاف القرطبى قصة أُبىّ بن كعب إذ سمع رجلين بالمسجد يقرآن آيات بعينها فى الصلاة ، كلٌّ يقرأ غير قراءة صاحبه وغير قراءة أُبىّ ، فذهب بهما إلى رسول الله فحسَّن النبى قراءتهم جميعاً . قال أُبىّ : « فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنتُ فى الجاهلية، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ما قد غشينى ، ضرب فى صدرى ففضتُ عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً ، فقال : يا أُبىّ، أُرسل إلىّ أنِ اقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هوّن على أمتى ، فرد إلىّ الثانية اقرأه على حرفين ، فرددت إليه أن هوّن على أمتى ، فرد إلىّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف » .

نشأ عن ذلك خلاف فى بعض الألفاظ مما دوّن أو حفظ فى عهد رسول الله . روى ابن أبى داود فى كتاب المصاحف أن عمر بن الخطاب كان يقرأ : « صِراطَ مَنْ أَنْعمْت علَيْهِمْ غَيْرِ الْمغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وغَيْرِ الضَّالِّينَ » ، فى حين يقرأ غيره : « صِرَاطَ الَّذِين أَنْعمْتُ علَيْهِمْ غَيْرِ الْمغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولَا الضَّالِّين » ، وأنه رضى الله عنه قرأ : « الٓمٓ . اللهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُو الْحىُّ القَيَّامُ » بدل « القيُّومُ » . وكان علىٌّ بن أبى طالب يقرأ : « آمن الرَّسُولُ بما أُنْزِل إِلَيْهِ وءَامَنَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامن باللهِ » بدل « آمن الرَّسُولُ بِما أُنْزل إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامن باللهِ »[1]. وكان أُبىّ بن كعب

(١) س ٢ آ ٢٨٥.

يقرأ : «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة» بدل «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة»[١]، وأثبت أبيّ بن كعب فى جمعه القرآن نصوصاً تخالف فى بعض لفظها مصحف عثمان . من ذلك «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» فى كفارة اليمين بدل «فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم»[٢].

وشأن عبد الله بن مسعود كشأن أبى بن كعب فى قراءته وفى مصحفه. فقد روى أنه كان يقرأ «والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، وإنه فيه إلى آخر الدهر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالصبر». فيضيف «وإنه فيه إلى آخر الدهر» ويحذف «وتواصوا بالحق» الوسطى قبل «وتواصوا بالصبر» كما ثبت فى مصحف عثمان . وكان يقرأ : «إن الله لا يظلم مثقال نملة» بدل «إن الله لا يظلم مثقال ذرة»[٣]، وكان يقرأ : «وتزودوا وخير الزاد التقوى» بدل «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى[٤]».

وقد أورد ابن أبى داود تفصيل هذا الخلاف فى الألفاظ ونسبه إلى أصحابه ومنهم عائشة أم المؤمنين . فقد روى أنه كان مكتوباً فى مصحفها : «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر» بإضافة «وصلاة العصر» إلى ما فى مصحف عثمان . وذكر عن ابن يونس مولى عائشة أنه قال : كتبت لعائشة مصحفاً فقالت: إذا مررت بآية الصلاة فلا تكتبها حتى أمليها عليك ، فأملتها عليّ : «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر». وقد وردت مثل هذه الرواية عن هذه الآية فى مصحف حفصة وفى مصحف أم سلمة زوجى النبى . وقيل بل أملت أم سلمة : «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر» .

سورة العصر فى مصحف عائشة أم المؤمنين

أنت لا ريب قد رأيت مما قدمنا أن الاختلاف فى القراءات وفى مصاحف الصحابة لم يعدُ الألفاظ ، وأنه لم يجعل من نهى أمراً ،ولا من أمر نهياً ،

---

(١) س ٤ آ ٢٤ .
(٢) س ٥ آ ٨٩ .
(٣) س ٤ آ ٤٠.
(٤) س ٢ آ ١٩٧.

ولا من آية رحمة آية عذاب ، ولا من آية عذاب آية رحمة ، والشأن كذلك فى كل ما روى عن قراءات الصحابة وعن مصاحفهم ومصاحف التابعين . ولقد قدم المستشرق « أرثر جفرى » لكتاب المصاحف لابن أبى داود وأورد كل ما روى عن هذا الاختلاف فى القراءات والمصاحف، فلم يزد الأمر على ما قدمت من الأمثلة . وعلة ذلك راجعة إلى ما ذكرنا عن الحديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

وما كان الخلاف ليزيد على هذا فى حياة الذين تلقوا القرآن عن رسول الله فكتبوه أو وعته صدورهم فى تقديس لكلام الله وإيمان به يحولان دون الزيادة فيه أو النقص منه أو تحريفه . لكن هؤلاء القراء رجال كتب عليهم الموت كما كتب على الذين من قبلهم . ولقد استحر القتل فى طائفة منهم فى حياة النبى ببئر معونة ، ثم استحرّ القتل فيهم فى اليمامة . فإذا ذهب أكثرهم أو ذهبوا جميعاً لم يكن عجباً أن يقوم من يزيد فى القرآن أو ينقص منه ، ومن يحرّف كلام الله عن مواضعه . ثم لا عجب أن يختلف الناس على هذا وأن ينتهى اختلافهم إلى الثورة يصلَى المسلمون نارها ويصيب الإسلام منها ضرٌّ كبير .

الذين ارتدوا وزعموا أنهم يزيفون الوحى

كان لعمر ولأبى بكر ولزيد بن ثابت مما حدث فى بلاد العرب نذير يعظهم أن يتقوا هذا اليوم . فقد ارتد فى حياة الرسول بعض الذين أسلموا وكانوا يكتبون الوحى ، ثم زعموا أنهم كانوا يزيفون ما يكتبون ويلقونه على المسلمين زائفاً . وروايات المنافقين وما كانوا يصنعون من ذلك ومن مثله واردة فى كتب السيرة . وفى قصة مسيلمة بعض هذا النذير . فهو إنما استغلظ أمره بعد أن ذهب نهار الرحال بن عنفوة من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمامة يُقرىء أهلها القرآن ويفقههم فى الدين ،فلم يلبث حين رأى السواد من أهل اليمامة يتبع مسيلمة أن أقر بنبوته ، وشهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك فى الرسالة معه . وكان نهار فقيهاً يتلو على الملأ القرآن الذى أوحى إلى محمد ويقص عليهم تعاليمه ويفقههم فى دينه . هذا وما حدث من مثله إثر وفاة الرسول ، إذ نجم النفاق واشرأبت الأعناق ، يشهد بما لحجة عمر فى جمع القرآن بعد اليمامة من قوة تذهب بكل تردد .

وماذا بعد فى جمع القرآن مما لم يصنعه رسول الله حتى يتردد أبو بكر أو يتردد زيد بن ثابت بسببه ؟ ! لقد أمر عليه السلام أن يكتب الوحى وأن تكتب الآيات مرتبة فى السور . وما منعه أن يأمر بجمع القرآن قبل أن يختاره الله إليه إلا أن الوحى كان يتتابع وأن بعض الآيات كانت تُنسخ . أما وقد قُبض فانتهى نزول الوحى وتم كتاب الله وكمل دينه ، فالخير فى أن يجمع القرآن حتى لا يتعرض لما خشى علىٌّ بن أبى طالب أن يتعرض له من زيادة فيه أو نقص منه ، وبخاصة بعد أن قُتل من القراء باليمامة من قُتل ؛ ويخشى أن يقتل منهم آخرون فى مواطن غير اليمامة .

أحسب هذه وأمثالها من الحجج هى ما ساقه عمر حين ناقش أبا بكر فى جمع القرآن . وهى كما ترى حجج تحسم كل ريبة وتقطع بما فى الجمع من خير للإسلام والمسلمين . لهذا اقتنع أبو بكر برأى عمر ، ثم اقتنع به زيد بن ثابت[1] .

جمع القرآن أيام عثمان وسببه

ويجمل بى قبل أن أفصّل ما حدث بعد اجتماع الصديق والفاروق وكاتب الوحى لرسول الله أن أذكر أن ما حدث فى عهد عثمان قد أيد ما رآه عمر من جمع القرآن ودل على صدق نظره فيه . فقد اتسعت رقعة الفتح فى عهد عمر وعثمان . وكان أصحاب رسول الله يقرءون القرآن ويعلّمونه من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ؛ فاختلف الناس فى القراءة وعظم اختلافهم وتشتتهم ؛ حتى إن الرجل ليقول لصاحبه : إن قراءتى خير من قراءتك ، وأفضل من قراءتك . وبلغ الأمر من ذلك حتى كاد يكون فتنة . اختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ، ورأى حُذيفة بن اليمان خلافهم وتلاعنهم إذ كان يقاتل مع المسلمين على أرمينية وأذربيجان ، ففزع وكرّ راجعاً إلى المدينة ودخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال عثمان : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله . إنى حضرت هذه الغزوة وقد

---

(١) يذكر أبو عبد الله الزنجانى فى كتابه تاريخ القرآن (طبع فى مصر فى سنة ١٩٣٥ م) أن « التأمل الصادق والشواهد يعطى أن اقتراح عمر جمع القرآن إنما كان لجمعه فى الورق ، حتى إن الصحابة لشدة احتياطهم وخضوعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خافوا أن يكون ذلك من البدع » .

جمعت ناساً من العراق والشام والحجاز ، ثم وصف له ما تقدم من اختلافهم فى القراءة ، وأردف : وإنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى[١]. ورأى عثمان الخطر ، فجمع الناس فعرض عليهم الأمر ، فسألوه رأيه فقال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة ؛ فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد اختلافاً : وأقره أهل الرأى ، فأرسل إلى حفصة يسألها أن ترسل إليه مصحف أبى بكر لننسخه فى المصاحف . وكان ذلك أول ما حدث فى جمع مصحف عثمان وتوحيد قراءة القرآن .

عمر وصدق نظره فى المشورة بجمع القرآن

هذا الخلاف فى عهد عثمان بالغ الدلالة على أن عمر كان صادق النظر حين أشار على أبى بكر بجمع القرآن . وقد اتخذ عثمان مصحف أبى بكر إماماً لهم فى توحيد القراءة . فلو أن أبا بكر لم يجمع القرآن لتفاقم الخلاف، ولأصاب المسلمين من ذلك شرّ أنجاهم عمل الصديق منه . من ثمّ لم يغلُ علىٌّ بن أبى طالب حين قال : « أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين » .

غضب ابن مسعود لعزله عن جمع القرآن

شرح الله صدر أبى بكر لجمع القرآن بعد حواره مع عمر ، فعهد إلى زيد ابن ثابت أن يتتبعه فيجمعه . روى أن عبد الله بن مسعود غضب لذلك وقال : يا معشر المسلمين ! أُعزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر! . يريد زيد بن ثابت . وقد نسب هذا القول إلى ابن مسعود حين أمر عثمان زيداً بجمع القرآن وأردفه بمن أردفه بهم من الصحابة. ولعل عبد الله غضب فى المرتين لما ذكره القرطبى حين قال : « قال أبو بكر

---

(١) وفى رواية أثبتها ابن أبى داود فى كتاب المصاحف بإسناد مختلف أن عبد الله بن مسعود كان يقرأ فى المسجد ، فجاء حذيفة فقال : يقول أهل الكوفة قراءة عبد الله بن مسعود ويقول أهل البصرة قراءة أبى موسى الأشعرى . والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته أن يغرقها . فرد عليه ابن مسعود . أما والله لئن فعلت ليغرقنك الله فى غير ماء . وروى أن حذيفة قالها فى غير حضرة عبد الله بن مسعود ، ثم اجتمع عبد الله وحذيفة وأبو موسى فوق بيت أبى موسى فقال عبد الله لحذيفة : أما إنه قد بلغنى أنك صاحب الحديث — يعنى قوله أما والله أن لو قد أتيت أمير المؤمنين لقد أمرته يغرق هذه المصاحف . وأجابه حذيفة : أجل ! كرهت أن يقال قراءة فلان ، فيختلفوا كما اختلف أهل الكتاب .

الأنبارى : لم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعثمان على عبد الله بن مسعود فى جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد وأقدم فى الإسلام وأكثر سوابق وأعظم فضائل ، إلا لأن زيداً كان أحفظ للقرآن من عبد الله » . وهذه العبارة ترجح غضب ابن مسعود فى المرتين .

وقد بلغ غضب ابن مسعود لهذا الأمر أمداً بعيداً ، حتى كان يقول : « لقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن لزيد بن ثابت ذؤابتين يلعب مع الصبيان » . بل لقد حرّض أهل العراق فى عهد عثمان على ألا يعاونوا فى هذا العمل ، وكان يقول لهم : « إنى غالٌّ مصحفى ، فمن استطاع منكم أن يَغُلَّ مصحفًا فليفعل ؛ فإن الله يقول : «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يوْمَ الْقِيَامَةِ » . وخطب الناس يوما فقال : «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامةِ » . غُلّوا مصاحفكم. وكيف تأمرونى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وسبعين سورة وإن زيد بن ثابت ليأتى مع الغلمان له ذؤابتان . والله ما نزل القرآن إلا وأنا أعلم متى وفى أى شىء نزل . ما أحدٌ أعلم بكتاب الله منى .وما أنا بخيركم ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى تُبْلِغُنِيه الإبل لأتيته » .

كره رجال أفاضل من أصحاب النبى مقالة ابن مسعود، ورأوا فيها تحريضاً على الفتنة لا مسوّغ له . روى عن أبى الدرداء أنه قال : « كنا نعد عبد الله حنانا فما باله يُواثب الأمراء » . صحيح أن عبد الله بن مسعود بدرىٌّ وزيد بن ثابت ليس بدريًّا . ولعبد الله سابقة فى الإسلام على زيد وعلى أبيه ثابت بن زيد وهو قد تلقى عن رسول الله نيفاً وسبعين سورة من القرآن ، لكن زيداً كان كاتب رسول الله ، وقد تلقى عنه القرآن كله إلى وفاته . يقول القرطبى : « الشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن » . وقد جاء مصحف ابن مسعود خلواً من المعوّذتين .

سقنا حديث عبد الله بن مسعود وغضبه حُجَّة على حسن اختيار أبى بكر

لماذا فضل أبو بكر زيد بن ثابت على عبد الله بن مسعود

زيد بن ثابت لجمع القرآن . وذلك قول الصديق لزيد بعد أن أقنعه برأى عمر : « إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك . كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فأجمعه» . ويضيف القرطبي على العبارة التى نقلناها فى تفضيل زيد على عبد الله قول أبى بكر الأنبارى: « إن زيداً كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله ورسول الله حىّ ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة، ثم تعلم الباقى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار » .

ولعل أبا بكر قد اختار زيداً وآثره على غيره من أصحاب رسول الله لأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم، وهو لشبابه أقل تعصباً لرأيه واعتزازاً بعلمه وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ ، والتدقيق فى الجمع دون إيثار لما حفظه هو ، وإن كان المتواتر أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية فى السنة التى كانت فيها وفاته .

كيف أثبت زيد القرآن فى مصحفه

شعر زيد بجسامة التبعة التى ألقاها الخليفة على عاتقه وقدّرها قدْرها ؛ وذلك قوله : « فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن » . وكيف لا يشعر بجسامة التبعة وهو يعلم أن أبا بكر يحفظ القرآن، وعمر يحفظه ، وعلىّ يحفظه ، وعثمان يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه أو يحفظون منه أجزاء كثيرة . بل إن أربعة قد تلقوا القرآن عن رسول الله وكتبوه مرتب الآيات فى السور ، وكتب غيرهم ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، مصاحف بعضها كامل وبعضها غير كامل ، وهؤلاء جميعاً رقباء عليه يحاسبونه أدق الحساب .

والرقابة الكبرى ! رقابة صاحب القرآن من أوحاه إلى رسوله، أعظم من كل رقابة . وهى التى جعلت زيداً يشعر بأن نقل جبل من الجبال أيسر مما كلفه الخليفة إياه . وإيمان زيد بن ثابت بأن الله رقيب عليه فى جمع كلامه جلّ شأنه هو الذى سما به ليقدر ما لهذا الأمر من جلال ، وليبذل فيه كل جهد ويستهين بكل مشقة ، وألا يدخر وسعاً فى جمع كل ما سُطر القرآن

فيه من الرقاع والأكتاف واللخاف[1] والعسب ومن صدور الرجال، وفي موازنة ذلك كله بعضه ببعض ، وموازنته بما حفظ هو عن رسول الله في السنة الأخيرة من حياته ، والوصول من الجمع إلى الغاية التي يبتغيها خليفة رسول الله والتي ترضى الله ورسوله . بذلك صار هذا المصحف المجموع إماماً استراح إليه المسلمون . فلما أراد عثمان توحيد القراءات جعله إمامه .

ولست في حاجة إلى القول بأن زيداً لم يثبت القرآن في مصحفه على تاريخ نزوله بعد أن رتبت الآيات في السور بأمر رسول الله ، فوضع بعض ما نزل منها بالمدينة في السور المكية . إنما تتبع زيد السور كما رتبها رسول الله ، ثم نسخها في الورق أو في الأديم ، فلما تم له نسخها كانت عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة .

طريقة زيد في الجمع هي الطريقة العلمية المألوفة اليوم

أية طريقة اتبع زيد في الجمع ؟ تستطيع أن تقول في غير تردد إنه اتبع طريقة التحقيق العلمي المألوفة في عهدنا الحاضر. وقد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة . فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب أن يجيء به إلى زيد ، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه. واجتمع لزيد من الرقاع والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة وكل ما كتب أصحاب رسول الله القرآن عليه الشيء الكثير . عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه ، ولا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها كما أوحيت إلى رسول الله روى أن عمر بن الخطاب قرأ : «والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِين والأَنْصارُ الَّذِين اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَان » ، برفع كلمة « الأنصار» ومن غير واو العطف بينها وبين «الذين» ، فقال له زيد بن ثابت : «وَالَّذِين اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ » . واختلفا . فدعا عمر أبيّ بن كعب وسأله عن ذلك فأقرّ قراءة زيد . وليزيل كل ريبة من نفس عمر قال : « والله ، أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع الخنطة ». فاذّكر عمر وقال : نعم ! وتابع أبيا وأقر قراءة زيد . وكذلك كان يصنع زيد كلما خالفه من الصحابة أحد ، وكلما وجد في المكتوب في

(١) اللخاف : حجارة بيض عريضة رقاق .

الرقاع والعظام وغيرها خلافاً ، يستشهد ويستقصى ، ولا يمنعه من ذلك أنه يحفظ القرآن ، وأنه حضر قراءة رسول الله إياه قبيل وفاته . وهذا الخلاف على حرف الواو فى الآية السابقة يدلك على مبلغ هذه الدقة ، ويشهد بأن زيداً لم يضن بمجهود فى القيام بالعمل العظيم الذى عهد فيه أبو بكر إليه .

وقد كانت هذه الدقة فى جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله . فالقرآن كلام الله جل شأنه . فكل تهاون فى أمره أو إغفال للدقة فى جمعه وزرٌ ما كان أحرص زيداً فى حسن إسلامه ، وجميل صحبته لرسول الله أن يتنزه عنه . ولقد شهد المنصفون من المستشرقين جميعاً بهذه الدقة ، حتى ليقول سير وليم موير : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرناً كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »[1] .

نظام تتابع السور فى المصحف

على أن زيداً لم يأخذ مع الدقة فى جمع السور مرتبة الآيات بتنسيق السور فى المصحف واحدة تلو الأخرى ، وإنما كان التنسيق على النحو الذى نعرفه اليوم فى عهد عثمان . وقد اختلف فيما كان منه فى عهد النبىّ ؛ قال بعضهم : إنه صلى الله عليه وسلم تركه لأمته ، وقال بعض : بل ذكر الرسول نظام التتابع لبعض السور وترك بعضها . وقال غيرهم : بل ذكر نظامها جميعاً . ذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : « قد قدّمتا وأُلّف القرآن على علم ممن أَلّفه . وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ننتهى إليه ، ولا نسأل عنه » . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبى صلى الله عليه وسلم . وأما ما روى من اختلاف مصحف أبىّ وعلىّ وعبد الله ، فإنما كان

---

(١) طعن الرافضة على جمع القرآن واحتجوا بقول زيد بن ثابت : وجدت آيتين من سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة . وبأنهم وجدوا آية من سورة الأحزاب « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلخ » مع خزيمة كذلك . وهذا الاعتراض ساقط لأن زيد بن ثابت كان يحفظ هذه الآيات ، وقد وافق الصحابة خزيمة على أنهم سمعوها من رسول الله . هذا على أنها من أسلوب القرآن ونسجه ، وأنها متصلة تمام الاتصال بسياق القول . ما وهذه الأسانيد كلها متواترة مجتمعة فاعتراض الرافضة غير ناهض .

قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك[١] .

يخالف بعضهم هذا الرأى ، ويرى أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف من رسول الله ، ويحتج بأن علىّ بن أبى طالب لم يجمع مصحفه إلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فعل عبد الله بن عباس . فلو أن رسول الله قد رتب السور لكان علىٌّ وابن عباس أجدر بأن يصنعا ذلك وأن يرتباها كما أمر رسول الله . ولم يرتب زيد بن ثابت السور حين جمع القرآن فى عهد أبى بكر . فترتيب السور قد كان كله أو بعضه اجتهاداً من الصحابة ولم يكن مما أمر به رسول الله[٢] .

لماذا قرن عثمان بن عفان بين سورتى الأنفال وبراءة

والرأى بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرتب السور كلها أو بعضها ووكل أمر ذلك إلى الأمة بعده يأخذ به كثيرون[٣] . روى عن ابن عباس أنه قال : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما فى السبع الطوال » .

لم يكن القول فى ترتيب السور فى المصحف مما يدخل فى نطاق هذا الفصل وإنما أدى إليه الاستطراد إيضاحاً لقول القرطبى عن زيد بن ثابت وجمعه القرآن فى عهد أبى بكر : « جمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد ، رضى الله عنه » .

---

(١) راجع ص ٥٢ من الجزء الأول من تفسير القرطبى « الجامع لأحكام القرآن » .

(٢) راجع تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى ، ص ٤٧ — ٥٨ .

(٣) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ج ١ ، ص ١٣ — ١٤ .

متى أتم زيد جمع القرآن

أأتم زيد جمع القرآن فى عهد أبى بكر أم استغرق عمله هذا زمناً من عهد عمر ؟ ذلك أمر اختلف فيه . وقد رأينا فى رواية البخارى أن الصحف التى جمع زيد فيها القرآن كانت عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين . وهذا القول يؤدى إلى أن الجمع تم فى عهد أبى بكر ويذهب بعض الرواة إلى أن الجمع استغرق زمناً من عهد عمر . وليس يتيسر القطع بأى الروايتين أصح ، وإن أمكن التوفيق بينهما بأن زيداً أتم جانباً كبيراً من الجمع فى عهد أبى بكر وجعل صحف هذا الجانب عند الخليفة ، وقُبِضَ الصدّيق فأخذ عمر ما كان عنده من هذه الصحف فلما أتم زيد جمع ما بقى من القرآن أضيفت صحفه إلى الصحف الأولى ثم كانت كلها عند عمر . وهذه الصحف هى التى كانت المصحف الإمام فى عهد عثمان وهى التى نتلوها اليوم ، وسيتلوها منْ بعدنا من المسلمين وغير المسلمين حتى يوم الدين .

كان أبو بكر أعظم الناس أجراً فى جمع المصاحف

« رحمة الله على أبى بكر ! كان أعظم الناس أجراً فى جمع المصاحف » ، كذلك قال علىّ بن أبى طالب ، وذلك ما يقوله كل مسلم . ولقد طالما سألت نفسى وأنا أكتب هذا الكتاب : أى أعمال الصدّيق أعظم : قضاؤه على الردة والمرتدين فى بلاد العرب ، أم فتحه العراق والشام وتمهيده بذلك للإمبراطورية الإسلامية العظيمة التى حملت عبء الحضارة الإنسانية قروناً متعاقبة ، أم جمعه القرآن كتاب الله إلى رسوله محمد النبى الأمى هدى ورحمة للعالمين ؟ طالما سألت نفسى وفكرت أتلمَّس الجواب . لم أتردد قط فى الإجابة . فجمع القرآن أعظم أعمال أبى بكر لا ريب ، وأكثرها بركة على الإسلام والمسلمين والناس أجمعين. لقد اضمحلت جزيرة العرب وتقلصت منها أسباب القوة والحياة بعد عهد بنى أمية . وقد تداعت الإمبراطورية الإسلامية وخضع المسلمون فى أرجاء الأرض لغير المسلمين ولسلطان حكمهم. ولقد نسى الناس هذه الإمبراطورية وكادوا ينسون بلاد العرب . ولو لا مناسك الحج لضمت شبه الجزيرة إلى مجاهل الأرض فلا يصل إليها إلا المستكشفون . أما كتاب الله الكريم فإنه خالد باق على الدهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم .

جمع القرآن أعظم ما تم في عهد أبي بكر

ولا يحسبن أحد أنى بما أذكر من ذلك أهوّن من أمر حروب الردة أو من أمر الإمبراطورية الإسلامية . فكل من هذين الأمرين عظيم أى عظيم ، وكل عمل منهما كاف وحده ليخلد حياة من يقوم به . ولو أن أبا بكر وقف من خلافته عند القضاء على الردّة لشهد الناس جميعاً له بعظمة ما قام به وبجلاله. ولو أنه لم يصنع أكثر من أن وضع القواعد للإمبراطورية الإسلامية لأقروا كلهم له بالعظمة وخلود الذكر على صفحات الدهر . فإذا حفل عهده بهذين الأمرين البالغين كل هذا الجلال وكل هذه العظمة، ثم كان فيه جمع القرآن ، وهو أبقى منهما جميعاً وأعظم ، فذلك الخلد الذى لا خلد بعده ، والرضا من الله لا يؤتاه إلا الصديقون الذين سما إيمانهم فيسر الله لهم كل عظيم وهيأ لهم من أمرهم رشداً .

رحم الله أبا بكر ، وأجزل له الأجر ، إنه كان من عباده المخلصين .

الفصل السابع عشر
حكومة أبي بكر

لما بويع أبو بكر خاطبه رجل من المسلمين بقوله : « يا خليفة الله » ، فلم يدعه أبو بكر يمضي فى حديثه ، بل قال له : «لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله ».

كيف تصور أبو بكر الخلافة

هذه عبارة أوردها المؤرخون حجة على تواضع أبي بكر وصدق تقديره. وهى فى رأيى تستوقف النظر لمعنى أعمق فى دلالته من هذا المعنى المتصل بشخص أبي بكر وخُلقه ؛ ذلك ما فيها من قوة الإبانة عن تصور المسلمين الأولين لفكرة الحكم . فقد خلت قرون قبل عهد رسول الله ، وتعاقبت قرون بعده ، قام أثناءها فى كثير من الأمم ملوك وحكام زعم دعاتهم وزعموا لأنفسهم أنهم خلفاء الله على الأرض ، وأن لهم بذلك قدسية ليست لغيرهم من الناس . كذلك كان الأمر فى مصر أيام الفراعنة الأولين ، ومن هؤلاء الفراعنة من كان يقول لقومه : « أنَا رَبكُمُ الأعْلَى» . وكان سواد المصريين فى ذلك العهد يؤمنون بما لملوكهم من صفات الربوبية ، ثم تزيدهم دعايات الكهنة إيماناً بهذه الصفات . وكذلك كان الأمر فى أشور وإيران والهند وغيرها من الأمم التى عاصرت الفراعنة . وكان أكثر الملوك تواضعاً فى ذلك العهد أولئك الذين يرون أنفسهم خلفاء الله على الأرض .

ولقد قام فى عصور أوربا الوسطى دعاة من العلماء زعموا للملوك حقاً مقدساً مستمداً من الله يجعل لهم على الناس سلطاناً لا يعرف حداً ، وعدوهم لذلك خلفاءه جل شأنه ، فكانت كلماتهم منزّلة كالوحى ، وكان حكمهم كحكم الله لا مردّ له . وظلت هذه الآراء مقبولة فى أوربا إلى القرن الخامس عشر الميلادى ، وإلى القرن السابع عشر فى بعض الأمم . ولم تستطع الشعوب أن تتغلب عليها ، مع انتشار العلم وتقدم الحضارة ، إلا بالثورات العنيفة ذهبت

فيها الألوف وعشرات الألوف من الأرواح ضحايا للمبادىء التى ثارت لها ، مبادىء الحرية والإخاء والمساواة بين الناس .

هذه المبادىء التى سادت العالم دهراً طويلا ، والتى كانت تسود أوربا إلى عهد قريب منا ، هى التى أنكرها أبو بكر بقوله : « لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله » .

هو خليفة رسول الله فى قيادة المسلمين وسياستهم فقط

ولم يرد أبو بكر بأنه خليفة رسول الله إلا أنه خلفه صلى الله عليه وسلم على قيادة المسلمين وسياسة أمورهم فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . أما ما اختص الله بهرسوله فيما وراء ذلك فلم يدُرْ بخاطر الصدِّيق أنه خليفته فيه . وكيف يدور ذلك بخاطره ورسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، لا يخلُفه فى نبوّته أحد ، ولا فى رسالته أحد ! ! اصطفاه الله وأنزل عليه الكتاب بالحق فأكمل للمؤمنين دينهم وأتم عليهم نعمته . وهذا ما خطب به أبو بكر إثر بيعته إذ قال : « إنى وليت هذا الأمر وأنا له كاره . ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه . ألا وإنكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به . ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم . فراعونى ، فإن رأيتمونى استقمت فاتبعونى ، وإن رأيتمونى زغت فقوّمونى » . وقد رأيت أبا بكر كيف قاتل الذين ادّعوا النبوة ، والذين ارتدوا عن دين الله وعن الإيمان به وبرسوله ، وكيف كان صُلباً فى حرب هؤلاء جميعاً ، حتى ردّهم إلى الهدى ودين الحق .

وهو خليفة باختيار المسلمين ورضاهم

ولقد تولى أبو بكر قيادة المسلمين وسياسة أمورهم بعد رسول الله باختيار المسلمين ورضاهم . لم يبعثه الله خليفة عليهم كما بعث محمداً رسولا إليهم ، ولم يجعل له فضلا على أحد منهم إلا بالتقوى . وهو لم يكن يرى لنفسه حقاً فى حكم المسلمين إلا فى حدود كتاب الله وسنة رسوله . وذلك قوله رضى الله عنه حين خطب الناس يوم بيعته : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

ولقد خلف عمر بن الخطاب أبا بكر ، فلم يتخذ لنفسه لقباً خليفة

رسول الله ، بل طلب إلى الناس فلقبوه : أمير المؤمنين . ذلك أنه أراد اتقاء التكرار فى تلقيبه خليفة خليفة رسول الله . وهو تكرار يطول إلى غير حد بتعاقب الخلفاء . فلو أنه لُقب خليفة خليفة رسول الله للقب عثمان من بعده خليفة خليفة خليفة رسول الله ، ولكان علىّ بن أبى طالب خليفة خليفة خليفة خليفة رسول الله .

لماذا اتخذ عمر بن الخطاب لقب أمير المؤمنين

واتخاذ عمر لقب أمير المؤمنين اتقاء لهذا التكرار يجعل عبارة أبى بكر ، لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله ، أكثر قوة فى دلالتها وإبانة عن المعنى الذى قصده الصدّيق منها ، ويشهد بأنه قصد معناها اللغوى من حيث تعاقب الزمن . فهو الرجل الذى خلف رسول الله على سياسة المسلمين بعد وفاته . ولو أن لقب الخليفة أريد به يومئذ غير هذا المعنى اللغوى لَلُقّب عمر كما لقب أبو بكر خليفة رسول الله ، ولما اقتضى الأمر تغيير هذا اللقب بلقب أمير المؤمنين .

ولعل سبباً آخر دعا عمر ليتخذ إمارة المؤمنين لقباً له ؛ ذلك أنه رأى نظام الحكم تطور فى بلاد العرب وفى البلاد التى تم فتحها فى عهد أبى بكر ، مع بقاء هذا الحكم فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . وكان هذا التطور سريعاً فى شبه الجزيرة وفيما وراءها سرعة أذهلت العالم وأدهشت المؤرخين . ولم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله تفصيل لنظام الحكم كيف يكون ، وإن جعل الكتاب الشورى أساس الحكم ، فقال تعالى مخاطباً نبيه : «وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ» ، وقال «وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» .

فلم يكن لعمر بدٌّ من أن ينظر فى تفصيل هذا النظام بما يتفق واتساع رقعة الفتح ، وما يكفل طمأنينة المحكومين ، شأنه فى ذلك شأن أمير الجيوش إذ يصفّها وينظم تعبئتها بما يقضى به تطور المعارك وما يقتضيه موقف جنوده وموقف خصومه ، غير مقيد برأىٍ سلف ما دام فى طاعة الله متأسياً برسوله .

العلاقات السياسية بين بلاد العرب إلى عهد رسول الله

وأنت إذا رجعت البصر إلى هذا التطور السريع ازددت إعجاباً بأبى بكر وبمقدرته على مواجهته فى لين ومرونة كانا مصدر قوته والسبب فى نجاح سياسته. كانت بلاد العرب إلى عهد الرسول موزعة بين حياة الحضر وحياة البادية ،

مقسمة بين شتى الأديان ، يكاد شمالها وجنوبها لا يتعارفان . كانت اليمن خاضعة لسلطان فارس ، تتجاور فيها المسيحية واليهودية وعبادة الأصنام ، وتتكلم لغة حمير التى تختلف فى لهجتها عن لغة قريش كافة ، وعن لغة مُضَر خاصة . ثم إن اليمن كانت مستقر حضارة تعاقبت على الأجيال . أما الحجاز فكان أدنى إلى البداوة ، وكانت مدنه ، مكة ويثرب والطائف تستقل كل واحدة بنفسها وبنظامها ، كاستقلال كل قبيلة من قبائله بنفسها وبنظامها ، ولا يحول هذا الاستقلال دون تجاور اليهودية والوثنية بيثرب ، ولا دون تجاور تجاور النصرانية والوثنية بمكة . فلما انتشرت دعوة النبى العربى إلى التوحيد فى أرجاء شبه الجزيرة وأذن الله لدينه القيم أن يعم ربوعها ، خلعت اليمن نير الفرس ، وبقيت مستقلة بنفسها وبنظامها كما كانت من قبل ؛ وكذلك بقيت سائر مدن الحجاز وقبائله مع إسلامها لله وللدين الذى أوحاه إلى رسوله . بذلك أصبحت بلاد العرب أشبه بعصبة أمم عربية تجمع بينها عقيدة واحدة ، تدين كلها برسالة محمد وتؤمن بتعاليمه ، ثم لا تتنزل من استقلالها عن شىء إلا إيتاء الزكاة أداء لفرض الله وقياماً بركن من أركان دينه الذى آمنت به .

كانت الوحدة الدينية بدء تطور فى نظام العرب السياسى

على أن هذه الوحدة الدينية كانت بدء تطور فى نظام البلاد السياسى لم يُلق العرب بالهم إليه . لقد تحالفت القبائل والمدن على أن تدفع عن حرية العقيدة وتقاتل المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله . فلما سار جيش المدينة تحت راية الرسول ليغزو مكة بعثت القبائل من سُلَيْم ومُزينة وغَطَفان وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار لفتح البلد الحرام . وفتحت مكة أبوابها وأسلم أهلها ، فسار أبناؤها مع جيش الرسول إلى حُنَيْن والطائف . ثم إن رسول الله كان يبعث عمّاله إلى البلاد التى تدين بالإسلام ليعلّموا الناس القرآن ويفقهوهم فى الدين . وهؤلاء العمال هم الذين كانوا ينظمون الزكاة وتحصيلها فيرسلونها إلى المدينة أو يوزعونها بين الفقراء من أهل البلاد التى دخلت فى دين الله . طبيعى أن يُحدث ما صحب الانقلاب الدينى من هذه الأحداث تطوراً فى النظام السياسى يميل ببلاد العرب إلى وحدة لم تألفها من قبل . لكن أهل هذه البلاد فى اليمن وفى غير اليمن لم يقدروا لهذا التطور ، ولم يدر بخلد أحد

منهم أن يكون له بعد رسول الله أثر ، بل كان ظنهم أن هذه التعاليم التى يذيعها رسول الله بينهم ستصبح أصيلة فيهم ، ثم يعودون إلى حالهم السياسية الأولى، وتظل كل أمة وكل قبيلة منهم مستقلة بنفسها وبنظامها كما كانت من قبل .

وهذا هو السبب فى ثورة تلك البلاد إثر وفاة الرسول ، وفيما ترتب على ذلك من حروب الردة . فقد أراد أبو بكر أن تظل هذه البلاد كما كانت فى عهد الرسول ، وأرادت هذه البلاد أن تسترد حريتها السياسية كاملة ، وكان لأبى بكر من إيمانه بالله ورسوله أبلغ العذر عن الإصرار على أن يؤدى من أسلم كل ما فرض الله مما كان يؤدى لرسول الله . وكانت هذه البلاد ترى لنفسها حقاً فى الاستقلال وتقرير المصير كحق أهل المدينة ، وتأبى لذلك أن يفرض المهاجرون والأنصار رأيهم عليها بعد أن لم يبق بينهم رسول الله يوحى إليه فيؤمن الناس بكلمته لأنها كلمة الله جل شأنه .

بيعة أبى بكر ودلالتها فى تطور النظام السياسى

وما حدث من بيعة أبى بكر بالمدينة جدير بأن يقف نظرنا كما وقف نظر العرب فى ذلك العهد . فما بال المهاجرين والأنصار قد استأثروا باختيار الخليفة دون سائر العرب ؟ ! وما دلالة ذلك فى تطور النظام السياسى يومئذ ؟ أتُراهم استأثروا باختيار أبى بكر لأنهم رأوا فى سبقهم إلى الإسلام وفى تقدمهم الصفوف للدفاع عنه ما يجعلهم أصحاب الأمر فى شؤون العرب ، وما يقدمهم فى ولاية السلطان عليهم ؟ ! لعلك تذكر اعتراض عمر بن الخطاب على أبى بكر حين أرسل إلى أهل مكة يشاورهم فى فتح الشام ويستمدهم إليه ، بعد أن قاتل أهل مكة المرتدين كما قاتلهم المهاجرون والأنصار . ثم لعلك تذكر كلمة سُهيل بن عمرو لعمر فى هذا المقام وإجابة عمر إياه . فقد قال سهيل : « ألسنا إخوانكم فى الإسلام وبنى أبيكم فى النسب ! أفتئكم أن كان الله قدّم لكم فى هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله قاطعو أرحامنا ومستهينون بحقنا ! » . وكان جواب عمر : « إنى والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين » . فإن يكن ذلك رأى عمر ومن وافقه فى أمر مكة وأهلها فما أحراه أن يكون رأيهم فى أمر سائر العرب. أما كلمة سهيل فصريحة فى إنكار رأى عمر ، وفى تمسك أهل مكة بما لهم من

حق فى المشورة يعدل ما لأهل المدينة فيها .

العوامل التى كانت تتجاذب لتكيف النظام فى الدولة الناشئة

هذا الحوار واضح الدلالة فى تصوير العوامل التى كانت تتجاذب لتُكيّف النظام السياسى فى الدولة الناشئة . فلئن قضت ضرورة المحافظة على كيان الدولة أن يسارع المهاجرون والأنصار بالمدينة إلى اختيار الخليفة ومبايعته ، لقد انقضت هذه الضرورة أول ما تمت بيعة أبى بكر واطمأن المسلمون لها ، ولقد أقامت مكة والطائف على الإسلام وشاركتا فى حروب الردة ، وصار لهما بذلك من حق الرأى فى الحكم ما لأهل المدينة . أفيكون سبق المهاجرين والأنصار إلى الإسلام مسبباً فى تقدمهم على جميع المسلمين ومسوغاً لاستئثارهم بالأمر على العرب كلها ؟ ذلك ما رآه ابن الخطاب ، مستنداً إلى ما دار فى سقيفة بنى ساعدة من حوار بين المهاجرين والأنصار . أما أهل مكة فبرموا به ، وأنكره باسمهم عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو .

أبو بكر يذهب فى هذا الأمر غير مذهب عمر

لم يذهب أبو بكر فى هذا الأمر إلى المدى الذى ذهب إليه عمر ، مع أنه فى سقيفة بنى ساعدة ، هو الذى أيد بحجته البالغة حق المهاجرين فى الإمارة لسبقهم الأنصار إلى الإسلام واحتمالهم الأذى فى سبيله . ذلك أنه رأى سائر الذين أقاموا على إسلامهم من غير أهل المدينة قد شاركوا فى حروب الردة ، وذهب منهم من ذهب لغزو العراق ؛ فمن العدل أن يكون لهم ما لأهل المدينة من حق فى الرأى والمشورة . لهذا دعا أهل مكة يشاورهم فى غزو الشام ويستمدهم إليه ، كما أنه سوى فى قسمة الذهب الذى كان يجيء من المنجم الذى فتح على مقربة من المدينة فى عهده بين المسلمين . فلما قيل له فى تفضيل السابقين إلى الإسلام كان جوابه : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يُوفيهم ذلك فى الآخرة ؛ وإنما هذه الدنيا بلاغ » . وبهذا التصرف الحكيم مهّد للتطور السياسى فى بلاد العرب فى لين ومرونة .

وقد تجدد الخلاف على هذا الرأى فى عهد عمر فأصر على رأيه الأول فيه ، مخالفاً مذهب الصديق وسياسته . ثم إنه حاول فى آخر عهده أن يعود إلى رأى سلفه فعاجلته المنية دون أن يتم ما عزم .

أدت سياسة الصديق إلى تطور العرب نحو الوحدة السياسية ، وجعلتهم

ينظرون إلى المدينة على أنها عاصمة دولتهم ومصدر سياستهم . لذلك اتجهت أنظارهم إليها فانضووا تحت سلطانها واستظلوا برايتها .

نظام الحكم في الإسلام

ما لون هذا السلطان ؟ أكان ثيُقْراطياً (دينياً) ، أم أرستقراطياً (حكم الخاصة) ، أم ديمقراطياً (حكم الشعب) [1] ؟

الحكم الإسلامى ليس ثيقراطياً

لقد رأينا أنه لم يكن من نوع السلطان الدينى الذى عرفته مصر الفراعنة ، ولا الذى عرفته عصور أوربا الوسطى . لم يكن أبو بكر يستمد سلطة الحكم من الله ، بل من الذين بايعوه . وقد انقضى نزول الوحى منذ اختار الله رسوله إليه ، وبقى كتاب الله بين المسلمين هدى لهم جميعاً ، وحجة عليهم جميعاً ؛ فهو ميثاقهم الذى آمنوا به وارتضوه ، وهو دستور الحكم ، يسير الحاكم فى حدوده لا يتعداه . فإن فعل وجبت طاعته ، وإلا فلا طاعة له على مسلم .

هذه الصورة الدقيقة للحكم الإسلامى تنأى به عن الفكرة الثيُقراطية . فهو كما ترى حكم مقيد لا سبيل للقائم به إلى السلطان المطلق . وفى طبيعة الحكم

---

(١) لست أدعى أن كلمة (الحكومة الدينية) تؤدى معنى الحكومة « الثيُقراطية » أداء دقيقاً . والأمر كذلك فى كلمتى « حكم الخاصة » و « حكم الشعب » من حيث دقة أدائهما لمعنى الأرستقراطية والديمقراطية . وعدم الدقة أكثر وضوحاً فى هذا العصر الذى تطورت فيه نظم الحكم وتعددت ، فالحكومة اللادينية توصف بها اليوم كل حكومة لا تعترف بطبقة الكهنة أو القساوسة من رجال الدين ولا تقرر للدولة دينا رسمياً . أما غير هذه الحكومة اللادينية فيعترف بوجود هذه الطبقات ويقرر ديناً رسمياً للدولة ، وإن كان النظام الذى يقوم على أساسه مدنياً بحتاً ، ينص على حرية العقيدة ويقررها بأوسع معانيها . وهذه الحكومة ليست فى شىء من الحكومة الثيُقراطية . فالحاكم الثيُقراطى يستمد سلطانه من الله كما يستمد منه العصمة . وذلك كان شأن الفراعنة ومن شاكلهم ، وشأن ملوك أوربا إلى القرن الخامس عشر على ما بينا فى أول هذا الفصل . وهذا نظام لم يبق له فى عالمنا المتحضر وجود . أما الأرستقراطية فكانت طائفة الأشراف أو النبلاء ، وإن شئت فكانت طائفة رؤساء القبائل والعشائر التى ألفت الغزو والسلب . وقد آل أمر هذه الطائفة زمناً إلى أبناء هؤلاء النبلاء؛ ثم نافسهم فى الشرف والنبل غيرهم ، فصار الناس يتحدثون عن أرستقراطية المال وأربابه ، وعن أرستقراطية الثقافة ، حتى لم يبق لهذه الكلمة اليوم معناها القديم. أما الديمقراطية فقد تطورت فى صور شتى من عهد أثينا القديم إلى أن سادت فى عهدنا الحاضر ، والعالم اليوم يتخطى أزمة مبعثها نظام الحكم ، تدافع الديمقراطية فيه عن كيانها ؛ وتحاول نظم أخرى أن تحل محلها .

ولعل القارئ يرى فى تصويرنا حكومة أبى بكر ، من حيث انطباقها على إحدى هذه الصور واقترابها منها أو ابتعادها عنها ، ما يؤدى المعنى الذى قصدنا إليه والصورة التى تحرينا رسمها .

الثيُقراطى أن يكون مطلقاً لا يعرف قيداً إلا هوى الحاكم وحرصه على الاحتفاظ بسلطانه . وهذا الحرص هو مصدر الزعم بأن إرادة هذا الحاكم الثيقراطى من إرادة الله ، وأنها لذلك هى القانون ، بل هى فوق القانون ؛ بيد صاحبها كل شىء ؛ بيده العذاب والرحمة ، والشقاء والنعمة ، والحياة والموت . شتان ما بين هذا وبين تقيد الحاكم بمشاورة الشعب ، وبما أنزل الله فى كتابه .

فالحكم الإسلامى مقيد بإرادة الشعب وبما أمر الله به وما نهى عنه

ويذهب قوم إلى أن التقيد بما أنزل الله فى كتابه يُهدر إرادة الشعب ويقضى عليها ، ويحول دون تطور التشريع مع تطورها ، وأنه يجعل الحكومة الإسلامية ثيقْراطية فى أسها وجوهرها . وهذا الاعتراض لا مسوغ له . فما ورد فى القرآن من التشريع لا يعدو المبادىء العامة التى تقررها قواعد العدل مصورة فى مثلها الأعلى . أما ما جاء فيه من تفصيل لبعض هذه المبادىء العامة فإنما يتناول أموراً بذاتها محصورة العدد . والمبادىء العامة التى قررها القرآن ضرورية لحياة الجماعة الحرة ، فالخروج عليها يفسد هذه الحياة . وقد ثبت على التاريخ أن ما يخالف هذه المبادىء قد استحال قيامه فى البلاد التى تلائم بين حرية الفرد ونظام الجماعة ، والتى تقر لذلك نظام الأسرة والملك والميراث ، ثم تفرض قدراً من الاشتراكية يقتضيه تضامن الجماعة ، وتدعو إليه مبادىء الرحمة الإنسانية التى تعد فى الإسلام قاعدة مقررة لا كمالا نفسياً وكفى .

والحكم الإسلامى خاضع لرقابة المسلمين جميعاً

ولو أن تحديد ما جاء فى كتاب الله ترك لطائفة خُصت به ، كما خصت طائفة الكهنة فى بعض الأديان بإعلان إرادة الله ، لكان للخوف من إهدار إرادة الشعب موضع . أما والإسلام يأبى هذا التخصيص ويجعل الناس سواء فى الحرص على إدراك ما أمر الله به وما نهى عنه ، وفى محاسبة الحاكم على تصرفاته ، فالفكرة الثيُقْراطية فى الحكم الإسلامى منتفية لا وجود لها على الإطلاق .

وهذا الحكم الإسلامى المقيد خاضع لرقابة المسلمين جميعاً . لكل فرد منهم أن يحاسب القائم به ، وليس لطائفة أن تستأثر لنفسها من أمور الحكم بما تمتاز به على غيرها من الطوائف . وقد رأيت فى تصرف أبى بكر شدة الحرص على التقيد بكتاب الله والتأسى برسوله فى التنزه عن كل مطامع الدنيا ، ثقة منه بأن من ساس أمور الناس فأفاد لنفسه منها ، كان ظالما لنفسه وللناس .

ولقد بلغ أبو بكر من هذا التنزه حدًّا يحسبه أهل جيلنا ممعناً فى المبالغة . لم تغير الخلافة ولا غيرت الإمارة على المؤمنين من حياته ، ولم تنتقل به من داره إلى دار غيرها . وقد نسى منذ تولى أمور المسلمين نفسه ونسى أهله وأبناءه ، وتجرد لله تجرداً مطلقاً ؛ وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، تحقيقاً لمعنى الإخاء فى أسمى صوره ، وإيذاناً بأنه ليس له فى الحياة هوى ، وأنه يقدر لذلك على أن يقيم بين الناس عدلا منزهاً لا يعرف محاباة ، وإنما يعرف حدود الله فى أن يعيش الناس جميعاً فى ظل عدله ، جل شأنه ، آمنين مطمئنين .

والحكومة الإسلامية ليست ارستقراطية

حكومة ذلك شأنها ، لم تعرف السلطان المطلق ولم يكن للكهنة وجود فيها ، لا يمكن أن تكون ثيُقْراطية الارن . وهى لم تكن أرستقراطية ، ولم يكن استئثار المهاجرين والأنصار باختيار الخليفة من الأرستقراطية فى شىء . فقد كان هؤلاء رجالا من طبقات شتى . وهم إنما استأثروا بالأمر صوناً للنظام القائم ودفاعاً عنه . ثم إنهم كانوا طبقة مؤقتة تزول بزوال أفرادها . لا يرثها أحد، ولا تقوم مقامها طبقة أخرى . بل لقد نازعهم أهل مكة السبق كما رأيت. وولاية بنى أمية ثم بنى العباس أمر المسلمين من بعد شاهد قوىّ على أن الفكرة الأرستقراطية لم يكن لها بين المسلمين الأولين وجود .

حكومة أبى بكر حكومة شورى

وإنما كانت حكومة أبى بكر حكومة شورى فى منشئها وفى نزعتها بويع الصديق بالانتخاب العام ، وبويع لصفاته الذاتية ولمكانته من رسول الله ، لا لأسرته ولا لعصبية قبيلته . ولم يطالب أبو بكر البيعة لنفسه ، بل كان يرشح عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح ليبايع المسلمون أيهما شاءوا ، وكان يرشحهما والأنصار ينازعون المهاجرين الأمر ويتهمونهم بأنهم يريدون غصبه منهم . ولقد تم ذلك كله فى اجتماع عام ، هو اجتماع السقيفة ، ألقيت فيه الخطب ، وكانت فيه المداورات الانتخابية أبرع ما تكون . فلما أقبل الناس على البيعة لم يكن المهاجرون أسبق إليها من الأنصار ، وكان عمر وأبو عبيدة أول من مهد لها ثم أتمها .

هذه بيعة أنشأتها الشورى ؛ فليس انتخاب رئيس الجمهورية فى فرنسا ،

بل فى أمريكا ، بأكثر حرية منها . فلما تولى أبو بكر الحكم كانت أول خطبة له موطدة أسس الشورى مُثبتة قواعدها . ألم يقل للناس إثر بيعته العامة : « لقد وليتُ عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى » ؟ أو لم يقل لهم : « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ! » . هذا إقرار صريح بحق الرأى العام فى مراقبته وإرشاده ، وبحق الناس فى العصيان إذا عصى الخليفة الله وصدف عن أمره . والنتيجة المنطقية لتقرير مبدأ العصيان هى الإقرار للعصاة بحقهم فى عزل من عصوه . ولا نحسب معنى أبلغ فى تقرير مبادىء الشورى من هذا المعنى .

ومع أن الحرب امتدت طيلة عهد أبى بكر كما رأيت ، لقد قام حكمه على الشورى فى الجليل والصغير من شؤونه . فهو لم يكن يبت فى أمر قبل أن يشاور الناس فيه ، ولم يكن يميز طائفة من الناس على طائفة فى القضاء أو فى العطاء . وهو لم يعرف من أبهة الملك ومن جاه السلطان ما عرف أهل الملك والسلطان فى أمم العالم جميعاً . وكان المسلمون أمامه سواء ، وللذين يدخلون فى الإسلام من غير أهله ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وإنما أبى الصدّيق على الذين ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام أن يشتركوا فى قتال الفرس لأنه حرص على أمن الدولة وسلامتها ؛ فلما زالت مخاوفه أوصى عمر أن يمدّ المثنى بهم فى حروب العراق .

حكومة أبى بكر تمهد لوحدة العرب السياسية

بذلك مهد أبو بكر للتطور الذى أشرنا إليه فى نظام الحكم ، وهيأ الأسباب لوحدة بلاد العرب السياسية بعد أن تمت لها وحدتها الدينية . وكانت مرونة أبى بكر وكان حكمه من أقوى العوامل فى التمهيد لهذه الوحدة السياسية . وقد رأيته كيف عفا عن زعماء الثائرين باليمن وغير اليمن من البلاد التى ارتدت فى سبيل استقلالها . عفا عن قُرّة بن هبيرة ، وعن عمرو بن معدى كرب ، وعن الأشعث بن قيس ، وعن غيرهم من سادات العرب ، فكان عفوه عنهم بعد الذى أبداه من الحزم والشدة مع غيرهم داعياً لهم ولأقوامهم أن يرتبطوا بالمدينة فى وحدة لا تنفصم عُراها . وزادت الشورى التى أقام عليها أبو بكر حكمه هذه الوحدة قوة ، وزاد فتح العراق وفتح الشام جميع العرب عليها حرصا .

وكان طبيعياً أن يقوم الحكم فى ذلك العهد على أساس الشورى ، فقد نشأ

الإسلام فى بلاد العرب ، وكان كتابه عربيًا ، وكان رسول الله به عربيًا ، وكانت بلاد العرب تعيش يومئذ فى نظام بلغت الحرية فيه أقصى مداها . ذلك أن الحرية كانت أعز شيء على العربى، بدويًا كان أو حضريًا . وفكرة المساواة متأصلة فى النفس البدوية ، كذلك كانت ولن تزال . وقد زادت تعاليم الإسلام هذه الفكرة قوة إذ سمت بها إلى المساواة التامة أمام الخالق البارئ المعز المذل، لا يتفاضل الناس أمامه جل شأنه إلا بأعمالهم ، ولا فضل لعربى على عجمى منهم إلا بالتقوى . فأما الإخاء الذى يُتِم مع الحرية والمساواة شعارَ الحكم الشعبى فى عصرنا فقد بلغ به الإسلام مبلغًا ما أشده وضوحًا فى قول رسول الله « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . لا غرو ، وهذه تعاليم الإسلام التى نشرها رسول الله بين الناس والتى تتفق مع أكرم ما فى النفس العربية من سجايا ، أن تتوطد الوحدة العربية حول هذا النظام الذى ثبّت أبو بكر قواعده ، وأن تؤدى سرعة التطور إلى تماسك هذه الوحدة وإلى استقرارها .

الإمبراطورية الإسلامية والأساس الذى تقوم عليه

وقد امتدت حكومة أبى بكر إلى ما وراء بلاد العرب ، ومهدت للإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف . أفكان ذلك مصادفة محضة تضافرت العوامل على نجاحها ، أم أن التطور الذى صورناه وأدى الإسلام الناشيء إليه قد حتّم هذا الفتح ، وبلغ به مداه حين بلغت الإمبراطورية الإسلامية مداها ؟

لا أتردد فى القول بأن هذا التطور كان محتومًا ؛ لأن تعاليم الإسلام تنطوى بطبيعتها عليه . فالإسلام فى جوهره إمبراطورى ، كما أنه فى جوهره شعبى ، وإن اختلفت الفكرة الإمبراطورية فيه عن الفكرة الإمبراطورية فى عهدنا الحاضر فى أسسها وفى غاياتها .

ويرجع الخلاف إلى أن الإسلام يدعو إلى حرية العقيدة . ويفرض على المؤمنين به أن يدافعوا عنها بأموالهم وأنفسهم . وهو إذ يدعو إلى هذه الحرية فى العقيدة لا يفرض على الناس أن يدينوا به على كره منهم ، فلا إكراه فى الدين ، وإنما يريد لكل إنسان حرية النظر والتقدير حتى يستمع إلى القول فيتبع أحسنه. وهو مطمئن إلى أن الناس متى عرفوا تعاليمه اتبعوه لأنه يدعو إلى ما يرضاه العقل وما يتفق مع الفطرة السليمة فى الإنسان .

حرية العقيدة هي هذا الأساس

وحرية العقيدة كانت ولا تزال فى حاجة إلى الدفاع عنها وإلى الاستشهاد فى سبيلها . فالظالمون لا يطيقونها ، بل يمقتونها أشد المقت . والذين يريدون أن يستغلوا الشعوب يزينون للشعوب أسوأ ما فى عقائدهم وأشده فساداً ؛ وهم لذلك لُدٌّ فى خصومة الأحرار المصلحين . أما والإسلام يريد الإصلاح ما استطاع، يقيمه على أساس من الرأى الحر يقتنع به صاحبه فيؤمن به، وللناس بعد ذلك أن يكيفوا مصالحهم فى هذه الحياة كما يرون لأنهم أعلم بأمور دنياهم؛ فالفكرة الإمبراطورية فى الإسلام إنسانية روحية ، غايتها الأولى تحرير العقل إلى حيث يسمو على كل ضغط وكل اضطهاد .

والحجة القاطعة على ذلك أن المسلمين لم يفرضوا دينهم على البلاد التى فتحوها ، ولم يكرهوا الناس يوماً حتى يكونوا مؤمنين . بل إنهم كانوا إذا فتحوا بلاداً أباحوا لأهلها حرية العقيدة . فمن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن آثر ديناً غير الإسلام أدى الجزية . ولم تكن الجزية مغرَماً يفرض أية ذلة أو خضوع ، وإنما كانت تقابل الزكاة المفروضة بحكم الدين على المسلمين ، لإقامة نظام الدولة وللدفاع عن كيانها . ولقد رأيت فيما عقده المسلمون من معاهدات الصلح مع أهل العراق وأهل الشام أن الجزية كانت تؤدى لقاء دفاع المسلمين عن أموال من لم يسلموا ، وعن حريتهم فى عقيدتهم وإقامة شعائر دينهم . ولذلك كانت هذه المعاهدات تنص على حماية بِيَعهم ، وكنائسهم ، ومعابدهم ، وأحبارهم ، ورهبانهم . فإذا لم يقم المسلمون بالتزاماتهم المفروضة فى الصلح أعفى غير المسلمين من دفع الجزية بحكم العهود وبنصها الصريح .

اختلاف الإمبراطورية الإسلامية عن الإمبراطوريات الأخرى فى غرضها وجوهرها

إمبراطورية تقوم على هذه الأسس تختلف أغراضها عن اغراض الإمبراطورية كما فهمها الرومان ، وكما نفهمها فى العصر الحاضر ، اختلافاً جوهرياً . فهى لا تجعل خضوع الناس للعرب أو لشعب بذاته غايتها ، وإنما غايتها الأولى أن يعيش الناس أحراراً ، وأن تربط بينهم أواصر الرحمة والمودة والعدل ، وأن يكون للأمم المفتوحة من ذلك ما للأمة الفاتحة وكما يقوم الحكم فى مهد الإسلام على أساس الشورى ، يجب أن يقوم فى كل أمة فتحها المسلمون على أساس الشورى . وأهل هذه الأمم يتمتعون بالحقوق التى يتمتع بها العرب ؛

من أسلم فله ما للعرب المسلمين وعايه ما عايهم ، ومن لم يسلم فله ما للعرب غير المسلمين وعليه ما عليهم . فالذين احتفظوا بنصرانيتهم من أهل العراق أو من أهل الشام ، مَثلُهم كمثل الذين احتفظوا بنصرانيتهم فى نجْران وفى غير نجران من بلاد العرب . وإنما يربط بين هذه البلاد التى تدين بالإسلام رباط واحد ، ذلك رباط التوحيد والدعوة إليه والدفاع عن حرية هذه الدعوة . أما فيما وراء ذلك فأمر البلاد التى تؤلف الإمبراطورية الإسلامية كأمر بلاد العرب فى عهدِ الرسول ؛ عصبة أمم تسعى لغرض إنسانى بالغ غاية السمو ، تجاهد فى سبيله ، وتعمل لإعلاء كلمته . وسبيلها إلى هذه الغاية الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن « فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » .

السبب فى ترك الحكم فى عهد أبى بكر بدون تنظيم

لم ينفسح الأمد لأبى بكر كى يقيم على هذا الأساس نظاماً للحكم فى البلاد التى فتحها المسلمون فى عهده . وقد ترك خالد بن الوليد لأهل المدن المفتوحة فى العراق أن يتولوا إدارتها ، فى حين احتفظ المسلمون بسياسة الدولة وتوجيه شؤونها العامة . ولم يكن ذلك تنظيماً للحكم ، وإنما كان ضرورة قضت بها الخُططُ الحربية فى وقت كان القتال ناشباً فيه بين المسلمين والفرس ، فكان الأمر فيه للقيادة العسكرية .

وكان شأن الشام حين الفتح كشأن العراق . ولقد كان الحكم على أساس الشورى جديداً بين الشعوب التى فتحها المسلمون ، كما كان الإسلام جديداً بين الأديان التى أحاطت بشبه الجزيرة من كل جانب . وإنما كان حكم الفرد مطلقاً فى ذلك العهد ، وكان الرهبان والكهنة وسائر رجال الدين يؤيدون هذا الحكم المطلق ، ويخلعون على أصحابه قدسية رهيبة تنخلع القلوب من هيبتها ، ويخر الناس سجّداً أمامها . لذلك لم يلبث الناس حين رأوا هذا الحكم الجديد قائماً على الإنصاف والعدل ، متحرياً إرادة الشعب فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، أن أقبلوا عليه ورحبوا بأهله ؛ فكان إقبالهم سبباً من أسباب النصر الذى أفاءه الله على المسلمين ، فمد إمبراطوريتهم فى سنوات محدودة لتحل محل الإمبراطوريتين الرومية والفارسية ، ولتتخطى حدودهما إلى الهند شرقاً وإلى شمال

إفريقية غرباً ، فتنشر حيثما ذهبت لواء الحق والعدل والإيمان الصادق ، وتُقر مبادئَ الحرية والإخاء والمساواة فى أسمى صورها وأجدرها بالإنسانية الطامحة إلى الكمال .

بقاء الحكم فى عهد أبى بكر قائما على الأسس العربية لعهد النبى

لم ينفسح الأمد لأبى بكر كى يقيم نظاماً للحكم فى البلاد التى فتحها المسلمون لعهده . ولم ينفسح له الأمد كذلك كى يقيم نظاماً ثابتاً للحكم فى بلاد العرب نفسها . وكل ما تلوته فى هذا الكتاب من خطب الخليفة الأول ، ومن تصرفاته فى إقامة عمر بن الخطاب على القضاء ، وعثمان بن عفّان وزيد ابن ثابت على الرسائل ، يشهد بأن الفكرة الإسلامية فى نظام الحكم كانت إلى يومئذ فى طور الاستجنان ، واضحة الأساس فى كتاب الله وفى سنة رسوله ، مبهمة التفاصيل فلا يستطيع أحد أن يذكر عنها ما يستطيع أن يذكره عن الحكومة الإسلامية فى العهد الأموى أو فى العهد العباسى ، بل فى عهد عمر وفى عهد عثمان . وذلك طبيعى فى حكومة ألقت الأقدار عليها أن تكون حكومة انتقال من عهد إلى عهد جديد يختلف عن سابقه كل الاختلاف فى لون الحضارة ، وفى العقيدة ، وفى طرائق التفكير ، وفى كل ما يتصل بنظم الحياة .

تأثر الحكم بحال الحرب التى كانت ناشبة طيلة عهد أبى بكر

وهو طبيعىٌ كذلك فى عهد نضال وحرب ، حكومته أدنى إلى الحكومة العسكرية منها إلى الحكومة المدنية ، فالنظم المدنية تتقلص حين الحرب وتكاد تتفانى أمام النظم العسكرية ، وذلك فى البلاد التى استوت النظم المدنية فيها أمداً طويلا وأجيالا متعاقبة . ما بالك وبلاد العرب لم يستقر فيها نظام مدنى ثابت موحد قبل الإسلام ! لا جرم فى هذه الحال أن تطغى نظم الحرب والجهاد متسلطة على كل النظم ، وأن تتأثر الحياة المدنية بتطورات الحرب أبلغ التأثر .

فإذا ذكرت أن هذه الحرب كانت حرباً أهلية فى العام الأول من حكم أبى بكر ، وأنها كانت قائمة من أجل الحكم ونظامه ، ثم ذكرت أن مواجهة الفرس فى العراق بدأت والحرب الأهلية ما تزال قائمة ، وأن مواجهة الروم فى الشام كانت وحرب العراق فى أدق أدوارها ، أيقنت أن التفكير فى تنظيم حكم مستقر واضح التفاصيل لم يكن أمراً ميسوراً ، وأن أبا بكر كان فى شغل بمواجهة الأسدين فارس والروم عن كل أمر سوى ما يحقق للمسلمين اجتماع

الكلمة فيما بينهم والظفر بعدو الله وعدوهم .

وكان نظام هذه الحكومة العسكرية أدنى إلى البداوة التى سادت بلاد العرب وقبائلها من قبل عهد الرسول . لم يكن هناك جيش نظامى ، بل كانت الفروسية تجعل من كل عربى جندياً . فإذا دقت طبول الحرب ، ونادى المنادى للقتال ، خرجت القبائل والقرى وعلى رأس كل جماعة زعيمها . وقد رأيت كيف خرج العرب من أهل الجنوب حين دعُوا لقتال الروم فى الشام ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، ومعهم ميرتهم وذخيرتهم ، لا يكلفون الحكومة المركزية شيئاً ، ويعتمدون فى معاشهم على ما يغنمون فى الحرب .

فقد كانوا يُنَفَّلون أربعة أخماس الغنائم حين الحرب ، ويرسل الخمس إلى الخليفة ليرده على بيت المال ، ولينظِّم به الشؤون العامة القليلة التى يتولاها بصورة مباشرة . وكانت رعاية الفقراء من أهل المدينة ومن الوافدين عليها فى مقدمة ما ينفق الخليفة هذا الخمس فيه . وكان أبو بكر حريصاً على أن يوزع الغنائم على هؤلاء وعلى كل ذى حق فى بيت المال أول ما ترد إليه . لذلك كان بيت مال المسلمين فى بيته بالسُّنْح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله معه . وقيل له فى ذلك وطلب بعضهم إليه أن يجعل عليه حراساً وخزنة فأبى ، لأنه لم يكن يحتفظ فيه بما يستوجب الحراسة ، ولم يكن يختزن ما يخشى عليه عدوان المعتدين.

تطور الحكومة الإسلامية على ذلك فى عهد الصديق

فهذه الصورة من حكومة أبى بكر تشهد بأنها كانت أدنى إلى بساطة البداوة ، وأنها كانت عربية صرفة ، لم تتأثر فى قليل ولا كثير بالنظم التى كانت قائمة ذلك العصر فى بلاد الروم أو فى بلاد الفرس . وهى مع هذه البساطة الحلقة القوية التى ربطت بين عهد الرسالة وعهد الإمبراطورية . واتصالها الزمنى الوثيق بعهد الرسالة جعلها به أشبه . فلم يكن أبو بكر يصنع شيئاً كان رسول الله يدعه ، ولم يكن يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه . لكنه لم يجمد مع ذلك جمود المقلدين ، بل فتح له تأسيه برسول الله باب الاجتهاد فى سياسة المسلمين واسعاً ، فهداه اجتهاده إلى أن فتح الله له العراق والشام ، ثم مهد لحكومة العرب الموحدة أن تقوم من بعده على أساس من الشورى فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . لم يتزمّت فى أمر ولم يُفرِّط ، وإنما اهتدى بنور الله لمصلحة عباد

الله ، فكان أكثر ما هداه الصراط المستقيم إيمانه بأنه مُحاسب أمام الله ، كما أنه محاسب أمام عباده ، والله شديد الحساب .

ثم تطورها من بعد على القرون

مرت الحكومة الإسلامية من بعد أبى بكر فى أطوار شتى . فقد بدأ ابن الخطاب ينشىء الديوان فى عهده ، متخذاً من نظام الحكم فى فارس وفى الروم مثالا ينسج عليه مع اعتصامه بكتاب الله وحدوده . ثم دنا عهد عثمان من الحكم المطلق دنواً لا يتفق وتقاليد العرب ؛ فكان ذلك مقدمة الثورة التى انتهت إلى مقتله . وانقلبت إمارة المؤمنين فى عهد الأمويين ملكاً عضوضا ، يتوارثه أهل البيت المالك. وكذلك كان الأمر فى عهد العباسيين. وفى أثناء هذه الأطوار كانت يد الأعاجم من الفرس والروم ذات أثر ، لعله كان خفياً فى عهد عمر وعثمان ، ثم بدأ يظهر واضحاً بعض الشىء فى عهد الأمويين ، ليتجلى من بعد ذلك صريحاً كل الصراحة فى عهد بنى العباس .

الأعاجم وأثرهم فى تنظيم الحكم فى العالم الإسلامى

وفى هذه الأثناء كان علماء المسلمين ، وجلهم من الأعاجم ، يضعون لنظام الحكم القواعد والتفاصيل يردونها إلى كتاب الله وسُنّة رسوله . وكان الخلاف يقع بين هؤلاء العلماء على هذا النظام ، فتقوم الثورات بسببه فتطيح بالحاكم حينا ، وتُقْمَع بيد البأس والبطش فيستقرّ الأمر لصاحب السلطان حينا آخر . ما أعظم الفرق بين حكومة أبى بكر فى بساطتها العربية المتأثرة بحياة البادية ، وبين هذه الحكومات الأموية والعباسية التى وجدت من العلماء والفقهاء مَنْ شرع لها النُّظُم المفصّلة ، والقواعد المترامية الأطراف ! .

كان إيمان أبى بكر بأنه محاسب أمام الله وأمام الناس هو الذى هداه سبيلَه . وخشية هذا الحساب جعلته لا يُقدم على أمر ولا يحجم عنه ، حتى يشاور ويروِّىء فى المشورة ويستخير الله ، فإذا خار له صح عزمه ، فكان الحزمَ الذى لا يعرف التردد ولا الهوادة ، لا يُعْرَض عليه أمر للمسلمين حتى يحسمه برأى قاطع . وقد رأيت ما كان من ذلك طيلة عهده ، ثم رأيته كيف استمع فى مرضه للمثنى الشيبانى حين جاء إليه من العراق يشير باستعمال الذين عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم فى حرب فارس ، وكيف أوصى عمر أن يمد

المثنى بهؤلاء ليسيروا إلى الميدان معه . وفى هذا المرض كان الصديق أكثر ما يكون فى أمور المسلمين تفكيراً، وأشد ما يكون على وحدتهم حرصاً، وأعظم ما يكون من خلافهم إشفاقاً . لذلك أوصى ، فكانت وصيته آخر عمل له فى الحكم لخير الإسلام ولخير المسلمين .

الفصل الثامن عشر

مرض أبي بكر ووفاته

قضى أبو بكر على ردّة العرب وعلى الثورة التي اندلعت إثر وفاة الرسول بسبب هذه الردّة فأشعلت شبه الجزيرة ناراً . ثم إنه فتح العراق وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس، كما تقدم في فتح الشام وساير النصر أعلامه فيها إلى دمَشْق . وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبوبكر يقيم الحكم في البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى ، وإذا هو يجمع كتاب الله ، فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجراً في جمعه بين اللوحين . هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرّت الدين الحنيف في منزل الوحي ، ومهّدت لإقامة الإمبراطورية الإسلامية ولانتشار هذا الدين الحنيف فيها ، ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل . وكان ذلك كله في سنتين وثلاثة أشهر .

ما تم في خلافة أبي بكر

أليست هذه بعض معجزات التاريخ ؟! في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم ثائرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب ، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجّهان حضارته ، لتنهض بعبء الحضارة في العالم قروناً بعد ذلك . هذا أمر لم يسجّل التاريخ مثله ، فلا عجب أن يقتضي من أبي بكر مجهوداً تنوء به العصبة أولو القوة . أما وقد تخطى أبو بكر الستين يوم بويع ، فطبيعي أن يهيض هذا المجهود قوته وأن يعجّل به إلى لقاء ربه .

ولعلك بعد الذي تلوته من تفصيل هذه الأعمال الجسام أن تَقْدر هذا المجهود وما كان له من أثر . بل لعلك قد رأيت أن هذا المجهود لا يمكن أن ينهض به رجل إلا إذا أوتي من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتاه إلا الصديقون . وهذا ما آمن به أبو بكر ، ولهذا نقش على خاتمه : « نعم القادر الله » .

الزعم بأنه مات مسموماً

عجّلت عظمة المجهود وتقدم السن وفاة الخليفة الأول، وإن جرت رواية

فى تعليل وفاته بأن اليهود دسوا له السم فى طعام تناول منه عتَّاب بن أسيد معه، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيمات ثم كف، وأن هذا السم كان بطىء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ، ولذلك مات عتاب بمكة فى اليوم الذى قُبض فيه أبو بكر بالمدينة. وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة . ومما يزيد من تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود فى خلافته نزاع ، وأن اليهود جلوا منذ عهد رسول الله عن المدينة .

رواية عائشة فى مرضه ووفاته

والرواية الراجحة فى مرض أبى بكر ووفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة وإلى ابنه عبد الرحمن ، قالا : كان أول ما بدأ مرض أبى بكر أنه اغتسل فى يوم بارد فحُمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ؛ وكان يأمر عمر ابن الخطاب أن يصلى بالناس .

على أن أبا بكر لم يفتأ فى الأسبوعين اللذين قضاهما فى مرضه إلى وفاته دائم التفكير فى شؤون المسلمين ، دائم الحساب لنفسه عما قدم مذ تولى أمرهم . فقد كان قوىّ الشعور منذ مرض بأن أجله جاء ، وأنه ملاق ربه . وقد كان مغتبطاً لذلك مطمئناً له ، لأنه كان فى السن التى اختار فيها رسول الله الرفيق الأعلى ، ولأنه كان يشعر بأنه أدى لله حقه . قيل له يوماً : لو أرسلت إلى الطبيب ! فكان جوابه : قد رآنى . قيل : فما قال لك ؟ قال : إنى أفعل ما أشاء . يشير إلى أنه وكل الأمر لله ، وأنه سعيد بقضاء الله، وأن أكبر همه أن يضمه الله إليه .

تفكير أبى بكر فى مصير المسلمين بعده

وأكثر ما شُغِل به أبو بكر أثناء مرضه إشفاقه من مصير المسلمين بعده. لقد ذكر اختلاف المهاجرين والأنصار بسقيفة بنى ساعدة حين مات النبى ، وذكر ما كان يوشك أن يحدث بين القوم لولا أن جمع الله كلمتهم على بيعته . ولئن اختلفوا حين وفاته ليكوننّ اختلافهم أجسم خطراً . فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون سائر العرب ، بل لقد جاهد العرب جميعاً ولا يزالون يجاهدون فى العراق والشام ، يواجهون فارس والروم . فإذا قُبض واختلفوا لم يقف خلافهم فى حدود سقيفة بنى ساعدة ، بل يتخطاها إلى مكة والطائف ، وقد ينتقل إلى اليمن ، وعند ذلك تعود الثورة تتلظى فى بلاد العرب . وهى

إن عادت لم يكن مدارها ركناً من أركان الدين ، بل السلطان وولاية الأمر . واختلاف الناس على أمور الدنيا أشد إثارة للشر وإطارة لنار الفتنة . وما أجسم الخطر من ذلك على الإسلام والمسلمين فى وقت يواجهون فيه الأسدين فارس والروم ! فكيف يتلافى أبو بكر هذا الخطر ، وكيف يجنبُ المسلمين ما ينشأ عن الفتنة من شرّ مستطير ؟

لماذا استخلف أبو بكر على حين لم يستخلف رسول الله

فكر فى هذا أثناء مرضه وطال فيه تفكيره . وألهمه الله الرأى وعزم له فلم يتردد . لا سبيل إلى ملافاة ما يشفق منه إلا أن يستخلف من يقوم بالأمر من بعده ، وأن يجمع كلمة المسلمين عليه . هذا أمر لم يصنعه رسول الله ؛ فقد قُبض ولم يستخلف . ولكن ذلك كانت فيه لله حكمة، وحكمته ألا يظن الناس أن من استخلفه رسول الله قد استمد الأمر على المسلمين من عند الله ، فأصبح خليفة الله . وقد أراد الله من فضله أن يجمع كلمة المسلمين من بعدُ على أبى بكر وأن يهيئ له من التوفيق ما رأيت . فأما إن استخلف أبو بكر فإنما يستخلف برأيه ، وبإرادة المسلمين . ولن يكون لخليفته على المسلمينَ إلا ما كان لأبى بكر ، ولن تكون حكومته إلا كما كانت حكومة أبى بكر .

مشاورته أولى الرأى فى استخلاف عمر بن الخطاب

من ذا تراه يستخلف ؟ لقد عجم عيدان من حوله من أولى الرأى جميعاً فى عهد النبى ، وقد عجم عيدانهم مدة خلافته . وهو اليوم أشد ثقة بأن عمر ابن الخطاب خير من يخلُفه . لكنه إن فرض ذلك على المسلمين فقد يثقُل أمره عليهم ، وقد يبرمون به . لذلك دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرنى عن عمر بن الخطاب . قال عبد الرحمن : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلمنا به . قال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه . ويا أبا محمد قد رمّقته فرأيته إذا غضبت على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لِنتُ له أرانى الشدة عليه . وسكت هنيهة ثم قال : لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً .

ودعا الصدّيق عثمان بن عفّان بعد عبد الرحمن بن عوف ، وقال له :

يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر . قال عثمان : أنت أخبر به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ! قال عثمان : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . قال أبو بكر : يرحمك الله يا أبا عبد الله ! والله لو تركته ما عدوتك ! لا تذكرنّ مما قلت لك ولا مما دعوتك له شيئاً .

ولم يكتف أبو بكر بمشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان ، بل شاور كذلك سعيد بن زيد وأُسَيْد بن حُضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار . وسمع بعض أصحاب النبى بمشاورات أبى بكر وأنه يريد استخلاف عمر ، فأشفقوا من شدة ابن الخطاب وغلظته أن يفرّق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يُهيبوا بأبى بكر ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة ابن عبيد الله : «ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمراً علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ ! » . هنالك غضب أبو بكر وصاح بقومه والمرض يهزّه : أجلسونى ! فلما أجلسوه وجّه الحديث إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال : « أبالله تخوّفوننى ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول : اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك » ، ثم اتجه إلى طلحة فقال له : « أبلغ عنى ما قلت لك مَنْ وراءك » .

اعتراض المعترضين على استخلاف عمر

واضطجع أبو بكر وقد هدّه هذا الحوار ، فانصرف عنه القوم لم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل بل خرج عبد الرحمن معهم ثم عاد إليه صبح اليوم التالى ، وقال يحييه وقد جلس إلى جانب سريره : « أصبحت والحمد لله بارئاً » . قال أبو بكر . « أتراه ؟ » . قال : نعم ! فسكت أبو بكر وسكت عبد الرحمن هنيهة ثم تحدث الصديق وكأنما عنّاه ما حدث بالأمس : « إنى ولّيت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورِم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه » . واستطرد فى حديث أحس معه عبد الرحمن بما يغص نفس الخليفة من ألم لحديث القوم ، فقال له : «خفّضْ عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك . إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ،

ولم تزل صالحاً مصلحاً » .

كتاب أبي بكر باستخلاف عمر

واطمأن أبو بكر إلى استخلاف عمر ، فدعا عثمان بن عفان ، وكان يكتب له فقال له اكتب ، وأملاه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإنى لم آل ُ الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً . فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب من الإثم . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله » . ثم ختم الكتاب .

وتذهب بعض الروايات إلى أن أبا بكر أملى عثمان حتى إذا بلغ « إنى استخلفت عليكم » أغمى عليه قبل أن يملى اسم عمر بن الخطاب ، فكتب عثمان فى غيبوبة أبى بكر « إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ علىّ ، فقرأ عليه فكبّر أبو بكر وقال : « أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى غشيتى » ! . قال عثمان : « نعم » وأقرّ الصديق ما كتب ، وقال له : « جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله » !

خشى أبو بكر مع ذلك كله أن يختلف الناس من بعده ، فأشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وامرأته أسماء بنت عُمَيس ممسكته موشومة اليدين ، وقال يخاطب من بالمسجد جميعاً : « أترضون بمن أستخلف عليكم ، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا ولّيت ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عمر ابن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا » : فقالوا . « سمعنا وأطعنا » .

وصية أبي بكر لعمر بن الخطاب

وفى بعض الروايات أن عثمان خرج إلى الناس بعد أن أملى عليه أبو بكر وصيته وختمها ، فأبرز لهم الكتاب مختوماً وقال لهم : أتبايعون لمن فى هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم ، وبايعوا ابن الخطاب . فلما بايع الناس دعا أبو بكر

عمر فأوصاه بما أوصاه به ، على تعبير ابن سعد فى الطبقات [١] .

وإذ فرغ أبو بكر من استخلاف عمر واطمأنت نفسه على مصير المسلمين من بعده جعل يحاسب نفسه على ما قدّم . روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يهوّن على أبى بكر علّته وما يدور بخاطره من أمر المسلمين ، ويذكر له أنه لا يأسى على شىء من الدنيا ، فقال أبو بكر : « أجَلْ إنى لا آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن ودِدْت أنى تركتهن ، وثلاث تركتهن وددت أنى فعلتهن ، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن . فأما الثلاث اللاتى وددت أنى تركتهن ، فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شىء وإن كانوا قد غلّقوه على الحرب [٢] . ووددت أنى لم

الصديق يحاسب نفسه على ما فعل وما ترك وما نسى أن يسأل عنه رسول الله

(١) أوردت بعض الروايات نص هذه الوصية ، وهو ما يأتى : « إنى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل . وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله » . وقيل إن عمر لما خرج من عند أبى بكر رفع الصديق يديه وقال : « اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضرنى من أمرك ما حضر فاخلفنى فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك . أصلح اللهم واليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته » !.

وليس يسيراً علينا أن نتثبت من صحة الرواية فى الوصية ولا فى الدعاء . بل لعل لمن شاء أن يرتاب فى نسبة بعض ما انطويا عليه إلى الصديق رضى الله عنه . وحسبنا أن نذكر عبارته الأخيرة فى الوصية : « اجعله من خلفائك الراشدين » ونذكر إلى جانبها إنكاره على من دعاه « خليفة الله » وقوله : ولكنى خليفة رسول الله ، لتتبين وجه الحجة لمن يرتاب . فإذا أضفت إلى ذلك ما فى تاريخ أبى بكر من اختلاف الروايات ومن ضعيفها كان حقاً علينا أن نتلقى ما يروى عنه فى شىء كثير من الحذر .

(٢) لا يذكر الذين ينكرون تخلف على عن البيعة هذه العبارة . ولا يذكر بعض الرواة ما يقال من أن أبا بكر ود أن يسأل رسول الله فى أمور منها هل للأنصار حق فى ولاية الأمر .

أكن حرقت الفجاءة السُّلمى وأنى كنت قتلته سريحًا[1] أو خليّته نجيحاً. ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين — يريد عمراً وأبا عبيدة — فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً. وأما اللاتى تركتهن، فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلىّ أنه لا يرى شرًّا إلا أعان عليه. ووددت أنى حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذى القَصّة، فإن ظفر المسلمون ظفروا، وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مدد. ووددت أنى كنت إذ وجّهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يدىَّ كلتيهما فى سبيل الله — ومد يديه. ووددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد. ووددت أنى كنت سألته: هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب؟ وددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة فإن فى نفسى منهما شيئًا».

لم يكن ذلك كل ما اختلجت به نفس أبى بكر وما دار بخاطره أثناء مرضه. فأنت تذكر أنه قد ترك التجارة ليفرغ لما يُصلح شؤون المسلمين، وأن أصحابه جعلوا له من بيت المال ما يُصلح به نفسه وعياله. فلما رأى أنه مشف على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال، بل قال: «ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لم أصب من هذا المال شيئًا، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم». واستخلص عمر ثمن هذه الأرض ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبى بكر، وجعل يقول: «يرحم الله أبا بكر! لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا!».

نزول أبى بكر للمسلمين عما أخذ من بيت مال المسلمين

وفى رواية أن عمر قال هذه العبارة لأهل أبى بكر حين أبلغوه مشيئته فى هذا الأمر ثم أردفها بقوله: «وأنا والى الأمر من بعده، وقد رددتها عليكم».

وتجرى رواية ثالثة بأن أبا بكر توفى وليس عنده دينار ولا درهم،

(١) السريح، السهل، أو العجلة.

وإنما ترك عبداً كان يحمل صبيانه ، وناضحاً يسقى[1] بستاناً له ، وقطيفة قيمتها خمسة دراهم ، وقد أمر بحملها إلى عمر بعد أن يُفرغ منه. فلما حملت إلى عمر بكى وقال : « لقد أتعب أبو بكر مَن بعده تعباً شديداً ! » .

ولسنا نثق بصحة هذه الرواية وإن كانت البينات قائمة على أن أبا بكر إن كان قد ترك شيئاً بعده فإنما ترك غير كثير . فقد أوصى بخمس ماله وقال : « آخذ من مالى ما أخذ الله من فىء المسلمين »؛ أو قال : « لى من مالى ما رضى ربى من الغنيمة » . ولعل بعضهم ودّ لو أن أبا بكر أوصى بأكثر من الخمس ، فأجابه : « لأن أوصى بالخمس أحب إلىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلىّ من أن أوصى بالثلث، ومن أوصى بالثلث فلم يترك شيئاً » . فلو أن أبا بكر لم تكن له تركة وصح ما روى عن عائشة أنها قالت : « ما ترك أبو بكر ديناراً ولا درهماً ضرب الله سكّته »، لما أوصى بالخمس؛ ولا بما دون الخمس ؛ فإنما يوصى من يملك شيئاً وإن قلّ .

أبو بكر يسترد ما وهبه لعائشة ابنته ليكون قسمة بين ولديه وبنتيه

وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضاً بالعالية ، كان النبىّ أعطاه إياها ، فأصلحها وغرس فيها ثم جعلها لابنته أمّ المؤمنين . فلما حُضر وعائشة تمرضه جلس فتشهّد ثم قال : « يا بُنية، إن أحبّ الناس غِنًى إلىّ بعدى أنت، وإن أعزّ الناس فقراً علىّ بعدى أنت . وإنى كنت نحلتُك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحبّ أن ترديها علىّ فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ؛ فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك » . ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة ، فسألت أباها فى ذلك فقال : « ذو بطن ابنة خارجة فإنى أظنها جارية » .

فكّر أبو بكر أثناء مرضه فيمن يخلُفه على المسلمين، وفكر فى رد المال الذى جعلوه له حين خلافته ، وفكر فيما يُوصى به من تركته ، وفكر فيما كان نحله ابنته عائشة ليرده على ورثته . فكر فى هذا كله شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئاً ، وعلى أن يلقى الله وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذه الله به . فلما اطمأن إلى ذلك بدأ يفكر فى الموت وفى الأهبة له ، فأوصى أن

---

(١) الناضح : البعير أو الثور أو الحمار الذى يستقى عليه الماء . وفى بعض الروايات « لقحة » بدل « ناضح » واللقحة : الناقة القريبة العهد بالنتاج .

يكفَّن فى ثوبين له كان يلبسهما وقال : « كفنونى فيهما فإن الحىّ أحوج للجديد من الميت »[1]. وأوصى أن تغسّله امرأته أسماء بنت عميس ، فإن لم تستطع استعانت بعبد الرحمن ابنه . وإنه لفى شغل بهذه الأمور إذ أقبل المثنى من العراق فأذن الصدّيق له ، فلما طلب منه أن يُمده بمن عاد إلى الإسلام من أهل الردة أوصى عمر أن يفعل وألا يُشغل بوفاته عن أمور المسلمين .

وصية أبى بكر لكفنه

وبدأ أبو بكر يعالج سكرات الموت وعائشة ابنته إلى جانبه ، فلما رأته كذلك تمثّلت بهذا البيت من قول حاتم :

لعَمْرُكَ ما يُغْنى الثَّراءُ عن الفَتى
إذا حَشْرَجتْ يومًا وضاق بها الصدرُ

فنظر الصدّيق إليها كالغضبان ثم قال : ليس كذلك يا أمّ المؤمنين ، ولكن : «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْت مِنْه تَحِيدُ » .

ولما ثقُل جلستْ عند رأسه وتمثّلتْ :

وكلّ ذى إبلٍ موروثٌ وكلّ ذى سلَبٍ مسلوبُ
وكل ذى غَيبةٍ يؤوب وغائبُ الموتِ لا يؤوب

وقيل إن أبا بكر هو الذى تمثّل بهذين البيتين ، وأن آخر ما تكلم به «رَبِّ تَوفَّنِى مُسْلِمًا وأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِين » .

رب توفنى مسلماً وألحقنى با لصالحين

وقبض أبو بكر يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤م)، وهو فى الثالثة والستين من عمره . توفى مساء بعد ما غابت الشمس ، ودُفن ليلا ، وتولت زوجه أسماء بنت عميس غسله وعاونها ابنه عبد الرحمن إذ كان يصبّ

---

(١) كثرت الروايات فى وصية أبى بكر بتكفينه ، وكلها مع ذلك منسوبة لعائشة ،فمنها أنه كان عليه ثوب فقال : إذا أنا مت فاغسلوا ثوبى هذا وضموا إليه ثوبين جديدين وكفنونى فى ثلاثة أثواب قالت عائشة : ألا نجعلها جدداً كلها ؟ فقال : لا ! إنما هو للمهلة ، الحى أحق بالجديد من الميت . ومنها أن أبا بكر سأل عائشة فى كم كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فى ثلاثة أثواب . قال اغسلوا ثوبى هذين وابتاعوا لى ثوباً آخر . قالت : يا أبت إنا موسرون . قال : أى بنية ! الحى أحق بالجديد من الميت ، وإنما هى للمهلة والصديد . وثم روايات أخرى أوردها ابن سعد فى الطبقات . (المهلة ، مثلثة الميم : القيح والصديد) .

الماء . ثم إنه حمله على السرير الذى حُمل عليه رسول الله إلى المسجد ليدفن كما أوصى إلى جواره صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة .

ووضع الجثمان فى المسجد بين القبر والمنبر ، وتولى عمر صلاة الجنازة فكبّر أربعاً ، ثم نُقل الجثمان إلى القبر ودخل معه عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن ابن أبى بكر . وأراد عبد الله بن أبى بكر أن يدخل، فقال له عمر : « كُفيت ». ودفن أبو بكر فى حفرة حفرت له إلى جنب النبى ، وجعل رأسه إلى كتف رسول الله ، وألصق اللحد باللحد. فلما أهالوا عليه التراب خرجوا وقد ودعوا خليل رسول الله وصفيّه بعد أن جمع بينهما الموت ، فودعوا أقرب الناس إلى قلب رسول الله وأحبهم إليه وآثرهم عنده ، وأشدهم إيماناً بالله و رسوله .

وقد ارتجّت المدينة لوفاة أبى بكر ، وتولّى الناس دهش كدهشهم يوم قُبض رسول الله ، وأقبل علىّ بن أبى طالب مسرعاً باكياً حتى وقف بالباب فقال :

تأبين على بن أبى طالب أبا بكر

« رحمك الله يا أبا بكر ! كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غِنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الإسلام، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خُلقاً وفضلا وهَدْياً وسمْتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً . صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله فى كتابه صدّيقاً فقال : « والَّذِى جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ » . يريد محمداً ويريدك . كنت والله للإسلام حصناً ، وللكافرين ناكباً . ولم تَضْلِلْ حُجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبُن نفسك ، كالجبل لا تحرّكه العواصف ، ولا تزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى دينك ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلا فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ؛ فالضعيف عندك قوىّ ، والقوىّ عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوىّ ، وتأخذه للضعيف . فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ! » .

تأبين عائشة أم المؤمنين أباها

وأبّنته ابنته عائشة أم المؤمنين فقالت : « نَضّر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك؛ فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزءك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجلّ ليعِدُنا بالصبر عنك حسنَ العوض. وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك. فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

تأبين عمر ابن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب أوجز فى القول ، وكأنما عقد الرزء لسانه . قال حين دخل على أبى بكر بعد موته : « يا خليفة رسول الله ! لقد كلفت القوم بعدك تعبًا ووليتهم نصبًا . فهيهات من شقّ غُبارك ، فكيف اللحاقُ بك » .

وتداولت أنباء الوفاة حواضر العرب وبواديها ، فهزت كل نفس وأسبلت الدمع من كل عين ؛ واضطرب أهل مكة لسماعها ، وبلغ اضطرابهم سمع أبى قُحافة فسأل : ما هذا ؟ قيل : توفى ابنك . قال : رزء جليل ! من قام بالأمر بعده ؟ قالوا : عمر . فقال : صاحبه ، ولم يزد . وأرادوا أن يردوا عليه حقه مما ترك أبو بكر فأبى وقال : بنوه أحق به . وما كان لهذا الشيخ الفانى بعد هذا الرزء الجسيم إلا أن يلحق ابنه فى جوار الله، فتوفى بعد ستة أشهر من وفاته .

أفتدل هذه الكلمات الوجيزة التى نطق بها أبو قحافة على أنه كان أجمل العرب صبراً لقضاء الله فى خليفة رسول الله ؟ ! أم أن جزعه لوفاة ابنه هو الذى أسكته ، كما أنه هو الذى عجل به إلى لقاء ربه ؟ ! ما نحسب أباً يتجلّد للمصاب فى ابنه إلا تجمّلا ، وإن تقدّمت به السن وأدركه الهَرَمُ . لذلك كان حزن أبى قحافة غير حزن سائر العرب . لقد حزن العرب إشفاقًا مما يخبئه الغيب ، بعد أن غيبوا فى التراب رجلا كان البرّ بهم، والعطفَ عليهم ، وإنكار الذات فى سبيلهم، وكان إلى ذلك موفقًا كل التوفيق فى ولاية أمرهم وسياسة دولتهم . أما أبو قحافة فحزن لأن أعزّ أجواء نفسه عليه ذهب، فانهدّ ركنه وتداعت حياته .

موقف عمر من نوح آل أبي بكر عليه

وفدَح الخطب أمَّ المؤمنين عائشة ، فأقامت النوح على أبيها وشاركتها أخته أمّ فروة وزوجتاه أسماء بنت عميس وحبيبة ابنة خارجة ومن اجتمع إليهن من نساء المدينة . فلما بلغ عمر ما يصنعن جاء إلى بيت عائشة ونهاهن عن النواح فلم ينتهين . فقال لهشام بن الوليد : ادخُلْ عليهن فأخْرِج إليّ أم فروة ابنة أبي قحافة أخت أبي بكر . وسمعت عائشة قول عمر فقالت لهشام : إني أحرّج عليك بيتي . قال عمر : ادْخُلْ فقد أذنت لك . ودخل هشام فأخرج أمّ فروة إلى عمر ، فعلاها بالدِّرة فضربها ضربات وهو يقول : تُرِدن أن يعذَّب أبو بكر ببكائكن ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » . وتفرق النوائح حين رأين ما أصاب أمّ فروة ، ولم تستطع عائشة أن تحول بين عمر وما أراد .

ولعل عمر قد أزعجه هذا النوح لشدة جزعه على أبي بكر . فليس أوجع لنفوسنا من نوح النسوة على ميت نحبه ويحز الألم في قلوبنا لفراقه . وحقّ لعمر ولكل مسلم أن يشتد يومئذ جزعه . بل إننا اليوم لنشاركهم في حزنهم وفيما كان من مخاوفهم ، مع علمنا بما أفاء الله على المسلمين في عهد عمر من نصر ، وما أراد من فضله أن يتوج به سياسة أبي بكر من نجاح وفوز . فلم يمر الإسلام منذ هاجر النبي إلى المدينة بمثل ما مرّ به في عهد الصدّيق من محنة ، ولم تسمُ نفوس المسلمين فوق البأساء والضراء وحين البأس سموها بفضل إيمانه وعزمه . لقد امتحن الله المؤمنين في خلافته فأحسنوا البلاء ، واجتاز الدين الناشيء بفضل إيمان الخليفة وعزمه مناطق الأعراف ، صُلْباً قويَّ الحياة، كفيلا بأن يظل العالم بلواء التقدم والحرية ، وأن يرفعه إلى حضارة سامية هي وحدها الجديرة بالإنسانية . وقد كانت روح أبي بكر من مصادر هذه القوة . أفكان الإسلام لا يزال في حاجة إلى فيضها ؟ أم أنه قد تخطى خلال هاتين السنتين وثلاثة الأشهر مناطق الخطر ، فآن له أن يمتد في طمأنينة وأمن ، وأن يمد إلى الإنسانية المضطربة يوم ذاك يد النجدة ليُقرَّ بينها الإخاء والسلام ! ! .

أثر أبو بكر في حياة الإسلام

لعلنا لا ندري ماذا كان يحدُث لو لم يستخلف أبو بكر عمر ، ولو لم يخرج على ما أخذ به نفسه، ولم يصنع ما لم يصنعه رسول الله . فقد كان هذا

العمل الأخير فى حياة الصديق حلقة قوية فى السلسلة التى رفعت الإسلام مكاناً عليا ، والتى أراد الله أن يتم بها كلمته وينصر دينه . ترُى لو أن أبا بكر اختار عثمان أفكان الإسلام ينتشر ما انتشر فى عهد عمر ، ثم يزداد فى عهد خليفته انتشاره ؟! أم أن اختيار عمر كان توفيقاً من الله للصدّيق فكان الفاروق بطل الموقف ورجل الساعة ؟! .

رحم الله أبا بكر

لا غناء اليوم فى أن نعرض لهذا الأمر بحكم. لكن الذى لا مرية فيه أن أبا بكر وعمر كانا يتفقان فى جوهر النفس على تباين مظاهرهما لينا وشدة . صَفَّى الإيمان بالله نفسيهما فتنزّهتا وطهُرتا وسمَتا فوق خبائث الدنيا وتجردتا لله ، فكانتا العدل والرحمة والإيثار والحرص على أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله . بذلك كان استخلاف عمر عملا صالحاً أراد الله به أن يُعِزّ دينه ، وأن يُقر به فى الأرض كلمة الحق ، وأن يعلى به منار البرّ والتقوى .

رحم الله أبا بكر ورضى عنه وألحقه بالصالحين ! .

خاتمة

التنقل المحتوم للحضارة

ذكرت فى تقديم هذا الكتاب أن عهد أبى بكر له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام ، وأنه ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ، بل الإعجاب والإجلال . ولعل القارىء الذى بلغ من تلاوة الكتاب هذه الخاتمة ، ووقف على ما تمَّ خلال هذا العهد القصير من جليل الأعمال ، يرى رأيى فيما ذكرت ، ويقف لذلك معى مليًّا يستخلص من هذا العهد عبرته البالغة ، ليرى كيف تنتقل حضارة الأمم من حال إلى حال بتفاعل عناصر الاجتماع خلال الأجيال والعصور ، فإذا جاء الأجل الذى خطه القدر فى لوحه لم يكن من هذا الانتقال بدٌّ ، ولم تستطع قوة فى العالم أن تقف فى سبيله أو تحول دونه .

مكانة فارس والروم من عالم يومئذ

إمبراطوريتان عظيمتان تمثل إحداهما حضارة الغرب ومقوماتها من عقائد ونُظم ومن فن وعلم وتفكير ، وتمثِّل الأخرى حضارة الشرق ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير . يمثل الروم حضارة اللاتين واليونان والفينيقيين والفراعنة . وتمثل فارس حضارة إيران والهند ومذاهب الشرق الأقصى مجتمعة . تمتد الأولى من أواسط أوربا بل من غربها الأقصى إلى شرق بحر الروم ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وتمتد الأخرى من أواسط آسيا بل من شرقها الأقصى إلى حوض دجلة والفرات ، ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وهذه البادية التى تلتقى عندها الحضارتان تمتدٌّ بينهما جدباء جرداء إلا من قبائل نزحت من شبه جزيرة العرب ، تنتقل فى أرجائها ثم تأوى إلى الروم أو إلى الفرس حينًا يطيب لها العيش ، كما كانت تنتقل فى أرجاء شبه الجزيرة ثم تأوى حينًا يطيب لها المرعى . والإمبراطوريتان تقتتلان فتبهران الأنظار بقوتهما وعظمتهما ، لا يسكّن تعاقب القرون من حدتهما ، ولا تجدان فى غير الحروب وسيلة لإرواء ظمئهما إلى المجد ، واستكمال حظهما من الترف والنعيم .

أفأعوزت إحداهما أسباب العيش فكان ذلك سبب ما اتصل بينهما من

حروب أفنت كلتيهما فيها على القرون ما لا يحصى من مهج ، وبيعت فيها الأرواح بيع السماح ؟ كلا ! بل كانت الإمبراطوريتان مترعتين بخيرات البلاد التى تحكمانها . كانت الروم تنعم بما تغل مصر وسائر ممتلكات قيصر من زراعة وما تنتج من صناعة ، وبما كان لمصر وسائر بلاد الإمبراطورية من تراث ضخم فى العلم والأدب والفن . وكانت فارس تنعم بخيرات البلاد الخاضعة لسلطان كسرى ، والتى كانت تمدها بكل ثمراتها . لكن كل واحدة من الدولتين كانت تزعم لنفسها حقاً فى المتاع من نعم الحياة بما لا ينعم به غيرها ، ولا ترى لذلك بأساً بأن تغصب غيرها ما فى يده من أسباب هذا المتاع . أليست لها القوة وفى متناولها أسباب البطش ؟ ! وحق القوة بعض ما آمنت وتؤمن به الإنسانية أمماً وأفراداً . ألا يرى أحدنا مواد الترف حاجات ماسة لا غنى له عنها ، ثم لا يغير من رأيه هذا ألا يجد جاره الكفاف لنفسه ولذويه ! . والقوانين تُشرَّع دفاعاً عن حق القوة . ذلك بأن القوة هى قوام القانون تنفذه وتلزم الناس احترامه . فباسم القانون ينال القوى ما يراه حاجة ماسة لحياته . وباسم القانون وباسم الحضارة تثير الدول الحروب لتبلغ من أسباب الترف ما يكفل المستوى الذى تراه لائقاً لمكانتها بين سائر الأمم .

الحرب وحق القوة

لهذا ظلت الإمبراطوريتان تقتتلان سبعة قرون متوالية ، فتبهران العالم بقوة بأسهما وسمو حضارتهما . يحالف النصر إحداهما ، ويحالف الثانية تارة أخرى ، فلا تنهنه الهزيمة من هيبة أيهما ؛ لأن الأمم الصغيرة من حولهما كانت ترى دورة الدوائر بينهما ، وترى مغلوب اليوم منهما غالباً غداً ، فتحسب أن القدر فرضهما على الوجود فرضاً ، وأنهما من القوى الثابتة فى دورة الكون كالشمس والقمر والكواكب سواء .

نهوض الأمة العربية وتغلبها على فارس والروم

وبينما لا تعرف الأمم إلا اسميهما ، ولا تتحدث إلا بفعالهما ، إذا أمة تنهض من حيث لم يكن أحد يتوقع أن تنهض . وأنَّى لشبه جزيرة العرب ببواديها الماحلة وصحاريها الجرداء أن تبعث أمة أو تنشىء دولة ! وأنَّى لقبائل هذه البادية ، وكل ما تعتمد عليه فى حياتها الغزو والسلب ، أن تفكر فى حضارة بله أن تقيمها ! ! لقد كان كسرى فارس يسميهم رُعاة الإبل والغنم ، وكان قيصر

الروم يصفهم بالحفاة العُراة الجياع . أفمن هؤلاء الرعاة الحفاة تنهض أمة يعبأ بها الروم أو يهتم لها الفرس ! .

مع ذلك نهضت هذه الأمة ، فواجهت الأسدين فارس والروم ، وحاربتهما وتغلبت عليهما . وقد رأيت من خلال هذا الكتاب أن العرب لم يتغلبوا على الأسدين بتفوق فى العُدة أو فى العدد ، وإنما تغلبوا بالعقيدة الثابتة والإيمان الذى لا يتزعزع . وبهذا الغلب نشأت الإمبراطورية الإسلامية التى حملت عبء الحضارة فى العالم عشرة قرون تباعًا ، والتى نشرت الإسلام فى أنحاء الإمبراطوريتين وفيما وراءهما : فى الهند والصين والتركستان وغيرها من ممالك آسيا ، وفى مصر وما وراءها إلى المحيط الأطلنطى من بلاد إفريقية ، وفى عاصمة قسطنطين وفى روسيا وأسبانيا وغيرها من أمم أوربا .

كيف حدثت هذه المعجزة

كيف حدثت هذه المعجزة ؟ ! كيف تغلب العرب مع قلة عددهم ، وضعف حضارتهم ، وتأخر علومهم وفنونهم ، على الفرس وعلى الروم ولهم من العدد ومن الحضارة ومن العلوم والفنون ما لا يزال التاريخ يحدّث عنه فى إكبار أى إكبار ؟ ! أهى المصادفة التى لا تفسير لها من سنن الكون ؟ ! كلا ! فلو أن ما حدث فى عهد أبى بكر أثمرته المصادفة لما كتب له أن يبقى وأن يتصل على الزمان ، ولوقف الفرس والروم فى وجه العرب فردوهم على أعقابهم . لكن ما حدث فى عهد عمر وعثمان من توغل العرب فى أراضى الإمبراطوريتين العظيمتين والقضاء عليهما ، لا يدع مجالا للريب فى أن ما حدث كان حتمًا قضت به سنن الكون ، ولذلك اطرد فكانت الحضارة الإسلامية ثمرته . وما كانت المصادفة لتتمخّض عن مثل هذه الحضارة التى ازدهرت فى ظل لوائها كل مقومات الحضارة ، فقد اجتمع للحضارة الإسلامية من العلم والأدب والفن وسائر ألوان الثقافة ما حل فى العالم محل الثقافة اليونانية بعلمها وأدبها وفنها وتفكيرها ، وذلك بعد أن كانت اليونان وارثة مصر وأشور والحضارة الإنسانية الأولى جميعًا . لا مفرّ إذن من أن نتلمس لهذه الظاهرة الكونية العظيمة تفسيراً من سنن الكون يكشف لنا عن السر فى قيام هذه الحضارة ، وامتداد سلطانها فى العالم ، واستمرارها فيه دهراً طويلا .

ومن سنن الكون أن الأمم والحضارات يصيبها الهَرَمُ على نحو ما يصيب الأفراد . فإذا هَرِمت وشاخت دب الفساد إلى كيانها ، فأدى إلى انحلالها ، وإلى قيام أمة شابة وحضارة شابة مقامها .

عوامل الفساد في حياة فارس

أشرت غير مرة فى غضون هذا الكتاب إلى عوامل الفساد والاضطراب التى كانت تظهر الحين بعد الحين فى فارس وفى الروم . وقد استفحلت هذه العوامل فى القرن السادس المسيحى واشتد خطرها ، فكان من أثرها فى فارس أن اضطرب بلاطها ، وانتشرت الدسائس فى جوها ، وتنازع الطامعون فى عرشها ، واتخذ بعضهم الغدر سلاحه لتولى أمورها . بذلك فسد الرأس ، فامتد الفساد منه إلى ما دونه ، فكثرت مذاهبها وأحزابها ، وتبلبلت عقائد الناس فيها ، فانكمشوا يتوفرون على رزقهم يكثّرونه ، ويلتمسون النبل والجاه عن طريقه . هذا إلى أن الطوائف فى فارس كانت كثيرة العدد كثيرة المطامع ؛ تريد الحكم تستذل به رقاب السواد ، وتبلغ باستغلاله كل ما تصبو إليه من أسباب النّعمة والمتاع . لذلك انحلت العصبية القومية فى الفرس ، وانهارت القوة المعنوية فى نفوسهم ، وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو مُتع الحياة ولينها . طبيعيٌّ وذلك شأنها أن يتداعى ركنها ، وأن تضعف مقاومتها ، وبخاصة إذا واجهتها قوة تسمو على الحياة وتتخذ المثل الأعلى شعارها .

وفى حياة الروم

ولم يكن أثر هذه العوامل فى الإمبراطورية الرومية دونه فى فارس . فقد نجمت الثورات فيها لأسباب تتصل بالنزاع بين الفرق المسيحية حينًا ، وبالنزاع على العرش حينًا آخر ، فكان ذلك سبب تدهورها وانحلالها . ومع أن جُسْتِنيان استطاع أن يردّ إليها أعظم الاعتبار فى نظر العالم يومئذ ، بجلال حكمته ونزاهة عدله وقوة بأسه ، فقد كانت عوامل الانحلال أعمق أثراً من أن يتلافاها خلفاؤه ولم يكونوا فى مثل حكمته وبأسه . فلما كان أول القرن السابع المسيحى تولى فوكاس عرش الإمبراطورية وساسها بيد من حديد . عند ذلك قام هِرقلْ حاكم إفريقية الرومية بالثورة عليه ، ثم انتهى به الأمر إلى الظفر به وقتله واعتلاء العرش مكانه . وكان الفرس قد غلبوا الروم فى نهاية عهد فوكاس وبدء عهد هرقل فلما حانت الفرصة أخذ هرقل بالثأر منهم ، فحاربهم وغلبهم

ووطد بذلك سلطانه فى الإمبراطورية ، حتى لقد خيل إلى الناس جميعاً أن عهد جستنيان عائد لامحالة . ثم إنه حاول أن يزيد سلطانه تثبيتاً بالقضاء على أسباب الضعف الناشئة عن اختلاف الفرق الدينية فى أرجاء ملكه ، وذلك بتوحيد المذهب المسيحى وفرضه على الناس فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وليتم غرضه بطش بخصوم المذهب الرسمى فى مصر وفى غير مصر ؛ فكان ذلك سبباً فى قيام الثورات واندلاع لهيبها ، ثم كان سبباً فى ازدياد الضعف الذى حاول هرقل أن يخلص الإمبراطورية منه[1].

كانت هذه العوامل تنخر فى عظام الإمبراطوريتين العظيمتين وتنحدر بهما سراعاً إلى مهاوى الشيخوخة. فكان من مقتضيات سنن الكون أن تقوم أمة شابة مقامهما ، توجه العالم وتكيف مصايره. والنجاح مكفول لهذه الأمة ما حملت إلى العالم رسالة يشوق الناس سماعها ، ويرون فيها ما ينقذهم من شرور طالما ناءوا بها ورزحوا تحت أعبائها .

ما كان عالم يومئذ يتطلع إليه

لم يكن عالم يومئذ يشقى بأسباب الحياة المادية ؛ فلم يكن همه الأول رفع مستوى العيش . إنما كانت تعوزه الطمأنينة إلى الحياة والمتاع بالحرية فيها . فقد كان الناس لا يتحركون ولا يسكنون أحراراً فى حركتهم وفى سكونهم ، بل كانت العقائد والقوانين السائدة يومئذ تكبلهم بقيود شلت حركتهم وأهدرت حريتهم . لم تقف هذه العقائد والقوانين عند المبادىء العامة التى تكفل للفرد حريته فى ظل النظام ، وتكفل بذلك للجماعة أن تطور إلى ناحية الكمال بجهود أفرادها الأحرار وجماعاتها الطليقة، بل دخلت القيود مع الفرد داره ومخدعه ، وآذته فى يقظته وفى نومه ، فشلت نشاطه وتفكيره ، وجعلت التحايل وسيلته إلى اتقاء الأذى والفرار من البطش ، وإلى اهتبال الرزق من كل طريق ، والتوسل بسعته وبسطته إلى مكان النبل والجاه، نبل البطش وجاه الجبروت . وحيثما قضى على النشاط الحر للعقل الإنسانى ، فذلك النذير بانحلال الأمة وتدهورها ، وبدبيب الشيخوخة إلى كيانها .

فالحرية العقلية هى التى طوعت للإنسان منذ أقدم العصور أن ينظر وأن

---

(١) راجع كتاب فتح العرب لمصر ، الفصل الأول والفصل الثالث عشر .

يلاحظ وأن يعلّم وأن يبتكر . أسلافنا الأولون الذين عاشوا فى الغابات وحاربوا الحيوان ، إنما استطاعوا محاربته يوم هدتهم حرية الغريزة إلى ابتكار الأدوات التى استعملوها فى حروبهم فى العصر الحجرى والعصور التى تلته . فلما أقامت الجماعة الإنسانية الأولى على ضفاف النيل وعرفت الزراعة ، ثم عرفت حياة الاستقرار والحضارة أدركت بفطرتها أن لا مفر لها من نظام يكفل لها الأمن وحرية العمل ، وأن لا مفر لنظامها من قواعد ثابتة يقرها الجميع ويحترمونها. وقد هدتهم فطرة الاجتماع الغريزية فى الإنسان إلى تجسيد هذه القواعد ، وتقديس ما ظنوه آلهتهم التى ترعاها وتحميها . ثم ما لبثت هذه الجماعة الأولى ، حين سما تفكير الموهوبين من أبنائها إلى ما فوق الغريزة الفطرية ، أن قدرت معانى العدل والحرية والكرامة الإنسانية . بذلك استيقظ الضمير ، فتفتحت للإنسان أبواب التفكير ، فاهتدى من سبيلها إلى العلم وإلى الأدب والفن ، كشف له أستارها من اختارتهم الأقدار لمعالجتها ووهبت لهم هبتها . وظل التطور الإنسانى يتقدّم فى هذه الناحية حيناً ويتراجع حيناً آخر فى جزْر ومدّ . وفى كل حين كانت حرية العقل آية تقدم الإنسان ، وجموده آية تراجعه . فإذا تحرر العقل استطاع بقوة تفكيره أن يتحكم ولو بقدر فى قوى الطبيعة . وأن يسخرها لأغراض الإنسان ، وأن يفيد بذلك من هذا التحكم جديداً لرقيه . وإذا جمد العقل وقف تقدم الإنسانية ، فاكتفت بغريزة حفظ النوع تستجن فى كنفها حتى تبتعثها الحرية العقلية إلى التقدم كرة أخرى .

لم يكن بدٌّ ، وقد جمدت الإمبراطوريتان فارس والروم ندب الفساد فى كيانهما ، من أمة جديدة تنهض فتدفع العالم إلى الأمام . ترى فى أيّة أمة تستكنّ هذه القوة الدافعة ، ومتى يتاح لها أن تظهر ؟ ! ذلك أمر كتبه القدر فى لوحه ، أو هو ، على تعبيرنا العامى فى هذا العصر ، أمر ثابت فى دورة الزمان والمكان للجماعة الإنسانية ثبوت كسوف الشمس وخسوف القمر وظهور المذَنَّبات فى دورة الفلك . وقد شاءت الأقدار فألقت على الأمة العربية فى

---

(١) راجع كتاب « فجر الضمير » The Dawn of Concience تأليف برستد وترجمة الأستاذ سليم حسن .

شبه الجزيرة عبء النهوض بالحضارة المتداعية ، وبعث الحياة فى شتَّى نواحيها .

قيام النبى العربى فى شبه الجزيرة

ولهذا اصطفى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأوحى إليه دين الحق يبلغه للناس ويدعو إليه بالحجة والموعظة الحسنة ، عن طريق النظر فى الكون ، نظراً حرًّا من قيود الوثنية والمجوسية ومن الجدلِ العقيم الذى هوت إليه المذاهب المتضاربة فى بلاد الروم . وقد حوربت هذه الدعوة فى منبتها حرباً اتصلت على السنين ، فلم تعرف هوادة ولا صلحًا ، حتى نصر الله دينه وأتم كلمته . وإنما أراد الله لهذه الدعوة أن تنتصر ببساطتها وصفائها وسموها بالكرامة الإنسانية وبالعقل الإنسانى إلى المكان اللائق بهما . وبانتصارها قضى على الوثنية فى شبه الجزيرة كلها قبل أن يختار رسول الله ما عند الله .

لماذا يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق ؟

أما وقد قضت الدعوة إلى التوحيد وإلى مبادىء العدل وسمو الخلق على كل ما يخالفها ، فلم يكن لزعماء الردة فى بلاد العرب أن يحاولوا إعادة الوثنية . وإنما حاول هؤلاء الزعماء استغلال التوحيد والمبادىء المترتبة عليه لينتشر سلطانهم وتعظم فائدتهم فى تجارة الحياة . ولهم من العذر عن ذلك أننا معشر الناس لما نبلغ من سمو الإدراك ما يجعلنا نقيم الحد الفاصل بين الحق لذاته، والمنافع المادية التى نجنيها من استغلال اسمه والتذرع لخداع الناس بسلطانه . والناس يرون الحق فيبهرهم لألاؤه ، ويَعْشَوْن دون استجلائه فى جلال كماله ؛ لأن الضمير الإنسانى لا يزال فى طفولته ، والنفس الإنسانية لا يزال جوهرها العلوى يختلط بجواهر النقص التى تغشِّى عليه وتفسد حكمه .

لذلك يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق . ويحتمل الدعاة الصادقون هذا الأذى راضية نفوسهم ما أدى احتماله إلى ذيوع الحق وانتشار كلمته . وكلما علا صوت الحق اشتد فى حربه من يخشونه على بسطة رزقهم وسلطان بأسهم . ذلك هو النزاع الذى اتصل على الزمان بين المنافع العاجلة والمبادىء الخالدة ، والذى جعل الحرب مسوَّغة للقضاء على الباطل ورد كيده إلى نحره .

طفولة الضمير الإنسانى وآثارها

والضمير الإنسانى لا يزال قريباً من طوره الذى كان عليه فى القرن السادس المسيحى . فهو لم يشب بعد عن الطوق . لذلك لا تفتأ الحرب تشب لأغراض دون ما قامت حروب الردة وحروب الفتح فى العراق والشام لتحقيقه . ترتفع

الصيحة للحرية وللعدل وللإخاء ، فيلبّى الناس بكل سمعهم للمنادى بها ، ويبذلون حياتهم فداء لها ، وتدوّى آلات الدمار لنصرتها. فإذا وضعت الحرب أوزارها ، توقع الناس أن تظلهم المبادىء التى قاتلوا فى سبيلها . لكن ما تحقق من هذه المبادىء لم يزد يوماً على طيف تتبدى وراءه حقيقة نحيفة هى على نحافتها مبهمة غير واضحة المعالم. ومن ثم بقيت الشرور التى شكا الناس منها تثقل حتى اليوم كواهلهم، ولم تفد مبادىء الحرية والعدل والإخاء من تضحيات الإنسانية إلا قليلا . أما الثمرة الكبرى للحروب الطاحنة فقد آل معظمها إلى الذين يؤمنون بحق الجسد فى النعمة والمتاع ، والذين يبتغون الجاه والمال ويكنزون الذهب والفضة ، ولا يرون بأساً فى أن يرووا غُلّتهم للمتاع وظمأهم للمال بما أريق من دماء الإنسانية ، وما بذل من مهج وأرواح فداء للعدل والإخاء والحرية .

وسبب ذلك ما قدمنا من أن الضمير الإنسانى لا يزال أدنى إلى الطفولة . والطفولة كثيرة العثرات. لكن عثرات الطفل لم تصدّه يوماً عن أن يعود فيمشى ليعثر من جديد .

وهذه العثرات هى التى تعلمه كيف يحفظ توازنه حتى تصل به إلى أن يسير مستقيماً سوِىَّ القامة ، يسرع الخُطا إلى فتوة الشباب ثم إلى حكمة الرجولة . ولعل عثرة قاسية تكبُّ الناشىء على وجهه تكون أجدى عليه وأقوى أثراً فى تقويم سيرته . ولقد كانت كبوة فارس والروم من العثرات القاسية التى صادفت الإنسانية ! لذلك كان قيام الإسلام ونهوض الإمبراطورية الإسلامية من أقوى البواعث على تقدم الضمير الإنسانى إلى ناحية نضجه .

استرعى الإسلام سمع الناس ؟

وآية ذلك أن الإسلام إنما استرعى سمع الناس فدانوا به لأنه يصور مثَل الإنسانية الأعلى ، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذُّرا . فهو لا يجعل للناس إلها غير الله ، هم عباده وحده جل شأنه ، لا يملك لهم أحد غيره نفعاً ولا ضراً ، ولا مثوبة ولا عقاباً . وما يصيبهم فى هذه الحياة أو يصيبون فيها يجزيهم الله عنه الجزاء الأوفى . فليعملوا إذن مطمئنين إلى حريتهم ، لا يريدون إلا وجهه . فإذا أصابهم ظالم بمكروه فالويل لظالمهم من ربه . وإذا

رأوا منكراً فليزيلوه ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط .

لماذا اصطفى الله نبيه من شبه الجزيرة ؟

لماذا كتب القدر الحكيم منذ الأزل فى لوحه ، فاصطفى الله نبيه الكريم من شبه جزيرة العرب دون غيرها من أرجاء العالم ؟ ! .

ليس فى مقدورنا ، ولا فى مقدور غيرنا ، أن يقطع برأى حاسم فى الجواب عن هذا السؤال . فنحن جميعاً لم نؤت من العلم إلا قليلا . لكن ذلك لا يمنعنا من تلمّس سنن الكون والاجتهاد لإدراك ما يقع بمشيئة الله فيه . وما يقع فى حياة الإنسانية وجماعاتها يخضع لهذه السنن الثابتة كما يخضع لها سائر ما فى الكون مما برأ الله . فمن الحق علينا أن نحاول تفسير الظاهرات الاجتماعية على ضوء هذه السنن ، وإن كنا لا نطمع اليوم ، وعلمنا الإنسانى كما هو ، فى أن نعرف ما يطويه غيب المستقبل للجماعات الإنسانية على النحو الذى نستطيع أن نعرف به ما سيكون من أمر الأفلاك ودوراتها .

والذى يهدينا إليه الاجتهاد جواباً عن هذا السؤال أن حضارة العالم استقرت فى الأجيال الأولى من حياة الإنسانية ، وإلى القرن السادس المسيحى ، فى مصر وأشور واليونان ورومية ، ثم امتدت منها إلى ما وراءها ؛ وأن العقل الإنسانى بلغ من النضج فى هذه المناطق ما لم يبلغه فى غيرها ، مما يسَّر للضمير الإنسانى أن يستيقظ فيها ويبزغ فجره . ولذلك وجَّهت الإمبراطوريتان فارس والروم مصاير العالم فى ذلك العهد ، ونهضتا بعبء الحضارة فيه . فلما آن لهاتين الإمبراطوريتين أن تهرما كانت شبه جزيرة العرب هى المنْطَقَة المستقلة عنهما ، المتصلة مع ذلك بهما ، المتداخلة فيهما . ومهما يكن من أمر هذا الهَرَم الذى أصابهما ، فالدعوة إلى المثل الأعلى أدنى إلى أن تستجاب فيهما ، وأن تمتد منهما إلى ما وراءهما . هذه كلها أحداث كتبت منذ الأزل فى لوح القدر ، فلا غرو أن يكتب معها منذ الأزل أن يقوم الداعى إلى المثل الأعلى فى أدنى الأرض من الإمبراطوريتين وأكثرها مع ذلك استقلالا عنهما . فالاستقلال هو الكفيل بحرية العقل ، وبأن يستجيب الناس آخر الأمر للدعوة إلى الحق .

وكذلك اصطفى الله للقيام بهذه الدعوة نبيَّه من أهل شبه الجزيرة ، ومن

بلد هو أكثر بلاد شبه الجزيرة استقلالا ، وأوفر هذه البلاد لذلك العهد عزة وكرامة .

ودعا محمد قومه إلى التوحيد وإلى المبادىء التى يتحقق بها مثلُ الإنسانية الأعلى ، ثم بلَّغ دعوته إلى عاهلى الإمبراطوريتين فارس والروم ودعاهما إلى ما جاء به من الحق . وبذلك أقام الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وحذّر الناس حين دعاهم إلى الحق ممن يخادعون الناس باسمه ، ثم ترك من بعده أصحابه الذين عزّروه فى حياته ونصروه ، والذين أدركوا ما جاء به وامتثلوه .

أبو بكر ونضج ضميره

وأنت قد رأيت كيف بلغ أبو بكر من سمو الإدراك لهذه المبادىء ما مكّنه من أن يقيم فى نفسه الحد بين الحق لذاته والمنافع العاجلة التى يسعى إليها من يخادعون الناس باسم الحق ؛ ورأيته كيف أصرّ على أن ينصر الحق لذاته ولو قام لنصرته وحده . وإذا بلغ سمو الإدراك من نَفسٍ هذا المبلغ ، فذلك الدليل على نضج الضمير غاية النضج . ولو أن الإنسانية كلها بلغت يوماً هذا النضج لما شبَّت الحرب بين بنيها ، ولاستجاب الله دعوة الذين يدعونه عند بيته المحرَّم : « ربَّنا أنت السلام ومناك السلام ، أحينا ربنا بالسلام ! » .

لا يزال الأمد بعيداً بيننا وبين اليوم الذى تستجاب فيه هذه الدعوة . فالناس لا يزالون إذا دعوا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى غير ما وجدوا عليه آباءهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأبوا أن يجادلوا بالتى هى أحسن ، وحسبوا أن القوة الغاشمة تخفت صوت الحق . ذلك أن ضميرهم لا يزال فى طفولته . والطفل يحسب أنه كلما ضج وعلا ضجيجه خضع أبواه لرغائبه وأهوائه . فإذا رأى أبويه يهذبانه ولا يزعجهما ضجيجه أذعن وسكن . وذلك ما صنع أبو بكر مع أهل الردَّة حين ضجوا وحاولوا المقاومة . أخذهم بما يجب أن يؤخذوا به ، فقضى على مقاومتهم وعلى ضجيجهم .

وشاءت الأقدار أن تمهّد لانتشار الإسلام فى فارس والروم بانتشار العرب فى بادية الشام ؛ فقد يسَّروا لأهل شبه الجزيرة أن ينفذوا إليهم ، وأن يتخطوهم

لغزو الفرس على شاطىء دجلة والفرات وما وراءهما ، ولغزو الروم فى الشام وفى مصر إلى السودان .

أنت ترى من ذلك كله أن المعجزة التى حدثت فى عهد أبى بكر لم تكن ثمرة المصادفة ، وإنما كانت أمراً محتوماً قضت به سنن الكون التى لا تبديل لها . فلو أن شبه الجزيرة لم تكن تجاور الشام والعراق ، ولو أن اللغة العربية لم تكن لغة القبائل التى استقرت ببادية الشام منذ قرون ، ولو أن الله لم يصطفِ نبيه فى ذلك العهد الذى اشتد فيه ظمأ العالم لسماع كلمة الحق والاهتداء بنوره ، لو أن ذلك كله لم يكن لجرت المقادير بغير ما جرت ، ولكان تاريخ الإنسانية غير ما نعرف اليوم ، ولما حلَّت الحضارة الإسلامية محل حضارة فارس والروم، بل لاتخذت الحضارة أطواراً أخرى غير التى عرفنا من يومئذ إلى عصرنا الحاضر .

إبراز الأقدار ملكات الرجال

وإذ شاءت الأقدار أن تتم على الأرض مثل هذه المعجزة مهَّدت لها بما رأيت ، وهيأت لها أسباب الفوز ، فأبرزت من ملكات الرجال ومواهبهم ما يخطّون به فى صحف الكون مشيئة القدير الحكيم . لقد رأيت ما صنعه أبو بكر وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وأمراء الجند المسلمين ، ورأيت كيف اضطلعوا لذلك العهد بأعباء ما كانوا ليضطلعوا بمثلها لولا أن أراد ربك لهذه المعجزة أن تتم وفاقاً لسنَّته . فلولا هذه المشيئة لظل أبو بكر تاجراً ينمو ربحه ويكثُر ماله ، ثم تنطوى صفحته ولم تزد مكانته فى قومه على زعامة قبيلة تيم بن مرَّة ، وعلى احتمال الديات والمغارم . ولولا هذه المشيئة لظل خالد بن الوليد فارس بنى مخزوم وفارس قريش ، ولما سما اسمه فاقترن على التاريخ بأسماء الإسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، وجنكيزخان، ونابليون، ولولاها لما أصبح اسم الفاروق عمر بن الخطاب علماً للعدل والرحمة والبأس مجتمعة . فإذا نحن أرخنا اليوم لهم وأشدنا بفعالهم ، وقرنّا سمو الدعوة للحق إلى اسم القائد العبقرى وجعلنا منهما وحدة على الزمان ، لم نَعْدُ بذلك أن نرسم صورة من مشيئة القدر والعوامل التى تهيأت لتنفيذها ، والتى أدّت إلى انتقال الحضارة هذا الانتقال الذى مهد لعهد جديد فى حياة العالم .

الإسلام يدعو المثل الأعلى والسلام

أما وقد ذكرت القائد العبقرى خالد بن الوليد، فلأقف الآن وقفة قصيرة أتناول مسألة تناولتها فى « حياة محمد» . لكنى أتناولها هنا من غير الناحية التى تناولتها هناك . لقد طالما تحدَّث من شاء عن انتشار الإسلام بالسيف . وقد بيَّنت فى « حياة محمد » أن القرآن ينكر حرب الاعتداء فى مواضع كثيرة منه . يقول تعالى: «وقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِين يُقَاتِلُونَكُمْ ولَا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين » . ويقول : «فَمن اعْتَدَى علَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى علَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مع الْمُتَّقِين » .

وهو يدعو إلى الصلح والصفح والتسامح دعوته لحرية الرأى ولدفاع المؤمن عن عقيدته إن حاول غيره أن يفتنه عنها .

فكيف دفع أبو بكر المسلمين للحرب

هذه مبادىء ثابتة فى الإسلام يصور بها المثل الأعلى ويدعو الناس إليه . فما بال أبى بكر دفع المسلمين لحرب الردَّة ولفتح العراق والشام ؟ وما بال أمراء المؤمنين بعده نهجوا فى هذا الأمر نهجه وساروا فيه سيرته ؟ لقد كان الصدّيق أكثر المسلمين اتصالا بالنبىّ وامتثالا لما أمر الله به ونهى عنه. أفلا ينهض ذلك دليلا على أن الإسلام ، وإن أقر مبادىء الرحمة والتسامح والصفح، لم ينكر على الدعاة إليه أن ينشروه ببطش القوة ! ولذلك غزوا البلاد وحكموها ودعوا أهلها إلى دينهم .

الصديق ينفذ ما جاء فى كتاب الله

لا شك أن الصدّيق قد نفَّذ فى حروب الردَّة ما جاء فى كتاب الله من قوله تعالى فى سورة براءة : «فإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّين وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ .وإنْ نَكَثُوا أَيْمانهُمْ مِنْ بعْدِ عهْدِهِمْ وطَعنُوا فِى دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْر إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ لَعلَّهُمْ ينْتَهُونَ » . وهو لم يعدُ ما أمر الله به حين وافق على غزو العراق وغزو الشام . وليس معنى ذلك أن هذا الغزو هو المثل الأعلى الذى دعا الإسلام إليه وجعل السلام غايته ، وإنما معناه أن ما حدث منه هو بعض إملاء الغرائز الإنسانية فى ذلك الطور من طفولة الضمير الإنسانى ، كما أنه بعض إملاء هذه الغرائز فى عصرنا الحاضر حيث الضمير الإنسانى لا يزال يتدرَّج إلى الصِّبا ، فله من الصبا طيشه ونزواته .

وإملاء الغرائز كثيراً ما أدى إلى عثرات كعثرات الطفل فى سيره ، ترهقه وتؤله ، ثم تنتهى به ليسير مستقيماً سوىّ القامة يسرع الخُطا إلى فتوة الشباب وحكمة الرجولة .

الإسلام يقدر الواقع من غرائز الإنسانية

والإسلام لم يغفل ، حين صور المثل الأعلى للإنسانية ، أن بلوغ الغاية من هذا المثل إنما يكون حين يبلغ الضمير الإنسانى نُضْجه . وذلك لا يتم إلا أن تتعاقب عشرات الأجيال ومئاتها حثيثة السعى إليه كيما تدركه. لذلك قدر الإسلام الواقع من أمر الإنسانية وما تمليه عليها غرائزها، ورسم السبيل التى تسلكها لتقترب رويداً رويداً من غايتها. وكما أنك إذ تُربى ولدك ليبلغ ما تريده له من كمال الجسم والعقل لا تَحْمِله على أن يسير سيرة الرجال ، بل تُرضى أهواء طفولته وصباه حيناً وتكبح هذه الأهواء حيناً آخر ، وكما أنك تصادف أثناء ذلك من صلابة الطفولة والصبا ما قد يقف تقدم ولدك تارة ، وتصادف من مرونته وذكائه ما يسرع بتقدمه تارة أخرى ؛ فإذا رأيته صُلباً لم تكسره ، بل لنت له لتلين صلابته ، وإذا رأيته متقدماً أغريته ليتابع تقدمه ويزداد إسراعه فيه ، وربما دعاه هذا الإسراع إلى وقفات تجنى عليه وتؤذيه ؛ كذلك رأى الإسلام أن يساير الضمير الإنسانى فى تدرجه من الطفولة إلى الصبا ، وجعل تهذيب هذا الضمير غايته الأولى، كما جعلت أنت تهذيب طفلك غايتك الأولى . وهو لذلك يساير الغرائز ليُقوّمها. يلين لها حيناً ويقسو بها حيناً ، جاعلا همه دائماً أن يتجه بها إلى الناحية التى تدنيها من الغاية التى أرادها ، والمثل الأعلى الذى صوره لها .

الضمير الإنسانى وتقدمه إلى النضج

والضمير الإنسانى يجمد أحياناً حتى تخاله ارتد عن تقدمه ، ويسرع السير أحياناً أخرى إسراعاً يخشى معه العِثار. وسيره قد يقف وقد يتغير اتجاهه فإذا القوى التى تدفعه إلى التقدم تضطرب بين أرجاء العالم المختلفة. وذلك ما حدث حين جمدت الأمم الإسلامية وجمدت المبادىء التى دعا الإسلام إليها ، لكن الجمود والوقفة ليسا فى طبيعة الحياة ، لذلك يخفيان دائماً عوامل اندفاع تستكن دونهما ، ثم لا تلبث أن تظهر فإذا الإنسانية تستأنف تقدمها .

وهذا التقدم هو الذى يجعلنا نؤمن بأن الضمير الإنسانى لا بدّ له يوماً من أن يبلغ الغاية من النضج . وإن اقتضى ذلك أن تتعاقب عليه مئات الأجيال . فإذا بلغ هذه الغاية بلغ المثل الأعلى كما صوّره الإسلام . عند ذلك يُظِل الأرضَ سلامُ الله ، ويستجيب الله دعاء من يدعونه عند بيته المحرَّم : « ربَّنا منك السلام وإليك السلام ، أحْيِنا ربَّنا بالسلام » .

يجب أن يسمع الناس جميعاً دعوة الحق فى مختلف أرجاء الأرض خلال تعاقب الأجيال ليتقدَّم الضمير الإنسانى رويداً رويداً إلى النضج . ولن يبلغ النضج مداه حتى يعم الإنسانية كلها . فأما إن نضج الضمير فى ناحية من العالم ثم ظلت غرائز الطفولة ونزوات الصبا تحركه فى سائر الأرجاء ، فسيبقى لسلطان هذه الغرائز والنزوات من الحكم ما يديم النزاع ويديم الحرب ، وما يقتضى قوّاداً عباقرة من أمثال خالد بن الوليد أن يكونوا الأداة لتهذيب الشذوذ فى كل ناحية لم ينضج فيها الضمير ؛ شأنهم فى ذلك المربى إذ يهذّب شذوذ تلاميذه .

أثر الإسلام فى تقدم الضمير الإنسانى

وإنا لنسجل فى كثير من الغبطة والرضا خطوات تقدمها ضمير الإنسانية من الطفولة إلى الصبا ، لا يصدّنا عن ذلك ضيق هذه الخطوات واضطرابها . ولقد كان للإسلام فى هذا التقدم أعظم الأثر . وسيكون له مثل هذا الأثر من بعد حتى تتم كلمة ربك ويؤمن الناس بالمثل الأعلى فى مشارق الأرض ومغاربها .

ويسرنى وأنا بصدد هذا التسجيل أن أثبت هنا كلمة للكاتب الإنجليزى الكبير برنارد شو تؤيد رأيى . قال :

« لقد كان دين محمد موضع تقديرى السامى دائماً لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ؛ لأنه ، على ما يلوح لى ، هو الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس .

« لا مرية فى أن العالم يعلّق على نبوءات كبار الرجال قيمة كبيرة . وقد

تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .

« لقد عمد رجال الإكليروس فى العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام فى أحلك الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدُّونه خصماً للمسيح . أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية . وأعتقد أن رجلا مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث ، نجح فى حل مشكلاته ، وأحل فى العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما ! .

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا فى القرن التاسع عشر ما لدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء كارليل ، وجوته ، وجيبون . بذلك حدث تحول صالح فى موقف أوربا من الإسلام . وقد تقدمت أوربا تقدماً كبيراً فى هذا القرن المتم للعشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب فى القرن التالى أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها .

« وقد دان كثيرون من قومى ومن أهل أوربا بدين محمد فى الوقت الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ »[1] .

زعماء العالم الحديث يرددون مثل الإسلام الأعلى

هذه الكلمات التى نقلت إلى العربية من عشر سنوات خلت تؤيد ما قدمت . وها نحن أولاء نسمع اليوم من زعماء العالم عبارات تردد مَثَل الإسلام الأعلى وتدعو إليه وتستهين بالحرب فى سبيله . ولا تزال الإنسانية تضطرب فى هذه السبيل خلال طوفان جارف من الآلام والتضحيات والدموع . وهى تبذل اليوم منها أضعاف ما بذلت مجتمعاً على القرون التى خلت . أفقدِّر لها أن تبلغ ما طالما أمَّلتْ بلوغه ، وأن تعيش فى ظلال الحرية والمحبة والسلام ؟ أفيكون النظام الجديد الذى يتحدث زعماء العالم اليوم عنه محققاً حرية الشعوب ، كما حققت الثورات فيما مضى حرية الأفراد ؟ وهل يؤدى ذلك إلى أن يتحرر الجميع صدقاً من قيود الخوف والفاقة ، وأن يتعاونوا تعاوناً خالصاً لوجه الله

---

(١) كلمات برنارد شو مأخوذة من مجلة نور الإسلام عدد ٤٠ صفحة ٥٧٢٠ سنة ١٣٥٢ هـ

يسعد به الناس فى مختلف أرجاء العالم ؟ هذا أمل عذب ما أحبه إلى كل نفس ، وأقربه من كل قلب ؟ وما أشد الناس حرصاً على أن يتم فتتم به على الأرض كلمة الحق والسلام ! .

وتحقيق هذا الأمل رهن بأن يبلغ الضمير الإنسانى نضجه . ترى هل كتب القدر الرحيم فى لوحه أن تتمخض الآلام والضحايا التى احتملها العالم فى هذا القرن المتم للعشرين عن هذا النضج ؟ ! لا ريب عندى فى أن الإنسانية ستخطو فى هذه السبيل خطوة إن لم نستطع اليوم أن نقدر مداها فمن حقنا على كل حال أن نغتبط بها ، وأن نرجو بعدها خطوات أفسح منها . فالعالم اليوم تتقارب أجزاؤه ، وتتزايد وسائل الاتصال بين أبنائه . كانت الصحافة تعدّ فى القرن الماضى أعظم قوة لتيسير التفاهم بين الناس ، ثم كانت صحافة أمريكا لا تصل إلى هذا الشرق العربى قبل أسابيع من ظهورها . أما ما يجرى اليوم فى العالم فيتلقاه الناس فى مختلف أرجائه بسرعة البرق على موج الأثير عن طريق الإذاعة . وهذه الإذاعة المشغولة اليوم بأنباء الحرب وأهوالها ودعاياتها ستشغل غداً بالدعوة إلى السلم وإلى السمو الإنسانى وتصور الوسيلة التى تهيئ أسبابهما . وقد تهذّب هذه الدعوة الضمير وتقرّبه من النضج ، وتجعله الحكم العدل المنزه عن الهوى ، والذى يستطيع لذلك أن يجنُب الإنسانية الحرب ، فيجنبها الضحايا والآلام والدماء والدموع .

متى يبزغ فجر هذا اليوم ومتى تشرق شمسه ؟ إنا نراه بعيداً ، ويراه الله قريباً . فيومٌ عند ربك كألف سنة مما تعدون . وذلك اليوم الذى تشرق فيه الشمس على الإنسانية وقد نضج ضميرها ، هو اليوم الذى تبلغ فيه الكمال ، ويصبح فيه المثل الأعلى حقيقة واقعة . ويومئذ يصفو جوهر النفس من كل ما يخالطه من شوائب النقص ، فتسمو على إملاء الغرائز الدنيا ، وتمتثل مبادىء العدل والرحمة والبر والتقوى فى نقائها وطهرها ، ثم تصبح سر حياتها ، فإذا مرّ بها طيف يخالفها لفظته وعدته دخيلا عليها وعرضاً يؤذيها ويتلفها . عند ذلك يكمل إيمان الناس جميعاً ، فيحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، وينظر كل منهم نظرة الإشفاق والتألم لكل من تبدو فى نياته أو أعماله شائبة من

أثرة أو نزوة من هوى ، ويرون واجباً عليهم أن يلتمسوا له الطب وأن يسعفوه بالدواء ؛ فإن برىء فذاك ، وإلا عزلوه عنهم اتقاء عدواه ، ورجاء أن يسمع أثناء العزلة صوت الحكمة. فإذا سَمِعه برِئ وعاد إلى الناس وقد صار مثلهم ، وأصبح ضميره قاضيَه الذى يحاسبه وينصف منه من ترد بخاطره خصومتهم ، وأصبحت نفسه التى برأت فلم تعد أمّارة بالسوء هى التى تجعل الناس جميعاً أحب إليه من نفسه ، وآثر عنده منها .

ويومئذ يصبح ضمير الإنسانية ميزان العدل بالقسطاس المستقيم ، فلا تكون أمة خيراً من أمة ، ولا جنس خيراً من جنس ، ولا لون خيراً من لون ، بل تكون الأمم كالأفراد أخوة يربط بينها العدل والرحمة ويدعوانها للتعاون على البر والتقوى ، ويجعلان الأمم الصغيرة آثر عند الأمم الكبيرة من نفسها ، والأمم الضعيفة والأمم القوية سواء فى السعى إلى الخير ابتغاء وجه الله وحده .

حكم أبنائنا علينا وعلى عهد أبى بكر

ويومئذ ينظر أبناؤنا مطمئنين من عالمهم السعيد إلى عالمنا الذى انطوى فى صحف الماضى وطوانا معه . أتراهم يتحدثون بينهم مشفقين مما احتمل هؤلاء الآباء بحكم غرائزهم وشهواتهم، باسمين سخراً من هذه الشهوات والغرائز ، ومن إذعان الناس لها وإسلامهم لحكمها ؟ ! أم تراهم ينصفوننا ، والضمير الناضج منصف بطبعه ، فيقدّرون أن غرائزنا وشهواتنا وآلامنا وضحايانا هى التى أدت بهم إلى ما ينعمون به من سلام وسعادة ؟ ! ما نراهم إلا منصفين : وما نراهم ، إذا قرّ نظرهم خلال هذا الماضى عند عهد أبى بكر ورأوا ما تم فى خلافته القصيرة الأمد من جلائل الأعمال ألا يقولون : رحم الله الصدّيق صفىّ النبى وخليله ! لقد كان ضعيفاً فى بدنه ، قوياً فى إيمانه. وقد دفع العالم بقوة هذا الإيمان دفعة نشرت فيه لواء الحق وأقرّت كلمته . والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أكُلَها كل حين بإذن ربها . والذين جاهدوا مؤمنين لإقرار كلمة الحق لهم عند ربهم جزاء الصدّيقين ، وحسُن أولئك رفيقاً .

ستكون هذه كلمتهم . فهى كلمة التاريخ المنصف . ونحن نقولها اليوم وسيقولها مَنْ بَعْدنا أبد الدهر . ومن أحسنُ قولا ممن جعل الحق حجته ، والإنصاف غايته !

تقدير وشكر

الآن وقد أراد الله للطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تتم ، فمن الحق على أن أقدر معاونة الذين عاونونى أثناء كتابته ، وأثناء طبعه ، وأن أشكر لهم هذه المعاونة أصدق الشكر .

لقد كتبت فصول هذا الكتاب بين شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ وشهر يونيو سنة ١٩٤٠ فى الفترة التى انقضت بين وزارتى المغفور لهما محمد محمود « باشا » ، وحسن صبرى « باشا » . وكنت إذا فرغت من كتابة بعض فصوله دفعتها إلى الأستاذ سيد نوفل فأملاها على لبيب أفندى فكرى إبراهيم فكتبها على الآلة الكاتبة .

ثم إن الأحوال حالت دون مراجعة الكتاب وتهذيبه إلى شهر مارس سنة ١٩٤٢ . فلما تيسر لى من الفراغ ما مكننى من إعادة النظر فيه جعلت أراجع ما كتبت . وفى منتصف يوليو دفعت ما أتممت مراجعته إلى مطبعة مصر وطلبت إليها أن تتخذ من كتابى « حياة محمد » نموذجاً للطبع فى القطع والطريقة ، ونقحت الفصول التى رأيتها فى حاجة إلى التنقيح ، ثم دفعتها من جديد إلى الأستاذ سيد نوفل فأملاها على الآلة الكاتبة .

قد عاونني الأستاذ سيد كذلك فى تصحيح تجارب الطبع وأبدى لى أثناءها كما أبدى لى أثناء إملاء الكتاب ملاحظات ذات قيمة . فله عن ملاحظاته ومعاونته وإخلاصه فيهما أجزل الشكر وأصدقه .

ومنذ بدأت أطبع الكتاب تولى الأستاذ عبد الرحيم محمود من أمره مثل ما تولاه من أمر « حياة محمد » و « فى منزل الوحى » من قبل ، فجعل همه مع دقة التصحيح إلى الدقة اللغوية والتدقيق فى ضبط النصوص والأعلام والألفاظ التى تحتاج إلى الضبط . والأستاذ عبد الرحيم حجة ثقة يعتمد عليه . وقد بذل من الجهد فيما تولاه ما أشكره اليوم له ، كما شكرته من قبل ، مقدراً صدق مودته وإخلاصه لعمله .

وما دمت بصدد التصحيح فلست أنسى جهد الأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا والأستاذ على فوده ، فهو جهد جدير بالثناء .

أما الفهارس فوضعها الأستاذان الشيخ محمد البرهامى منصور والشيخ أحمد عبد العليم البردونى ، فلهما خالص الشكر .

ولست فى حاجة إلى التنويه بعناية مطبعة مصر بدقة الطبع وجماله ، فالكتاب بين يدى القارىء شهيد عليهما . وأحسب القارىء يشاركنى فى شكرها على ما بذلت من عناية دونها كل عناية .

والحمد الأكبر والثناء الأجل لله جل شأنه ، منه الهدى ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله .

محمد حسين هيكل

فهارس الكتاب :

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

فهرس الأمم والقبائل

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

فهرس الأماكن

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الأيام والغزوات والوقائع

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣٧٧٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٨٦ - ٦

١/٧٩/١٨٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

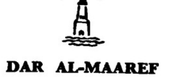
As-sidīq

Abū Bakr

Par

Mohammad Hosyn Hīkal





DAR AL-MAAREF